فوّاز حدّاد

جمهوريّة الظلام

رواية

فريق
متميزون
E-BOOK

رياض الريّس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة: هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات: فريق (متميزون) انضم الى الجروب

انضم الى القناة

جمهورية الظلام

فواز حداد

عن الرواية..

سيشرح لها تلك المعجزة التي لا تنازل عنها، معجزة صنعتها انقلابات تتالت، كلفت مؤامرات واغتيالات وإعدامات وحروبًا وتحالفات ومجازر ومساومات وتضحيات وخيانات وسجونًا لا يخرج منها سوى الأموات أو الذين في النزع الأخير... هكذا وُلد النظام المعجزة. لن يزول، ولن يُضحى به. هذه الحرب لم تكن إلا ليترسخ، الرئيس الخالد أعده كي يستمر إلى الأبد."لكن ماذا عن...؟".

"لن يستمر إلا برحيله".

نحن نبني نظامًا جديدًا في العالم، نقدم مثالًا لا نظير له، ليس جمهوريًّا ولا ملكيًّا، لا رأسماليًّا ولا اشتراكيًّا. إذا كان سيشرّش في كوكبنا فلأنه يرنو إلى عالم نهائي، رؤساء الدول يرغبون في نسج صنو لنظامنا، ويتمنون اعتماد الوراثة حلًا لمهزلة الديمقراطية والانتخابات وتداول السلطة. هذا نزوع دفين لديهم، آن ظهوره، سيسترشدون بنا. نحن التجربة الفريدة للأنظمة التي ستتحكم بالعالم، تواطأوا على أن يدعوا بلدنا في أتون الاختبار، إن نجحنا، سيقتدون بنا. عندما تنفرط الديمقراطية في دولة كبرى، ستتساقط باقي الدول كما أحجار الدومينو.

أمعنتِ النظر إليه، أحسّت بالخوف من عينيه المحدقتين إليها، لم يكن يراها، كان يرى ما يتراءى له، ماذا كان؟ لم تصدق عينيها، على وجهه، تلمحت المرشح لقيادة الحركة التصحيحية، طمأنها:

"النظام باقٍ، النظام أبدي" تمتم مؤكدًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الأول
الفرع ٣٣٣

١. الشفاء من الماضي

كاد أن يقول له: أسلمت نفسك للموت، لا شيء سينقذك. بيد أنه تريث، لن يضغط عليه كثيرًا. أحسّ بالشفقة نحوه. قال له بصوت منخفض: لا تعاند، ساعدني، كي أستطيع مساعدتك. هل كان يسمعه؟ حالة لا يجهلها، صادفته مرارًا، يحتاج تطويعها إلى بعض الوقت، إذا طالت، لا محالة، المسكين سيندم.

بدا المعتقل منهكًا ومذعورًا، ما زال تحت وطأة تعذيب الأيام الماضية، يرفع يده بين آونة وأخرى بحركة لاإرادية ليتقي ضربة على رأسه. لم يتكلم، منذ أصبح بعهدته، أمر بالتوقف عن تعذيبه ليلًا ونهارًا، فقط عندما يطلب منهم، مع أنه لا استثناءات. كان الأنموذج المثالي لمعتقل بات يتمنى الموت. إن لم يمت من تلقائه، فعلى وشك الانهيار.

مروحة السقف تدور وتصدر أزيزًا يتصاعد لاهثًا تارة، ويغيب تارة أخرى، تاركًا صداه ينخر في السكون المتقطع. حرارة الغرفة مرتفعة، في الخارج الطقس متقلب، وفي الداخل رطب وخانق، ما اضطر المحقق إلى تشغيل المروحة. المعتقل متقوقع على الكرسي، لاويًا رأسه، يحدق في الجدار الجانبي، وكأنه يتحاشى صورة الرئيس المعلقة على الحائط.

قبل بضعة أيام، كان استقبال المعتقل في الفرع قاسيًا. لم يكن ما تعرض له أقلّ من غيره. في اليوم الأول من التحقيق، كان الرعب مسيطرًا عليه. لم يجب عن أسئلته، مع أنه حاول، كأنه فقد ذاكرته، حتى أنه لم يستطع تذكر اسمه.

كانوا قد أوسعوه ضربًا في القبو. عند الباب حرن، علا بصوته وأخذ يهددهم متصنعًا الجنون، فدفعوه بغلظة وركلوه بأقدامهم، أدخلوه عنوة ورموه على الأرض. عندما رفع رأسه، كان صدغه متورمًا، ينزّ دمًا من أنفه وأذنه وشفته السفلى، حول عينيه دائرتان زرقاوان، الجروح المتخثرة ما زالت علاماتها القديمة على صدره وساعديه.

نَهَرَ المحقق العناصر وأمرهم بإعانته على الوقوف. بمجرد ما استعاد وعيه، ناوله منديلًا ورقيًّا ليمسح الدم عن أنفه. صبّ له كأسًا من الماء، فتح علبة السجائر، أخذ واحدة منها، وأعطاه واحدة، أشعلها له، وتركه يدخن. سأله، هل يطلب له فنجان قهوة، لاحت ابتسامة شاحبة، سرعان ما اختفت، ولم يردّ.

اعتقد أن تفاهمًا جرى بينهما. استدراجه إلى الكلام لن يأخذ وقتًا طويلًا، فلم يستعجله. تراجع بكرسيّه إلى الخلف، يرتشف قهوته على مهل.

كان كلما دلف معتقل من الباب، تحتقن الغرفة، بينما الاحتقان هنا في رأسه. لا يسأله إلا بعدما تخفّ حدته. في الجلسة السابقة استفسر منه عن أسماء الأشخاص المتورطين معه بتزويد المنظمات الإنسانية بمعلومات عن ناشطي إغاثة اختفوا في ظروف تدلّ على أنهم اعتُقلوا، وضاعت آثارهم بين سجلات الفروع والمعتقلات، لم يجب، وهو لم يصرّ.

اليوم، أعاد السؤال، استفسره عن الجهات الأجنبية التي تعامل معها، ووصفهم بالجواسيس، يسيئون إلى البلد، وادعاءاتهم كاذبة، ولو كانت تقاريرهم صحيحة.

تكلم المعتقل أخيرًا، فتركه يسترسل على غير هدى. بدا مشوشًا يجهد في الإجابة بتلكؤ، يتهته بالكلام، فيخونه التعبير؛ يتصبّب عرقًا وكلمات متعثرة. يضيع صوابه للحظات، ويسبح في نصف غيبوبة.

لم يجهد المحقق ذهنه، لا بد أن يبدو التحقيق حقيقيًا، وإلا لم يستطع مساعدته، قد تنجح معه لعبة الإرهاب النفسي، يساومه على اسمين لا أكثر، ويعده بعدم تسجيل المنظمة الإنسانية على أنها مخابرات دولة معادية، فينقذه من الإعدام، إلى السجن المؤبد. لن يموت خلال أشهر، سيلفظ أنفاسه اختناقًا خلال أسبوع أو أسبوعين في زنزانات تتسع لعشرين شخصًا، يُحشر فيها ما يزيد على سبعين معتقلًا، وقد ينقل إلى سجن صيدنايا يتابع موته هناك. إن لم يقتل في التعذيب الدوري، فسينتظر زمنًا لن يطول، يتمنى خلاله حبل المشنقة.

لن يدعه لهذا المصير، ليس عن رأفة، عادةً لا يرسلون إليه معتقلين خطرين، إذا أراد تفسير ما يسعى إليه، فلا أكثر من واجب أخذه على عاتقه، ودائمًا في انتهاز فرصة تسمح بإيجاد مخرج ينقذ المعتقل، لئلا يُرسل إلى محقق آخر، يتخلص منه بالموت. ليته لا يجعل إنقاذه عسيرًا، وإذا كان المعتقل قد أتاح له التأمل، فلأنه يجايله. كان في يوم ما مثله، لكنه لم يتابع طريقه.

عندما كان طالبًا في كلية الحقوق، شكل له النضال جاذبية ثورية بطولية، فانتسب إلى حزب سرّي يساري، لو لم ينسحب منه بعد عدة اجتماعات، لاحتلّ مكان هذا الشاب الذي تابع ما أوشك هو نفسه أن يسلكه قبل سنوات.

آنئذ، لم ترُقه التضحية من أجل الحرية والعدالة، إذا كان من أجل الشعب، فالشعب اعتاد الاستكانة والتعاسة. كان في مستهل حياته، أعباء العيش تسمح بمعاناة الفقر، فلم يضف إليه الخوف. وإذا كان قد تحمّس للحرية،

فلإدمانه القراءة، وقع تحت تأثير فلاسفة التنوير ومناضلين أمميين، لكنهم لم يواجهوا مثل هذا النظام؛ الكتب غير الواقع.

لم يكن مخطئًا في التخلي عن النضال لم يكن أكثر من كلام، كان لديه يقين بأنه لا مستقبل، إلا على شاكلة أربعين عامًا مضت من عمر النظام، وسيبقى على حاله زمنًا طويلًا. الآن، بعد زمن كان أطول مما قدّر، ما الذي تغير؟ لا شيء سوى تلك المظاهرات، ولو كانت عارمة، والاحتجاجات مع أنها محقة، لم يفضيا إلى شيء، رغم أنها شملت المدن والقرى، أطلق الجنود الرصاص العشوائي على المتظاهرين، ثم تولى أمرهم القناصة، ريثما بدأ القصف بالمدافع والدبابات.

بعدما تخرج من كلية الحقوق، كانت خدمته العسكرية رقيبًا في الفرقة ٢٤، أما وجوده محققًا في الفرع ٣٣٣ فقصة طويلة، تختصر بأنه قدّم خدمة لقائد الفرقة اللواء محسن درواد، كافأه عليها قبل تقاعده بنقله إلى المخابرات ليكمل خدمته العسكرية. كانوا بحاجة إلى خريجين من كلية الحقوق، للاستفادة منهم في كتابة محاضر الاستجواب، لإسباغ صبغة قانونية على شكليات التحقيق، طبعًا من دون استبعاد التعذيب، وإلا فكيف ينتزعون اعترافات من معتقلين كانوا أعند من البغال.

في الفرع، تحت تأثير الوساطة نفسها، لم يستغنوا عنه، تعاقدوا معه بعد تسريحه من الجيش، ولبث في وظيفته. كان أقل المحققين بطشًا، لمجرد تخيله أنه لو لم تسدد الأقدار الرؤوفة خطاه، لكان نزيلًا في هذا الفرع أو غيره، مذنبًا أو مشبوهًا، إن لم يكن مطلوبًا أو مطاردًا، أو قتيلًا. وإذا كان قد قدّم شيئًا إلى هؤلاء الذين يحقق معهم، فمدّ يد العون إليهم خفية، بما قد ينقذهم أو يخفف عنهم العقاب، ولو بنزر يسير، لا يستهان به في هذه الأيام. أحيانًا لا يطمئنون إليه. كان تعاطفه الشخصي معهم سريًّا، في حدوده الدنيا، وعلى حافة الخطر، أقل خطأ، يعرضه للشكوك ويخضعه للتحقيق والإدانة، ولا أقل من تسريحه، ولو كان بريئًا.

ألقى نظرة خاطفة على الشاب. هل يستطيع تحذيره من يباسة رأسه؟ ليس قبل أن يصحو تمامًا، وينتهز الفرصة التي سيقدمها إليه.

أطل أحد العناصر من الباب، ليسأله إن كان يريد شيئًا. لم يكن سؤاله إلا ليعرف إذا كانت هناك ضرورة ليأخذ المعتقل إلى القبو، ويعالجه بتكسير عظامه. هزّ رأسه أن لا، ما يعني أنه كان متعاونًا. لم يعرف العنصر أن المعتقل المهشّم تعاون معه بالكثير من الصمت، وأثار لديه بعض الذكريات.

بعد قليل، تكلم المعتقل دونما تركيز، حلّت عقدة لسانه على نحو أفضل من قبل، وإن كان بلا جدوى. لم يضبط تداعياته، كانت مشتتة وغير واضحة، أقرب

إلى الهذيان، وإن استشفّ شيئًا منها، لا يكفي لتركيب جملة مفيدة.

ربما كان يسأل نفسه عمّا جاء به إلى هنا. كأنه أخطأ طريقه إلى اجتماع لا يضم سوى اثنين. حانت نظرة منه إلى صورة الرئيس، دقق النظر فيها، فاسترد صوابه؛ إنه معتقل في مكان ما، ويتحدث مع عدو.

كان في صحوته متسع، ليمهله دقيقة أو دقيقتين. ليستعيد هدوء عقله. ابتسامة المحقق شجعته؛ لا فائدة من المقاومة. بدا أنه استسلم، وعلى وشك الاعتراف. خشي عليه مما سيبوح به، قد تفلت منه كلمة تزجه بمأزق يصعب تفاديه، خاصة إذا تشبث بما سيقوله.

مثلما توقع، هرف بما سيورطه في ما لا يجب التطرق إليه، ولا سيّما عندما هذر بآراء عن هذا النظام المجرم لا يجوز أن يهمس بها إلا في سريرته. أسكته بإشارة من يده.

«إذا أردت أن يكون التحقيق مجديًا، فزودني بمعلومات لا آراء».

فاسترسل بالكلام من دون محاذير، فأوقفه، قد يعترف بكل ما نسب إليه، ولا يتيح له مساعدته على إيجاد منفذ له. فزجره، سرعان ما كبح المعتقل تداعياته. أدرك أنه لو استمر، فسيوقع برفاقه. بدا مرتبكًا وجزعًا، ليس واثقًا بنفسه، ربما زلّ لسانه، وأفضى بأسمائهم، فزمّ فمه.

اعتراف بلا أسماء لا يفيد. سيفتح له بابًا آخر للنجاة، لكن يجب أن يعرف، الوقت لا يتسع ليكون بطلًا، لم يكن صلبًا، وإن شدّ من عزمه تيقنه أنه ليس أمامه الكثير من حياة شارفت على الانتهاء منذ اعتقل، كان مستعدًا للموت.

بات عليه إعداده للحياة، بما يغريه بالعيش، وإن تولدت لديه رغبة قوية ليسخر من عناده، لكنه امتنع، لن يضغط عليه لئلا ينهار. بدا واعيًا تمامًا، لن ينجح بإقناعه إلا بإنشاء قناة بينهما، يتفقان من خلالها على تمثيلية تحتاج إلى الكثير من الصبر، لئلا يضيع التحقيق سدى.

فالوقت يسرقهما، لن يعير ما قاله اهتمامًا، سينقذه من الموت ومن السجن أيضًا، بشرط الاتفاق على اعتراف لا يضيره، بأن يحفظ ما سيلقنه إياه. وسيطلق سراحه خلال أسبوع، لكن بمقابل.

رفع المعتقل رأسه وحدّق إليه، متوجسًا منه. يتساءل بعينين كامدتين التمع فيهما بريق خامد.

«مقابل أن تصبح رجلنا».

لا بد أنه فهمها كما قصدها، أي أن يصبح عميلًا للفرع.

لم يتبرع له بالعمالة من عندياته، كان العملاء مطلوبين بشدة لاختراق تنسيقيات الشبان قادة الاحتجاجات في أرجاء الجمهورية. ما زال هناك شراذم مبعثرة، والأغلب أفراد قلائل جدًا. وربما لا أحد. حاليًا، يلاحقون جماعات الإغاثة، كانوا يسهمون في صمود المحاصرين في الغوطة، ما يخفف عنهم جشع المهربين والمحتكرين من استنزاف مدخراتهم القليلة. لم يفلح الحصار معهم. كان صمودهم قضية كرامة.

«إذا كنت سأساعدك، فهي منحة مجانية، بمقابل لا فائدة منه».

رغب في طمأنته إلى فحوى عمالته؛ ما سيحدث غالبًا، بعدما يطلق سراحه، أنه لن يزودهم بشيء مهم؛ لن يقبضوا على أحد، التنسيقيات انفرطت، أعضاؤها في السجن أو في القبر، الذين نجوا منهم تمكنوا من مغادرة البلد.

ما يطلبه منه لن يكلفه شيئًا، أوضحه بتلميح جليّ:

«ستصبح عميلًا صوريًا».

توقع أن يثق به ولا يتردد، منحة حقيقية، لم يكن ليظفر بهذه التسهيلات لولاها. إذا اعترض، سيقنعه بأنه هو ذاته مثال صالح يصحّ الوثوق به، لو كان لا يزال في الحزب، وقبض عليه، ثم حُشر في مثل هذا التحقيق، قد يصبح عميلًا، بلا ضمانة في أن تكون عمالته شكلية. هذه هي النهاية؛ السجن أو العمالة.

لم يحوّل المحقق وجهته صوب الماضي إلا ليشفى منه. كان توّاقًا إلى الحصول على إجابات عن أسئلة ناكدته، ولو مرّ عليها الزمن. هل كان على صواب في اختياراته؟ ماذا كانت مأثرة الحرية، أليست حماقة تضارع الانتحار؟ كان في تبعثر الرفاق داخل البلد وخارجها هزيمة لما اختلقوه من ادعاءات انتصار قادم، كان مستحيلًا. لا تغيير، إلا إذا كان من فوق. كانوا ضحايا، مع أنهم لم يعارضوا الدولة ولا القانون، بل نظام المخابرات. وإذا أراد أن يقدم أعطية حقيقية لهذا المسكين المشوَّه الوجه، فلن يفرج عنه إلا بعد أن ينظف له رأسه من كل ما علق به من عدالة وحرية، وتأجيلهما إلى أجل غير مسمى، وإذا كانا قدرًا، فلم يحن أوانهما بعد.

«على أن يحتوي اعترافك على إعلان ندمك».

الاعتراف للفرع، بينما إعلان الندم له شخصيًا، يدحض به نضاله البطولي وبصيرته الخائبة، وتضحيات كاد أن يقدم عليها. صحيح أنه يريد إنقاذه، لكن عمالته هي الثمن، ولو كانت من دون مردود.

«أنا غير نادم، ضميري...».

قالها المعتقل بهدوء وإصرار، ولم يكمل. فاجأه، عقله ارتدّ إليه، المسكين لا يدري أن التحقيقات الأمنية لا تأخذ بالنوازع الخفية، ولو كانت على شاكلة ما يُدعى الضمير الحيّ. لن يعيد إليه حريته سوى الضمير الميت. هل يقول له: اشكر الحظ السعيد الذي رماك بين يديّ؟

لن يلجأ إلى أساليب المحققين الآخرين، تجاربهم مع المعتقلين كانت ناجعة، والضمير الذي استحثوه كان للاعتراف الطوعي بذنوبهم الأيديولوجية، بوعود كانت العفو عن نشاطاتهم التآمرية. الإغراءات لم تساعد، كما لم تفلح التهديدات. ضمائرهم لم تستيقظ إلا بالصدمات الكهربائية.

كان في ترك المعتقل يستمرئ عناده، خلل ليس إلا حماقة؛ إذ متى كان الضمير دافعًا أو عائقًا؟ ليس هناك سوى الخوف. إذا كان يريد الموت، فالضمير سيأخذه إلى القبر. حسمًا للنقاش.

قال له:

«اقبل بما أعرضه عليك، واختم اعترافك بالندم».

«أنت مخطئ». نبس المعتقل بتحدٍّ، لكن بصوت واهن.

لقد أخطأ، لا مساواة بين محقق ومعتقل، غير أن هناك وسيلة تردّ إليه رشده.

قبل أن يفكر بحل آخر، سمعه يقول له بإصرار وصوت مخنوق:

«لا تحاول معي».

وضعه فجأة أمام تمرد غبي، لا يزيد على تخيل جامح؛ التضحية كخاتمة مظفرة للحياة. قد يُقتل هذا المعتقل في حين يجب أن ينجو، لا بد من إنقاذه من ممانعة ضميره، ولو كان بتحطيم إرادته، الوقت لا يسمح بالتمهل مطلقًا، يجب الحصول على اعتراف. ثمة وسيلة عملية، ليس هناك غيرها، لن تقنعه وحده، بل ستقنع المحققين والوشاة في الفرع أيضًا، أنه لم يكفّ عن تعذيبه، حركة لا بد منها تسهم في إطلاق سراحه بعد التحقيق.

أرسله إلى القبو، مع توصية بقلع أظفاره.

٢. المحقق المختص

لم يُكلَف المحقق سامر بالتحقيق مؤخرًا مع مختلف أنواع المعتقلين، إلا بسبب ما طرأ من ازدحام في الفرع. فمنذ نشطت المداهمات بالجملة، والاعتقالات العشوائية، تكدست أعداد كبيرة منهم في الأقبية والمستودعات،

كانت فوق طاقة أي فرع، وكلما لفظت الأجهزة الأمنية عددًا منهم إلى المقابر والمستشفيات والسجون والمحاكم، يرِدُها ما يزيد عليهم.

لم يكن سامر من المحققين البارزين في الفرع، كان شابًّا لم ينضج في دهاليز الأجهزة الأمنية، أو يختط أسلوبًا مثمرًا في التحقيق، يتميز بالقسوة الزائدة. فراودت زملاءَه الشكوك حوله، ربما تعيّن في الفرع ٣٣٣، بالمصادفة أو بالخطأ. إذا لم يكن بالواسطة، أو مكلف بالتجسس عليهم، وليست شهادته الحقوقية إلا غطاءً لتعيينه، وفي أحسن الأحوال، لم يكن في المكان الصحيح، كان دخيلًا عليهم.

هذه الظنون، كانت أمرًا طيبًا، لم تحسم وضعه، فالحسم لم يكن من شأنهم، وإن شكل لديه صعوبة في عقد علاقات زمالة معهم، تتعداها إلى الخارج، لو أنهم عرفوا أنه لا حول له ولا قوة، فسيحيلونه إلى مندس أو إرهابي، أو جاسوس لجهات أجنبية، فماذا لو اكتشفوا تجاوزاته في التحقيق، وتحينه الفرص للقيام بدور إنساني.

لم يكن أهلًا للثقة، فأوكلت إليه قضايا نافلة، لا تقدم ولا تؤخر، فلم يتقدم ولم يتأخر. مع تدفق المعتقلين، اضطروا إلى إشراكه في التحقيق بالقضايا ذات الأهمية، إذ لم تعد هناك قضايا بلا أهمية، مجرد الاشتباه بأحد، حتى من دون دليل، قد يخسر حياته. فأسعف الأبرياء فعلًا، وما كان أكثرهم، وإن لم يستطع إنقاذهم جميعًا، ربما نجح في التخفيف عنهم، ولقد تجرأ قليلًا فقليلًا، وتوخى بمنتهى الحرص تصحيح اعترافات الموقوفين وضبطها، ما يؤدي إلى تبرئتهم، إنْ أنصفهم القاضي.

مع الوقت، أصبح عمليًّا جدًا، ما اضطره أحيانًا إلى استخدام وسائل قاسية، خاصة عندما لا يسمح له الوقت بالتباطؤ، ولا يفيد التساهل، كما فعل مع المعتقل الذي ركب رأسه. لم يدع له خيارًا آخر؛ التحقيق استلزم التوافق على حل، البت فيه لا يحتمل التروي ولا الإمهال.

لم يغادر المعتقل العنيد ذهنه، تصرفه معه لم يكن حكيمًا، لكن هل كان بوسعه الصبر على عناده؟ ثلاثة أيام والتحقيق يراوح بلا جدوى، قد يتعرض للمساءلة. الوقت لا يرحم، إن لم يرضخ للمساومة، فسيفوت الأوان. ليته أطل عليه في زنزانته، قبل انتهاء الدوام، وأوصى به خيرًا بعدما أوصى به شرًا.

في اليوم التالي، لدى وصوله إلى الفرع، طلب المعتقل لاستكمال التحقيق. كان مغمًى عليه، فمنعهم من الإتيان به، سيجرّونه من شعره، عقابًا على غيابه عن الوعي في وقت عليه أن يكون حاضر الوعي.

شدّ الخُطا إلى زنزانته، مع أنه لا يطيق النزول إلى القبو. لم يتقدم بضع خطوات في الممر حتى تعالى الصراخ. كان العناصر يؤدبون بالرفس سجينًا مصابًا بالإسهال، عادوا به قبل قليل من المرحاض، فإذا به يقرع الباب بقبضتيه، يطلب الذهاب إلى المرحاض ثانية.

تابع في الممر مسرعًا، اعترضته على الأرض جثة عجوز سمح الملامح، بدا في النزع الأخير، انحنى يتأكد، ما زال فيه روح، كان يذكر الله في سرّه، أنفاسه تتردد في صدره وقاربت على النفاد. على بعد خطوات، جثة شاب تحت رأسه بقعة دماء لم تجفّ بعد، مات بضربه على مؤخرة رأسه بقضيب من الحديد. كانت الجثتان لصق الحائط بانتظار نقلهما إلى المستودع، ريثما تعود الشاحنة ظهرًا بالمعتقلين من المحكمة، بعدها يأتي دور الأموات تلملمهم وتذهب بهم إلى البراد.

في الزنزانة رقم ١٥ كان المعتقل الشاب مكوّمًا على الأرض، قميصه ممزَّق، محطمًا وبلا أظفار، الدماء تخثرت على أصابعه، وآثار الهراوات على جسده. آلمه منظره. لا يزال في المرحلة التمهيدية من التعذيب، إذا كان قراره النهائي الامتثال لصوت الضمير من دون تبصر، فأمامه مشوار شاقّ قبل أن يودع الحياة.

أمرهم بتعقيم جراحه ودهنها بمرهم مضاد للالتهاب وتغطيتها بالشاش، كي يواصل التحقيق معه. قبل أن يخرج، لاحظ عظام صدره ناتئة، فتساءل عن بروزها. قالوا له إنه لم يتناول الطعام منذ جاء إلى الفرع. فغضب وطلب منهم إجباره على الأكل، ولو بالقوة، لا يمكن التحقيق معه وهو بهذا الهزال، ينبغي أن يسترد شيئًا من قواه.

لقد أخطأ في حق المعتقل المسكين. سيحسن علاقته به بلا تعذيب. إن كان تواقًا إلى الحرية، يجب عليه الكف عن بطولة، ليس هذا وقتها. هل يقبل؟ لقد تحمّل الضرب وقلع الأظفار، يُخشى أنه استمرأ المقاومة. يجب أن يفهم، العمالة قصة لن تُفعّل، لا أكثر من كلام على الورق، وبوسعه مغادرة البلد، لن يوصي بمنعه من السفر. لدى رجوعه من القبو، لمح بعض العاملين في الفرع، بينهم بعض المحققين، متجمعين أمام باب مدير قسم التحقيق، يتنصتون ويتهامسون. اقترب منهم متسائلًا، فعرف أن مسؤولًا من الإدارة المركزية، جاء بمهمة تفتيشية. كان موظف الذاتية قد ألصق أذنه بالباب، ورفع يده يشير إليهم بالسكوت، وعندما ارتدّ برأسه همس مرتاعًا: «إنه محقق من نوع خاص».

فبدا الخوف على ملامحهم، الرؤوس أحاطت به، يبدو أنه عرف شيئًا، وتردد في البوح به. ثم عاد وألصق أذنه بالباب، عندما التفت إليهم، قال بصوت

خافت، حتى إن رؤوسهم انخفضت لالتقاط ما سيقوله:

«مفتش مختص في التحقيق مع المحققين المتهاونين في العمل».

«هل سيحقق معنا؟».

عاد يتسمع، عندما ارتدّ برأسه، التفت نحو سامر وحدّق إليه مشفقًا عليه.

«سيحقق مع واحد».

خلال لحظة، بات وحيدًا. انفضوا مبتعدين عنه. التحقيق سيبدأ بعد قليل. كان وحده المقصود بالمحقق المتهاون؛ لقد علق أخيرًا. نسي نفسه واقفًا أمام الباب. ثم تنبه، كان يسترعي أنظار المحققين الذين وقفوا بعيدًا أمام الدرج والمصعد، فبدا كأنه مطلوب فعلًا. قبل أن يتراجع، قرّب أذنه من الباب، فسمع اسمه يُنطق بصوت واضح، كان صوت المحقق المختص، بينما مدير القسم يوافقه. ثم سمع صوت خطوات تقترب، وانفتح الباب ليخرج مدير القسم وهو يفسح المجال للمحقق المختص.

«ما هذه المصادفة؟! هذا هو المحقق سامر سفان».

كان المحقق المختص معتدل الطول، يلبس بدلة بسيطة رمادية اللون، شعره أسود يخالطه الشيب، تجاوز سنّ الشباب، قد انطبعت على وجهه ابتسامة خفيفة، لمجرد أن ملامحه غير منقبضة. كان رجلًا عاديًّا تمامًا، لا شيء خاص يميزه، مع أنه كان مفتشًا مختصًا. تابع مدير القسم قائلًا، وهو يشير بأصبعه إلى خلفه:

«بإمكانك التحقيق معه في مكتبي».

رد المحقق المختص، بأنه سيذهب مع المحقق سامر إلى مكتبه، لمراجعة بعض الأضابير، والتفت إلى سامر:

«إذا لم يكن لديك مانع».

وهل يحق له؟ بلع ريقه بصعوبة، وبجهد قال ليحفظ حقوقه كمحقق ينبغي له معرفة من سيحقق معه.

«عفوًا، لم نتعرف».

«أنا ف.ح».

ظنه يمزح، التفت إلى مدير القسم، رآه لم يأخذ هذا التعريف على محمل الهزل، بل عقد جبينه، فأدرك أن السرية لا تسمح إلا بكشف حرفين من اسمه. السبب واضح، هذا المحقق من نوع خاص. تراجع المدير عائدًا إلى

مكتبه، واستدار سامر متجهًا نحو غرفته، بينما رافقه المحقق المختص ومشى إلى جواره كظله. الإضاءة خافتة، والسكون شامل، المحققون اختفوا في مكاتبهم، وخلت الممرات من هرج عناصر التعذيب، مع أنهم في هذا الوقت من الصباح، يسوقون المعتقلين من القبو إلى غرف المحققين بالعصي والخيزرانات مع الدفش والنعر والشتائم. تقدما على مهل في الممر، قبل الانعطاف في الدهليز، أطلت رؤوس المحققين من الأبواب المواربة، وبرزت عيونهم المبحلقة من محاجرها، وسرعان ما تواروا في الداخل.

خلافًا للأصول، بدأ المحقق المختص التحقيق معه على الماشي، قبل الوصول إلى الغرفة، لئلا يضيع وقته الثمين. وكان عن المعتقل المسكين البارز العظام، والمشوه الوجه.

«هل حاولت مساعدته؟».

«أساعده!! كنت أستدرجه إلى الاعتراف».

«ألم تأمر قبل قليل بإطعامه ومعالجة جراحه؟».

«بعدما أمرت باقتلاع أظفاره».

كان في رده الهادئ، ثقة في النفس، وفي تساؤله تنبيه بأنه لا يؤخذ على حين غرة، وتذكير بمهنته كمحقق، كي يدرك المحقق المختص أنه يحقق مع محقق مثله.

«يبدو أنك تستعمل القسوة بدراية».

«كان المعتقل عنيدًا. ولمعلوماتك، أساليبي متنوعة بتنوع المعتقلين».

فقع المحقق المختص ضحكة خلخلت السكون.

«لا تتباهَ. قد يأتي يوم، تزعم فيه أنك لم تضرب أو تقتل، وأن غيرك ضربوا وقتلوا، وأجبروا المعتقلين على اعترافات كاذبة كانت دامغة، وأنك لم تفعل شيئًا سوى أنك سجلتها، وتدافع عن نفسك قائلًا؛ ما ذنبي إذا كان القضاة قد حكموا عليهم بالإعدام؟».

تحيّر، لم يعرف بماذا يعلّق على كلامه، ما الذي يقصده؟ مضى المحقق المختص ساخرًا:

«هذا المسلسل أعرفه، يبدأ بالاعتقال وينتهي بالشنق، تتنصلون منه، ويدعي كل منكم أنه ينفذ الأوامر. أنت مثلًا، إذا كنت تنفذ الأوامر، فأوامر من؟».

اختلّ شيء في رأسه، وتلجلج الكلام في فمه، بماذا يرد؟ الأوامر معروفة، لا أحد يجهلها، لكن لا أحد يعترف بها. لماذا يتكلم المحقق المختص وكأنه مفتش

من منظمات حقوق الإنسان؟ لو كان منهم، لن يسمحوا له بالدخول، كانوا اعتقلوه قبل أن يجتاز مكتب الدخول. لا شك أنه يراوغه ويحاول امتحانه. لن يدعه يخدعه، سيجيب على أسئلته إلى حد لا ينكشف فيه، ولا يؤذي نفسه، بعدها ليحدث ما يحدث.

«لقد ضغطت عليه بشدة، أردت تجنيده لحساب الفرع. خسارة أن يموت تحت التعذيب، فيما يمكن الاستفادة منه، لكنني لم اوفق معه بعد. بالنسبة إلى الأوامر، هذه طبيعة عملي، وإذا كنت قد تلقيتها من مصدر. فمن ضميري المهني».

«لا تقنعني، في الفرع كل شيء يجري بمعزل عن الضمير، وإذا كنت تتحجج به مهنيًا، فما علاقته بالتحقيق. لو أفسحنا له المجال، فالمآل تمييع عمل الأجهزة الأمنية».

طاش صوابه، ولم يعد يسمع، المخاوف تتسلل إليه. ما هذا التحقيق الغرائبي؟ إذا كان يمتحنه، فلماذا يا ترى؟ ستتكدس الاتهامات ضده، ما دام الضمير المهني سينقلب إلى ضده، قد يعتقله، قبل الوصول إلى مكتبه.

لم يرتدّ إليه صوابه، إلا بعدما وصل إلى باب غرفته، فتوقف، وقد استعاد سمعه، بينما التحقيق أوغل في منحًى معاكس. كان المحقق المختص يقول بصوت هامس:

«... دولة بكاملها تخلو من الضمير، مع هذا لديها سياسة خارجية، ومقعد في الأمم المتحدة، ووزارة للعدل وشرطة وقضاة ومحاكم. ألا تعرف بأنك موظف في دولة منخورة بالإجرام والمجرمين؟».

ما الذي يسمعه؟ المحقق المختص ضد الدولة، ويحرّض على النظام، لاريب كان يستدرجه للكلام؟! ابتسم في سره، أساليب المحققين متشابهة، ليته لا يلجأ إلى هذه اللعبة السخيفة، كانت مكشوفة، لن تجوز عليه. وإن راوده إحساس قوي بأنه لا يكذب، نبرة الصدق مع الغضب جلية في صوته، مع هذا قال له، دونما إصرار:

«أنا، واسمح لي، لا أوافقك».

«حسنًا، دعنا نزيح المجاملات المخابراتية جانبًا. لا تظن أنني أحقق معك، هذا تعارف بيننا، حان وقته. راقبتك منذ فترة، وعرفت عنك ما لا تعرفه عن نفسك. ينقصك قدر من الشجاعة لا غنى عنه، مع المزيد من توخي الحذر، لكن لا تبالغ فيه. غيرك يضحي بحياته، بينما أنت لن تضحي إلا بوظيفتك».

لم يصدق، أن تبلغ الصراحة بالمحقق المختص حد النصح له بالشجاعة مع توخي الحذر. حتى لو كان محقِقًا مختصًا، إذا انكشف أمره، لن يكون أقل من

خائن، مع هذا يخاطر، لا يجب أن يكون أقل منه شجاعة.

«سأكون صريحًا معك، بما أنك صريح معي».

انفرجت ملامح المحقق المختص، وظهرت على وجهه ابتسامة حقيقية.

«هات ما عندك».

عندما كاد أن يتكلم، أحسّ بالهلع، كانت مجازفة، الفرع مكان غير آمن. تلفت حواليه، قد يسمعونه. دفعه المحقق المختص بيده إلى الغرفة. بمجرد دخولهما أغلق الباب خلفهما، وسأله هامسًا:

«ما الذي تريد قوله؟».

«بل ما الذي تريده مني؟».

ما كان من المحقق المختص إلا أن اندفع بفجاجة أذهلته، بانتقاد فساد أجهزة الدولة دونما استثناء، حتى إنه نال من القصر الجمهوري، مؤكدًا أنه المسؤول عما حلّ بالبلد من دمار. كان قد كشف عن معارضته بشكل سافر، ما أثار لديه سؤالًا عن وضعهما غير المتكافئ، فهو لا يعرفه، بينما المختص يعرفه جيدًا. فسأله دونما حرج:

«من أنت؟».

«لن أقول لك من أنا، ولن أخفي انتحالي لشخصية ليست لي، أما لماذا محقق مختص، فلأنها تسهل حركتي، أما مجيئي إليك، فلأبلغك أنك أصبحت في عداد شبكة تساعد المعتقلين في هذه الأوضاع العصيبة. الشبكة تضم عددًا كبيرًا من الأشخاص، لا يعرف بعضهم بعضًا، يعملون دونما اتفاق فيما بينهم، لا تنسيق، لا تواصل، ولا صلات، أو اتصالات، يجهدون لإنقاذ أناس بائسين».

«ألهذا جئت؟».

«نعم، لئلا تحسّ أنك وحيد. سيشد من عزائمكم، معرفة كل منكم أن هناك كثيرين مثله».

كان قد استسلم له، قبل سماع توضيحه. أحس أنه يستطيع بثه ما يجول في دخيلته، لإدراكه أنه لم يعد وحيدًا.

«أعترف لك، بالنسبة إلى ما حدث البارحة، المعتقل كان متشددًا، ترفع عن المساومة، بينما لو طاوعني، فمكسبه الإفراج عنه. أنا قلق من أجله. لا أدري أين أخطأت، هل هذا ما يُدعى عذاب الضمير، أم أنني أتوهم؟».

كان المحقق المختص يصغي إليه بكليته، فوجد سامر في إنصاته إليه فرصة للبوح بما يؤرقه، والاعتراف بوساوسه، فتابع قائلًا:

«إذا كان الضمير قد ورد في كتب الفلسفة والروايات، كأمر مفروغ منه، لكنه خطير في عالم ينبذه. وأقولها لك: لم أكن معدوم الضمير، ولا ينقصني في عالم يخلو منه. لقد استعدته مما يشبه العدم، إنه بالتحديد ضمير مرن، يأخذ بالحسبان ظروف الزمان والمكان، إنه يريحني، لكنه لا يطمئنني».

«إن كنت تسعي لمدّ يد العون له، فعليك أن تأخذ مشاعره بالاعتبار، هل تعرف أنك بأسلوبك هذا، قد تدفعه إلى الانتحار؟».

جال في خاطره، منظر أرعبه؛ عندما كان قبل قليل يطل على الزنزانة، لم يبد المعتقل حركة، ربما كان ميتًا.

«هل انتحر؟».

خمّن أنه سمع منه كلمة؛ ربما. لم يسأله ثانية. سارع من فوره إلى القبو.

في القبو، أول ما صادفه جثة المريض بالإسهال وقد تسرب الغائط السائل من بنطاله الممزق، الرائحة ضايقت العناصر، فضربوه حتى الموت. ثم جثة العجوز، كان قد أطلق آخر أنفاسه، وأصبح في عداد الأموات. أما الشاب الميت، فما زال ميتًا.

لم يفكر إلا في أمر واحد، إنقاذ المعتقل رغمًا عنه، سيحضّه على التشبث بالحياة، ويعده بالإفراج عنه بشروط أفضل، سيرجوه تفهم أنهما في قارب واحد، يتشاركان السر نفسه: الضمير، ولو كان الجانب الذي يخصه مرنًا.

في الزنزانة ١٥، كانوا قد وصلوا قبله، وتحلقوا حول الجسد المسجى، أحدهم يفحصه، ينهض ويعلن وفاته. انحنى يتأمله. كانت ملامحه ترتع في سكينة الموت، قرأ رسالته الوداعية في عينيه، لم يخطئ كلماتها المبطنة، لا قدرة له على تحمّل التعذيب، ولا محاكمة ظالمة، وقاضٍ لن يرحمه، الحياة انتهت، ولا جدوى من إطالتها. لا يصح البقاء حيًّا، فلاقى حتفَه مطمئنًا.

لو أنه أدركه، لأعطاه ما هو أكثر من الأمل، الحياة نفسها.

لا، لن يماري طويلًا، لو أن المعتقل لم ينتحر، فلن يكون باستطاعته، إن واظب على صلابته، أن يمنحه سوى الموت. الحياة ممنوعة. لقد قتله، لم يحسن إقناعه، فلم يتعاون معه. خطأه، نسيانه أن للشاب كرامة.

عاد الهوينى، أحسّ بفداحة تقصيره نحوه، لن يعوضه عن الشعور بالذنب سوى الاقتداء به؛ سينتحر هو أيضًا. لديه في سقيفة بيته حبل ثخين ومتين، يسعفه على فراق الحياة غير مأسوف عليه. لن يحزن عليه أناس كثيرون،

لكن حزّ في نفسه زعل اللواء، سيذرف الدموع، اعتبره دائمًا مثل ابنه، بينما سيضحك أحمد، ابن اللواء، على أستاذه المنتحر. حنان ابنة اللواء ستعتب عليه، كيف مات ولم يعلمها بقراره؟ كانت أشفقت عليه ومنحته ليلة غرامية. الأرجح ألّا تنام معه، إذا عرفت أنه سيموت بعد ساعات، ستعتبر ليلتها الأخيرة معه، شؤمًا جنسيًا.

لحظة عاد إلى غرفته، لم يجد المحقق المختص، ليته انتظره، كان استشاره بشأن ما اعتزم القيام به. سيوافقه ما دام قراره نابعًا من تأنيب الضمير. ولو أنه اتخذه في لحظة جنون واعٍ، الانتحار اعتراف بخطئه، استعادة للإنسان الذي كانه.

٣. تفكيك لغز صغير

في البيت، أجّل انتحاره، كان منهارًا، لن يتمكن من إنجاز انتحار مأساوي يكلف الكثير من الحزم والتصميم، وإن لن يصعب عليه صعود السلّم وتعليق الحبل بالشنكل الحديدي البارز من السقف. لن يثقل عليهما وزنه، أو يخذلانه، ريثما يلفظ أنفاسه.

تراخت عزيمته. تذكر فحوى حديثه مع المحقق المختص، لن يوافقه على فعلته، ستنقص الشبكة من أحد أعضائها. فقرر الصمود، وألّا يضعف أمام أول امتحان.

في ظلمة الليل، واصلت معنوياته ارتفاعها، لا ليس وحيدًا في محنته. أولئك الذين لا يعرفهم، ويخاطرون مثله، يشدون من أزره. يجب أن يعيش. لديه غدًا الكثير من العمل، لن يتقاعس عنه، معتقلون أبرياء يجب التحقيق معهم، وإخباريات كاذبة ينبغي الفصل فيها، كلاهما بانتظار ما سيتخذه بشأنهم.

صباحًا، في طريقه إلى الفرع، وكان الجو رائقًا في منتهى الصحو، بلا إطلاق رصاص وتزمير السيارات، وإن غصّ بالجنود والشبيحة يعرقلون حركة المرور. فوجئ بوقائع البارحة، كأنه نسيها، هاله ما انطوت عليه من أحداث جسام؛ تحقيقات متنوعة، لعب فيها دور المحقق والمُحَقَق معه، وانتحار معتقل، كان إنقاذه شبه مضمون، وكاد ليلًا أن يختتم يومه بانتحاره. بعد مراجعة هذا الخليط من الوقائع والكوابيس، بدا أكثر من أن يحتويه يوم واحد، ومن فرط غرابته، كأنه لم يحدث إلا في رأسه.

لدى دخوله إلى الفرع، لم تفته ملاحظة زملاء العمل الذين صادفهم البارحة. مرّ لقاؤه بهم، بلا سلام أو كلام. لم يسأله أحدهم عمّا جرى معه البارحة، ولو من باب الفضول، فقدوا اهتمامهم به وبالمحقق المختص كلية، مع أن تنصتهم

أمام الباب المغلق كان مفضوحًا، كذلك مدير القسم، لم يستدعه إلى مكتبه، ويستفسر منه عن نتيجة التحقيق.

للحظة، اعتقد أنه توهم المحقق المختص، والتحقيق المعاكس، والانتحار المفاجئ غير المبرر، والحبل والشنكل والسقف. إذا لم تكن حقيقية، فالمعتقل على قيد الحياة.

سأل عنه. الجواب: مات متأثرًا بانتحاره، جثته أرسلت إلى المستشفى... كأن ما جرى، جرى فعلًا.

عذر العاملين في الفرع على تجنبهم له، لئلا يثيروا الشبهات حولهم، مع أنهم اعتادوا تجاهل وضعه الملتبس منذ توظف في الفرع، وإذا كان قد تضاعف اليوم، فاللإيحاء لمراقب ما؛ ألا صلة تربطهم به، لا صداقة أو زمالة، أو حتى معرفة. كان تصرفهم مُقْنِعًا، والتحفظ من جانبهم مفهومًا، الأساليب المخابراتية طبعتهم بالتوجس، فلم يغب عنه ما بدا على ملامحهم من حذر وريبة، حتى إن أحدهم تكهرب عندما تلاقت نظراتهما.

كاد هذا اليوم أن ينقضي عاديًا كما غيره، لولا أنه كان بين فترة وأخرى، يستعيد أحداث البارحة. فيتيقن من لقائه المحقق المختص وتبادله الكلام معه. بعد قليل، يشكك فيه؛ يستحيل أن يتجرأ رجل مجهول على انتحال شخصية محقق مختص، وأين؟ في فرع للمخابرات. ولماذا؟ لإبلاغه بأنه عضو في شبكة من الأعضاء المجهولين تعمل على إنقاذ الموقوفين. لماذا يعرّض نفسه للخطر في فرع للمخابرات؟ كان بوسعه مصادفته في الشارع، أو زيارته في بيته.

اللقاء لم يحدث، الحقائق تنفيه. بعد أخذ وردّ، بات ميالًا إلى أن لا محقق جاء ولا محقق ذهب. بذلك لا لغز ولا أحجية.

راقه هذا التفسير، ما تخيله، كان تحت تأثير الأجواء المقبضة المهيمنة على الفرع، حتى إن ذهابه إلى المرحاض في آخر الدهليز كان منهكًا لأعصابه، لا يسمع سوى الاستغاثات الصادرة من غرف المحققين، بعضهم كانوا يتولون الضرب بأيديهم ينفسون عن ضيقهم، وعندما يتعبون، ينادون العناصر لإجراء حفلة تعذيب، إن لم تؤدّ إلى الاغماء، فإلى جراح وكسور ودماء.

ربما كان ما تخيله تحت تأثير قراءة الروايات، آخر رواية قرأها كانت عن المقاومة السرية لمناضلين مجهولين يعملون في الخفاء، يجمعهم هدف واحد، دون أن يعرف أحدهم الآخر، رغم أنهم في مدينة واحدة... كأنها الشبكة المرشح للانتساب إليها.

لم يلبث طويلًا، حتى استنكر تفسيره، لن يعزوه إلى الوهم، لمجرد أن زملاء العمل تحاشوه، نادرًا ما ألقى أحدهم عليه السلام، إلا مصادفة، والأغلب من قبيل الخطأ أو السهو البحت. كانوا دائمًا أشبه بالغرباء، لكل منهم عالم، يحاذر إطلاع الآخرين عليه.

الخطأ الذي ارتكبه، ظنه أن مقابلته كانت في حلم أو كابوس. لن يغفر لنفسه، حماقته في التعدي على الواقع وتحويله إلى وهم. المحقق المختص حذره؛ حتى لو أنه لا يعرف أحدًا من الشبكة، عليه الاقتناع بعائديتها؛ الإحساس بأنه ليس وحيدًا. لو صمم على أنه توهمه، فسيفقد الاحساس بالآخرين أمثاله الذين يعملون خفية، يجازفون بحياتهم، يساندهم شعور داعم بالرفاقية، وإلا كيف سيثابر الضمير الشغال على مضاعفة الشغل؟

عدا هذا وذاك، من أين له القدرة على ابتكار محقق؟ ليس أي محقق، بل متخصص أيضًا.

تذكر شيئًا استوقفه، وحرّك أفكاره، لماذا اختار المحقق المختص اسمًا له اختصره بحرفين، ف.ح؟ ثمة سرّ. عصر دماغه، لم يستعص عليه، أليس الصراع الدائر في جوهره بين الخير والشر؟ هذه الفكرة قادته إلى تفكيك هذا اللغز الصغير. ما انقدح في ذهنه، كشف الستار عمّا ارتآه المحقق المختص للتعريف بنفسه، لحظتها أخطأ السمع، لم يكن ما سمعه ف.ح، ربما كان ف.خ، اختصارًا لـ«فاعل خير» كيف فاته؟

أحس بالسرور، المختص لن يختار حروفًا بلا دلالة، وإذا تعمّد أن يخطئ بلفظه، فعن قصد، كي لا يدرك معناه سوى الذين سينهضون بفعل الخير، كان المقصود أنه مختص بفعل الخير. ماذا تكون مساعدة المعتقلين سوى أنها فعل تطوعي إنساني؟ إنها كلمة السر.

في تلك اللحظة، رنّ الهاتف. رفع السماعة، واخترقت أذنه زمجرة العميد رئيس الفرع، وانتزعه من الخيال والوهم والحقيقة والشر والخير والرجل الذي اختصر وصف فعاليته السرية بحرفين... وعاد به إلى الفرع.

«ما الذي فعلته بتقرير الإخبارية عن الكاتب الحيوان؟».

من فرط ذعره لم يربط بين الإخبارية والحيوان:

«أي حيوان؟»

«كاتب القصص».

«أرسلت التقرير إلى اتحاد الكتّاب».

كان صوت العميد الرهيب أشبه بالزئير، وهو يأمره غاضبًا بالقدوم إلى مكتبه فورًا. أيقن أن العاصفة لن تتأخر، يفصله عنها ثلاثة طوابق. إذا اكتفى بتوبيخه، ولم يمسح به الأرض، سيكيل له قدرًا مروّعًا من الشتائم.

٤. قصة قصيرة

لم يستعمل المصعد إلى مكتب العميد، صعد الدرج على مهل، ليكسب بعض الوقت للتفكير في كنه هذا المأزق اللعين الذي وقع فيه. استعاد مضمون التقرير، ليتذكر لماذا ارتأى عدم التحقيق في الإخبارية، لا يمكنه التحجج بأنها كيدية فعلًا، كانت مجرد حدس من جانبه، ما يلزمه بحجة قوية مقنعة، يتفادى بها غضب العميد الرهيب. يعرف أن ليس غضبه هو الرهيب فقط، بل العميد أيضًا يتعمد أن يكون رهيبًا، فيتصرف بمنتهى السفالة.

كانت الإخبارية حول قصة قصيرة كتبها أديب قاصّ يدعى أحمد حمد الحمود، تعنت المخبر صاحب التقرير في قراءتها، نبش فيها، وحمّلها أكثر ممّا تحتمل، فاعتقد أنها تخفي دعوة للقيام بانقلاب.

ربما كان الباعث وراء الإخبارية، العداوة بين القاصّ والمخبر، أحقاد المخبر سوّلت له تلفيق تهديد على أمن الدولة من قصة قصيرة. لو كان ذلك فعلًا، فمن أسهل الأمور إرسال دورية تنتزع القاصّ من فراشه قبل أن يفرك عينيه، أو من عمله قبل أن يشرب قهوته، ويسأله تفسير ما قصده في قصته، الأمر السخيف، أن إرسال دورية بحالها لاعتقاله، تمنح القاصّ أهمية مبالغاً بها، فهو لم يقصد سوى ما كتبه. وإذا كان دسّ في قصته شيئًا، فالقارئ لن يجهد ذهنه لمعرفته، إلا في حال توافُر قارئ سيّئ النية وشكّاك تقضّ مضجعه وساوس سياسية لئيمة، ويحمل أفكارًا فات زمانها، لم تفارق أوهامه الحكاية الاستعمارية، والتهديد المتجدد للإمبريالية، بأنها وراء الانقلابات.

لم يكن مزاجه البارحة مواتيًا للتسليم بتفسيرات المخبر الحاقد، كان مشغولًا مع ف.خ، مع أنه قرأ الإخبارية والقصة بإمعان، وخلص إلى أن الموضوع يخص الأدب، وكتب أسفل الإحالة حاشية: تُرسل إلى اتحاد الكتّاب للفصل فيها، واتخاذ ما تراه مناسبًا.

كيف يقنع العميد بأن كاتب التقرير مخبر اختلق من قصة قصيرة مؤامرة مدججة بانقلاب؟ في حين لا مؤامرة ولا متآمرين، ولا دبابات وطائرات، ولا حتى عسكر. لن يقتنع العميد بأن الإخبارية إن لم تكن كيدية، فسخيفة لا يؤبه لها. العميد مولع بالمؤامرات، سيأخذ جانب المخبر المجتهد.

واصل صعوده البطيء، بينما تداعت تفاصيل التقرير، القصة نشرت بالملحق الثقافي الأسبوعي في جريدة حكومية، ولم يعرها أحد اهتمامًا، فبادر صاحبها

القاصّ أحمد حمد الحمود إلى الإشادة بما تخفيه من رؤية جريئة، ما حرّض أصدقاءه على قراءتها، ويبدو أنه لاقى بعض الإعجاب، فأخذته الخيلاء، وتباهى بأن قصته ترتكز على الربيع الذي أشعل المنطقة العربية بالاحتجاجات والاعتصامات، وتتعداه إلى الربيع السوري، الذي انطلق بقوة، قبل أن تُخمد أنفاسه.

عقّب القاصّ، حسب التقرير، بأن هزيمة الثورة، لم تضمن للربيع الاستمرار، لكن هذا لا يعني القضاء عليه، بل سيزهر على الطريقة السورية... وفسر للحاضرين الخصوصية السورية: توقعوا انقلابًا عسكريًا.

ودعم نبوءته بأن الانقلاب من تقاليد السياسات السورية العريقة في تداول السلطة، الناس اعتادوه، رغم مضيّ زمن طويل على آخر انقلاب، صحيح أنه تأخر، غير أنه سيستعاد، لا آلية للتغيير سواه. لا تستغربوا، ما زال في الذاكرة، يتوارثه الأولاد عن الآباء، والعسكر عن العسكر.

ألقى القاصّ رؤيته في مقهى الروضة وحوله بعض الأدباء، حسدوه لتجرؤه على النظام في عقر جريدة الدولة، ومضى يجعجع غير آبه للمخبرين في المقهى، وشبيحة تجوب الشوارع، تحاسب المارّة على الهمسة، ولا خائف من دوريات المخابرات تبحث عن فريسة. فماذا لو كان التبشير بانقلاب؟!

أضاف المخبر في نهاية تقريره، ليست هذه أول مرة يتعرض فيها لأمور سياسية لا يفقه منها شيئًا، لا يجوز التطرق إليها، سوابقه معروفة، كثيرًا ما اشتكى من التضييق على حرية الرأي وتكميم أفواه الشعب. هذا على ذمة المخبر، حتى لو كان صحيحًا، فليس أكثر من ثرثرة مقاهٍ، ثم أين الدليل؟ فالقصة لم يظهر فيها جندي ولا مدفع، إذًا أين الانقلاب؟

تساءل، وقد أصبح على عتبة درج الطابق الثالث، لماذا لم يقم وزنًا للإخبارية؟ لأن الفجر وما يرمز إليه، لا يستحق أن ينال الكاتب من جرائه ضربة كف، آراؤه في المقهى لم تأتِ بجديد، محللون سياسيون في الغرب اعتقدوا أن الحل الأسلم قيام انقلاب ينهي هذه الأزمة. وإذا زعم القاصّ أنه يتنبأ، فلا يزيد لغوه على التنفج الملازم للأدباء، ومن السخف محاسبته على تحليله السياسي، غير الواقعي.

ما بشر به لا أساس له، المحللون الغربيون معذورون لسبب بسيط، لا يعرفون أن الانقلاب يحتاج إلى ضباط لتنفيذه، ومتى؟ بعد استحالة وجود ضابط في الجيش العقائدي يثق بضابط من الجيش نفسه ليتعاونا على تحريك قطعاتهم العسكرية باتجاه العاصمة. عدا عن أن الجيش كله مستنفر في جبهات أصبحت تُعَدّ بالمئات، وأقصى ما يفعله العسكريون الناقمون على

النظام، الالتحاق بالجيش الحر، أو الفرار إلى بلداتهم وقراهم، ومنها إلى مخيمات النزوح.

إذا كان القاصّ المسطول، قد لمّح إليه في قصته، فمن قبيل التمنيات. لو كان الأمر عائدًا إليه، لعاقب المخبر على إقلاق الفرع بمكائد شخصية، ناجمة عن الحسد والغيرة، وإشغاله بقاصّ مغمور لا يساوي عناء التحقيق معه، إلا إذا علق مع محقق موتور، يظن أنه ظفر بانقلاب يدبر على صفحات جرائد الدولة، ويجدها حجة لإجبار القاصّ على الإبلاغ عن اسماء الضباط المشاركين فيه، من أين يأتي بهم؟ المخبر المكيود لم يقدّر أن عقوبة المسكين لن تقلّ عن الإعدام، هذا إذا وصل حيًّا إلى المحكمة.

الخطأ الذي ارتكبه المحقق سامر في تحليله، عدا سطحيته، اقتصاره على تفنيد الإخبارية ودحضها. بينما كان عليه الاسترشاد بالواقع المخابراتي، وهو أن مسعود سعدي صاحب التقرير، لم يكن مخبرًا عاديًّا، كان ضابطًا محالًا على التقاعد، وشاعرًا صاعدًا، ومع أنه أصبح ضابط أمن الاتحاد، لكنه كان من جنس الأدباء، وهو الأدرى بهم.

ولئلا نحتار بألقابه، فسنشير إليه تارة بالمخبر لوظيفته الرئيسة، وهي رفع التقارير إلى المخابرات، وتارة أخرى بضابط أمن الاتحاد، أي اتحاد الكتّاب، كذلك الشاعر، مهما يكن ففي زمن مضى كتب شعرًا، وانتسب إلى الاتحاد بهذه الصفة، اختصارًا سنلقبه بالشاعر المخبر، مع ما فيه من إساءة إلى الشعر، كذلك الشعراء هم براء منها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

الفصل الثاني
شجارات في المقهى ومناظرة في الفرع

١. تسييس الجنس ـ تجنيس السياسة

قبل ساعات قليلة، في الطرف الآخر، من قلب العاصمة دمشق، على مقربة من مجلس الشعب، كان الشاعر المخبر مسعود سعدي، في طريقه كما اعتاد يوميًّا، إلى مقهى «الروضة»، المكان المثالي ليتبادل الأدباء الحديث عن همومهم، والتذمر من متاعب الحياة أكثر من متاعب المهنة، والشكوى مما يعانونه من مشاقّ ترهق إبداعاتهم بصغائر الأمور، بينما الأمور الكبيرة تجري بمعزل عنهم.

لا يجهل معظمهم أنّ المقهى ليس آمنًا، وإن اتخذوا حذرهم من المخبر الشاعر، لن يستشفّ من نمائمهم المحببة توجهات مشبوهة، ولو حاول نصب الشراك، للإيقاع بهم. كانوا متنبهين، حتى لو كانت خلافاتهم شخصية أو سياسية، يكسونها بطابع أدبي بريء. بينما غالبًا كانت مشاكلهم عاطفية، وبلا سبب سوى الضجر، فهم يعشقون بمناسبة ومن دون مناسبة، بلا وصل ولا وصال، فالغرام شائك تحت القصف، بينما ادعاؤه لذيذ، يمنح جلساتهم نكهة متحللة من الحياء، تسللت إلى كتاباتهم، وكانت مستهجنة، لكن الحداثة بصورتها الإباحية المتخيلة تحضّ عليها.

عندما كانت المظاهرات تهدر في الشوارع، تورطت علاقاتهم العاطفية بعد تفاقم الاحتجاجات بالانقسام السياسي بين المعارضة والموالاة، وأسوأ ما حدث، أن يعشق أديب معارض، أديبة موالية وبالعكس، فاتخذ النقاش طابع الوداد والتشنج، واكتسى الغرام بالنكد والمكايدة، ما أدى إلى خصام تخللته مساومات على الانتقال من خندق إلى خندق، لم يكن إلا مغادرة طاولة معارضة إلى طاولة موالية، أو بالعكس.

بداية، أجمع الأدباء على تأييد المظاهرات في أحاديثهم، انسجامًا مع تقدميتهم التي أملت عليهم هذا الموقف، فهم ضد الدولة مهما فعلت، وإلا كانوا رجعيين وأذنابًا للسلطة، فالنظام بدا على وشك السقوط. بعد بضعة أشهر، بدا النظام ثابتًا لا يتزعزع، يقصف المدن والأرياف، بعدما أنجده الإيرانيون بالمليشيات، وفيما بعد الروس بالفيتوات في مجلس الأمن. فأظهر الموالون موالاتهم للنظام، بعدما كانوا يدعون أنهم مع الشعب، تبين لهم حسب قولهم أنّ المظاهرات كانت بتحريض من الخارج. أما الذين ساندوا الربيع في أطواره الصاعدة والهابطة، فأصواتهم التي ارتفعت عاليًا، انخفضت وباتوا يتكلمون همسًا، وإن كان النزاع يحتدم بينهما، ويتجلى بجدالات حامية الوطيس في

الدفاع عن الدكتاتورية لإنعامها على الشعب بالاستقرار مع عدم التخلي عن المقاومة والممانعة، وتحجج الطرف الآخر بأن الاستقرار كان بالقوة تحت التهديد بالسجن، لتأمين مناخ من الصمت وتعميم الخنوع.

منذ ظهر الانقسام، اتخذت الشجارات الكلامية منحًى خطرًا على وقع تقدم الجيش الحر، وخسائر الجيش النظامي، كذلك على وقع تقدم الجيش النظامي وخسائر الجيش الحر، ثم تسارعت على إيقاع مجازر الشبيحة، واشتباكات المليشيات القادمة من إيران ولبنان والعراق، مع المليشيات الإسلامية، فاحتقنت المناقشات بالروح القتالية اللفظية، واحتدمت بأصوات غاضبة، هددت جماليات العلاقات الأدبية بأنواعها الشعرية والروائية والقصصية والنقدية بخصومات كادت أن تكون جهنمية، لكن ثقل الأدب، لم يدع الأدباء يتخلون عن التأدب، واتفقوا على عدم ملامسة المناطق الشائكة توخيًا للأمان، وإن كانت دعواهم لئلا تقضي على ما بقي من المزاعم الموضوعية في النقاش، غير أن التمترس وراء المقولات السياسية الحزبية والقومية واليسارية والليبرالية، ذهب بالنقاش ثانية إلى مشاحنات كلامية، وأُرفِق التناحر بينهما بتلميحات طائفية مبطنة بالازدراء المتبادل بين الريف الفاضل والمدينة الفاجرة، والتبس الدين بالإرهاب، وتطاير الاتهامات بالأصولية والمذهبية، ولئلا تقودهم إلى مساءلات لا تحمد عقباها، لن تقلّ عن الاختفاء القسري، جرت تحايلات كان من جرائها إبراز الجانب الجنسي للتعتيم على الجانب السياسي، خشية من المخبرين. فتوافقوا تقية على أن تكون الشتائم السياسية ملغومة بالبذاءة، كان صداها: الشرمطة القومية، والقوادة الاشتراكية، والعهر الليبرالي، والتعريص الإمبريالي، والفحش العولمي، والنخاسة الدينية، الفجور الديمقراطي... وغيرها مما أخذ الأدباء يتلذذون بصياغتها، ولو لم تؤدّ المقصود منها. ما أقصى عنهم الشبهات السياسية وأحالها إلى مناكفات شوارعية مبتذلة، يتداولها مثقفون زعران، كشفت عن حجم الشرخ الوطني، فالوطن أصبح وطنين: وطن دموي مقاتل خفية، ووطن ماجن متهتك علانية.

كان الشاعر سعدي، بحكم صِلاته الأمنية، لا يتقدم خطوة في التخبير إلا بعد الاطمئنان على الأوضاع في الجبهات؛ عمومًا لم تكن سيئة؛ ما دام الجيش متماسكًا، والانشقاقات الفردية والجماعية للضباط والجنود لا تؤثر في صموده. كذلك أخبار القوة الضاربة للشبيحة، وكان شديد الإعجاب بهم، إن لم يقتلوا، يعفّشوا ما يجدونه في طريقهم. فواصل نشاطاته الاستخباراتية، وكانت مرهقة بسبب تعامل الأدباء بالمصطلحات آنفة الذكر. فمثلًا، إذا سمع بالعهر الليبرالي، لا يدري إن كانت الليبرالية شيئًا جيدًا أو سيئًا، أو كان العهر يضيف إليها أو يُنقص منها، وفي ما إذا كانت بصيغتها المركبة، محمودة أو مستنكرة، وهل هي مدانة أم لا، أخيرًا وليس آخرًا، هل تستحق التخبير عنها؟

وإذا كانت قد استغلقت عليه، فلأنه كان حديث عهد بالأدب، فقد أصبح شاعرًا على كبر، حتى إنه عندما سأل عنها، أحالوه على عشرات الكتب، فنفر من الثقافة، فهو لم يعمل في المخابرات ليعود إلى قاعات الدرس والمطالعة.

لم تساعده فراسته الاستخباراتية على تسقط حقيقة خلافات الأدباء الفضائحية، لم تبدُ أكثر من ضغائن غامضة. كان التقدم في تجنيس السياسة أو تسييس الجنس، لغزًا متحللًا من الضوابط، أعيته مراميه، وتكهن فحواه، لم يستطع تحديد هل هو صراع سياسي أم جنسي؟ وإذا كان قد راقه المجون، لكنه كان يبحث في طياته عن السياسي، لم يكتشف شيئًا، وإن ذهب به الظن إلى أنه في إثر نشاطات لا محالة خلاعية مشبوهة.

وساوسه، لم تقصر، فأيقن من أنه ببذل المزيد من التقصي، سيكتشف شبكة تجسسية ذات حوافز جنسية. كانت حلمًا قابلًا للتحقق، فالجنس كان متوافرًا، لكنه لم يتعثر بالتجسس ولا بجاسوسات فاتنات. وإن بذل جهده في الأماكن المغلقة، فكان يتنصت على ما يدور في أرجاء اتحاد الكتّاب، وما يتسرب من شلل المقاهي والمطاعم، ولم يزد على طلاسم، وإن لم يعسر عليه أحيانًا تخمين ما تومئ إليه أحاديثهم الغاضبة من انزلاق نحو تمني رحيل النظام، لكن من دون دليل قوي.

شكّل مقهى «الروضة» مادة وفيرة لإخباريات متنوعة، أعاقه طابعها الأدبي، لم يتبين إن كانت مع النظام أو ضده، كذلك الشتائم المستعملة في معرض الجدل، لم يوفر فحشها مادة لإخبارية رصينة. بينما كانت المشاجرات التي يسمع طرفًا منها، أبعد ما تكون عن فضّ إشكال، أو وضع حد لخلاف، كان الطرفان متفقين من دون اتفاق، على ألا تتعدى خلافاتهما، أكثر من التمرين بلا جدوى على حرية التعبير عن كل شيء ولا شيء، تعقبها استراحة في المطعم مع كأس عرق، تستأنف في اليوم التالي.

لم تكن مواظبته على ارتياد المقهى لشرب النارجيلة، ولعب طاولة الزهر، بل ليعثر على دليل يقوده إلى إرهابي متنكر، أو شبكة تحت الأرض. لم يمنحه أحد من المترددين على المقهى الفرصة لإنجاز على هذا المستوى، لكن على غير توقع وصلت إليه رسالة بتوقيع مجهول، ادعى صفة: «الغيور على الوطن»، قدم إليه الدليل على عابث بأمن الجمهورية، من خلال قصة، كشف له عن خطرها، لئلا تخدعه براءتها، ودلّه على الرمز الذي استخدمه الكاتب لإيهان عزيمة الأمة.

لم تضِع وساوسه هباءً، عثر على المؤامرة الكامنة في قصة «الفجر» لكاتبها: أحمد حمد الحمود.

٢. القاص الشجاع

دخل الشاعر سعدي، كالمعتاد إلى مقهى الروضة في الساعة الحادية عشرة قبل الظهر، بما يتوافق مع موعد توافد الأدباء لقضاء الوقت، إلى ما بعد الظهر، يروّحون عن أنفسهم ببعض الأحاديث الخفيفة، مع أنها أصبحت ثقيلة، ثم الذهاب إلى بيوتهم، أو مطعم قريب، مع أن المرور بالمقهى قلّ عمّا قبل، بعدما أغلقت الشوارع بالحواجز، والغلاء الفاحش للمشروبات من القهوة والشاي والماء، حتى فاقت أسعار الويسكي والفودكا والنبيذ أيام زمان. فالليرة إلى هبوط، والدولار إلى صعود. لكن لا بد بين يوم وآخر، من مشوار المقهى للاستئناس بالأصدقاء، وتداول أخبار المناوشات، ونتائج الصدامات في الجبهات.

في هذا اليوم، وكان مثل ما سبقه من الأيام، بعثت أصوات رشرشة نوافير البحرة على القنوط، وأثارت الإحساس المعتاد بتوقع انقضاض مصيبة. كان في طلاوة خرير الماء نذير شؤم بانفجار يحيل المقهى إلى أرض يباب، حسب تعبير الشعراء المتشائمين. ولم تكن من غرائب التوقعات، فالبراميل المتفجرة حوَّلت القرى والأحياء والمستشفيات والمستوصفات والأفران إلى ركام. فتطيّر الأدباء. قد يخطئ طيار ويتخفف من برميل متفجر فوق رؤوسهم، سواء كانوا هنا في المقهى، أو في بيوتهم، مع أن الطائرات المكلفة هذه المهمات لا تمرّ في سماء دمشق، لكن الأدباء خُلقوا متطيِّرين.

اتخذ الشاعر المخبر سعدي موقعه حول طاولته المعهودة المشرفة على القسم الأعظم من المقهى، مشرئبًا بعنقه يراقب الداخلين والخارجين. يتيح موقعه لكل من يبحث أو لا يبحث عنه، رؤيته والسلام عليه من بعيد أو قريب.

لم يكن هناك في المقهى مَن هو وازن أدبيًا ذو حيثية سوى فريد الفريد المسؤول عن الملحق الثقافي في جريدة رسمية، ومن الغرائب أن فعاليات الفريد الإبداعية كانت فريدة على سويّة اسمه، فقد كان صحافيًا وشاعرًا وقاصًّا وروائيًا وناقدًا أدبيًا ومسرحيًا وسينمائيًا وتشكيليًا... تفصح عنها ملامحه النكدة.

إذا كان فريد الفريد لم يتبادل السلام ولا الكلام، مع المخبر الشاعر، فلأنهما يحتقر أحدهما الآخر. كان كل منهما يشكل استعصاءً على الآخر، لا يستطع إيذاءه ولا تخويفه. فالشاعر مدعوم من المخابرات، وفريد الفريد مدعوم أيضًا. أما الجهة، فمجهولة.

لم يلبث الشاعر سعدي إلا قليلًا، عندما فوجئ بظهور القاصّ أحمد حمد الحمود بصحبة إحداهن، شاعرة أو قاصة، جلسا وغرقا فورًا في حديث جانبي. فكاد أن يقفز من مكانه من فرط غيظه، ما الذي جاء به؟ المفترض أنه معتقل في الفرع ٣٣٣، التحقيق بدأ معه، إن لم يكن البارحة ليلًا، فقبل

ساعات. هل أفرج عنه؟ مستحيل، حتى لو كان بريئًا، لن يُطلق سراحه قبل أسبوع على الأقل. لا بد أن تأخيرًا حصل، على الأغلب دورية المخابرات تبحث عنه الآن. لن تجده في بيته، ستداهم المقهى بعد قليل، ويشحطونه من أذنه.

تابع القاصّ حديثه مع القاصّة، وربما الشاعرة، بدوَا على انسجام، يتبادلان حديثًا بريئًا من العواطف. ملامح القاصّ كانت جادة، خاصة عندما أخذته روعة ما يصفه بمشاركة يديه، وأصابعه تفسره، ولم يكن سوى حديثه عن تحفته القصصية «الفجر»، ما أغاظ الشاعر؛ القاصّ يسرح ويمرح بقصته في المقهى، وها هو اصطاد إعجابًا وربما أكثر، دونما أحد يقص له لسانه. ما المبرر لتتلكأ المخابرات عن تنفيذ مهامها الأمنية، مع أن دورياتها لا تفارق الشوارع، بينما القاصّ رائق المزاج لا شيء يضيره؟

ألقى نظرة على فريد الفريد، فلاحظ الامتعاض على ملامحه، من فرط غيرته من القاصّ الذي تاه خيلاء بقصته، كان هو بالذات الذي نشرها في الجريدة من دون أن ينتبه إلى مراميها، وعندما انهال الإعجاب على القصة، ادعى أن جرأته بنشرها لا تقلّ عن جرأة كاتبها، لكنه خشي عندما ثارت الشكوك حولها، فزعم أنه نشرها بحسن نية، أما الرمز الخطير، فالقاصّ أسبغه عليها لاحقًا.

طوال الأسبوع المنصرم، مدح المعارضون شجاعة القاصّ، ولم يُغفر للفريد غفلته. لذلك اندلع الشرر من عينيه، بينما أخذ القاص ينعم بقصته، فتمنى لو ينقضّ عليه ويخنقه، لا يمنعه سوى أن القاصّ كان أطول منه وأعرض. كان كلما رآه، لا يملك نفسه، يتوعده في سره، بانتظار فرصة، لن يضنّ عليه بها الزمان، فالقاصّ سيكتب، وسيكون بالمرصاد له.

وإذ التفت المخبر صوب الفريد، وتشابكت نظراتهما، كان للقاء العيون مفعول السحر على الشاعر، وكاد أن يصرخ من الفرحة، كيف نسي؟ هذا الحقير، كان وراء نشر القصة، فتوعده في سرّه، سينال منه يومًا ما، فاعتدل مزاجه، ثم تكدر عندما تذكر الجهة المجهولة، وانصرف بذهنه إلى الدورية التي ستقتحم المقهى، ويشهد بأم عينيه شرشحة القصاص وهو يساق إلى الفرع. الدورية لم تأتِ، أما الذي أتى، فاتصال من موظف في ديوان اتحاد الكتّاب، فللمخبر مخبر مساعد، أعلمه بأن الإخبارية أعيدت إليهم من الفرع ٣٣٣ للفصل فيها، واتخاذ المناسب بشأنها.

٣. تسيّب في الفرع ٣٣٣

لم يصدق ما سمعه؛ ما الذي سيفعله اتحاد لا حول له ولا قوة بهذه القضية الأمنية؟ صلاحياته لا تتجاوز تأنيب الكاتب، أو توجيه إنذار شديد اللهجة، وربما التهديد بأسوأ العواقب في حال تكرار هذا النوع من القصص الملعونة، ولن

تزيد على فصله من الاتحاد، لكنه غير منتسب إليه. إذا شاؤوا معاقبته، فقطع رزقه، بإبلاغ مجلات القطر وجرائده بعدم نشر أي قصة له، وهي خدعة، الكُتّاب لا يرتزقون من الكتابة، بل من وظائف وأعمال لا تمتّ إلى الإبداع بصلة، فالقاصّ أحمد حمد الحمود يشتغل سائق ميكروباص مسائيًا، وخصص الصباح للكتابة الإبداعية والدعاية لقصصه.

ما هذا التسيب؟ لا تحقيق ولا سجن، ولا حتى جرجرة إلى الفرع، أو صفعة على الخد، أو لكمة على الأنف، أو ركلة على قصبة القدم... فكأن قصة لم تكتب، وقاصًّا لم يعرّض أمن الدولة للخطر.

تلك كانت خاتمة شكوى المخبر سعدي للعميد الرهيب رئيس الفرع ٣٣٣، ولم ينسَ كشاعر مرموق توجيه اللوم للفرع بشكل عام، فالأمن مسؤولية وطنية، مع تلميح لطيف للعميد الذي بدا بابتسامته لطيفًا، لا يستحق ما أطلق عليه، فهو لم يكن رهيبًا، حسبما سمع عنه.

«لقد خاب أملي».

وما جعل إحباطه يكتسي عتبًا جارحًا، أنه كان ضابط أمن الاتحاد، وهذه أول إخبارية دشنت التعاون بينهما، بعدما أُنهيت علاقته بالفروع الأخرى. اعتذروا؛ حاليًا لا متسع للأدب، رغم ما فيه من تسلية، دول العالم تكالبت على البلد، لا مجال إلا للقضايا الجادة، الإرهابية حصرًا.

كان العميد الرهيب قد استقبله قبل أيام، ورحب به رغم انشغالاته، ولم يبخل بإظهار كرمه بوعده بالتحقيق بأية قضية، ولو كانت صغيرة، فالأدب قضية تافهة، لكن في هذه الظروف لا شيء تافه. ما شجع المخبر الشاعر على التعامل معه أيضًا، سمعته الرهيبة، لذلك صدم جراء إهمال الإخبارية.

«هل هناك خطة لاستثناء الأدباء من المحاسبة؟».

أكد العميد ألّا استثناء لكاتب، مهما كانت مواهبه، أو بلغ علو كعبه في الأدب، وكاد أن يقول له إنه يعامل الجميع كتّابًا وشعراء سواسية كالحشرات، لا أقل من الدعس. لكنه امتنع عن قولها في آخر لحظة، تذكر أن المخبر شاعر معروف، تواضع وتطوع ليكون مخبرًا على رفاق القلم، فحمل له تقديرًا خاصًا، بأخذه على عاتقه عناء هذه المهام الوضيعة، على أن يمنحه راتبًا شهريًّا لقاء تغطية أخبار دسائس الأدباء السياسية، ولا بأس بالعاطفية، والتركيز على الجنسية، يمكن استعمالها كفضيحة تخرب بيوت وتشرد عائلات. الوطن يحلّل استعمال الوسائل كافة.

بيد أن الشاعر جعله يحسّ بالخزي، عندما وضع رجلًا على رجل، وسأله:

«هل يبسط الاتحِاد سطوته الأدبية على الأمن، ما يمنع الفرع من تجاوزه؟».

فتظاهر العميد بأنه لم يسمع السؤال، وكان الشاعر قد استطاب التصريح بعد التلميح، فأصغى العميد إليه وضبط أعصابه. استغل الشاعر إصغاؤه، وعرّج بكلمات موجزة على الإخبارية التي جرى تجاهلها.

صحيح أنّ القصة قصيرة، لكنها قضية كبيرة، لا يمكن السكوت عنها، إنها تبارك عودة الاستعمار، وعلى الأصحّ تستدعيه، الحكومات الغربية كانت وراء الانقلابات، دبرتها وحاكت خيوطها ثم دعمتها. طبعًا تعلم، الرئيس الخالد أنهى سلسلة الانقلابات وكفّ يد الدول الاستعمارية عن البلد. للأسف، لم تأخذ الفروع إغلاق هذه الصفحة من تاريخ سورية بالأهمية اللازمة. بينما المؤرخون الثقات اعتبروا خطوة الرئيس الخالد منعطفًا تاريخيًّا.

ضبط العميد أعصابه، رغم إحساسه بالغبن، الشاعر حشره في موقف شائك مع الرئيس الخالد، وشدد الهجوم عليه وعلى الفروع، مستعينًا بالمؤرخين الثقات، وإن بأسلوب لبق، لكنه مغرض.

تشديد الشاعر على المؤرخين ووصفهم بالثقات، جعل العميد يتخيلهم نوعًا خاصًا من المخبرين المختصين بالانقلابات. فصمّم على ردّ الاعتبار إلى الفرع، بتأكيده أن سطوته لا ريب فيها، لا يعلوها اتحاد ولا أدباء:

«اطمئن، سنعيد النظر في التقرير، وسيُبت فيه داخل الفرع، لكن ليس قبل تقريع المحقق المسؤول عن هذا التهاون».

نفخ بغيظ ليخفف عمّا احتقن في داخله جراء عدم معرفته بالمخبرين الثقات، لم يسأله عنهم لئلا يظن به الظنون في قضايا هي من اختصاص الأمن. سينفّس عن غليان غضبه، باطلاع الشاعر على الأنموذج المتبع في معالجة الأمور داخليًّا، توضح طريقته في التعامل مع موظفي الفرع إذا أخطأوا، ليس بردعهم بعقوبة مسلكية، بل بمعاملتهم على أنهم معتقلون، وكإجراء أولي سيفعس المحقق بقدميه.

هذا النمط من التأديب ليس ساريًا في الفرع، وإلا فَعَسَ العميد الرهيب جميع محققي الفرع والعناصر، فضلًا عن تعسر تنفيذه، أغلبهم توظفوا بوساطات أقاربهم من المسؤولين والضباط، وقد يعتبون عليه، ما يسبب له وجعًا في الرأس هو بغنًى عنه. أما لماذا سيفعس هذا المحقق بالذات، فلأن رياحًا ما جاءت به، كانوا بحاجة إلى حقوقيين، وكأن هناك من دفشه إلى الفرع. لم يتنبه إليه إلا بعد حين، لم يسرحه، وعندما أراد طرده، لم يدرِ مَن دفشه ثانية، أو أنها المصادفة. فركنوه جانبًا، وكلفوه قضايا لا تفيد إلا بتضييع الوقت إلى أن احتاجوه. وإذا كان سيفعسه بقدميه، فللرد على الشاعر ببيان عملي، فيرى بأم عينيه فاصلًا لن يتوقعه، ولن ينساه، خاصة أن ضابط أمن الأدب في الاتحاد، كان ضابطًا سابقًا في الجيش. ما زالت علاقاته سارية برفاقه

الضباط، ولو أنه التحق بالأدب، فمثلما زجوه في الاتحاد، ربما دسّوه عليه في الفرع،. فعزم على مراعاته والتعامل معه على أنه صديق مقرب، وإظهار التقدير له مع العين الحمراء، باطلاعه على بأسه، بتحطيم أضلاع المحقق.

٤. الأدباء يطمحون إلى تغيير العالم

عندما أصبح المحقق سامر على أهبة الدخول إلى مكتب العميد الرهيب، كان قد استرد ثقته بنفسه خلال صعوده الوئيد على الدرج، بعدما أدار القصة والقاصّ في رأسه، واستجمع حججًا كانت قوية، رفعت من معنوياته، ومن فرط ما اطمأن إلى تفوقه في الدفاع عن نفسه، عزم على ألا يوفر العميد من انتقاداته، ولو تلميحاً، وإن كان فيها تهور، بعدما أضاف تساؤلًا راهنًا، استوحاه من الأولويات التي تلحّ عليها أجهزة الإعلام الرسمية؛ في زمن كان فيه النظام يقاوم العالم بأسره.

هل يجوز أن ينشغل الفرع بإخباريات سخيفة، بينما النظام الممانع في عزّ تصديه للهجمة الكونية على البلد؟!

لم يتهيّب ما عزم عليه، مع أنه سيتجاوز حدوده. كان خلال صعوده الدرج الواصل بين الطابق الثاني والثالث، قد طرأت في رأسه متغيرات؛ الجسارة إحداها. كانت بفعل الضمير على الرغم من مرونته، والشبكة التي أطلعه عليها ف.خ. لا، لم يعد وحيدًا، هناك آخرون، يستمد منهم القوة مثلما يستمدونها منه. امتحان تهيّأ له، عزم على أن يكون جديرًا به، بعدما قدم معتقلٌ محطم الأعضاء مثالًا قلّ نظيره، قضى نحبه، ولم يبح برفاقه. أما وقد أصبح قوي الشكيمة، فلن يكون جبانًا.

في اللحظة التي دخل فيها، ووقع بصره على العميد، لاحظ شخصًا جالسًا على الكنبة في الطرف المقابل من الطاولة، ليس ضابطًا، ولا عنصرًا من الفرع، قد وضع رجلًا فوق رجل، بينما كان العميد يكرس صورة غير رهيبة بقيامه بواجب الضيافة نحو الشخص المنجعص، إذ أشعل له سيجارة، وكان من مظاهر اهتمامه به أنه طلب له فنجان قهوة للمرة الثانية، ولم يلتفت نحو المحقق، ليلقي نظرة عليه.

تركه العميد ملطوعًا، وأكمل حديثه الرصين مع ضيفه، وكان عن الأدب، وليس مصادفة، فالمكتب كان عابقًا به. تولى الضيف الإفاضة فيه، وكان جادًّا، وإن علّق بهزء:

«إن الأدباء يطمحون إلى تغيير العالم».

فجلجلت ضحكة العميد عالية، وخلخلت طبقات الهواء والدخان في الغرفة. الضيف تابع الكلام بقرف:

«يعتقدون أنهم قادرون على جعله عالمًا أفضل، ويرون أن البدء في بلدنا أسهل، ولا يزيد على تغيير النظام، إذا غيروه كأنهم غيروا العالم».

«لا بد أنك تمزح».

«قد تظنها من قبيل الصرعات الأدبية، لكنهم يؤمنون بها كحقيقة علمية حتمية، ويتشدقون بها في جلساتهم».

بمجرد أن أنهى الضيف هذه الفقرة من حديثه، تحفز العميد لإسكاته، لاحظ أن شهيته للكلام مفتوحة، وكان قد تضايق من انتزاعه ناصية الحديث، وأخذ يتكلم على مستوى عالمي، وحوّله إلى مستمع، فلم يتمكن سوى أن يجلجل بضحكته مع تعليقات فاترة.

واصل الشاعر سعدي تقمص دور الأستاذ، بعدما ألقى على العميد قبل دخول المحقق درسًا في إدارة الفرع، والقيادة المثلى لعناصره، لئلا يتجاوزوا سلطاته، ويتصرفوا من وراء ظهره حسبما يحلو لهم، ضاربين عرض الحائط بمسؤوليات الفرع الأمنية.

قبل أن يبدأ درسه الثالث، قاطعه العميد وقدمه إلى المحقق الذي حضر صاغرًا، ووقف ذليلًا حسب الأتيكيت المخابراتي، فالعميد الرهيب لا يتصور مرؤوسيه إلا منضبطين، لا يقفون أمامه باحترام، لئلا يعتقدون أنهم على الدرجة نفسها، بل أذلاء، أدنى منه بدرجات. لم يدرك أن المحقق خدعه بوقفته الذليلة، بينما كانت شخصيته في عنفوانها الطارئ متحفزة للنزال، أي للجدال.

راعى العميد الإيجاز في تقديم ضيفه المنجعص معرّفًا به على أنه مسؤول ثقافي رفيع، إذ لا يصح أن يقوم باستقبال مخبر في مكتبه، ويشرب معه القهوة، والأنكى إشعال سيجارته، ولو كان شاعرًا عظيمًا، لا يُشَقّ له غبار.

اعتقد أن ما توخى قوله باقتضاب شديد، كان كافيًا لإقناع المحقق، أنه بحضرة مسؤول ممثل لجهة ثقافية، تريد الاستفسار عن موضوع التقرير العائد لما تثيره القصص القصيرة بشكل عام في زعزعة التوجه القومي في زمن الحرب، والقصة إياها بشكل محدد، فالحديث كان قبل لحظات عن الأدب.

دخل العميد في الموضوع مباشرة، وقام بالخطوة التمهيدية التي سيتلوها تفعيس المحقق بعد قليل. كان متشوقًا لأن يبرهن للشاعر المخبر الشغوف بالكلام، أن الأفعال أجدى من الأقوال. لكن خلافًا لما توقعه، استعاد الشاعر البليد دفة الحديث، ليثبت فعالية مركزه، أمام المحقق الذي بدا له تعيسًا وفي موقف حرج، فتجاهله، طالما أن العميد سيُنهي أمره، فأراد أن يكون له دور فعال في القضاء عليه. فتكلم عن التقرير على أنه تقريرنا، والإخبارية

إخباريتنا، والتقييم تقييمنا... وما يُستخلص من القصة يهدد أمن بلدنا، والخطورة اليوم أن القاصّ كان في مقهى الروضة، يجمع حوله المزيد من الأنصار، ومن بينهم شاعرات يغرّر بهنّ بمعسول الكلام. ما يذهب بنا إلى الاعتقاد أن في الفرع من يستحق المحاسبة أيضًا، إضافة إلى القاصّ الذي ما زال حرًّا، وفي سبيله إلى كتابة قصة أخرى، من سيمنعه؟ مومئًا إلى ما يعنيه من غير كلام، أفصح عنه بابتسامة متعالية.

كلام المخبر بصيغة الجمع، وتلميحه إلى تصرف المحقق المريب، أضفيا عليه سلطة ثقافية ذات مفاعيل أمنية، تخوله بعد تعنيفه، توقيع العقاب عليه، بعد التعريض بكفاءة العميد، مع أن لا سلطة سوى سلطته التي تخوله حتى أن يقتل بلا سبب، وبلا ذنب.

مشاعر العميد أُوذِيَت بشدة، هل يصبح متهمًا بالتقصير من مخبر، لا يعدو أن يكون سوى مراقب مأفون يلاحق متلطيًا أدباء لا وزن لهم؟ خاصة أنه أخطأ قبل قليل، وأسهم بتضخيم مكانته، بإشعال سيجارته. فلعن الساعة التي دخل فيها المحقق وضبط فعلته الشنيعة، ما الذي سيخطر له سوى أنه يتودد لمخبر حقير؟ فانزعج من المحقق فوق ما كان منزعجًا منه، واستعد كي يفرغ غلّه فيه بمضاعفة عيار التفعيس؛ سيطربش وجهه، ويكسر له ضلعين زيادة على الأقل.

قبل أن يقدم على ما نوى فعله، خطف بصره شيء ما غريب في المحقق، لاحظ على الرغم من وقفته التي يجب أن تكون ذليلة، أنها لم تكن ذليلة، فرصد ملامحه بتأنٍّ؛ كان المحقق ينظر شزرًا إلى الشخص الجالس ينفث دخان سيجارته، مظهرًا اشمئزازه منه. ما أثلج صدر العميد، كان في ازدراء المحقق للشاعر، انتقامًا له من هذا الذي اضطهده بدروسه الأدبية والإدارية والأمنية، ما أعاد المخبر إلى حجمه التافه، وإن كان بنظر محقق قميء.

كظم العميد سخطه وسروره معًا، مهما يكن، فالمحقق محسوب عليه، واحد من عناصره، ينبغي أن يكون ذليلًا أمام ضيوفه أيضًا؛ ما ارتكبه كان قلة أدب. عاجله ونبهه إلى أن صاحب الإخبارية أديب مرموق.

«الأستاذ سعدي شاعر معروف على مستوى القطر والبلدان العربية».

وتابع التعريف به، كي يكون على بينة من مركزه:

«وضابط أمن الأدباء».

لم يؤدّ هذا التنويه إلى رفع مقام المخبر، ولو كان ضابطًا في الاتحاد برتبة شاعر، أو شاعرًا برتبة ضابط. المحقق استضرطه، ما دام مخبرًا، تسقط عنه صفة الشاعر، لا يصلح لأكثر من إلقاء قصائد ترطن بمديح الرئيس. وحسب

خبرته بالشعراء، لم يلحظ في شكله رهافة، ولا في كلامه عذوبة، كذلك فإنّ في انجعاصته غلاظة، كان من نمط كتبة التقارير الذين لا يشفع لهم الفقر وشظف العيش أذية الآخرين. فتعزز احتقاره له. رغم تميزه عن المخبرين الآخرين بتعجرفه، لكن ما يجمعه معهم، لا يغفره له الشعر، ولا النثر، ولا القصة، ولا الرواية، ولا حتى النص المفتوح.

٥. تعليمات الرئيس الخالد

حوّل العميد نظره عن المحقق، تفعيسه لم يعد فوريًّا، تأجل دقيقة أو دقيقتين، ريثما ينهي الموقف بمجاملة للشاعر يستحثه بها على التريث، هناك فرصة أخرى ستسنح له بعد قليل. كان متحرقًا لإنهاء كلام بات فائضًا، لم يعد إلا ثرثرة، تؤجل تفرغه للهجوم على المحقق.

الشاعر لم ينتبه، واصل اللغو، بينما كان العميد يستعجله بنظراته دونما جدوى، لم يعد يشفي غليله من هذا الثرثار، إلا إسكاته بالانهيال على المحقق بالضرب كيفما اتفق، وأن يصيب جعير شتائمه الشاعر بالصمم.

سعل المحقق لافتًا الأنظار إليه، كان قد عزم على ضعضعة الإخبارية دونما مزيد من الانتظار، وذلك بنسف مهمة الشاعر من أساسها بلا تمهيد، بوجهة نظر حقوقية بحتة، فتكلم قبل السماح له بالكلام:

«بالعودة إلى قانون الرقابة، إرسال هذا النوع من التقارير إلى الفرع، يخالف مهمة المخبر».

قالها متوجهًا بكلامه إلى العميد الذي تغاضى عن وقاحته، فقد تكلم بلا استئذان، ومن دون أن يُسأل. والتفت نحو الشاعر ليدحض هذا القانون الذي ينزع عنه مهامه المخابراتية، وتمنى في دخيلته أن يكون لدى المحقق ما يتذرع به في دعواه الضعيفة.

ترفّع ضابط أمن الاتحاد عن الإجابة؛ النظر إليه كمخبر فقط، يغفل مؤهلاته الأدبية، لم يأتِ إلى الفرع كي يُهان من موظف صغير، ولو كان محققًا. اللافت أن رئيس الفرع لم يردعه، فسارع منبهًا المحقق إلى أنه شاعر أولًا وأخيرًا، ومهمته في الاتحاد تؤازر شاعريته، لا تنفصل إحداهما عن الأخرى، فهي مسؤولية أدبية من جانب، وأمنية تطوعية من جانب آخر، عرّفها باختصار:

«حماية الوطن من المؤامرات الإمبريالية وجيوش الظلام».

للوهلة الأولى، بدا جوابه المفحم لا يطاوله النقد، ما خيّب العميد. خاصة أن الشاعر استخرج تعبير الإمبريالية من ترسانته الأيديولوجية، مع أن استعماله ندر، بعد سقوط الشيوعية، ربما لأنه أوقع على الأذن. أما الجهاديون

الإسلاميون، فأراد تضخيمهم، فاعتبر شراذمهم جيوشًا. ما أضفى على كلماته المعدودة مدلولات فخمة.

التفت العميد نحو المحقق، واستحثّه بنظراته للرد عليه في مناظرة تهيأت من تلقائها. واطمأن عندما لاحظ من تحفز المحقق أن هذا ما يصبو إليه، لينقضّ على الشاعر.

بكل بساطة، شرح المحقق للعميد أنّ ما تنطّح المخبر له، كان مخالفًا للعمل الذي ينبغي إثبات جدارته فيه، الفرع اعتمده مخبرًا في الاتحاد لمراقبة الأنشطة السياسية من تدبيج عرائض مشاغبة، وتجمعات مشبوهة، أو إعلان آراء مخالفة، أو ما يشبهها. أما الكتابة الإبداعية، فالاتحاد لا يعوزه جهاز مراقبة، لديه لجان مكلّفة بالقراءة والمنع، كما أن المشرفين على الصفحات الثقافية في الجرائد مكلفون مراقبة ما ينشر لديهم. إضافة إلى أجهزة أخرى، ألحقت بها إدارات اختصاصها الرقابة. بالتالي، لا يجوز لأحد دسّ أنفه في قضايا كتابية، وإلا ارتكب مخالفة صارخة، ما دام هناك من أوكلت إليهم مسؤولياتها.

ومع أن العميد هاله تعريض المحقق بالمخبر، واستعماله عبارة غير لائقة، تعني أن الفرع يتدخل في ما لا يعنيه، متجاهلًا أنه عمله الوطني، ثم إذا لم يرفع الشاعر التقارير إلى الفرع، فلماذا يقبض راتبًا شهريًّا؟ أليس لقاء الإخباريات؟ أصلًا، ما هو عمله في الاتحاد؟ مع ذلك كانت فرصة ليشمت بالشاعر؛ إذا كان يحشر أنفه في قضايا تخصصية، فقد تطاول عليها، وانتزعها لحساب مآرب شخصية. تعجب في سرّه، فهو لا يستطيع التعجب بصوت مسموع، لئلا يبدو منحازًا إلى المحقق.

ارتجّ على الشاعر وزاغ بصره من قوة الهجوم، لم يتمهل في الجواب إلا ليستجمع الحجة التي ما قبلها ولا بعدها، ما يمنحه الحق في الإخبار عن كل ما يمسّ النظام كلامًا أو كتابة. ولكي يدعم هذا الحق، انبرى واقفًا على قدميه، وأطلق لذهنه العنان في التفكير، وليديه العنان في التمثيل:

أولًا، الرمز الذي اعتمده القاصّ أحال الأدبي إلى سياسي. لذلك، كان الإبلاغ عنه مخابراتيًّا لا أدبيًّا.

ثانيًا، القصة تحرّض على القيام بانقلاب، ماذا يكون الانقلاب إلا عسكريًّا، وتحريك قوات مسلحة؟ ما الذي سيسبقها؟ طبعًا، اجتماعات تآمرية، وراءها جهات أجنبية.

ثالثًا، وهو الأخطر، يعني الانقلاب، اقتحام القصر الجمهوري، ما الذي يمكن تصور حدوثه في الداخل؟ الأفضل ألا نتصور.

رابعًا، هذه القصة قد يقرأها شبان ضللتهم الاحتجاجات، وتراودهم مجددًا فكرة الاعتصام في الساحات، مع أنها أخفقت، لكن مع توافر السلاح، سيتشجعون على القيام بأعمال تهدف إلى الاستيلاء على العاصمة، تأخذ شكل مظاهرات، تستنفر مأجورين وعملاء، إن لم تكن انقلابًا، فهي على شاكلته.

خشي العميد من المناظرة، محاضرة الشاعر كانت خطيرة، فقد احتوت على أولًا وثانيًا وثالثًا ورابعًا، تستلزم من المحقق ردًا مساويًا لها في العدد والخطورة... تقود إلى مناقشات لا يعلم بها إلا الله، قد تمسّ خطوطًا حمراء رئاسية، تثير المزيد من الأخذ والرد، مع أنه لا أخذ ولا رد في هذه الأمور، لا سيما في اقتحام القصر الجمهوري. كل هذا خلافًا لأساليب الفروع التي تعتمد حلولًا لا بديل لها، تأخذ مجراها في الأقبية، وتخمد أنفاسٌ من جرائها.

يجب إيقاف المناظرة، حدّث العميد نفسه، أو أن نفسه حدثته. عمومًا، لا يمكن التكهن بما يعمل ضباط المخابرات له حسابًا، عدا الرئاسة.

في الوقت نفسه، كان متنبهًا، فلم يسهُ وهو يتابع المناظرة عن إعادة تقييم الشاعر في سرّه، فقد كان في ما مضى رفيق سلاح، ما يستوجب مؤازرته مهما كانت غلاظته، لئلا يشتبه في أخذه جانب محقق لا يساوي شيئًا، يَسْهُل الاستغناء عنه.

أما الضابط السابق والمخبر الحالي فمن يخلصه منه؟

واتته هذه الفكرة، مما بدا على ملامح المحقق، ما ينوي التفوه به ليس مضمونًا، بدا على وشك توجيه الضربة القاضية إلى المخبر.

تنحنح العميد، وقال للمحقق مهدئًا:

«بالنسبة إلى القصة، ليس بوسعنا إنكار ما تدعو إليه، ثم هناك اعتراف القاصّ نفسه في مقهى عام، والشهود من الزبائن الأدباء المحترمين».

وتابع ضاحكًا مع غمزة للمحقق للتخفيف من غلوائه:

«لا تنسَ، الشعراء يتمثلون خلجات الحب الرقيقة، فما بالك بنذر الأخطار. عدا أن تخمينات شاعرنا أضيف إليها حاسة سادسة لضابط مخضرم في الجيش، لا تخفاه كواليس الانقلابات».

لم يبدُ على المحقق أية استجابة، ملامحه تقول إنه ما زال مصرًّا على رأيه. وقد تتخذ المناظرة الراقية شكل مشادة غير راقية. لن يصلا إلى نتيجة، حتى لو تماسكا بالأيدي. حيّره، ما بدا على ملامح المحقق، لن يتوانى عن الرد.

لم يخطر للعميد أن المحقق لم يعد يسير على هواه، بل على هوى دافع يحثه على المضيّ في المناظرة حتى النهاية، ولو كلفته حياته، لن تكون أثمن من حياة المعتقل المنتحر. كان ضميره المرن يمارس عليه تأثيرًا، بعدما تصلب، وهجومه سيكون انتحاريًا. انبرى قائلًا بحدة:

«أصلًا لا يجوز للفرع النظر في الإخبارية، فهي ليست من اختصاصه».

فهبّ العميد من مقعده صارخًا كالمجنون دفاعًا عن منصبه، وقد تطاير الشرر من عينيه:

«منذ متى كانت هناك اختصاصات؟ الفرع مختص بكل شيء».

هذا الولد القميء يتطاول على الفرع. وقد يتطاول عليه، وينتزع صلاحياته. وإذا أغلقت المناظرة على هذا الاجتهاد، فقد حدد له اختصاص فرعه. تحفز للقفز عليه، سيرميه أرضًا، ولن يدعه قبل لفظ أنفاسه. لا عائق يمنعه من الإجهاز على عميل انكشف أمره في الفرع، وربما أودى بالشاعر معه إلى المصير نفسه، فالعميد الرهيب عندما يستشيط غضبًا لا يكتفي بواحد.

مع صرخة العميد، نفض المحقق عنه ما راوده خلسة، وانتقل إلى الدفاع، صرخ صرخة كانت أعلى من صرخة العميد:

«إنها تعليمات الرئيس الخالد».

العميد الذي تهيأ ليطبق على عنق المحقق ويرميه أرضًا، جلس بمجرد ورود ذكر الرئيس الخالد، لم يخطر له سوى أنه ضُبط بالجرم المشهود بالعمل ضد الرئاسة والخلود معًا، بينما جحظت عينا الشاعر، وسقط قلبه على الأرض. شنّف أذنيه، وتساؤلٌ عصف في رأسه: ماذا كانت تعليمات الرئيس الخالد؟

أنقذ الرئيس الخالد المحقق في اللحظات الأخيرة من مناظرة كادت أن تنتهي، ليس كما بدأت على هدى قانون الرقابة، وتطنيش العميد، وتخبط الشاعر المخبر، كانت ستودي به إلى القبو بعد فاصل تفعيسي.

«يعمل اتحاد الكتّاب وفقًا لتوصيات الرئيس الخالد، وأي تنازل عنها للفرع استهانة بتعاليمه الخالدة».

هيمن السكون بضع لحظات، كانت طويلة جدًا، خلالها لملم العميد والشاعر أشلاء أفكارهما. ولم يعد ما يسمعانه من المحقق إلا أنه كان ينبغي ألّا يغيب عنهما:

كان قرار توزيع الاختصاصات الرقابية بشأن الأدب قد بتّ فيه قبل عقود، إثر التقاء وفد من الأدباء مع الرئيس الراحل، واشتكوا من جهل الرقباء... ما علاقتهم بأسرار الأدب؟ فأوكل إليهم تولي مراقبة النتاج الثقافي بمختلف

أنواعه، فهم الأقدر على الكشف عن عيوبه من الأخطاء الإملائية والقواعدية، وضبط السرقات الأدبية، والانحرافات المشبوهة عن الاتجاه النضالي القومي والوطني والاشتراكي والعمالي والفلاحي والوحدوي... (ولا تستثنى أية انحرافات أخرى كالشذوذ الجنسي). فوعدوه بتنقية الأدب بأنواعه من الأوشاب الإمبريالية والرأسمالية والبرجوازية الكبيرة والصغيرة، والطفيلية والرجعية والطائفية، (ويشمل أية شوائب أخرى كالانتهازية والوصولية والانبطاحية)، فوافق الرئيس. ومنذ ذلك الوقت، لا يُنشر كتاب إلا بعد إخضاعه للجنة القراءة، فيحظى بالموافقة أو المنع، وهو في طور المخطوط.

ألقى الرئيس على عاتقهم مسؤولية الأدب، فتشدد الرفاق الرقباء على الرفاق الأدباء، مع أنهم أدباء مثلهم، لكن الرقابة أمانة، قرأوا ما بين السطور وما تحتها وما خلفها. فأسقط في يد الكتاب المشاغبين، كانوا مهما تفننوا في المراوغة، وتحايلوا على المسكوت عنه، فالرفاق الرقباء بالمرصاد لهم.

أصاب العميد والشاعر حالة التخام، إزاء ما لا تنفع فيه أي حجة مضادة؛ الشاعر تسمّر كأنه تلقى ضربة على أم رأسه، فانغرز في مقعده؛ غدت صلاحيات اتحاد الكتّاب في دائرة اللانقاش!! بينما العميد الرهيب ارتعب من تقرير يتهمه بتجاهل تعليمات الرئيس الخالد، مخالفتها تُطيحه إلى التقاعد.

التفت العميد نحو الشاعر مستنجدًا به، ليتنازل عن معضلة هي بالأساس أدبية تافهة، ما الداعي ليتدخل بها الرئيس الخالد؟ بينما استعاد المحقق ثقته بنفسه، وعبّر باعتداد عن الموقف الجديد:

المخبرون للأسف يورطون الأجهزة الأمنية بالأدب بلا وجه حق.

وتابع باعتداد أقوى، ونصح المخبر الشاعر بألا يتجاوز صلاحيات الاتحاد، وأن يرفع تقاريره من الآن فصاعدًا إلى الجهة المسؤولة، أي الاتحاد.

كان المحقق دقيقًا وصارمًا في تحذيره. فانتفض الشاعر من كرسيّه، خشي أن يقع العميد في حبائل المحقق:

«لو أن الرئيس الخالد لم يرحل، لكان له رأي آخر، حاليًّا لا يعرف ما يجري في غيابه، في البلد والمنطقة».

فردّ عليه المحقق معنفًا:

«إذا كان قد رحل، ففي الواقع، لم يرحل، بل توقع هذه الردة، وترك ذخيرة تدحضها، تتلخص بكلمة واحدة: الضمير».

٦. نزاع على تفسير الضمير

كلاهما تساءلا: ما علاقة الرئيس الخالد بالضمير؟ لكن أحدًا منهما لم يتجرأ على قولها. وانتظرا تفسيرًا من المحقق.

استلّ المحقق الضمير القومجي من الذخيرة الفكرية للرئيس الخالد، فدعايات الحزب القائد اعتبرته الرجل الأول في جميع مجالات الحياة من العلم والطب إلى المحاماة والهندسة، كذلك حقل الأدب. وبما أنه الأديب الأول، لم يعتمد كلية على الأدباء الرقباء. أدرك ببصيرته الخارقة أنه سيأتي يوم تتهاون الرقابة في الاتحاد، وتصبح انتهازية وعديمة الفاعلية، فأعلن في قول صريح، أصبح من أقواله الخالدة أيضًا، التي يجب ألّا يجهلها أحد:

«لا رقابة على الفكر إلا رقابة الضمير».

بذلك أنهى المحقق المناظرة التي بدأت ثانية.

صدمة الضمير عطلت عقل العميد، كانت فوق طاقته على التفكير. فالفكرة بدت تعجيزية، متى كان الضمير رقابة، بأي حق؟ بينما انغمس الشاعر في التفكير، يذرع الغرفة ذهابًا وإيابًا، فالمأزق بالدرجة الأولى مأزقه، إذا تُركت الرقابة للضمير، لن يكون ضابط أمن الاتحاد، بل شاعرًا بائسًا ومنبوذًا، يضطهده الأدباء عندما يعلمون أنه بات بلا فرع ولا سطوة.

اعترف المحقق في قرارة نفسه بصعوبة موقفهما المستعصي، فالعقبة ما زالت كأداء، ما الذي يعنيه الرئيس بالضمير؟ لا بد من تخريجة، ولو كانت هراءً. مهما كان هذا الهراء، فلن يوازي هراء الرئيس. لو كان هناك ضمير في الدولة لما كان هذا النظام. وإذا كان التفكير قد أعياه، فلأن أقوال الخالد كانت خالدة، سارية المفعول، وبما أنه أثارها، فالاتحاد والفرع ملزمان بالعمل بها.

فجأة، توقف الشاعر عن المشي وصرخ، لمعت في ذهنه فكرة جبارة، كانت إلهامًا يفوق الإلهام الشعري، والتفت إلى العميد متجاهلًا المحقق:

«حسب موقعي في الاتحاد، لا أبالغ إذا قلت إنني أمثل الضمير».

واستقام في وقفته متقمصًا الضمير؛ جادًّا، عابسًا، وعلى فمه ارتسمت تكشيرة خبيثة. استوفى بهذه الهيئة ظهوره الرقابي، وسدّ ثغرة في تقصير الاتحاد الفادح. بدا من قبضته المضمومة بقوة أنه سيبطش بمن يعترضه، وليس من غير سند، الرئيس الخالد أوكل إليه هذه المهمة الجليلة.

لم يؤخذ العميد بإلهام الشاعر، وإن رمقه بحسد وقرف وقد اختلس الضمير والرقابة معًا، وهيمن على المكان بسماجة. كان من الصعب ألّا يدلي برأي، فالأمر عائد إليه في النهاية، لن يدع الضمير لهذا المخبر الغليظ، وربما من الحصار الذي أحسّ به، وأطبق عليه، اندلعت فكرته الأشد جبروتًا.

«إذا كان الضمير رقيبًا، فلن يمثّله سوى المخابرات».

ورمق الشاعر محذرًا، لئلّا يطالبه بتقاسمه مناصفة أو باقتطاع جزء منه، فالفرع احتكره. وإذ رآه ينتفض على وشك أن يسأله حصة، لم يتهاون معه، أسكته مهددًا قبل أن يتكلم:

«أما أنت فلا تعدو أكثر من ساعي بريد».

وكان تواقًا لطرده من الفرع برفسة من قدمه، لو تجرأ على ادعاء السبق إليه. الشاعر لم يفتح فمه، كان في عقر دار العميد، ومن الجنون منازعته عليه، فامتثل صاغرًا لدور ساعي البريد.

تورط المحقق بالضمير، أصبح سلاحًا، بعدما فُخخ بقول مأثور للرئيس الخالد، تسلبط عليه العميد، ما يخوله الرقابة على الأدب، لمجرد أنه أصبح بحوزته، مع أن الخالد نفسه لم يأخذه على محمل الجد، قيل عبثًا، ولم يعول عليه، عول على المخابرات وهي نقطة لصالح العميد.

أدرك متأخرًا، أنه لم يتذرع بالضمير إلا لتعطيل صلاحيات المخابرات الأدبية، لكن انتُزع منه، فسارع ينقذ ما يمكن إنقاذه مستنجدًا بثقافته، استمده من قراءاته:

«اعذروني، الضمير ليس رجلًا ولا امرأة، ولا حتى إدارة أو مؤسسة، إنه صوت داخلي في الإنسان. ما قصده الرئيس الخالد، أن الرقابة على الفكر هي وازع داخلي».

مدركًا أن الرئيس عندما قالها لم يأتِ بجديد، ولم يحلّ مشكلة الرقابة أصلًا، ولا قضية الضمير المنزهة عن أي مأرب. لم يسق هذا التفسير، إلا لأنه بسيط، وفي الوقت نفسه صحيح، ويمكن استيعابه، وشاء أن يوضحه أكثر، بمنحه غموضًا بلا حدود:

«الضمير هو صوت الله في الإنسان».

«هل هذا ما قاله الرئيس...».

من قاله؟! حاول أن يتذكر، لكنه طار من ذهنه، ربما كان...

«حسبما أتذكر، قاله رجل روسي اسمه تولستوي».

قال العميد بامتعاض:

«آه... خبير روسي».

«لا، كاتب روايات».

«ليس خبيرًا؟!».

«إنه خبير بالنفس البشرية».

فتنفس الشاعر الصعداء وعلّق:

«نحن لا نأخذ بالاعتبار البضائع المستوردة».

ضحك العميد وقال:

«إياك وأن تعيد ما قلته، هذا شبيه بما يهددنا به الإرهابيون الإسلاميون، تعلم لديهم تفسيراتهم، ينسبون كل شيء إلى الله».

فارتد المحقق إلى مواقعه السابقة، كأنه لم يقل شيئًا، الضمير استنفد، لكن سينجده من حيث لا يدري، ما خطر له بقوة، وكان وليد لحظته.

«الأسلم، لئلا نمس الخطوط الحمراء، إحالة هذا الخلاف على الرئاسة؟».

بقوله هذا، وجه أنظارهما نحو الأوصياء الفعليين على تفسير وصايا الرئيس الراحل ومقاصده، والمؤهلين الوحيدين لاتخاذ قرار حاسم في قضايا دقيقة كهذه:

«إذا كان هناك من سيدلي بالرأي الفصل فهو القصر الجمهوري، وحده يستطيع البت فيه».

ولئلا يعتقدوا أنه يلغي دور الرئيس الخالد ويحيله على الوريث، سارع مؤكدًا: «أعيد وأنبّه، الرئيس الذي رحل، لم يرحل طبعًا».

لم يفتح العميد فمه، أذهلته قريحة المحقق، ظن أنها نضبت، لكنها شغالة. أحسّ بالتقدير نحوه، مهما يكن كان بارعًا بعدم تحميله مسؤولية تفسير تعليمات الرئيس الخالد. لم تعد سوى سؤال يلقى على عاتق مستشاري القصر الجمهوري.

بالرغم من حقد الشاعر على المحقق، أثار إعجابه حسن تخلصه من واقعة وفاة الرئيس، بينما هو خالد، لم يتلفظ بكلمة الموت لئلا يُظن أنه مات، ما زال في مناصبه لم يغادرها حتى تهمل أوامره، فبدا الرحيل كأنه ذهب في مشوار سيعود منه بعد قليل، مع أنها رحلة بلا عودة، وذهاب إلى غير ما رجعة. ما الذي يمنع رحيله، وما سرّ بقائه؟ إنه الخلود.

لم ينتهِ الاجتماع إلا واتفقوا من واقع إحساسهم بجسامة المسؤولية على رفع قضية القصة والقاص، إلى القصر الجمهوري، وحده يفصل بالجهة المخولة بالبت فيها.

٧. في انتظار جواب الرئاسة

لم يستوعب المحقق، ما مرّ عليه من أحداث تتالت متسارعة؛ آخرها مقابلته العميد الرهيب، بحضور مخبر وغد، وجدال كاد أن يدق فيه عنقه، كأنها حدثت بمعزل عنه، لكنها حدثت فعلًا. أكثر ما حيره، مسألة الضمير. وهذا الموقف الذي لا يمكن تصديقه، لولاه لكانت نهاية القاص تراجيدية، من حسن حظه، باتت المسألة في عهدة الرئاسة. لكن إلى متى؟

والأيام تتعاقب، لا مفرّ من انتظار جواب. خلالها، شهد الفرع نشاطًا إلى حد أثنى فيه المراقبون على أساليب التحقيق الجارية، كانت لا تخيب أبدًا، بل وشهدت تقدمًا في السنوات الأخيرة. ففي بداية الثورة كان المحققون يطرحون أسئلة، ويطلبون إجابات عنها. وأصبحوا الآن يطرحون إجابات، يجب على المعتقلين تأكيدها، والاعتراف بما يزيد عليها.

عانى المحقق من موقف حرج، كان الوحيد الذي ما زال يطرح أسئلة، يخالطها الوعد والوعيد، من دون استعمال الأساليب الدارجة في التعذيب. كاد أن يودي به إلى سين وجيم، لولا أنه كان شبه موقوف لحساب العميد.

تمنى لو يقدم استقالته، أو يطلب إجازة يختفي بعدها، كلاهما مستحيل، منذ بدأت حركة الانشقاقات في الجيش، بات التماس إجازة يستدعي الشبهة، فما البال باستقالة؟ ستكون إعلانًا غبيًا بالانشقاق.

الخاطر الذي لم يفارقه، ماذا لو تأخر جواب الرئاسة ؟ لم يتوقع خيرًا، أن يكون الضمير في عهدتها، أثاره للمراوغة والتأجيل. إذا كشفوا حيلته، فلن ينقذه أحد، ما دام وحيدًا ورفاقه الذين لا يعرفهم مجهولون.. القادم لا يبشر بانفراج، حياته سقطت في الجمود، مع بعض السيولة غير الملحوظة، وهذا ما أحبطه. في يوم ما بدت الحياة واعدة.

رنّ الهاتف الجوال، حنان على الخط. قالت بصوت هامس:

«ما رأيك بشرب فنجان قهوة؟».

أي إنها ستأتي إلى بيته خلال أقل من ساعة، فنجان القهوة كان الشيفرة المعتمدة للقاء العاصف بينهما، يبدأ في السرير وينتهي في السرير. بعد ذلك، قد يتسع الوقت لشرب قهوة حقيقية مع سيجارة.

سارع إلى الباص، لا، ليس مضطرًا إلى الانتحار، لديه الوقت لإعادة النظر فيه، حنان ألقت في حياته الآسنة حجرًا.

الحب لا يعترف بالموت.

بينما كان العميد الرهيب، في مكتبه بالطابق الثالث من الفرع ٣٣٣، يمضي الوقت يضرب أخماسًا بأسداس، يجلس تارة ويمشي تارة أخرى. إحساسه بالضيم يتفاقم، صلاحياته معرضة للانحسار، إذا وضعوا لها حدودًا، فهيبته ستُنتقص. لم يكن مجرد وسواس، ما دام الرئيس الخالد بالمرصاد من قبره. فلا أحد في الرئاسة يتجرأ على إلغاء، أو تعديل مقولات خالدة، لخالد لم يرحل، وإن رحل.

منذ تدرج في سلك المخابرات من المناصب الدنيا إلى العليا. لم يخطر له الأدب أبدًا، فلم يحس بوجوده، إلى أن صادفه مؤخرًا مسلحًا بالضمير، ليس أي ضمير، بل ما تفسره الرئاسة.

ما يؤرقه، لن يقتصر عليه وحده، انتزاع القضايا الأدبية من الأجهزة الأمنية موضوع كرامة، ولو كانت ضئيلة الشأن. قادة الفروع كلهم دون استثناء سيخالجهم الشعور نفسه، معرفة أن هناك أديبًا سواء كان أحمق أو معتوهًا، خائنًا أو مجنونًا... يكتب ضد النظام، ولا يستطيعون اتخاذ أي إجراء بحقه... فأية مهانة!!

هواجسه، لم تؤثر بسير العمل، ولم تشغله وسائل التعذيب، ما دام تمارس كلها في الفرع وأزود. يفد المعتقلون بالعشرات إلى الفرع، لا تمييز بينهم؛ الشبان والكبار والنساء والفتيات والأولاد... كلهم أعداء النظام، قُبض عليهم عند اقتحام قرية أو حيّ. لا متسع من الوقت للتحقيق مع الجميع، الكبار في السن لا يتحملون، يتناقصون اختناقًا في زحام الزنزانات. أما الشبان، فحسب قدرتهم على التحمل، النساء موقوفات. أما الأطفال مع أمهاتهم فرهائن. بينما الذين يغادرون الفرع، لا يشترط أن يذهبوا إلى بيوتهم، إذا كانوا أبرياء، ولا إلى المستشفى، إذا كانوا جرحى، ولا إلى المحكمة، إذا اعترفوا بجرائمهم، قد يرحلون في أكياس سوداء في الشاحنات. التعذيب لا يختصر الوقت، قتلهم يساعد أكثر.

أما المخبر سعدي، فأدخل تعديلًا على حياته، تضاءلت حركته اليومية بين الاتحاد ومقهى الروضة، رافقها تضاؤل موازٍ في نشاطه التجسسي، من يدري ما سيتفتق عنه قرار الرئاسة بشأن الضمير. طبعًا لن يتجرأوا على تجاهل أقوال الرئيس الخالد.

السؤال، إذا كانت البلد كلها تحت الرقابة، عدا الأدباء، فما الذي سيمنعهم من انتهاز الفرصة واستغلال الحرية التي لا يكفون عن المطالبة بها، واستثمارها بما يسيء إلى الوطن؟

لم يشجعه تشاؤمه على الاستغناء عن التنصت، كان بحكم العادة، وإن لم يعد يتلصص على الأدباء عن عمد، لئلا يشعرهم بذلك. وطالما نشاطه بلا مفعول،

لِمَ بذل الجهد؟ لكنه احتاط للمستقبل، وثابر على كتابة التقارير، وكانت تتراكم لديه، حاليًّا طريقها إلى الفرع معطل.

وريثما يعرف ما سترتئيه الرئاسة، أبدى للأدباء الأصدقاء والأعداء، قدرًا كبيرًا من المودة؛ ربما ارتد إلى الشعر.

ولقد كان لتأخر الرئاسة في البتّ بقضية تنازع الاختصاص بين الفرع والاتحاد، ثقل أرهق ثلاثتهم بالوساوس؛ العميد والمخبر والمحقق، فالوقت طال، والصبر نفد، وليس باليد حيلة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثالث
القصر الجمهوري

١. العقل المدبّر

تسلك القضايا التي تجتاز عتبة القصر الجمهوري طريقًا غامضًا، يصعب التنبؤ بمسارها، والتكهن بمصيرها. قد لا تختلف عن مجاهل أية وزارة أو مؤسسة أو إدارة، إن لم تلفلف، أو تُضيَّع أو تُنسَ. لا أهمية في دهاليز القصر إلا لتشديد وسائل الحراسة.

سمعة القصر المخيفة ليست خافية، تطير في داخله رؤوس وتنتصب رؤوس. لا فارق بين رأس رئيس الوزراء، أو رأس ضابط رئيس جهاز أمني، ورؤوس عمال تعزيل المجاري وتبليط الأرصفة، وشرطة دوريات المرور.

كان العميد وحده من يستطيع متابعة القضية في القصر، لكنه لم يتجرأ، لم يستبعد أن يطير رأسه، كان لتضارب حسابات الرئاسة العائلية والمخابراتية، ما يؤثر في قراراتها، من ناحية التوازن بينها، بتغليب العائلي عليها، أكبر الأثر في الإبهام المحيط بها. كان العميد أسوة بغيره على حذر، خشية أن تطيحه هفوة تافهة، أو دونما هفوة، هكذا بالخطأ بموجب إخبارية كيدية.

وإلا فكيف يُقال رؤساء الفروع من مناصبهم؟ بالإخباريات الكيدية أيضًا.

ما يعرفه ضباط المخابرات، عمّا يجري في كواليس القصر، ليس بالقليل أبدًا، كانوا مطلعين عليه بجهودهم الخاصة، فالشائعات المتسربة من داخله، تسري بمنتهى السرية، وكانوا حرصاء على ألّا يكونوا السبب في تخطيها أسوار القصر، لم يرشح عن قضية الضمير خبر، حتى بدا أنها لم تمرّ حتى في الكواليس.

ربما وصلت إلى علم المستشارين، بحكم توافر طاقم من المحنكين منهم، مختصون بكل شيء، وبناءً على آرائهم تُتخَذ القرارات بشأنها، لكنه تصور خاطئ، فالمستشارون لا يستشارون، مع أنّ وجودهم لا غنى عنه، لماذا؟ لأنه لا رئيس بلا مستشارين. مثلما لا قرار لمن يُدعَون بصناع القرار، ولا رأي لأصحاب الرأي.

ماذا عن الضمير؟ قد يظن أنه في عهدة كبار المسؤولين، ولا علم للرئيس به، لكنه اعتقاد خاطئ، الرئيس يهتم بجميع القضايا، وبتفاصيل التفاصيل، ويستشير بخصوصها عائلته المؤتمنة على الشعب، والقرار النهائي يتخذه وحده، وأحيانًا بالمشاركة معهم، وربما مع بعض الموثوقين منهم، فالأقرباء ليسوا كلهم موثوقين، سوى ما يُدعى الحلقة الضيقة والضيقة جدًا، كذلك

الموسعة والموسعة جدًا، والقابلة للتحجيم، مع بعض التحفظات... وما يُقرر يرسل إلى الأجهزة الأمنية لتنفيذه. بالمقابل، ترسل الأجهزة الأمنية تقاريرها إلى الرئاسة، لئلا يغيب عنها شيء، كبيرًا كان أو صغيرًا.

نعم، القضية في القصر، لكن لا أحد يعرف عنها شيئًا.

ما دمنا في القصر، فلنتابع، ربما أحطنا بشيء عنه، لنُزيل بعض ما يشاع من أقاويل واهية. فمثلًا، يُزعم أن هناك دولًا صديقة لها اليد الطولى في المساعدة على تنفيذ بعض المخططات السرية الخارجية، وهو أمر غير صحيح، لا يجوز المبالغة به، المصالح المشتركة تملي التعاون بين الدول، ما يستدعي التنسيق بينها في بعض العمليات، الحساسة منها، وخاصة حين تقرر الرئاسة إزالة بعض العقبات خارج حدودها، من دون الإعلان عنها، لا يكلف النظام نفسه عناء إنكارها، ولا يهتم بأن يشار نحوه بالاتهام، خاصة إذا كان اغتيالًا أو تفجيرًا، رغم ادعائه ببراءته منها، وإن كانت الدلائل تشير إليه.

الرئاسة أحذق من أن تترك أثرًا يدينها في عملياتها بالخارج، تراعي ألا تستطيع أية جهة إثبات شيء ضدها، ولا سيما أن من ينفذها مجموعات تأخذ أوامرها من طريق سلسلة من القنوات، بحيث لا تعرف إن كانت القناة الأخيرة، هي الأخيرة فعلًا، أو حلقة في سلسلة، عمومًا تنقطع عند أبواب القصر، هذا إذا لم تنقطع عند الحدود الدولية للجمهورية، فلا تعرف محطتها الأخيرة، ولا إذا كانت تمسّ أفرادًا من الأسرة الحاكمة.

عمومًا، تسقط في ظلام دامس.

من الأمور المعروفة، أن الوساطات تلعب دورها داخل القصر، وأن هناك مفتاحًا خاصًا لكل نوع من القضايا، فهي اختصاص واحتكار، ولمعرفة الرجل المفتاح ثمن باهظ. بالمناسبة، تلعب الشرور البشرية كالتنافس والتزلف والحقد والغيرة والحسد... إضافة إلى المال كشيء مفروغ منه، أدوارًا في تحريك قضية أو إنهائها، أو اختلاقها من عدم، أو معسها مهما عظم حجمها، فالذين في القصر بشر مثل غيرهم، مهما كانت مناصبهم، وقد يكونون أسوأ.

هذه الآلية الحميمة، الغامضة والمعقدة جدًا في آن واحد، ما يصنع لغز العقل المدبر للنظام.

كان قرار العميد الرهيب حكيمًا في عدم متابعة القضية. الأسرة الحاكمة تتطير من الإلحاح أو التحري عن أية قضية، قد يظنون به الظنون، إذ لكل أمر مدخل إليه، وهو المفتاح السابق ذكره، فالمولج به يتفحص قضية السائل، أو طالب الخدمة لئلا يكون فيها ما يريب، بعدئذ يسمح بتمريرها. طبعًا الكلفة

عالية جدًا، رجال القصر لا يرضون بالقليل، ولو كانت القضية صغيرة، سمعة القصر مكلفة بحد ذاتها.

أما موضوع الأدب، ولئلا نغمطه مكانته الاعتبارية، فقد راود بعض الجهات في الدولة وضع اليد عليه، سرعان ما استنكفوا؛ الأدباء لا تأثير لهم. مثلًا، ما قيمة مؤلفي الروايات والقصص في الدولة؟! إذا شئنا الحقيقة، لا وزن لهم على الإطلاق. ولا ننسى شعراء المديح، ولو كانوا يشيدون بالشعب، الشعب نفسه لم يعد بالحسبان، ولو تهافت على الظهور في المسيرات وأنشد الأناشيد، وأيّد وغنى وهتف حتى بُحَّت الحناجر، ما دام أنه لم يقم وزنًا للزعيم الخالد، ولعن العائلة وشتمها فردًا فردًا، ومزق الصور وحطم التماثيل، ولم يقبل بأقل من إسقاط النظام.

... فالأدب مثل الشعب لم يوضع على لائحة اهتمامات الدوائر المعنية في القصر.

الخلاصة، منعًا للاستطراد، لا عميد الفرع ولا مخبر الاتحاد لهما مصلحة في رشوة موظفي القصر، الأدب ليس قضية دسمة، ولاعائد من ورائها، فلِمَ التزلف لدفشها، أو إعمال المكائد لتعطيلها، ومقابل ماذا؟ تحمّل أعباء الأدب ومشاكله وإشكالاته!! عدا أنه خاسر أكثر منه رابحًا ماديًا، ولو كان رابحًا معنويًا. مع هذا، فليذهب إلى الجحيم، وإن كان ضروريًا في الدعاية لحرية الرأي، لكن ما الحاجة التي تدعو إلى الحرية أو الرأي؟

الأدب عمومًا، تافه أمنيًّا. فترك وحيدًا يبحر في دهاليز القصر.

في الحقيقة، لم يتطوع موظف واحد في القصر إلى تبني هذه القضية البائسة، أو التدخل فيها، ولم تشفع لها أقوال الرئيس الخالد في إثارتها، حتى إن محاولة تزكيتها بدت هدرًا. القضية غير مستعجلة، الروتين سيتحكم بها، ومهما نالها من تأخير، ستأخذ دورها يومًا ما في المستقبل المنظور، أو غير المنظور؛ زمن قد يطول إلى أشهر، وربما سنوات، أو تطوى إلى الأبد.

العميد الرهيب، قرر تناسيها، لسبب جوهري، الأدب لا يحرك العزيمة ولا الهمة. بالنسبة إليه، سيراقب الأدباء من دون لفت الأنظار، لن يدعهم في مأمن، لئلا يظنوا انهم يتميزون بمعاملة خاصة؛ أمنُ الوطن لا يقف في وجهه أدب ولا أدباء. لكنه أحسّ بالغبن، لقد تورط في قضية، كان في غنًى عنها. لولا اعتراضات المحقق، لما رفع بشأنها استفسارًا إلى الرئاسة.

ما جعله يشعر بالارتياح، أن المحقق اللعين لم يأتِ على ذكر لها، كان يمارس عمله بصمت، وكأنه لم يتفوه بكلمة عنها. بينما المخبر اختفى، واختفت معه القضية. وهكذا عاد الأدب إلى موقعه، قضية ثانوية.

٢. فرع جديد للمخابرات

بعدما أسقط العميد الضمير من حساباته، فوجئ بخبر عاجل، لم يكن عاجلًا فعلًا، وإن كان مثيرًا على صعيد الأجهزة الأمنية: الرئاسة تفكر في إنشاء فرع جديد مستقل للمخابرات.

لم يأخذ الفرع الجديد حيّزًا كبيرًا من اهتماماته، اعتقد أن تمدد الحرب على رقعة البلاد كلها، فرض احتياطات أمنية إضافية.

نظرًا لما أثير حوله، بدا أن المقصود دمج الأجهزة الأمنية في جهاز واحد، وإن لم يؤخذ على محمل الجد من فرط ما يتطلبه من إعدادات، لم يكن الوقت يسمح بها في زمن الحرب، لكنه أثار توجس الضباط، ولم يأتِ من فراغ، فاستعادوا وساوسهم، الرئاسة تعمل على تأسيس جهاز مركزي يضع الفروع كلها تحت إمرته المباشرة، ما الذى سيحل بهم؟ إن لم يفقدهم استقلاليتهم، سيذوبون فيه. وربما استغني عن أكثرهم. كان في إقصائهم، إلصاق جميع الجرائم بهم، وتلميع صورة النظام، وخروجه من القتل والتعذيب والذبح نظيف اليدين، لكنهم لولاه ما قتلوا، ولا ذبحوا، ولا عذبوا، ولا اغتصبوا.

الرئاسة لا تمزح بموضوعات الأمن، بعدما لوحظت عمليات شد وجذب ملتوية بين أفراد العائلة والمسؤولين الأمنيين الكبار، كل منهم يريد الهيمنة، إن لم يكن الاستيلاء عليه، ليضيف إلى سلطته مركز ثقل يوسع به دائرة سطوته.

اعتمدت الشائعات هذا السيناريو المُحبط، لكن الشائعات نفسها أزاحته إلى سيناريو أقل إحباطًا، بدا أكثر معقولية، الفرع سيحتل الواجهة بينما يقبعون في الخلفية، يعملون لحسابه، وتصبّ عملياتهم في ملفاته. لم توفره الانتقادات أيضًا، من ناحية أن الفروع كلها ستجيّر جهودها له، مع أن نجاحها كان كاملًا ضد المظاهرات التي كانت سلمية، وبرعت في تحويلها إلى مسلحة، وإخمادها في فترة تعتبر قياسية بالنسبة إلى انتشارها في أرجاء البلاد، حتى إن حماستهم المبكرة ورطتهم في سحقها بمعادلة إما قاتل أو مقتول. بماذا كوفئوا؟ غدوا مستهدفين من الإرهابيين بالسيارات المفخخة. لو وقع ضابط منهم في كمين، فرصاصة في الرأس، أو ذبح بالسكين، إن لم يقطع لسانه ويجدع أنفه قبل الإجهاز عليه.

بدا الفرع الجديد تزيدًا لا فائدة منه؛ الأجهزة الأمنية والفروع الحالية، غطت البلاد من أدناها إلى أقصاها، لا بقعة نائية تخلو من فرع ومخبرين، حتى أصبح للكثير من المواطنين أكثر من ملف، لدى أكثر من فرع. إذا كانت الرئاسة تأمل من ورائه تجنيد أكبر عدد من العناصر الاستخباراتية للسيطرة على البلد، فالأمن مضبوط لم يختلّ، يكفي تعزيز الفروع الموجودة. أما الحرب، فعسكرية وبالأسلحة الثقيلة.

سرى اللغط، ولم يتوقف، بينما القرار، إن لم يكن شائعة، فحبر على ورق.

الخبر العاجل الثاني؛ مسؤولون في القصر الجمهوري نفوا تفكير الرئاسة باستحداث فرع جديد، فكيف بتأسيسه؟! فزالت الغمّة. لكن لم يمضِ على النفي ساعات، حتى وردهم خبر عاجل، بالتأكيد مجددًا على تأسيس الفرع.

ما المسوغ لنفيه، ثم تأكيده؟! كأن هناك جهة في القصر تصرّح بشيء، وجهة أخرى تصرّح بعكسه، وإن قيل إن الخبرين الأخيرين كانا من ضرورات التعتيم للتعتيم، والتشويش للتشويش، من دون أي هدف آخر، كما بلا تفسير.

ما الغرابة؟ الرئاسة لا تهتم بالشكليات، ولا بالأسباب.

المستغرب فعلًا، تسريب خبر عن قرار غاية في السرية!! إذ كل ما له علاقة بتحديثات في أجهزة الأمن متكتم عليه ومحظور تداوله، إلا إذا كان الغرض من تسريبه، أن تتناوله الأوساط المعنية بالنقاش. بالتالي، كان في إعادة طرحه، توجيه الأنظار إليه ثانية، وكان بالضبط نحو فرع تحت التأسيس فعلًا، ما جدد الجدل حوله.

بينما واصلت التسريبات تدفقها تحت دواع أخرى: إن توسيع ميادين العمليات الاستخباراتية، حتّمَ الاستعانة بفرع إضافي، سيحدث فارقًا على ساحة المهمات الأمنية السرية، ما يفتح أبواب جهنم على المناطق المحررة في الجمهورية. سيترأس الفرع ضابط أمني مخضرم، خبير بالحروب الكلاسيكية، يستعين بخبراء أجانب في استراتيجيات الحروب المضادة للعصابات.

احتلت التوقعات الجديدة ساحة التكهنات السابقة، وتأيدت بدعوى الإرهاب؛ الجيش في وارد تحضير الترتيبات لمواجهة ستطول مع عصابات الإرهابيين، ليست موضوع أسابيع، أو شهور، بل عام آخر، وربما أعوام، ما يحتّم تلافي حدوث الأسوأ؛ لهذا أرتئي أن يتخصص الفرع الجديد بها. وبسبب تخصصه، ستتعدى مهامه الحرب المستعرة إلى القيام بضربات وقائية، تُفرَز لها إمكانات نوعية، بتزويد الفرع بوسائل بعيدة المدى جغرافيًا، ليس صواريخ، فالأجواء مراقبة، بل آلية استباقية، تسهل القضاء على الدعم القادم من الخارج قبل عبوره الحدود، فإذا كانوا من المجاهدين المتطوعين، فلا يلزم جيش لمنعهم، بل عمليات استخباراتية، تقضي على خلاياهم الآخذة بالتحرك نحو الداخل السوري.

هذا التفصيل، يميّز الفرع الجديد عن الفروع الأخرى العادية التي لا تتخطى قدراتها حدود الدولة إلا نادرًا. ما يرقى به إلى جهاز يسمح مجاله الواسع بتكليفه بعمليات خارجية دولية، تقتصر عليه وحده، ويمنح الضابط رئيس

الفرع قدرًا كبيرًا من الصلاحيات الاستثنائية، وإسباغ الكثير من الامتيازات على العاملين معه.

٣. سابقة في تاريخ المخابرات

أثار الفرع المرتقب حسد الضباط الأمنيين، ومعهم ضباط الفرق والألوية، أن يقفز فرع حديث الولادة، إلى مرتبة متقدمة، وأن يتمتع بصلاحيات غير محدودة، تحت غطاء عمليات سرية. دبّت الغيرة وطاولت الضابط المفترض أنه انتهازي في حال ظفره برئاسته، سيكون الآمر الناهي في فرع مستقل، يرتزق من ورائه كثيرون؛ أذونات سفر وتعويضات أخطار ومصروفات وهمية... وويسكي ونساء.

عادت الوساطات للعمل بعدما تعطلت، لم يأمل الضباط كثيرًا، مع أنه لم يُعيّن أحد بعد لهذا المنصب، الأغلب أنه من نصيب ضابط في الجيش من العائلة الرئاسية، ولو كان من الدرجة الثالثة أو الرابعة. مع هذا، لم يفتّ في عضدهم، فتحرك كل منهم في اتجاه، يبذل الوساطات لرجال القصر والحلقة الأوسع، طالما الضيقة لا تطال.

أنذر اللغط المكتوم بصراع بين الأجهزة على منصب في الفرع الجديد، ما اضطر الرئاسة التي فوجئت بالتخبط المخابراتي والعسكري إلى إظهار عدم رضاها. كان ما يجري قد خلخل ضجيج العاصمة المنذورة لهدير المدافع، وعرقلت الوساطات المحمومة سرايا المداهمة عن اقتحام الغوطة والهامة، وتمهلت راجمات الصواريخ عن قصف داريا، وتعطلت طلعات الطيران فوق إدلب، لانشغال الضباط بما أخذوا يروّجونه عن تسريبات باتوا يختلقونها، ويثرثرون بها. لم تكن صادرة عن القصر، بل عن الخيال المخابراتي، غير العاجز عن اختلاق ما لا يختلق. ما أدى إلى تبرع ضباط مخضرمين بالتحذير من هذا اللغط، فقد تجاوز الحدود، إذ وضع القصر الجمهوري تحت رقابة الفروع.

ما حثّ الرئاسة على التدخل سعيًا لكبح الأجهزة، وكان الرد حاسمًا، بمنع تداول أية أقاويل، فالرئاسة تصدر أوامر، وليست ملزمة بإيضاحات وتفاسير، خشية من حدوث تمرد في الأجهزة الأمنية، ليس أكثر من الحرد عن العمل ساعات إضافية.

هذا الإجراء، دفع الوساطات نحو التلكؤ، وليس إلى الإنكفاء.

قطعًا لدابر الشائعات المخابراتية، وكانت على وشك معاودة نشاطها، صدر تعميم رئاسي، اعتبر كل ما جرى تداوله لا أساس له من الصحة. وذلك بتحديد طبيعة الفرع المتنازع عليه، والكشف عن وضعيته القانونية؛ مع تأكيد بقاء كل

شيء على حاله. الفرع الجديد لن يتبع لأي من الأجهزة الأمنية الرئيسة المعدودة على أصابع اليد الواحدة، ولا علاقة له بعشرات الفروع المنتشرة كالفطر في أنحاء البلاد. صحيح أنه فرع من أصل، لكنه يتمتع بالاستقلالية، علاقته المباشرة مع جهة في القصر الجمهوري.

ولأن الرئاسة ليست ملزمة بتبرير إجراءاتها، اعتمدت آلية تعميم أخرى، فلجأت إلى إطلاق حزمة من التسريبات، واحد وراء الآخر. كان التعميم مثبطًا، أما التسريبات فمفجعة، ليس لأن آمال الضباط تبخرت إلى هباء، بل لأن اختصاص الفرع خالف كل ما سمعوه عنه، إذا كان صحيحًا، وهو مستبعد، فعلى الأغلب لإيقاف مساعيهم، بنفي ما لا يُنفى، وتسويغ ما لا يُسوغ.

التسريبات حددت أولًا، زبائن الفرع الجديد: المثقفون!!

سيقتصر زبائن الفرع على مثقفين ما زالوا في البلد، وإن كان المطلوبون منهم خارجه!!

التسريب اللاحق كان أكثر غرابة مما سبقه، لم يأتِ على ذكر المثقفين من السياسيين المعارضين المزعجين، أو غير المزعجين، إنما وبالتحديد، المثقفين من الأدباء الذين يكتبون الروايات والقصص والأشعار، هل هذا معقول؟!

بمرور الدقائق، باتت التسريبات أكثر وضوحًا؛ الرئاسة لم تنكر الأدب، ولم تكفّ عن تأكيده، فأصبح الفرع بصورته الثقافية، وبالتحديد الروائية والشعرية والقصصية، مفروغًا منها. وكان لإصرارها أبلغ الأثر في تبديد سوء الفهم، بتشييد الفرع على الأدب وحده!!

لم يعد بوسع الضباط سوى إطلاق التلميحات المؤسفة والهازئة؛ إن احتكار الأدباء للفرع الجديد، امتياز لا يستحقونه، أسبغ عليهم توجسًا غير جديرين به، ما علاقة حملة الأقلام بحملة السلاح، أو حتى بالشعب، والاحتجاجات الشعبية، والمساجد والعراضات الدينية والإرهابيين الدمويين؟ الأدباء يسكنون في أبراج عاجية، ولو رتعوا في المستنقعات. ومن الإسراف إفراد فرع لهم، وتجيير مؤامرات لحسابهم، طالما أنهم يفتقدون مؤهلات خيانية. وإذا كانت هناك مؤامرة يعدونها، فمن ابتداع تخيلاتهم، موضوعها الغرام والعشاق والعذال، وربما التشهير بحبيبة هجرتهم. ثم بماذا سيعترفون؟ أقصى ما يمكن أن يرتكبوه من موبقات، سرقة كاتب من زميله، فكرة ما، يزعم أنها توارد خواطر. وقد يتشجع أحدهم فيُضمِّن قصة أو رواية ثرثرة ما عن الحرية والعدالة، وبعض التجديف، تفقد مفعولها في إنشائيات لوثات المناجاة تحت ضوء القمر، وتقلّب النفوس في عتمات الشك والخيانة. إن كان الفرع حقيقيًّا، فالهدف منه القضاء على الأدب، الفروع لا تُحيي بل تقتل.

تلميحات الضباط لم تكن عابثة كلها، كانت في أحد وجوهها جادة؛ تجاربهم العابرة مع الأدباء، أثبتت أنهم الفئة الأكثر سكينة، لا خفايا لديهم، ما يفكرون فيه، سواء كتبوه أو لم يكتبوه، لا خطر منه، وبلا تأثير. التحقيق معهم غير مجزٍ، اتصالاتهم الوحيدة، حسب تهيؤاتهم مع شياطين الإلهام. وإذا عارضوا فلا تزيد أحاديثهم على التلميح والمناكدة. ألاعيبهم النضالية لا تجوز على المخابرات، مهما بالغوا فيها، مجرد لغة وبلاغة. من الذي يقرأ ما يكتبونه في جحورهم التي تُدعى الملاحق الثقافية؟ لا أحد سوى المتقاعدين، وسرعان ما يذهبون منها إلى صفحة المنوعات وشبكات الكلمات المتقاطعة.

أخيرًا، بين مصدق ومكذب، إذا كانت تسريبات الرئاسة حقيقية، فسيُسجل الفرع الجديد سابقة في تاريخ المخابرات عن هدر في الجهد، بإقامة فرع لا لزوم له، لأدباء سيصبحون عالة على الأمن.

كانت عاصفة الانتقادات التي انهالت على الفرع، قد أحالته حطامًا.

٤. الحل الأمثل

لم يتصور أحد أنه قبل فترة وجيزة، لم يكن للفرع وجود، ثم خلال بضعة أيام، أمسى على قائمة أعمال الرئاسة، وأصبح حقيقة واقعة خلال ساعات، وبُتّ في صيغة القرار النهائي: سيختص الفرع الجديد بالأدباء حصرًا!!

هذا القرار لم يخطر للعميد الرهيب، رغم خبرته المتأخرة في الأدب، أخفق في رصده، مع أن التسريبات أعادت إلى ذهنه موضوع القضية إياها، هل لها علاقة بالفرع الجديد؟ رفض الفكرة والسؤال، هناك مخبرون صغار ضليعون بالأدب، لا يهملون قصة ولو كانت قصيرة، أو حتى قصيدة من شطرين. مخبر كالشاعر سعدي، كفيل بضبط أمن اتحاد الكتّاب برمته. فلماذا الفرع؟

كذّب العميد القرار في سرّه، فهو لا يستطيع تكذيبه جهرًا، ربما كان صحيحًا. نفاه بلباقة كانت مستهجنة على طباعه الشرسة. خلافًا ليقينه، كان قرار الفرع الأدبي حقيقة لا يرقى إليها الشك. فأصيب بخيبة كبيرة. وإن داراها بأن الرئاسة تقصد الإرهاب الفكري. لم يصدق أن الرئاسة ستضيع الوقت والجهد على أدباء لائحة جرائمهم لا تزيد على الكتابة في الغرام والفقر، الياسمين والنساء، العشق والجنس.

لو قُيِّض للعميد معرفة ما حدث في كواليس الرئاسة، لطار صوابه، وربما أصابه خلل في عقله، لأن خلافه السخيف مع الاتحاد كان السبب. لو أن الفرع ٣٣٣ لم يستفسر الرئاسة عن الضمير، لما كان هناك فرع للأدب والأدباء.

لم يدر أن المهندس رجل الأمن القوي في القصر الجمهوري، كان في مأزق، فهبطت عليه هذه القضية، كأنما من السماء لتضع حلًّا لحيرته وحيرة الرئاسة.

كل ما في الأمر وباختصار، أن فرعًا غير موجود، يبحث عن اختصاص غير معروف، كان الأدب الحل الأمثل لإيجاده.

٥. المهندس: التجميد والعودة

لا يظهر المهندس رجل القصر إلا نادرًا، يقبع في الظل مغرمًا بالخفاء. لم يُعرف عن مسؤولياته الجسيمة المتعددة سوى النزر اليسير، رغم أنه كان أحد المسؤولين الأمنيين الكبار في القصر الجمهوري. رافق الرئيس الأب نحو عقدين من الزمن، ثم ورثه الرئيس الابن مع من ورثهم، إلى أن أصابه التجميد قبل بضع سنوات، وأعيد إلى القصر لعلاقته بملفات سابقة ذات أهمية، كُلِّفَها في زمن الرئيس الراحل.

التعتيم الذي أحاط به، شابته الأقاويل، لو لم تكن الرئاسة بحاجة إلى خبراته، لبقي مجمدًا منقوعًا أمام التلفزيون، يأكل وجباته الثلاث، وينام على وقع استماعه لنشرات أخبار قناة «الجزيرة»، ويلعب البوكر مع مَن بقي له من أعوان؛ سائقه وعناصر مرافقته. لم يستغنِ عنهم، يدفع رواتبهم من جيبه الخاص، مقابل مظاهر وجاهة، توحي أن النظام لم ينبذه. أصدقاؤه المقامرون يلعبون مع غيره من المسؤولين الجدد، الخسارة معه لا فائدة منها. أصدقاؤه في الضيعة لا يلعبون البوكر، ولا يحتسون الويسكي، يتعاطون العرق وقصص الضيعة عن المشايخ ومواعيد الحصاد وخلافات الحموات مع الكناين. لم يأنس لغير عشيقته مع أنه لا يثق بها، لكنها عشرة عمر، هي أيضًا لم تتخلّ عنه رغم زواجها ومغامراتها، تزوره أو يزورها بين فترة وأخرى.

لم يكن يعاني إلا من الملل، فيسرّي عن نفسه عندما ينزل إلى العاصمة، بالتسلي مع الفتيات العابرات صغيرات السن، لا يبخل عليهنّ بهدايا باتت متواضعة ليس لضيق ذات اليد، بل لضيق هذا الفراغ الذي يعيشه، ربما امتد ولا مستقبل بعده، كما أن النبع الذي لا ينضب أصبح شحيحًا، فكان يعوضهن عن هباته بإعارتهن سياراته، فيرفهن عن أنفسهنّ بالتشفيط في الشوارع، ولا يتجرأ شرطي على اعتراضهن، اسمه ما زال يوقع الرعب في القلوب، مثلما كانت الأرقام المخيفة لسياراته تنذر بعقوبات مسلكية أقلها النقل إلى مناطق نائية حيث لا بشر، لا تعبرها سوى شاحنات المهربين. كان يحلّ لهنّ مشاكلهن بالهاتف، سواء ما يعترضهن في الجامعة، أو الشقق المفروشة.

ما انفك كثير من الموظفين الكبار والصغار يقدمون له خدمات تافهة، كانت تتناقص. تلك أيامه السيئة، انعكست على صحته. بعدما أقلع عن ممارسة الرياضة، ازداد سمنة وترهل كرشه، لا جلسات تدليك ولا مشوار الهرولة الصباحية. كابوس الخوف من الكسل والبدانة رافقه في سنوات العطالة الشاقة.

غدا مجهولًا، مع أنه يستحيل على أي مسؤول أمني الحفاظ على مجهوليته في بؤرة أصحابها ماضيهم مسجل في إضبارات لا فرق إن كان وطنيًّا أو مشينًا. المهندس بالذات، لا يقين عنه، سوى أنه لم يكن مهندسًا، بل ضابطًا سابقًا، انتقل إلى القصر الجمهوري، وأعاد هيكلة الأجهزة الأمنية، بعدما وُضعت تحت رقابته في عهد الرئيس الأب. ثم ابتدع جهازًا ومنصبًا حساسًا، فكان رئيس جهاز للمخابرات ملحق بالقصر، ما أضفى عليه حصانة أطاحها الرئيس الابن، لم تكن نكرانًا لخدماته. السائد والمتعارف عليه، أنْ لا حصانة دائمة لأحد، مهما كانت مكانته أو خدماته.

الضباط الأمنيون الكبار معلوماتهم عنه متواضعة، لا فضائح مالية أو جنسية معتبرة، فصعب عليهم الإيقاع به. المهندس ضبط علاقاته، فلم تعتورها مغالاة أو تسيّب. كان حريصًا على عدم إظهار غنائمه، وإخفاء ما جناه من أموال، كما لا بطر في البذخ، وإنما بتعقل. جمعته مع كبار الضباط معرفة شخصية في زمن كان دقيقًا. كان بعضهم على صلة شبه وثيقة به، أو هكذا بدا لهم. علاقات لم يحاول إحياءها، تجاهلوه بعدما غدا بلا مناصب. لم يعذرهم، مع معرفته أن الاقتراب منه حينئذ كان معرضًا للمساءلة. ما استجد فيما بعد من متغيرات وتحالفات أعاده إلى مناصبه، لم يجرِ تفعيل منصبه الحساس، لكنه رجع أقوى مما ذهب. لم يجدد علاقاته بداعي الوفاء لصداقات قديمة، فالأمن لا يحبذ الوفاء، يستحسن ألّا تكون علاقات العمل على وفاق، الأفضل متناحرة، كانت الوضع الطبيعي لعلاقات المسؤولين الأمنيين، الضغائن تتحكم بهم، وأسبابها متوافرة؛ صفقة، امرأة، مناقصة، سطو على ملكية، استثمارات غير قانونية، تقاسم عمولات، تهريب مخدرات... فلماذا لا يكونون على شقاق؟ تجاوزُ خلافاتهم لا يكون إلا بالتفاهم على مؤامرة. هذا لم يحصل.

أناقته لافتة، أصدقاؤه التجار يختارون بدلاته وقمصانه وربطات العنق، كانت من جملة الهدايا التي يتحفونه بها. بدانته الطفيفة تمنح طوله الفارع مهابة متألقة، وتضفي على وجهه الممتلئ حيثية طبيعية. خلال السنوات الماضية تخلّف عن الموضة، سرعان ما استدركها التجار القدامى، أضيف إليهم تجار شبان أكثر سخاءً، أخذ وقتًا ريثما اعتاد كماليات إضافية، كانت خليطًا من الهواتف الجوالة وساعات اليد الإلكترونية وأجهزة صغيرة ودقيقة، لم يُتعب نفسه بمعرفة طريقة تشغيلها، فكان يهديها لمعارفه من النساء سيدات الأعمال، يقدمنها لعشاقهن الشبان. علاقاته التي تجددت، لم تُطمئن التجار ولا السيدات، مخاوفهم كانت حقيقية، قد يغدر بهم، فهو لا يَنسى.

كانت ملامحه المحيرة بتغيراتها المريبة، وخوائها البارد، ماركة مسجلة من النوع الشائع، تطبع وجوه رجال النظام، وتُعزز الإحساس بأنهم يتمتعون بسلطة تبيح تجاوزات بلا حدود. ابتسامته الهازئة التي تطفو على ملامحه،

تقلق حتى المقربين منه، فيشعرون بعدم الارتياح، كانت خلال بارقة خاطفة، تعكس جفوة تسحق أية ألفة، فيجمد الدم في عروقهم، تنبئ عنه أكثر من سجله الذي لم تغب أصابعه عن تشذيبه، وإخراجه بأحسن صورة، كان بالمقارنة مع غيره نظيفًا من شدة هزاله، لا تنال منه سوى الملفات فائقة السرية، ولم تكن مباحة لأحد سوى عدة أشخاص فقط، أحدهم الرئيس.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الرابع
أزمة رئاسية

١. هل الأدب مع النظام أم ضده؟

منعًا للشائعات والانتقادات حول الفرع الجديد، وكانت قد أصبحت لا أكثر من هذر، دعا المهندس إلى اجتماع لضباط الأجهزة والفروع، لوضع حد لها، تحت عنوان آخر؛ إجراء مراجعة لما وصلت إليه الأوضاع الميدانية في الداخل، والضغوط الدولية من الخارج؛ والتأثيرات المتبادلة بينهما.

حضر الضباط، لم يتجرأ أحد منهم على التخلف، على الرغم من اعتراضهم الضمني على تبعيتهم له، كان أكثر ما يضايقهم منه أنهم ضباط قادة، بينما المهندس بلا رتبة عسكرية، يصدر إليهم الأوامر، كأنه مارشال.

استهل المهندس حديثه عن توجهات النظام الاستراتيجية بعد انتهاك حدود الدولة، وخروج بعض المعابر الدولية عن سلطة النظام، وتحول الحرب من داخلية إلى إقليمية ودولية. الدول الغربية تتدخل منذ بداية الأزمة، كذلك تدفق الجماعات الإرهابية من طريق تركيا، سورية في صراع مع العالم. يمكن القول إننا نتعرض لمؤامرة كونية، وهو ما ألمحنا إليه مرارًا. طبعًا هناك دول تعرفونها، إيران وروسيا، تساعدنا وتقف معنا.

لم يخرج المهندس عن عاداته، فهو لا يسمي الأشياء باسمائها إلا بالكثير من المواربة، ويبالغ دائمًا بأخطار داهمة، على رأسها الإرهاب. ضباط المخابرات اعتادوا هذه النغمة، لا بديل منها، تصلح لكل أزمة، لكن الجيش لم يحارب الإرهاب، حتى بعدما أصبح الإرهابيون قوة ضاربة على الأرض، الاشتباكات معهم محدودة. أوامر القيادة تؤكد مطاردة الشبان الذين أشعلوا الانتفاضة، وإن لم يعد لهم أثر، بينما الثورة محاصرة في الأرياف، الجيش النظامي يقصف سرايا الجيش الحر، والإرهاب متروك ليستفحل، وما التلويح به دائمًا، إلا لرفع جاهزية الأجهزة الأمنية إلى حدودها ما فوق القصوى، فالهدنة معهم لن تدوم، الإرهابيون عاجلًا أو آجلًا، إذا كانوا ماضون في القضاء على الفصائل الإسلامية المعارضة، فسيأتي الوقت لينقضوا على الدولة المفيدة. بينما الإعلام يفبرك قصص الإرهاب لإقناع الرأي العام بأنهم مستهدفون من الإرهاب، لمجرد الاستهلاك الدولي، مثلما الإصرار على المؤامرة الكونية، للاستهلاك الإعلامي.

ختم المهندس حديثه بتعليق غير متفائل:

«إذا كان ثمة من مواجهة شاملة، فستكون معركة وجود».

-

أي إن سورية ستدخل الحرب ضد العالم كله.

إلى هنا، والاجتماع انتهى، لكنه لم ينتهِ فعلًا، بل بدأ. فالمهندس منزعج مما دار حول فرع الأدباء. بات إيقاف شطط الخيال المخابراتي مطلوبًا، بعدما شهد اللغو حوله إقبالًا ونفورًا ساحقين، وتجاذبته الوساطات، ثم ما أثاره من تهكم واستهزاء، ولم يكن قد غادر الورق بعد، وقبل اختيار الموقع الذي سيتمركز فيه، والبناء الذي سيحتله، أو تحديد ملاكه من الضباط والجنود والجلادين والمخبرين... الأقاويل أعطته حجمًا من السلبية مبالغًا فيه. المهم أن يصبح حقيقة في الأذهان وعلى الأرض، ثم نسيانه.

مجرد إتيان المهندس على ذكره، توجسوا منه، بما أنه وراءه، فسيقع تحت إشرافه المباشر ورقابته الحصرية، لم يعد الفرع مريبًا إلا لاهتمامه به. خامرهم هذا الهاجس وتجاوزوه بسرعة، لا يعقل أن يصرف المهندس جهده على فرع تافه. رجل مخابرات القصر، لن يعرّض سمعته للسخرية، ربما حان الوقت لينفي صلته به. بيد أنه سيبلغهم آخر أخبار الفرع، وكان جادًّا:

سيكون جاهزًا قريبًا، مسألة أيام فقط.

وكان أكثر جدية وهو يعلن الرمز الذي سيُعرف به.

كان رقمًا كالمعتاد: ٦٥٠.

فصار للفرع وجود فعلي. لم يعد حبيس الورق، إذ فرع بلا رقم، كرقم بلا فرع.

ثم يغيظهم، ويؤكد أسوأ ظنونهم، بعدما عجزوا عن تصديق ما يسمعونه، خاصة وهو يعلن مؤكدًا من على المنبر اختصاص الفرع ٦٥٠، باقتصار زبائنه على الأدباء من شعراء وقصاصين وروائيين ونقّاد وكتّاب دراما ومخرجين مسرحيين وسينمائيين وموسيقيين... وكأن تعدد أنواعهم واختصاصاتهم يبيح إقامة فرع خاص بهم.

النظرات المستهجنة التي تبادلها الضباط، قاربت فيما بينهم. لم يعد الفرع الجديد أسير شائعات، بعدما انقلبت إلى حقائق تابعت انحدارها إلى حد يدعو للرثاء، واتفقوا دونما كلام على أنه منح الأدباء ميزات قلما حظي بها متآمرون حقيقيون.

لا بأس انكشفت الطبيعة السخيفة للفرع الجديد، وإذا أحسوا بشيء دهمهم. فهو أن يأخذهم سوء طالعهم إليه. مع أنه مستبعد، المفروغ منه، انتهاء الإجراءات الرسمية، وتوزيع المناصب فيه.

تبارى الضباط لإلقاء أسئلتهم، وكانت بقصد التلميح إلى عدم جدواه، ملخصها: بوسع أي فرع الاهتمام بهذه التشكيلة من الأدباء والفنانين على هامش عمله، إنهم من نثريات المطلوبين؛ ولا داعي لتمييزهم عن المعارضين، طالما أن أي أديب يصبح مثقفًا مشبوهًا، عندما يحشر أنفه في السياسة.

أوقف الأسئلة، شملهم بنظراته الباردة، وأكمل كأنه لم يسمع منهم شيئًا:

قرار إنشاء الفرع ٦٥٠ لم يُتخَذ اعتباطيًا، لسبب وجيه، لا يصح أن يفلت الأدب من براثن الأمن، ينبغي عدم دفع الأدباء إلى الخندق المعادي. أنتم لا تعرفون من الأدب إلا ما تسمعونه عن أدب المعركة، وأدب النصر، وأدب الهزيمة، والأدب الثوري، والأدب التقدمي، والأدب الرجعي. هل سمعتم بالأدب الذي يقلب الدول عاليها سافلها؟

ما يجب معرفته، ووضعه في الأذهان، أن الأدب ليس استثناءً في المعركة، ولا على الهامش، يجب تجييره لصالحنا، قبل أن يصبح خطرًا علينا، السؤال الجوهري الذي يجب طرحه الآن: هل الأدب مع النظام أم ضده؟

بدا السؤال بالنسبة إلى الضباط مفتعلًا، بلا معنى، وفي غير وقته، لم يشكل الأدب في الماضي، ولا في الحاضر خطرًا. إلا إذا كان الأدباء قد اشتكوا من المخابرات، فأرادت الرئاسة معاملتهم برقة، لكن الأجهزة الأمنية تعاملهم برفق، وإن كان بلا احترام، لبراءتهم من السياسة، لم يستخدموا معهم الخيزرانات والكابلات والهراوات، لا يتحمل الواحد منهم أكثر من إسماعه قارص الكلام مع فركة أذن، أو لبطة على مؤخرته، وقد يكيلون له عدة صفعات ولكمات... لإيقاع الرعب في قلبه. ومهما يكن، الأدباء سواء كانوا مع النظام أو ضده، لا يقدمون ولا يؤخرون، حتى لو كانوا جواسيس وعملاء.

الخلاصة، لا يستحق الأدباء فرعًا مكرسًا لهم.

وإذا كان المهندس قد ابتسم، فباستهزاء:

في الظروف الحاضرة، النظام على سباق مع الزمن. يجب قطع الطريق على خصومنا، قبل أن ينجحوا في تجنيد الأدب ضدنا، وهو أمر يحلو للأدباء التطوع له، سابقًا حلموا بالنضال، كان يمدهم بالأفكار، اليوم أغلبهم عاطل من التفكير والكتابة، قد تخالجهم تلك الرغبة الرومانسية في التضحية بلا تضحية، فالشعب متوافر، سيستخدمونه حجة لامتطاء معركة بلا طائل. من الغباء منحهم فرصة ليناضلوا على حساب من سيغررون به.

أي أن الأدب والفرع مفروغ منهما.

أيقنوا وهم يتبادلون النظرات بين آونة وأخرى، أن قصة الفرع الأدبي لم تمرر إلا لأن المهندس ارتجل اقتراحًا ورّط الرئيس به، أصبح بعد الموافقة عليه في

حكم الأمر الواقع، فحبذه كإنجاز يحسب له. المهندس يبحث عن نجاحات وهمية، هل هناك وهمٌ يفوق الأدب؟ سنوات التجميد جمّدت ذهنه، ونالت من سلامة حساباته. ما زال في الطور نفسه، مجمدًا لا يقدّر سخونة المؤامرات المحدقة بالبلد، يبتدع أخطارًا، ينشرها ويخشاها.

لا فائدة من مماحكة المهندس.

بات الأدباء من اختصاص الفرع ٦٥٠، ولا يهم إن كانوا أبرياء أو مذنبين، مجرمين أو غير مجرمين، مشبوهين أو غير مشبوهين، إرهابيين أو جواسيس.

٢. أمهات حزينات

لم يعترض قرار تأسيس الفرع عوائق بيروقراطية، بمجرد اتخاذه تسارعت الإجراءات الروتينية، وتسارعت معها التسهيلات. فللفروع أولوية لا يعلوها جيش، ولا وزارة، أو مؤسسة. الصعوبة الوحيدة التي تواجه مثل إجراء كهذا، هي التوافق على ضابط يتولى رئاسته، فيحصل التجاذب والتطاحن، لا ينحصر داخل العائلة المالكة فقط، ربما بعض الدول الصديقة التي لها رأي في تشكيل أجهزة الأمن، يحق لها الإدلاء بدلوها لعراقتها الأمنية، ولأسباب أحدها التعاون المشترك، ما يوجب التنسيق معها، بدعوى أن العدو واحد، فتنصح بتوصيات، غالبًا تشجع على الإكثار منها وتوسيع صلاحياتها.

كل هذا لم يحدث، كانت رئاسة الفرع محسومة لصالح المقدم جميل المرعد. جاء تعيينه من أعلى المستويات في القصر، وأثار الاستغراب الشديد عند إعلانه. المعتاد ألا يسند هذا المنصب لضابط تقلّ رتبته عن عميد، بينما جميل المرعد مقدم، وحديث الرتبة أيضًا، ترفّع قبل شهرين، إضافة إلى أنه لم يأتِ من كواليس الأجهزة الأمنية، ولا علاقة له بالأدباء والمثقفين، ولم يعرف له أية صلة بالتوجيه المعنوي، أو التوعية القومية، مغمور حزبيًّا، ولا نشاط أمنيًّا!!

ألا يهيب بنا الشعور الوطني التساؤل: لمصلحة من هذا التخريب المتعمد لفرع أجهض قبل أن يبدأ أعماله؟

ما الذي بوسع الفرع القيام به، إذا كان من نصيب ضابط خامل الذكر؟

الحقيقة غير المعروفة، هذا المنصب أعدّه المهندس خصيصًا للمقدم جميل، بمحض المصادفة، حُجز له بلا أية اعتبارات وطنية، ولا إن كان مؤهلًا له، لولاه أصلًا لما كان لهذا الفرع وجود، استدعته أزمة خاصة رئاسية عصفت بها زمنًا طويلًا، وأصابت كل من تعامل معها بالصداع والمغص، وأحيانًا بالهستيريا. أدت إلى مشكلة مقيمة، تمنوا انتهاءها كيفما اتفق، ليرتاحوا منها.

لم يأتِ تعيين المقدم جميل اعتباطًا، جرى تحت تأثير ضغوط تعرضت لها العائلة الرئاسية على امتداد أربع سنوات ونصف، كان وراءها أم جميل

المرعد، وكادت أن تمتد سنوات أخرى، لولا المصادفات.

كان وحيدها الذي بقي لها بعد استشهاد الأب في حرب الـ٧٣، واستشهاد ابنها الأكبر في الحرب اللبنانية، وابنها الثاني في مداهمة لأحد أوكار الإخوان المسلمين، وابنها الثالث بتدهور سيارته قبل ثلاثة أعوام، بينما كان في مهمة أمنية.

التمست الأم نقل ابنها الأصغر من فوجه المقاتل على الحدود مع إسرائيل، ليخدم الوطن في أي منصب في الداخل، تلك كانت البداية، كانت شروطها بالحد الأدنى. فالأم لا تريد أن تفقد ابنها الرابع، بعدما عانت من الوطن عدة مرات، وعانى ابنها الأخير منه مبكرًا؛ تيتم باستشهاد أبيه قبل أن يولد بدقائق، وفجع باستشهاد أشقائه بالتتالي، الواحد بعد الآخر، والآن جاء دوره، فتدخلت الأم لتضع حدًّا لهذه السلسلة.

هذه المصائب، لم تثنِ ابنها عن التطوع في الجيش.

لم تكن واسطة أم جميل إلا علاقة الجوار مع عائلة الرئيس في الضيعة، ارتقت إلى قرابة شكلية، كان كبار العائلتين يتخاطبون على أنهم أخوة وأخوات في زمن مضى. رغبت العائلة الرئاسية في التخفيف من عناء الأوضاع الصعبة للأم الأرملة مرة، والثكلى ثلاث مرات، فخُصّ الولد الباقي على قيد الحياة برعاية فائقة، فقد نشأ وحيدًا ورافقه الحزن صغيرًا ويافعًا وشابًّا. نجح في المرحلتين الإعدادية والثانوية، مع بعض المساعدة، بينما علق في الجامعة في الصف الأول والثاني والثالث كلية التجارة، فجرى تنجيحه رغمًا عنه. ومع أنه احتجّ على هذه المخالفات، أجبرته أمه على التغاضى عنها، لئلا تمسّ سمعة العائلة الوطنية شبهة كسل، إذ لا يجوز لولد يتيم تحيط به أوسمة الشهادة العائلية الرسوب في الجامعة. لم يقبل بهذا الحل إلا بعدما تعهدوا له، بعدم إكمال تعليمه الجامعي، وقبول تطوعه في الجيش، والانتساب إلى الكلية الحربية، رغم ممانعة الأم.

عقب تخرجه من الكلية، أصرّ على الخدمة في القطعات المحاربة. كان المستقبل واضحًا؛ السير على درب رجال العائلة الذين قضوا نحبهم في ساحات الشرف. كان الموت قدره، والشهادة أيقونته. فأصبح الالتحاق بأبيه وأخوته مسألة وقت وظرف ملائمين ستهيئهما الحرب مع إسرائيل واسترجاع الأراضي المحتلة. من سوء حظه، الحرب انتهت منذ عقدين، وإن كانت شغالة في دروس الثقافة القومية.

في الجيش على الخطوط الأمامية، لم يظفر حتى بمناوشة مع العدو. وبسبب طبيعته الانطوائية وأفكاره الاستشهادية، حاول أن يستفرد بعملية جهادية، لكنه نكص عنها لعدم توافر باعث ديني أصولي. ظن أن الجهاد من الشعائر

الحصرية بالمسلمين السُّنة، فأبلغ رؤساءه وإدارة شؤون الضباط استعداده للقيام بعملية انتحارية استشهادية، دونما نوازع دينية، لحساب تحرير الجولان. وكان الجواب بالرفض مع التعنيف، عللته القيادة باستحالة تلبية رغبته إلا في سياق عمليات عسكرية، إذ لا يجوز أن يحارب وحده، ويستشهد وحده.

لم تفلح أمه في إقناعه بالانتقال إلى دمشق، رغبته في القتال حتى الموت لا تتوافر إلا في الجبهة، كما أن الحزن لم يفلته، لازمه الحنين إلى الموت، كأنه كان ميتًا وجاء إلى الحياة رغمًا عنه، أو بمحض الخطأ، وإن حاول إقناع أمه بأن الشهادة كُتبت له وهي حامل به.

حرضت الأيام الأولى للمظاهرات الاحتجاجية مزاجه المكرس للموت المبكر، بعدما غدت الجبهة غير صالحة لحرب لن تأتي، فقرر شنّها على المحتجين، تحت تأثير دعايات الإعلام عن تغلغل المندسين في المظاهرات، ترسلهم جهات خارجية مشبوهة تتبرع لهم بالمال وحبوب الهلوسة وسندويشات الشاورما، وتزودهم بالسلاح والذخائر.

في مدينة درعا حيث اندلعت المظاهرات على مقربة من معسكره، كان شاهد عيان على القناصة يسددون بمهارة على الشبان المتظاهرين في الصدغ، أو بين العينين، والجيش النظامي يطلق الرصاص عشوائيًّا.

ما الشهادة في قتل شبان عُزَّل، وما البطولة في مقارعة المظاهرات بالقنص مختبئًا مثل فأر، لا يظهر منه سوى ثقب يتسع لفوهة بندقية مثبت عليها منظار؟ إن لم تكن حربًا، فلن تفي بشروط الإقدام الاستشهادي.

هذا هو المتوافر، أن يَقتل لا أن يُقتل. ما خيب آماله، فارتدّ عن الشهادة.

استنكرت أمه أفكاره الوطنية المميتة وغير المميتة. حتى لو سايرت ابنها. ماذا لو قُتل مصادفة؟ لن يكون في عداد الشهداء. وهو ما شدّ عزمها ثانية على نقله إلى الداخل ليبرأ من نزواته الاستشهادية، ولو كان توارث الشهادة أصبح تقليدًا عائليًّا.

وافقت عائلة الرئيس على لسان أم الرئيس على حمايته من نزوة التهافت على الموت، ولو كان لأسباب وطنية، فالتحرير مؤجل إلى أجل غير مسمى، خاصة أنها حرب شعب، وليست حرب شخص مفرد. أما المظاهرات فلا يعوَّل عليها، سيُقضى عليها قريبًا، لن تدوم أكثر من أيام، أو بضعة أسابيع على أبعد تقدير. ثم من أجل ماذا سيموت، ما زال شابًّا والحياة أمامه؟ تضامنت أم الرئيس مع أم جميل، فوُضع المقدم تحت الإقامة الجبرية في قطعته العسكرية، على أن ترفع تقارير أسبوعية للقصر عن طريق قيادة الجيش للاطمئنان إلى سلامته من الاستشهاد.

إزاء تكرار استعمال تعبير «الاستشهاد»، أثارت قيادة الجيش إشكالًا، بالتنبيه إلى عدم جواز استخدامه في قضية الضابط جميل، والأسلم تناول قصة احتجازه على أنها بدافع الاحتياط من عملية فدائية لم يحل أوانها بعد، فالاستشهاد للإرهابيين، والفداء للعلمانيين، لئلا يُظن أنه إرهابي. فأصبح فدائيًّا في التقارير.

لم يتقيد جميل بهذا التحذير، كان واثقًا من أن أباه وأخوته الثلاثة كانوا شهداء، إذا كان فدائيًّا، فقد لا تجمعهم معًا المرتبة نفسها في الجنة. آزره تدخل أم الرئيس، منعت هذا التمييز في التقارير وصححته بناءً على الواقع، وأصبح الجهاديون الإرهابيون ينتحرون، بينما الوطنيون العلمانيون يستشهدون، فوجب تخصيص الشهادة للعلمانيين، بالنظر إلى أن الإرهابيين سرقوها. وكان أكبر برهان أن زوجها الرئيس الخالد وابنها الأكبر الوريث الأصلي للرئاسة، كانا علمانيين، فقدتهما بعمليات تفوق الشهادة بأسًا وتضحية، كلاهما لم يكونا ملزمين بمغادرة الحياة، ساقهما إليها، أن الوطن كان خيارهما، وحدها دفعت الثمن غاليًا، أصبحت أرملة وأمًّا ثكلى.

كان لتعاطف أمّ الرئيس مع أمّ جميل في محنتها تأثير كبير. كانت رغم مشاغلها تتحكم بقرارات الدائرة الضيقة سياسيًّا وعسكريًّا ليس بصفتها عقيلة الرئيس الخالد، بل شريكته وصنوه، لا تقل عنه، استأثرت بها السياسة منذ نعومة أظفارها، وأصبحت بحكم عراقتها في العمل الحزبي المضاد لحزب الرئيس الخالد نفسه، وغدت بعد اقترانها به أكبر من أي حزب، مع هذا لم تهمل الأمور الإنسانية العائدة للأمومة، فاهتمت بأبناء الشهداء وبناتهم. فالأمهات يقدّرن مشاعر الأمهات، فوعدت أمّ جميل بعدم وجود أي مانع من اختيار ابنها أي منصب يروقه في العاصمة، وليكن أحد الفروع الأمنية.

رفعت أمّ جميل من سوية شروطها، الفروع ليست مقتصرة على العاصمة، كانت مزروعة في أنحاء البلد كلها، لا تخلو منها منطقة، ورجتها نقل ابنها إلى الضيعة، وأن يُفتتح له فرع أمني آمن، حيث لا عدو ولا خنادق ولا مدفعية. أما العاصمة، فتعجّ بالأخطار، ولا أمان لفرع في داخلها، ولا سيما أن الإرهابيين يفجرون مراكز المخابرات. طبعًا لم تصحح أمّ الرئيس لها معلوماتها، فالتفجيرات ليست كلها إرهابية، المخابرات لديها مخططاتها التفجيرية، لا داعي لذكرها، خشيت أن تطنطن بها الأم الحزينة.

اعتذرت أمّ الرئيس عن موقع الفرع الأمني، كان أكبر من طاقة ضيعة على استيعابه، من أين يأتون له بزبائن معادين للنظام في منطقة موالية له، ولو كان شكليًّا؟ أكدت لأمّ جميل أن الموت في دمشق الوادعة ليس مضمونًا على الإطلاق، لأن الجيش الذي يحرس القصر الجمهوري يحمي العاصمة أيضًا.

٣. رمزية الاستشهاد

لم يكن سبب تردد أمّ جميل ومساومتها إلا قلب الأم الحنون، لم يرضها سوى سلامة ابنها، فثابرت على الطلب والشروط، ولم تكن كثيرة، كانت حسب المعتاد؛ منصبًا لا يقلّ عن رئيس فرع، مع مستلزماته المعتادة من سيارات، وراتب مجزٍ، وعناصر خدمة، وعناصر حماية، وحراسة مضاعفة... تتطلبها مظاهر وظيفة بطبيعتها تتطلب الأبهة، مع توفير رخاء زائد ورفاهية أزيَد، لمنع الأفكار المميتة من مراودة ابنها الوحيد.

اعترضت إدارة شؤون الضباط، آخذة بالاعتبار التقييم العسكري للضابط جميل المرعد، يمكن القول إنه غير صالح عسكريًّا، فكيف يصلُحُ استخباراتيًّا، كفاءته القيادية تكاد تكون معدومة. كان من النمط المحير، يصفن ويصفن، يحلم ويحلم، ولا يعمل ولا يعمل، ثم يلهج بالموت الاستشهادي مع العدو المعتمد، الحصري سابقًا ؛ إسرائيل. ما يدعو إلى التساؤل، كيف غفل المقدم عن السلام، الاستراتيجية النهائية التي وضعها الرئيس الخالد؟ كما أن العدو تغير، أصبح الشعب، نقصد العناصر الإرهابية.

أضافت قيادة الجيش، عائقًا آخر لا يمكن تجاوزه، الرتبة التي ينبغي أن يحملها المرشح لهذا المنصب غير كافية. لسوء الحظ، تفصل ابنها جميل رتبتا عقيد وعميد عن رتبة رئيس الفرع، أي زمن لا يقلّ عن ثماني سنوات، مع العلم أنهم دفشوه دفشًا إلى رتبة مقدم، لم يكن يستحقها.

أصرّت القيادة على استحالة استثناء الضابط المذكور من شرط الرتبة، ليس لخطورة المنصب الأمني وحساسيته فقط، بل بسبب الخبرة أيضًا، ما يجب توافره لرئاسة الفرع. حتى لو تغاضينا عن ثماني سنوات، فقادة الأفرع ستثور ثائرتهم لهذا الخرق الفاضح، ما يشكل بالنسبة إليهم غبنًا جسيمًا. بالتالي، لا يحق له التمتع بامتياز يزيد على أمثاله من الضباط.

أخذت أمّ الرئيس برأي القيادة، مع أنها كانت ضليعة بالأمور العسكرية؛ الرتبة ليست شرطًا، ولو كانت شرطًا، فالعائلة لا يعوقها شيء داخل أراضي الجمهورية، ولا خارجها، فوجدتها فرصة لإيقاف طلبات أمّ جميل عند هذا الحد، وأفهمتها، أنه لا يمكن تجاوز الرتب والأقدميات، لئلا تحدث خلخلة في الجيش يؤدي إلى زعل وحرد، وربما تمرد، يستحيل إقناع الضباط، رؤوسهم متحجرة كحجر الصوان. ستوفر لابنها منصبًا أفضل، فعرضت منصب ملحق عسكري في السفارة السورية، في أي بلد عربي أو غربي، بذلك تبعده مع أمه عن القصر الجمهوري، قبل أن تصبح أمّ جميل أحد سكانه من كثرة ترددها عليه.

أمّ جميل لم تقبل، كانت متطيرة من كل ما يمتّ إلى العسكر بصلة، ولو كان في آخر الدنيا. فقالت أم الرئيس إنها ستعيّنه ملحقًا ثقافيًا، وشرحت لها ما يعنيه هذا المنصب، سيترأس في الواقع فرعًا أمنيًّا في السفارة، لن يحتل السفير سوى الواجهة فقط، بينما يهيمن ابنها على السفارة كلها، بيده الحل والربط، لا يستطيع أي موظف فيها التصرف إلا باستشارته وبأذن منه، عمله لا يقتصر داخلها، بل يشمل جميع السوريين خارجها، يرسل تقاريره عن المؤامرات التي يحوكونها ضد بلدهم، لدى عودتهم إلى البلد يتلقفهم رجال الأمن من المطار. فاعتذر الابن، أي المقدم جميل المرعد، لن يكون جاسوسًا للرئاسة، وإن كانت حجته الرئيسة، لن يفارق تراب الوطن، رغبته الدفن في الأرض نفسها، أرض الشهادة.

ارتأت قيادة الجيش حلًّا لهذا الإشكال وتداعياته، أن يستشهد من دون اشتباك مع العدو، بتأمين عملية ليلية تحقق أمنيته، بلا ضحايا إلا الشهيد نفسه، لا يُعرَف من فجّر، وكيف انفجر، وأين تفجّر؟ والتعتيم على تفاصيلها إعلاميًّا. العدو الإسرائيلي سيتفهم هذه العملية الغامضة التي ستقع ضمن الحدود الدولية للجمهورية؛ جواسيسه سيعلمونه بمحليتها البحتة، ولن تخفى عليهم خصوصيتها العائلية والإنسانية.

الحل لم يعجب أمّ الرئيس، الغموض سيسيء إلى فكرة الاستشهاد العلماني، ويذهب تفجير المقدم جميل هباءً، وقد يُستثمر لصالح جماعات الإرهاب الإسلامي، يغتنمون الفرصة ويُجيّرون شهداءنا الأبرار لمآربهم، ولو كان من الطائفة التي تقاتل ولا تستشهد على هذه الشاكلة الرجعية، ما يشكل انقلابًا على سمعتها، مع أن العملية سترضيه، لكن على حساب رمزية الاستشهاد في الجيش العقائدي الذي جعل من القتال حتى الموت دفاعًا عن النظام، شهادة لا توازيها أية شهادة.

ما كان من القيادة إلا أن اقترحت المنصب المؤهل له؛ مدير مؤسسة استهلاكية عسكرية، ولو كان فيه بعض التجاوز، يُسمح به، على أن يعتبر من ضباط الخدمات الثابتة، مع صرف النظر عن مخاطرها المادية المحتملة الناجمة عن التعاون بين الضباط البليدين والحجّاب الأذكياء، لن ينتج منها أكثر من نهب المؤسسة، ثم إحراقها. يمكن غضّ النظر عنها، من دون التنازل عن أمن البلد... مع وعد بعدم تعريضه لأية مساءلة.

أمّ جميل، لم ترض بالمؤسسة الاستهلاكية، ولو كان عائدها المادي جيدًا. في ذلك الوقت، اقتربت الاشتباكات من العاصمة، ما هدد بأنها ستصبح حربًا ضروسًا، تبادل النيران يدور على أطرافها، وأحيانًا يتسلل الثوار إلى الداخل وينفذون عمليات اغتيال وتفجير، لا ضمانة في حماية المؤسسة الاستهلاكة، ولو جهزت بكتيبة حراسة.

فأسقط في يد أمّ الرئيس، مع أنه لم يُسقط في يدها من قبل، فهي ليست أمّ الرئيس الحالي، وزوجة الرئيس الخالد فقط، وروحه تهيمن على القصر، ما زالت السيدة الأولى على الرغم من وجود سيدة أخرى لا تتجرأ على الزعم أنها الأولى أو الثانية. بالمختصر، نفد صبرها، فكشّت وجهها بأمّ جميل، وقالت لها: «هذا الحاضر»، أي ليس هناك أكثر من هذا العرض. وفي الحقيقة، كان لديها من الأولويات ما هو أهمّ من رئيس فرع، وملحق عسكري، ومؤسسة استهلاكية.

ردًّا عليها، كثفت أمّ جميل زياراتها للعائلة، بشكلها الأوسع، وبكل ما يمتّ إليها بصلة، هذه المرة مرفقة بدموعها وتوسلاتها، مدركة أن أمّ الرئيس لا تختزل العائلة كلها، فزارت أخا الرئيس، وأخت الرئيس، وصهر الرئيس، وأعمام الرئيس وعماته وأخواله وخالاته وأبناءهن وبناتهن وأزواجهن، وكل من يدعي قرابة بالعائلة، سواء حقيقة أو أدعاء، وما كان أكثرهم! فقد توالدوا إلى حد بات يصعب حصر أعدادهم... ما أثار التساؤلات، هل يعقل ألا تستطيع العائلة الرئاسية تأمين منصب محترم لابن عائلة تطفح بالشهداء؟

آزرت العائلة الكبيرة الموسعة جدًّا أمّ جميل، ضد العائلة المالكة الصغيرة التي استولت على أكثر من حصتها، بالنسبة إلى حجمها، من دون مراعاة العدالة في التوزيع على الأطراف، وإن كان من باب الغيرة والحسد، ولم يقصروا في نشر غسيل ساكني القصر الجمهوري، مع أنه لم يكن قذرًا، لا أكثر من السطو المعتاد على عائدات النفط والمساعدات والناتج القومي للجمهورية.

أخذت العائلة الموسعة جدًا على عاتقها، الرد على ادعاء السيدة الأولى، من ناحية عدم قدرتها على تجاوز إدارة شؤون الضباط، واستثناء المقدم من شرط الرتبة العسكرية في رئاسة الفرع، ماذا عن ابنها الرئيس الحالي؟

لم يكن هو الوريث الأصلي، فقد حلّ محل أخيه الذي كان الأصلي، ومات بحادث سيارة. فجاؤوا بالحالي من لندن، وكان طبيبًا، لم يمارس الطب بعد، وربما لم يصبح طبيبًا، وأرسلوه إلى الكلية الحربية، وبدلًا من التخرج برتبة ملازم، تخرج برتبة نقيب، فتجاوز رتبتين معًا، بعدها لم تهدأ سلسلة تجاوزاته التي لم تتوقف، فمن رائد إلى مقدم وعقيد وعميد ولواء إلى فريق أول، فالقائد العام للجيش والقوات المسلحة، قافزًا عن كدسة من الرتب، أما التي لم يقفز عنها، فتقلدها بضعة أيام. ثم دفشوه إلى المناصب السياسية، فأصبح الأمين العام القطري لحزب البعث، فالأمين العام القومي للحزب نفسه، بعدها ترشح لرئاسة الجمهورية، متجاوزًا شرط الترشيح أيضًا، لم يكن عمره قد بلغ الأربعين بعد. وكان انتخابه تمثيلية في مجلس الشعب.

هذا الغسيل، لم يصل إلى مرتبة الشائعة ليحدث أزمة تافهة، كان معروفًا في أرجاء الجمهورية، لكنه كان سندًا لأمّ جميل التي استأثر شهداؤها بحياتها كلها، وكل ما اقترفته كان خوفها من استشهاد ابنها الوحيد، وهددت بأنها ستستشهد معه، إن لم تسبقه، كانت جريمتها أنها لم تطلب أكثر من تجاوز ابنها رتبتين، لا تُعَدّ شيئًا يذكر مقارنةً بالرئيس الذي لم يكن رئيسًا، وقفز إلى الرئاسة، بعدما ذللوا له الحواجز كافة، وأنهت وعيدها بوعد، لن تتنازل عن الفرع، ولن تقبل ترشيح ابنها لأي منصب غيره.

المتوقع، أن يكون ردّ أمّ الرئيس عنيفًا، لا أحد يضطرها ولا يقسرها على أمر رغمًا عنها، ولو كان استعادة الأراضي المحتلة، طالما أنها مؤجلة، ولو طالب بها شهداء الجولان، كي تستريح أرواحهم. إذ ما أكثر الشهداء في هذه الحرب، لا يُعَدون ولا يُحصَون، ولم يطلب أهاليهم شيئًا، ربما تعويض وفاة، ولم يكن متوافرًا.

عندما كاد الاصطدام أن يقع بين أمّ الرئيس وأمّ جميل، كانت المفاجأة، ودّعت أمّ الرئيس الحياة. موتها لم يكن مفاجئًا، كانت مريضة في السنوات الأخيرة. المفاجأة كانت ما حدث وهي على فراش الموت، كان مناقضًا لما أزعجها وأثار غضبها مؤخرًا.

قبل أن تُغمض عينيها، أوصت ابنها خيرًا بأمّ جميل ثلاث مرات، ما الذي خطر لها وهي في سكرات الموت حتى أوصت بها، مع أنها أخرجتها عن طورها مرارًا؟ فتظاهروا بأنهم لم يسمعوا، مجرد أنها تهذي، جراء شعور مضلل بالذنب، لكنهم لاحظوا بينما كانت تودع الحياة، أنها التقطت أنفاسها بعدما لفظتها، وفتحت فمها، فاعتقدوا أنها تذكرت ما تريد أن تقوله في لحظات الوداع الشاقة، ربما ستطلب من ابنها الرئيس العفو عن الشعب ومغادرة البلد حقنًا للدماء.

في الحقيقة، تذكرت مسؤولياتها الرئاسية، وحثّت ابنها، كما اعتادت طوال الحرب، على عدم التفريط بالقصر الجمهوري وألّا يتكاسل عن الدفاع عنه، ولو أنه حصل عليه وراثة، وليس بعرق جبينه، وفي حال اضطرار العائلة المالكة للرحيل إلى المنفى، فعليهم ألّا يتركوا وراءهم شعبًا ولا أرضًا، فقط الحريق وألسنة اللهب. ثم صمتت، فبدت كأنها رحلت.

لكنها، ويا للعجب، استدركت النفَس الأخير، قبل الإغماضة ما بعد الأخيرة، وأوصت من جديد بأمّ جميل خيرًا. عندئذ تأكد الجميع، وفي المقدمة الرئيس، أن أمه أرادت أن تفعل شيئًا طيبًا قبل الرحيل.

خلّف الموقف المأساوي لدى الرئيس أزمة شخصية عابرة، ما جعله يلوم المحتضرة لاستئثار أمّ جميل بآخر كلمات نطقتها. لو كان الأمر عائدًا إليه،

لأرضى أمّ جميل منذ البداية بأيّ شيء، لم تطلب أكثر من فرع أمني، ما السبب في تعنّت المرحومة في سنوات مرضها؟ أجهد فكره، من شدة ما استغرب تصرفها، وقع في الحيرة، بينما الانتفاضة والحرب ومئات آلاف القتلى لم تجعله يتحير. ما الذي دار في خلد أمه آنئذ، حتى تذكرت أمّ جميل، وأصرّت على تلبية رغبتها، ومتى؟ في تلك اللحظة التي تفصل بين الحياة والموت، الأحرى بها أن تنساها، خاصة أنها في غيبوبتها المتقطعة، بالكاد تذكرته، حتى ظن أنها لم تتذكره إلا بسببها، وكأنها لم تجهد ذاكرتها لتتعرف إليه، إلا من أجل أمّ جميل.

عندما كانت على قيد الحياة، غالباً ما كانت الوساوس تركبها، كان أشد ما يقلقها أن تحتل كنّتها منصب السيدة الأولى، فتشبثت به، ولم تتنازل عنه، لم ترد فقدانه حتى آخر رمق، وكانت ممارستها الأخيرة لسلطاتها الرئاسية، تحذيرها لابنها من الروس والإيرانيين، ألا يتدخلوا في الشؤون العائلية للقصر الجمهوري، ولو أنهم الذين أنقذوا البلد من الشعب. عندما باتت امرأة بلا مسؤوليات جمهورية، لم تفكر إلا بأم جميل!!

لم يستعصِ السر على الرئيس إلا لأن القصة خاصة بالنساء، لا بالرجال، فسأل عنه امرأته التي أصبحت السيدة الأولى، لكنها لم تكن في وارد التفكير بالمسائل النسائية، مسؤوليات الرئاسة التي انتظرتها طويلًا، استحوذت عليها، وباشرت من فورها بإعداد ابنها لرئاسة الجمهورية، فالتوريث يتطلب إعداد الوريث.

سيكتشف الرئيس السر وحده؛ عندما كانت أمه تلفظ أنفاسها الأخيرة، أدركت أنها مجرد أم فقط، فكانت هي وأم جميل مجرد أمهات، فقدن أولادهن، ولا يردن فقدان من تبقى لهن، فلم تملك إلا توصيته بها.

كيف اكتشفه، خاصة وأن الكثيرين كانوا يشككون بذكائه، فقد دمر بلده، وها هي محتلة من أربعة دول، وقتل وشرد لا أقل من ثمانية ملايين، ولم يرحم الأطفال، مع أن الحرب، لم تكن ضرورية ابدًا ؟ حسنًا ، الاكتشاف لم يكن بحاجة إلى ذكاء.

كان أمام جثمان أمه مجرد ابن، لو أنه كان الرئيس لحظتها، لكان مجرمًا.

حزنت أمّ جميل على وفاة أمّ الرئيس، وتوجهت بطلبها إليه، فوعدها خيرًا حسب الوصية، لكن ارتباطاته بلقاءات صحافية مع مراسلي الإعلام الأجنبي والإعلام المقاوم، استدعت منه التحضير لذرائع، ولو كانت غير مقنعة للأجانب، تنفي تصوراتهم الجهنمية عنه كرئيس يقتل شعبه، فلم تعد البراميل المتفجرة إلا طناجر، والكيماوي تمثيلية، والموت تحت التعذيب مهزلة

مفبركة، أما الملايين النازحة، فللهروب من الوطن، لن يسمح لهم بالعودة، لضرورات تجانس، لا يحققه سوى شعب موالٍ.

لم تمنحه انشغالاته الوقت بأكثر من تقبّل العزاء من أمّ جميل، فكادت المشكلة أن تتجدد. لم تتريث، أخذت تنقر له رأسه، في الوقت الذي عادت العائلة الموسعة تتوسطه النظر بأمرها. ما أثار قلقه، ما الذي تعنيه هذه القصة لهم؟

انتابته الشكوك منهم، راجع ملف المقدم جميل، من فرط ما وجده سخيفًا، تحيّر في أمره وأمرهم. بعد تفكير لم يتحير في أمره، أما أمرهم فمختلف، إذا كانوا يريدون فرعًا أمنيًا للمقدم، فلأنهم يريدون أن يكون لهم نصيب في الأجهزة الأمنية، ما يعني اختراقًا للعائلة الموسعة في قلب العائلة المصغرة، ليس غيرهم يفكر بانقلاب، يقودون مليشيات تتكاثر كالفطر، ويجندون آلاف الشبيحة، يعتقدون أن الحكم لا أكثر من القتل والنهب، وبما أن البلد محتل، فسيتقاسموه مع المحتلين، لكن ما أدراهم بالسياسة، إنها فنّ الممكن، ولو أنه يخوض في اللاممكن على أنه الممكن.

لم يطمئن إلا بعدما وردته الإخباريات من الأجهزة الأمنية، مع روايات لشهود عيان، تجسسوا على أقطاب العائلة الموسعة، لم يناصروا أمّ جميل إلا لتتقاضى ثمنًا مجزيًا لشهدائها، على أمل أن يتقاضوا ثمن شهدائهم بعد انتهاء الحرب على المنوال نفسه، ولم يكن بالقليل، التكلفة مبالغ فلكية، قوافل شهدائهم، لن تكفيها ميزانية أربع دول.

فليكن، بعد الحرب لكل حادث حديث، لكن لم يغادر أفكاره ذلك الخاطر المرعب عن انقلاب مليشياوي، بعدما باتت أعدادهم تعادل جيشًا مسلحًا. حاليًا، كان بحاجة إليهم، انشقاقهم سينعكس سلبًا على مجريات الحرب.

عادت قصة أمّ جميل إلى الواجهة، لن تسكت، طالما الوطن مدين لها بأربعة شهداء، والأخير على استعداد ليكون الخامس، وقد تلحقه أمه حزنًا عليه، بعدما تملأ العاصمة والضيعة نواحًا وعويلًا.

إذا لم يلبّ طلبها، ستُحدث هذه القصة الحزينة تأثيرًا سيئًا في المجهود الحربي، في وقت كان التشجيع على الدفاع عن النظام الصامد في قرى الساحل قد خلّف آلاف الضحايا، ويخشى من ارتدادها على أرتال المتطوعين، بأرتال من الفارين من الخدمة العسكرية.

حلًّا للمشكلة، وللتخلص منها، حُولت القضية إلى المهندس الذي أخذ على عاتقه البحث عن منصب مرموق، ولو كان فرعًا للمخابرات، على أن يكون بلا

صلاحيات، باعتبار المقدم جميل بلا مؤهلات، منصب إذا لم يجده، فعليه ابتداعه.

بالمصادفة البحتة، كانت قضية الضمير والقصة والقاص، قد حولت إليه أيضًا، وعندما كاد أن يرمي بها إلى قمامة القصر الجمهوري، أي إلى الأرشيف لتتعفن هناك. في تلك اللحظة، تجاورت على طاولة المهندس القصتان السخيفتان؛ لكن ماذا عن علاقة الأدب بالمخابرات؟ لاعلاقة بينهما. وماذا عن علاقة المقدم بالمخابرات؟ لا علاقة بينهما، لكن، لا بد من علاقة.

فانبثقت في رأس المهندس، فكرة الفرع ٦٥٠، لن يكون أمنيًّا، بل أدبيًّا فقط.

تلك كانت عبقرية المهندس، ما أنقذ الرئاسة وعائلة الرئيس وحواشيها من توسلات أمّ جميل ودموعها، وتحقق ما حلمت به لابنها، وإن لم يكن في الضيعة، ولا سيما أن المهندس ذلّل فورًا شرط الرتبة باستثنائها من قانون تنظيم الأجهزة الأمنية، أصلًا الفرع استثنائي، والمقدم لن يزيد على كونه رئيس فرع وهمي، وإن بدا حقيقيًّا.

ساعد الحظ أمّ جميل، في التوقيت الملائم؛ لو أن مطالبتها بالفرع والوجاهة والأمان، كانت بعد زمن يُعَدّ بالأسابيع، لا بالأشهر، لاختلف الوضع تمامًا. فقد ارتفعت أعداد مواكب الشهداء، وكانت تتوارد يومياً من أنحاء الجمهورية، على مدار الساعة بالتوابيت ملفوفة بعلم الوطن، أو من دونه، موالين وغير موالين. وبما أنه لا يهمهم في هذا المجال سوى الموالين للرئيس، والمقاتلين من أجل بقائه وبقاء العائلة. ففي المناطق نفسها التي أنجبت المقدم، تدفقت جثامين الشهداء بالجملة، وكانت أعدادهم بأرقام قياسية فاقت التوقعات، فالحروب شرهة للتضحيات، ولو كانت بلا جدوى. لم يطل الوقت، عندما كادت ألّا تخلو عائلة من شهيد أو أكثر، بعضها تجاوز ثلاثة شهداء ومرشحة لأكثر، فلم تعد مصيبة أمّ جميل استثنائية، مثلها كثيرون، بل ونذروا ما تبقى من أبنائهم للشهادة، من دون أن يصيبهم شيء، ولو ضئيلًا، من النّعم التي أسبغت على ابنها. لم يوزع عليهم سوى الفتات، بل وأقلّ من الفتات، إن لم يسرقه الشبيحة.

البلد لم يعد يشكو من ندرة الشهداء، بات الدفاع عن الرئيس المحبوب بلا مقابل، فالمحبوب لم يدع لهم خيارًا إلا أن يحبوه بالمجان.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

الفصل الخامس
جدل حول المفاهيم

١. حرب الأفكار

لإنهاء الترتيبات الأخيرة الخاصة بإغلاق موضوع الفرع الجديد بلا ذيول، فكر المهندس بتطييب خاطر العميد رئيس الفرع ٣٣٣، كان بشكل ما مدينًا له، لولاه لكان يقدح ذهنه لإيجاد مخرج للمأزق الرئاسي.

خسارة العميد لم تكن كبيرة، لكنها أصابت كبرياءه، سيعوضه بالتنويه بجهوده. أما الشاعر، فلا شيء، يجب أن يدرك حدوده كمخبر؛ لم يعد ضابطًا سابقًا، ولا الاتحاد ثكنة عسكرية، على هذا الأساس ينبغي أن يعيد النظر بتعامله في المستقبل مع المخابرات.

فعليًّا، ليس مدينًا لهما، بل للمحقق الذكي الذي أثار خلافًا غير مهم، إيجابيته الوحيدة، مساعدته على حل مشكلة سخيفة، أرّقت الرئاسة والعائلة. لم يكن ليعرفه لولا أن الطلب المرفوع إلى الرئاسة حول تقاسم الاختصاصات بين الاتحاد والمخابرات ممهور باسم المحقق: سامر سفان. من أجل صنيعه هذا سيجزل له الثناء.

مهما يكن، لا يستحق روتين المجاملات من وقته سلسلة مقابلات سقيمة. فاتصل بالعميد وطلب منه أن يكون الشاعر حاضرًا في اجتماعه معه، ليكون على بيّنة بحدود عمله المخابراتي. أما المحقق، فسيوعز بإرسال برقية يثني فيها على ذكائه اللافت.

أكبر العميد قدوم المهندس إلى الفرع. أخلى مكانه له وراء الطاولة، وجلس مواجهته متنبهًا، لا ليسمع، بل ليتلقى الأوامر، وإن لم تخف هيئته المتوترة حرنه. بينما الشاعر انجعص قليلًا في جلسته ورسم على وجهه أمارات السأم، بعدما أبلغ بتأجيل البتّ في قضية القصة والقاصّ إلى وقت لاحق في الفرع الجديد.

لم يكن مزاج المهندس على ما يرام. هذا الدَّين التافه لم يرُقه. استسخف مجيئه إلى الفرع. لم تطب له ملامح العميد، توقع أن يراه مغلوبًا على أمره، أو مكتئبًا قليلًا، ما زال كما عرفه يبث الرعب بهيئته المقطبة، كان التضخم السقيم لذاته المشوهة وسواسه المقيم. ومن لا يتفاقم جنونه، إذا كان يهب الحياة ويمنعها في بناء مقرف من عدة طوابق، وحده الآمر الناهي فيه؟ يتعمد أن يبدو رهيبًا، مع أن المنصب كفيل بذلك، فلماذا يضيف إليه ما ينفر منه؟ ما أفدح شططه! إحالته على التقاعد شبه مستحيلة، اغتياله أسهل. بعد سنة

سيترفع إلى رتبة لواء بلا عوائق، ما دام يخدم النظام بأكثر من المطلوب، حتى إنه قد يضحي بنفسه من أجل الرئيس.

لم يلتفت إلى المخبر، لولا أنه شاعر لما اضطر إلى مجالسته. بلغه عنه أنه ثرثار وأرعن، لم يوفر مناسبة طوال الأيام الماضية، شكا فيها لرفاقه الضباط إغفال جهوده، وتضحيته بسمعته كشاعر، ما الذي كسبه من تكريس مواهبه الاستخباراتية للنظام والرئاسة؟ هذا ما قاله، واستعاد محنته، عندما لم ينصفه القضاء العسكري من الاتهامات الظالمة بالاختلاس، لكن ولاءه للرئيس ومحبته له منعاه من الاستقالة، فعاقبوه بتسريحه.

اعتاد المهندس أن يستهل كلامه بمقدمة، يُشعر الذين يستمعون إليه أنهم لا يعرفون بواطن الأمور، أو أنهم قصيرو النظر، لذلك توخى أن يكتسي حديثه، بالمعرفة مع النظر إلى أبعد وأعمق، بتطرقه إلى الفرع الجديد، فاعتبر ساحة الصراع مع الأعداء أصبحت واسعة جدًا، تفوق مساحة الوطن، وتتعداها إلى ساحة أكبر تشمل حرب الأفكار، فكان لا بد من تجزئة الساحة، لئلا يحصل خلط في أدوات الصراع، فالأفكار لا تدحض بالرصاص والقنابل، بل تتفوق عليها، أفكار من جنسها.

لذلك كان قرار الرئاسة توزيع المسؤوليات على الفروع، بحيث يقوم كل فرع بواجبه. فالفرع ٦٥٠ نشأ ليفكر، ويخوض حصته ولو كانت محدودة في هذا المضمار. الحصة الأكبر بما لا يقاس في التفكير تقع على عاتق الرئاسة.

لاحظ انزعاج العميد، كان ما سمعه منه يحرمه التفكير، ويومئ إلى أن الفروع عمومًا لا تفكر. فطيّب خاطره:

طبعًا، الأجهزة لا تحتاج إلى التفكير، إنها بغنًى عنه.

فهدأت أعصاب العميد، التفكير نقيصة، أن تفكر يعني أنك غير واثق من نفسك، تبحث عن حل، بينما الحل واضح في الفرع؛ لماذا التفكير في الأقبية؟ انتزاع الاعترافات لا يحتاج إليه، الكابلات تكفي، وهناك الكثير مما يزيد عليها، فانفرجت أساريره.

علّل المهندس بأن هذا الظرف الطارئ حتم عدم تكليف الفروع القائمة بما لا يلزم، وإسناد التفكير إلى فرع مختص، لا إلى اتحاد الكتاب، وإن كان من الممكن الاستعانة بآرائه، دونما التزام بها، للاستئناس فحسب، قضايا الأدب من الخطورة بحيث لا ينبغي تركها للأدباء وحدهم، لصلتها الوثيقة بالأمن القومي.

إلى هنا وانتهى حديث المهندس، كان قد وضع كما يقال، النقاط فوق الحروف.

لم ينصرف، كانت الفرصة مواتية لانتقاد الوسائل الرهيبة للعميد الرهيب، مبالغاته في التعذيب طار صيتها، نادرًا ما يخرج بريء من الفرع دونما عاهة، أو على شفا الموت. المذنبون لا ضير من تعذيبهم حتى الموت، لكن الأبرياء، لا بد من التروي، ربما كانوا أبرياء فعلًا، وإذا كان ثمة ضرورة للتعذيب، فليس حتى الموت، سيموتون بشكل روتيني في المعتقلات.

نكاية به، لم يتوانَ عن مديح أساليب الفرع الجديد؛ سيُراعى في التحقيق استعمال وسائل لينة، في إقناع الأدباء بالإقلاع عن التدخل في ما لا يعنيهم، غالبًا بالتخجيل؛ الأدباء محترمون وحساسون، ليسوا أكثر من مثيري شغب في فنجان. أما إذا ادعى الكاتب بطولة خالطتها وقاحة، فتهديده بالضرب، وإذا يبّس رأسه، وأظهر صلابة، لا يعامل كما في الفروع الأخرى، لدى الفرع ٦٥٠ وسائل تعتمد الترغيب، ونزر يسير من الترهيب. وفي الحالات القصوى إذا ما تلفظ بانتقاد لئيم وكان من وحي ضميره، فيرسل إلى مكان مختص ملحق بالفرع، ويجري تعريضه لحفلة رعب، فيصاب ضميره بالبكم.

... بينما وسيلتكم الوحيدة؛ التعذيب، لا تعرفون غيرها، ولا بدائل لها.

انتفض العميد، تقزيم وسائل الفروع الأمنية إلى التعذيب فقط، في الحقيقة صحيح، لكنه انتقاد، ويجب الرد عليه؛ لن يجامله، وكان في منتهى الحماسة.

في الفرع ٣٣٣ لا ينفع الترهيب ولا الترغيب، والأدهى التخجيل. التعذيب مفروغ منه، أصول الاستنطاق تفرضه، كيف يبوح المشتبه فيه بما يعرفه من دون جلده بالكابلات وسوطه بالكرابيج؟ وكيف لمعتقل الاعتراف بتآمره على أمن الدولة إلا بصعقه بالكهرباء؟ هذا أيسر ما نقوم به، وهو من طبيعة التحقيق، وإلا فلماذا أجهزة الأمن، إن لم تكن لتحقيق الأمان للشعب؟ أما إذلال الناس بسبب ومن دون سبب، فلتلقينهم درسًا وحيدًا، يحلّل حتى قتلهم. إذا كانوا حرصاء على كرامتهم من التأذي، يجب أن يدركوا أنه لا كرامة فوق كرامة الوطن.

«خاصة، نحن حاليًا إزاء ثورة».

«بل نحن إزاء ثورة مضادة».

تدخل الشاعر، مصححًا مصطلحًا عزيزًا إلى نفسه، فالثورة هي ثورة الشعب المباركة، التي قام بها الجيش قبل أربعة عقود ونيّف، وفي قول آخر خمسة عقود. وما عداها مؤامرات وخيانات وعمالة مأجورة. أما هذه، فثورة مضادة، جنودها الأوباش والسفلة، وعملاء من الأنواع الحقيرة.

ضاق المهندس ذرعًا بنقاش، قد ينحرف إلى حيث يطول، ولن يزيد على ثرثرة. وازداد ضيقه لأنه نسي ما يريد قوله. يجب أن يقول شيئًا، أي شيء،

ليستعيد ناصية الحديث، وليكن عن الأدب، قال كمن لم يسمع منهما شيئًا:

«سابقًا أفلت منا الأدباء. اليوم، اختلف الوضع بوجود فرع مستقل ذي طبيعة أدبية، يكشف عن توجهاتهم، ويفضح وسائلهم في التخفي وراء شعارات حرية التعبير والرأي».

برهن من خلال هذه الفكرة الموجزة، أن الحاجة إلى فرع مخابراتي متخصص يأخذ الأدب بجدية، لم تكن لإضافة فرع جديد لا لزوم له. بذلك سجل هدفًا يصعب التعقيب عليه. اختلس نظرة نحوهما، فقد كان يتحدث من دون النظر إليهما، فوجئ بالشاعر ينظر إليه هازئًا، فاستُفز منه، لا بد من شرشحته هو الآخر بملاحظة صغيرة.

«... ما يغنينا عن مخبرين يتجسسون، أو يظنون، أو يتحزرون، أو يخمنون، أو يختلقون، أو يفبركون...».

اطمأن المهندس إلى أنه معس الشاعر ذا الماضي العسكري. ملاحظته أصابته في الصميم، لم يكن في الغرفة مخبرٌ غيره. فانتقل بالحديث إلى تفصيل ضروري، بعدما تذكر ما يريد قوله، وكان عن تصحيح ما قاله قبل قليل بشأن اتحاد الكتاب؛ لن يجري إهماله، علاقته عضوية بالفرع ٦٥٠، سيتشارك معه في معالجة ما يثيره الأدب من إشكالات على علاقة بالأمن. أما القضايا الأدبية البحتة، فسيتولاها الاتحاد وحده، الفرع لن يتورط فيها، سيتقيد باختصاصه.

لم يفته أن ما طرحه ليقنع به مستمعيه، لم يؤدّ الغرض منه. كانا يصغيان إليه بريبة، العميد بحكم مهنته القائمة على عدم تصديق إلا ما ينتزع بالقوة، بينما المخبر يكذب غير مضطر، عندما يريد الإيقاع بشخص ما، ولو افتقد لسبب وجيه، ما دامت سطوته لن تكون فعالة إلا بالأذى.

٢. الشعب والجماهير

لم يصمت الشاعر سعدي إلا لأنه صدم أكثر من مرة من وافد لا يزيد على كونه مهندسًا مخابراتيًّا!! يصغي إليه العميد مذعورًا، وإذا علّق، فعلى استحياء. مهما كان منصب المهندس في المسالك السرية في القصر، لم يرُقه تدخله في خصوصيات الأدب، ما أدراه مثلًا بأساليب السرد القصصي وتحايلاتها، وما تخفيه الرموز من انتقادات حقيرة؟ أنى له أن يعرف المسكوت عنه، وأن ما لا يقال يُتستر عليه بما يقال؟

بدلًا من هذه السفسطة، يجب على المهندس أن يسأله رأيه ويستشيره، قبل التنطح لما يجهله. لم يعد هناك مبرر للصمت، لا بد من الكلام؛ خبراته مزدوجة، فهو من طرف مثله من رجال المخابرات، ومن طرف آخر يتفوق

عليه بأنه أديب شاعر، فإذا كان قد قرر تسلّم ناصية الحديث، فلأن العميد الرهيب سكت عندما لا يصحّ السكوت، لكن الشعر لا يحبذ الصمت طويلًا.

انبرى الشاعر، وحوّل دونما مقدمات دفة الكلام نحو الاتجاه المعاكس، ونفّس عن غيظه بشنّ حملة على الأدباء. كال لهم السباب بالجملة، واتهمهم بأنهم مرتزقة سفلة، ضد الدولة بالسليقة، كتاباتهم تتشفى بها، يكيدون لها، ويكدسون الأراجيف ضدها. يؤجرون أقلامهم لصحف عميلة، مطمحهم الشهرة، يبيعون ذممهم لقاءها، ومن فرط سعيهم إليها لا يتورعون عن اقتراف ما يسيء إلى بلدهم... أدباء غير وطنيين. إن لم يجهروا بأحقادهم، فنيّاتهم تفضحهم... برر هجومه على أصدقائه الأدباء؛ الأمن القومي لا يعترف بالصداقات.

وافقه المهندس على مضض؛ لا يخلو الأدباء من هذه الشرور، إنها حقيقة، لكن إذا أردنا معاقبتهم على نيّاتهم والحصول على وطن نظيف، فلا مفر من مجزرة قد لا ينجو منها أديب، فمن منهم لا يقبض الأموال من جهات مشبوهة على أنها جوائز، ورشى عبارة عن استضافة في فنادق خمس نجوم، أو يسعى للتعامل مع جرائد مشبوهة، ولا يتورع عن الكتابة ضد الدولة تحت اسم مستعار، ويسخر من النظام في أحاديثه الخاصة، ما يضعه في قفص الاتهام. ومن الطريف أن حظوظهم الجيدة والسيئة على السواء، لا تسمح لنيّاتهم بالتحقق، وغالبًا -إن لم يكن دائمًا- لا يظفرون إلا بالقليل من المال وبشهرة عابرة.

انبسط الشاعر من جواب المهندس، الواضح أنه لم يجد ما يدافع به عن الأدباء، الأمور عادت إلى مجراها المخابراتي، فاقترح تصنيف الأدباء في الفرع الجديد إلى خانات: موالٍ، معارض، متردد، محايد، مشبوه، مرتزق، رمادي... ووضعهم تحت الرقابة، مع اختلاف عياراتها من أديب لآخر.

«إذا اردنا مراقبتهم والتضييق عليهم، فلا أحد منهم سيفلت من اتهام ما».

علّق المهندس بتهكم، ورمقه بنظرة معناها؛ حتى أنت لن تنجو. ثم أتبعها بنظرة ازدراء دلالة على انحطاط الأدباء الحقودين إلى درك المخبرين الأنذال. وأغلق هذا الجانب من الحديث بضحكة هازئة، فما زال هناك جوانب أخرى ينبغي التطرق إليها.

لم يدعه الشاعر يكمل، كانت القفزة التي في ذهنه من الأدب إلى الشارع:

«ينبغي تعبئة الشعب وإعادة تأهيله، بعدما أفسدته الاحتجاجات، من تظن أنه وراءها؟ مهما كان، فالنظام أُهين، الشتائم انهالت عليه من حثالات الناس!!».

أصاخ المهندس السمع، ما الذي يريد أن يقوله؟

استغل الشاعر أن المهندس أعطاه أذنًا مُصغية، وأدلى بفكرته الثاقبة، ولو أنه سيزجّ به في حديث يفوق قدراته المتواضعة:

«الثقافة الموجهة وحدها تستطيع إعادة الاعتبار للنظام، قبل أن تستغل الثورة المضادة الناس لمآربها. نحن في عصر الشعوب».

«هذا العصر انتهى إلى غير ما رجعة». رد المهندس بخشونة، وتابع:

«لمعلوماتك، الشعب لا يوثق به، النظام اعتمد الجماهير».

بان على وجه الشاعر الاستغراب، ما الفرق بين الشعب والجماهير؟

لم يتابع المهندس حديثه؛ الشاعر لا يعرف الفارق بينهما، يظن هذا هو ذاك، لا يعرف أنّ استبعاد الشعب كان من أجل تجييش جزء منه، هو الجماهير، ولئلا يظن هذا الاحمق أن الجماهير منزهة، بينما هي وصولية، ما دامت تُشترى. بات ما قاله بحاجة إلى المزيد من الشرح.

... السلطة، وبشكل مقصود، أغفلت الشعب، وتنبهت إلى أنه كتلة سائبة، لا ملامح ولا عقل، تصرف ما لديها من الوعي في التخريب، ما أوجب السيطرة عليها، بإجراء عملية تصفية، تُصطفى منه جماهير منضبطة، كي لا يتسلل معارض إلى صفوفها ويحرفها عن مسارها. طبعًا الجماهير انتهازية أيضًا، لكننا تغلبنا عليها بتسييرها بمقابل، كي لا يكون لها فضل على النظام، ولئلا تخطئ، نزودها بما تهتف به من شـعارات، مع هذا نادرًا ما تؤدي الغرض المرجوّ منها. لم تعد اللافتات والجعير ذات جدوى، ولولا أنها تتحرك تحت إشراف المخابرات، لما كان هناك جماهير، بل لصوص.

التفت صوب العميد وتساءل:

«ألم تكونوا أنتم بالذات الساهرين على حسن تصرفها في الشوارع؟».

أمّن العميد على كلامه، فتابع المهندس:

«فيما بعد، كانت الفكرة إلغاء كل ما يمتّ إليها بصلة، ليس قبل أن ننتزع من أذهاننا نمط الجماهير الزاحفة إلى سجن الباستيل وقصر الشتاء، هذا في الماضي، المسيرات ليست أسيرة التاريخ، أصابها التطور، ولم تعد تشبه نفسها. أصبحت نوعية ومسلحة، إنها اليوم تقاتل. الشبيحة على سبيل المثال، إنها مسيرات مسلحة، أسندت إليهم مهمات، تنتهي بانتهاء الحرب، بعدها يعودون إلى بيوتهم، منزوعي السلاح، جماهير منزلية تحت الطلب».

لم يتوقع الشاعر أن يصحح له المهندس عديم الثقافة أفكاره التقدمية، وإن شكر في سره الفرصة التي أتاحت له الاطلاع على الفرق بين الشعب والجماهير، وما آلت إليه. فالشبيحة آخر تحديثات النظام.

قبل أن ينهي المهندس حديثه، لاح له الخطر الذي يترصد الفرع الجديد، فهو لم يجهز بعد، ويرأسه مقدم لا خبرة له. لن يعسر على هذا المخبر الموتور توجيه الفرع نحو تنظيراته التقدمية الثورجية، ويختلق مشاكل وإشكاليات مع أدباء لا ذنب لهم سوى أنه أحدث لهم فرعًا ليسوا بحاجته، تسلل إليه مخبر حاقد.

نهض واقفًا، ثم عاد وجلس، خطر له المحقق سامر سفان، من أين له تلك الأفكار عن أقوال الرئيس الخالد؟ التفت صوب العميد وطلب استدعاء المحقق.

٣. الأدب يقرأ الواقع

لم يستغرب المحقق سامر جلوس العميد والمخبر أمام المهندس كالتلاميذ، بدا عليهما كليهما أنهما تلقيا تعنيفًا شديدًا، بحيث تجمدا وكأن على رأسيهما الطير، فتجمد مثلهما، والأصح تسمّر في أرضه. أدرك أنّ سبب استدعائه كان الصلاحيات المتنازع عليها بين الفرع والاتحاد.

لم يكن يجهل المهندس، وإن لم يلتقِ به أبدًا، سمع عنه من أوساط عسكرية ومخابراتية، ولم يكن قليلًا ما عرفه عنه، كان خليطًا غامضًا من تسلّق المناصب السريع والانحدار الأسرع، وعودة مظفرة.

سأله المهندس فورًا عن القاصّ، ثم استدرك، إذ لا وقت لديه، تسارعت أسئلته، بالأحرى كدسها كأنها سؤال واحد، إنها قصة قصيرة، حسنًا، ماذا تتوقعه؟ ما الذي قد ينجم عنها؟ عمومًا ما الخطر الذي يثيره الأدب برأيك؟ ترى ما جدواه؟

بوغت المحقق، خلال هنيهة خاطفة، بدت الفرصة سانحة، لا ينبغي هدرها على كلام بلا معنى، فهو ليس وحيدًا، والأدب هوايته، لا سيما الرواية. لم يدر بأي سؤال يبدأ، فاختار الإجابة عن الأسئلة جملة، دونما تعيين:

للأسف، الاهتمام بالأدب كان غالبًا سطحيًا، ولعدد محدود جدًا من المسؤولين، ما دفع الكثيرين إلى الظن أنه عديم الجدوى، متجاهلين أنه يغوص في الحياة، ويخترق خفايا الواقع الذي نعيشه. أهميته تأتي من قدرته على الكشف، الأدب يقرأ الواقع. أما قدرته على التنبؤ، فليست مضمونة، قد يتوقع، لكنه عرّاف على طريقته. هناك من يعتقد أن نيّاته هدامة تنحو إلى إثارة المشاكل، تتبدى في التحريض على السلطة، متناسين أن الأدب يحرض على كل سلطة، حتى سلطة الأب. وإذا كان لا يُؤْمن له، فلأن قفزاته غير محسوبة، من الغرام إلى الطغيان، ومن الغواية إلى التضحية، ومن النساء إلى الخنادق... ليس مجرد تخيلات. إنه خطر على الذين يصيبهم بانتقاداته. وربما غرر بالكاتب، فأضفى

على ما يكتبه ما ليس بالحسبان، وإلا فكيف خطر لقاصّ مغمور إحالة «الفجر» إلى انقلاب، مع أن الانقلاب لا يبشر بالفجر. نعم أخطأ، لكنه أصاب في المجمل، إذا كان المقصود هو التغيير، أي تغيير. أما الذين خافوا منه، فخشية من أن يصح تنبؤه، وكأن القصص تتحكم بمجريات الواقع. الأدب مهم، وربما كان مهمًا جدًا، أما كيف؟ ولماذا؟ فلا أدري بالضبط. إنه سؤال أعيا الأدباء أنفسهم.

لفتته جرأته، والأكثر ثقافته. مع أنه لم يقل شيئًا مهمًا، ولا مفهومًا تمامًا، ربما لأنه كان يرتجف. فسأله ذلك السؤال الذي يقلقه:

«هل الأدب مع النظام أم ضده؟».

«لا يقف الأدب مع النظام أو ضده، إنه مع الحقيقة».

أي إنّ على النظام الوقوف إلى جانب الحقيقة، ليكون الأدب في صفه.... لكن، واستدرك قائلًا بصراحة، الأدب ضد جميع الأنظمة، لا يعجبه نظام، إنه يتعيش على انتقادها، من دونها ينتهي الأدب. لكن ما مفعوله؟ ربما كان لا شيء. ما أنا واثق منه، أنه يفعل في داخل البشر، ويغيّر بروية من نظرتهم إلى الحياة.

عبّر المحقق بوضوح لا تشوبه شائبة عن خطورة الأدب، مع أنه ما زال يرتجف.

تفهم المهندس فكرته، ولم يكن يجهلها، صحيح أنه يشكل خطرًا، لكن لم يُجدِ أبدًا، فلندع الأدباء يثرثرون، لا ضير منهم. في الحقيقة، القائد الخالد وابنه الرئيس تركاهم يثرثرون، ماذا كانت مسرحياتهم وتمثيلياتهم؟ تسليات هادفة بلا طائل، وتهريج مسف. أما الانتقادات، فتنكيت للإضحاك، ها هم اليوم يسبّحون بحمد النظام.

لكنه أراد أن يتأكد:

«أصدقني القول، ما سلاحهم؟».

«القلم فقط».

ألقى المهندس نظرة على العميد الرهيب، رآه يرمق المحقق مستنكراً ما يقوله، وقد استعصى عليه فهمه، لا ريب، سينتقم منه لحظة يدير ظهره وينصرف. أعاد نظره إلى المحقق الشاب، ما زال يرتجف، وقد يغمى عليه. يبدو نادمًا على ما قاله خلال لحظات من الجرأة منتزعة من حرية الأدب، مدركًا ما ينويه العميد الرهيب. صفن المهندس قليلًا، ثم طمأن المحقق:

«لملم أغراضك، ستصدر برقية اليوم بنقلك إلى الفرع ٦٥٠».

وبذلك لم تعد للعميد الرهيب سلطة عليه. لم يكن قراره ارتجاليًّا، إلا لرغبته أيضًا في وضع حد لتمادي الشاعر المخبر في الفرع الجديد. لذلك سأل المحقق:

«ما الذي يمكن الاسترشاد به في التحقيق؟».

«من حسن الحظ، أن الرئيس الخالد جعل الضمير بوصلتنا».

المحقق الذكي يجامل الرئيس الخالد ويتذرع به. لم يستطع العميد البقاء ساكتًا، هبّ قائلًا:

«الرئيس الخالد كلف المخابرات بمهمة الضمير».

فانفلتت ضحكة من المهندس رغمًا عنه، لم يستطع إلّا أن يعلّق:

«في هذه الحالة تعتبر الهراوات تمثل تأنيب الضمير، والكرابيج وخزه».

كانت تلك إحدى المرات النادرة التي رؤي فيها المهندس يضحك من قلبه، العميد الرهيب على الرغم من قسوته، لا تنقصه الطرافة، الغباء فكه أحيانًا.

سرعان ما ارتدّ المهندس عابسًا، لم يصعب عليه إخفاء انفراج ملامحه، وعاد يتحدث جادًّا:

«كما أعرف، أبلى الأدباء بلاءً حسنًا، وكانوا خير رقيب، ردعوا الأدب عن تخطي الحدود المأمونة. وأثبتوا أن الأديب هو الأكثر تأهيلًا لمراقبة الأديب، لا تستغلق عليه رموزه، ولا تخفى عليه تورياته... ذلك هو النهج الذي وافق عليه الرئيس الخالد، وكانت القاعدة في المراقبة: الاستعانة بالأدباء على الأدباء».

اكتفى المحقق بهزّ رأسه.

لم يكن المهندس بالمغفل، لاحظ كما بدا على المحقق رأيًا آخر، لا يهمّ، ما لفته بشدة، كان لهجته، لا تمتّ إلى عالم الأجهزة الأمنية. ينبغي ألّا يكون له وجود في هذا المكان. اللهجة الشامية تدل على أنه من دمشق، العاصمة المغضوب عليها ومهوى الأفئدة في آن واحد، المدينة التي تمنى حرقها، عندما كان لا شيء. وعندما أصبح شيئًا، أدرك كم كان مخطئًا، كان قد أصبح جزءًا منها.

فكر، ما الذي جاء بهذا الشاب الدمشقي إلى فرع للمخابرات؟

لا يصح وجوده فيه، ولا يجوز أن يُغفل عنه.

٤. تجاوزات هامشية

خلال ساعات قليلة، عرف المهندس أن المحقق سامر سفان كان رقيبًا مجندًا في الفرقة ٢٤ انتقل منها إلى الفرع، بوساطة من العميد حسين مهيوش في أمن الدولة، كانت بطلب من اللواء محسن درواد قائد الفرقة قبل تقاعده.

لم تكن خافية حكاية الصداقة التي ربطت بين اللواء محسن والعميد حسين الذي خدم سنوات طويلة في الجيش تحت إمرة اللواء قبل انتقاله إلى أمن الدولة، وبحكم العلاقة الوطيدة بينهما لا يرد لصديقه طلبًا.

كان المهندس على ثقة، أن العميد حسين لا يمكن أن يرتكب، ولو هفوة تافهة، فماذا لو كانت نقل رقيب دمشقي إلى الفرع٣٣٣ ؟ يستحيل أن يرتكب خطأً كهذا، كان شديد التدقيق، وظيفته بحد ذاتها حساسة، كانت التدخل في مجريات العمل المخابراتي بهدف الحد من السمعة السيئة للأجهزة الأمنية، وعدم تجاوز جرائم الأقبية الحدود اللامعقولة. لكن ما المعقول وغير المعقول في العمل المخابراتي؟ لا حدود تفصل بينهما، مع ذلك كان هذا عمله.

اصطدام العميد حسين مع الفروع، كان متوقعًا، ولا سيما ما تسرب عن اغتصاب النساء. لم يعد سرًّا، بات ساريًا في الأقبية ومراكز التوقيف العسكرية والحواجز والمداهمات. كان السكوت عنه يشير إلى أنه أصبح معتمدًا في التعذيب. وكان من جراء الإشارة إليه، تبادل الاتهامات بين ضباط المداهمة والشبيحة. كانت حجة الضباط، أن الشبيحة يغتصبون النساء بلا سبب سوى انفلات غرائزهم الحيوانية. أما نحن، فيضطرنا إليه الحصول على اعترافاتهن، وكان تحت النار، ولم يكن ممتعًا ولا مريحًا. هل يُسمح به للشبيحة والمخابرات ونحاسب عليه؟

العميد حسين أثاره مبكرًا، مع أنه جرى إنكاره كلية من الأطراف المُتهمة، رغم ما دار حوله. الدلائل كانت قوية جدًا، هناك نساء لاقين حتفهن أو انتحرن، وفتيات قتلهن آباؤهن أو إخوتهن لأنهن لم يقاومن مغتصبيهن حتى الموت؛ أكدتها شهادات لمنظمات إنسانية دولية. فُتح الملف سرًّا في الداخل للرد على منظمات تداولته بالاتهام، سرعان ما أُغلق لضرورات أمنية، لم يعرف من أغلقه، وحظر على أية جهة فتحه مجددًا، وكاد العميد حسين أن يخسر منصبه ورتبته معًا من جرائه.

الإصرار على إغلاقه، كان جليًّا، فالاغتصاب أحرز نتائج جيدة باستخدامه في التحقيقات، وحسب ادعاء الفروع، أفشل عمليات إرهابية للمسلحين، وكشف محاولة لاغتيال الرئيس وعدد من الضباط الكبار، هذا ما قيل. باتت حجة السكوت عنه ليس حساسيته، بل في التشجيع عليه، وجرى التواطؤ على أنه كان مفيدًا، مع أن أحدًا لم يعرف ما فائدته، إلا في التغاضي عنه، طالما أنه

أداة فعالة في التحقيق، أثبت جدواه مبكرًا في سحق الانتفاضة وتحييد بلدات وقرى، فالرجل عندما سيعرف بأن زوجته وابنته، بل وأمه قد يغتصبن، سيكون رادعًا له عن مساعدة المسلحين، أو الالتحاق بهم.

في ذلك الوقت، أحال القصر القصة على المهندس، وكان المطلوب لفلفتها من دون إدانات، لئلا تتسبب في إضعاف معنويات الجيش والأجهزة الأمنية... أي لا تحقيقات جدية. قرر المهندس، كإجراء أولي، تعميم توصية سرية عن عدم معرفة الرئاسة بها، والتأكيد أنه في حال أي سؤال من أية جهة، ولو كانت محلية، فالجواب هو الإنكار، مع التذكير بأنه لا يحق لأي مسؤول أصلًا التصريح للصحافة الغربية. الشخص الوحيد الذي من الممكن أن يُسأل هو الرئيس في مقابلاته مع الإعلام.

كان المهندس مطمئنًا إلى أن الرئيس الذي أنكر وهو يضحك إسقاط الطائرات للبراميل المتفجرة فوق المدنيين والأفران والمستشفيات، مع أنها كانت تبثّ يوميًا مصورة بالكاميرات والهواتف المحمولة على القنوات الفضائية، قادر بكل بساطة على إنكار حوادث الاغتصاب الجارية في الخفاء، بل واستنكارها؛ الجيش العقائدي لا يقوم بأفعال مضادة لعقيدته، من حسن الحظ أن صحافيًّا لم يسأله هذا السؤال.

الاحتياطات الأمنية نفسها، منعت العميد عن أداء واجبه الوظيفي، فتحدد عمله بملاحقة ما يشاع عن ابتزاز المال من أهالي المعتقلين، وما يقال أيضًا عن أنّ الإفراط في استعمال القسوة الزائدة يرضي نزوات الهوس بسلطة مطلقة، ما يشعر الضابط أنه يُحيي من يشاء، ويميت من يشاء. وهي قضايا، كان من الصعب الوصول إلى يقين بشأنها، فقبض الرشوة يتكتم عليه الطرفان، وفي حال حصول فضيحة سرعان ما تخمد. أما الهوس بسلطة بلا حدود، فكانت تعزز شخصية الضابط في التحقيق، وتُشعر المعتقل بأنه لا شيء، لئلا يظن نفسه شيئًا. فاضطر إلى تجاهل ما يجري في الأقبية ما دام في حدود التعذيب المشروع، فالتعذيب يكتسب مشروعيته في حال كون المعتقل مذنبًا، ولا يمكن معرفة إن كان مذنبًا أو بريئًا إلا بتعذيبه!!

إذاً، لا مفرّ من التعذيب. ما جعل وظيفة العميد غير ذات مفعول. فمنذ قُمعت الاحتجاجات بالأسلحة الثقيلة فَقدتْ وظيفته ما كانت تتمتع به من مظاهر قانونية، خاصة بعد امتداد المظاهرات إلى المدن والأرياف، لم يعد هناك من بريء، حتى لو كان بريئًا. بات الإلحاح على المزيد من الاعتقالات، والتعذيب من دون حدود، ولو أدى إلى الموت، والأنجع أن يؤدي إلى الموت. باتت التعليمات تنهي عن إبداء، ولو نزرًا يسيرًا من الرحمة، فأصبحت الشفقة دليل ضعف، أو شبهة، أو تواطؤ، أو خيانة. كانت أية شكوى تواجه بأن النظام في حالة دفاع عن النفس، أي عن الوطن.

وظيفة العميد نفسها، أصبحت محل شكوك من الأمن العسكري، على أنها اختراق غير آمن، يهدف إلى التسلل إلى كواليس مخططات مداهمات الجيش، ومطابخ الأجهزة السرية، ومجاهيل عمليات الشبيحة، وأقبية المخابرات، وعرقلتها بالاستفسارات، وتجاهل الأخطار المحدقة بالصامدين على خطوط النار. فتوقف العميد عن رفع تقاريره عن أحوال الفروع، ما أبعد عنه الشبهات. فتعزز موقعه كأحد حراس الأمن في الجمهورية.

٥. إنهم يكرهوننا، وإذا كانوا يحبوننا، فلا أدري لماذا؟

من هذا الجانب، يستحيل أن يتورط العميد، ويتوسط لتعيين شاب دمشقي في فرع للأمن، إلا إذا كان متيقنًا من نظافته الأمنية تمامًا. لا ريب أنه أجرى بحثًا معمقًا عنه، وضمن عدم وجود شائبة تشوبه من قريب أو من بعيد، فحاز الرقيب المجند البراءة المخابراتية، ما أدى إلى ترشيحه محققًا.

على الرغم من تأكد المهندس من نيّات العميد، وقناعته بأن توظيف المحقق كان بسبب صداقته مع اللواء، وعدم وجود ما يضير ماضيه، فقد استدعاه إلى مكتبه، رغم ما يتمتع به من نزاهة، ولم تكن تكفي.

أدرك العميد أنه سيواجه تحقيقًا أمنيًّا قاسيًّا، لم يعرف السبب. ما توقعه لم يتحقق، كان تبادلًا للآراء في الأوضاع الجارية، إلى أن دسّ المهندس سؤالًا عن أحوال اللواء المتقاعد، وكان يحمل له كل التقدير. ثم تساءل عن الرقيب الذي أصبح محققًا. فامتدحه العميد، واستطرد في تزكيته، ولم تكن أكثر من استقامته.

لم يلتفت المهندس إلى جوابه، يعرف أنه سيسمع شيئًا من هذا القبيل. سؤاله كان ليبيّن له أنه خرق تقليدًا متعارفًا عليه.

...لا، ليس قانونًا ملزمًا؛ لا بد أن تعرف، أنه ليس من المحبذ وجود محقق دمشقي بفرع أمني، خاصة أنه لم يتوظف قبل الثورة. هل وثقت به حتى وضعته في هذا الموقع الحساس بعد الثورة؟ لا أريد أن أسمع منك تبريرًا. نعم، الدمشقيون ليسوا خونة، ولا جواسيس، وإنما غير حرصاء مثلنا على الأمن، لديهم القابلية للاستهتار به، مع ميلان للأقرباء والمعارف.

ختم المهندس شكوكه:

«أنت تعرف أنهم يكرهوننا، وإذا كانوا يحبوننا، فلا أدري لماذا؟ يُخشى أنه لا يمكن الوثوق بهم. طبعًا عدا بعض التجار، لماذا؟ مصالحهم معنا، لمجرد الانتفاع».

لم يكن لدى العميد ما يخفيه، صديقه اللواء أراد مكافأة الرقيب على خدمة قدمها له، بوظِيفة تكون مصدر عيش مستقر. لمِ يخذل صديقه، تحرّى عن

الرقيب، ثبت أنه عنصر جيد، لا مشاكل سياسية أو جنائية، من عائلة فقيرة، فقد أبويه بعمر مبكر، عصامي اعتمد على نفسه، انتسب إلى كلية الحقوق وجمع بين الدراسة والعمل. أما ما هي الخدمة التي قدمها الرقيب؟ فبصراحة لم يسأل اللواء، احترامه له منعه من التشكيك بطلبه. يكفي أن اللواء وثق بهذا الشاب واعتبره واحدًا من أولاده. وإذا كان قد نقله، فعلى مسؤوليته الشخصية، وهو الكفيل له. في الفرع لم يبسط عليه حمايته، كي يتعاملوا معه من دون محاذير. فلم يعلم أحد أنه كان وراء توظيفه، ظنوا أن التنقلات جاءت به. ختم كلامه:

«لقد وضعتُه في عش الدبابير».

إشارة إلى الفرع ٣٣٣ لصاحبه العميد الرهيب.

أوضح المهندس باقتضاب، أنه بدوره أقدم على نقل المحقق إلى الفرع الجديد ٦٥٠، وأيضًا على مسؤوليته الشخصية، ويرجو ألّا يكون قد أخطأ بهذه الخطوة، وما استفساره عنه إلا لأنه سيكون هناك الرجل الثاني في الفرع.

«سأوليه ثقتي، بناءً على ثقتك».

انتهت المقابلة على خير.

بالمناسبة، تبدو المعلومات عن المحقق حتى الآن، غير كافية لإعطاء فكرة وافية عنه، الحاجة إلى المزيد ضرورية لحجم دوره في سير الأحداث، ولو كان تأثيره محدودًا في التشابكات القادمة، لكن لا يجوز إهمال هذه التفاصيل، وإن كان التاريخ يسمح بإغفالها، لعدم اهتمامه بالجزئيات، إذ من يكون المحقق حتى نفرد له حيزًا في هذا الحدث الهائل الذي لا تأثير ملموسًا حتى لأشخاص مثل المهندس واللواء والعميد وغيرهم، مقارنةً بالنظام المهيمن على البلد؟ حتى إن القابع في القصر الجمهوري، لا يشكل فيه عنصرًا كلي التأثير، وإن كان الأوحد، وبما أنه يصعب الوصول إليه وإلى العائلة، فنحن مضطرون إلى استشفاف آلية ما يحدث في داخله، من هؤلاء الذين لا يأتون أمرًا من دون الاطمئنان إلى أنهم ينفذون التعليمات الواردة منه، سواء كانت مكتوبة أو شفهية.

لذلك لا بأس في التعرف إلى المحقق سامر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

الفصل السادس
اللواء والرقيب

١. سيادة اللواء في الزمان الخطأ

يمكن تحديد البداية، عندما أعلم العميد حسين مهيوش، صديقه اللواء محسن درواد قائد الفرقة٢٤ باطلاعه بصورة غير رسمية على مقترح في القيادة، ما زال في طور الإعداد حول الضباط المنويّ إنهاء خدمتهم في الجيش، كانت تضم اسمه، ستصبح نافذة، ويُعمل بها بعد نشر لائحة الترفيعات والتسريحات مطلع العام القادم. إن لم يبذل ما بوسعه لتصحيح ما يؤخذ عليه من تقصير، يستدعي إلغاء الاقتراح، فلن يعترض القصر الجمهوري على تسريحه. كان أمامه عام كامل.

لم تشجع الصدمة التي فاجأت اللواء على تدارك تقصيره، فهو لم يعرف بماذا هو مقصر!! كان من طبيعته الترفع عن السؤال والطلب، فتحلى ببعد النظر، واستعد بوقت مبكر لترتيبات الرحيل، لتكون المغادرة المتوقعة أقل إيلامًا. فقد قضى حياته في الجيش، وخاض حروب الوطن بشجاعة، وحصل على وسام بطل الجمهورية، مع أنه لم يحرر شبرًا من الأراضي المحتلة، وإن دافع باستماتة عن مواقعه إلى أن جاءته الأوامر بالانسحاب، صادف هذا في أكثر من حرب محدودة، ولم تكن مصادفة، كان الانسحاب الطابع العام للحروب، ليس لتخاذل الجيش، وإنما خوفًا من سقوط النظام، فتراجُع الجيش من الخطوط الأمامية، كان لحماية العاصمة، عرين الرئاسة.

لم يخضع اللواء لأية مساءلة، فهو لم ينهزم، أو يحارب مختبئًا في خندق، ولم يراقب بالمنظار سير المعركة من مركز عمليات في المؤخرة. كان في المقدمة، ونجا من الموت بأعجوبة. ويشهد سجله العسكري على جرأته وانضباطه العسكري، وتنفيذه الأوامر بحذافيرها، فلم يعترض عند تلقيه الأوامر بالثبات في موقعه، ولا بالانسحاب منه، مع أنه لم يجد لكليهما مبررًا قويًّا.

إذا كان قد نسي، فالنظام لا ينسى، سجله العسكري لم يكن ناصعًا، فقد تلكأ في أثناء حصار حماة، ومدفعيته لم تشارك في القصف. فطلبوا منه متابعة طريقه إلى لبنان. في ذلك الوقت، كانوا بحاجة إليه في بيروت. الرئيس الراحل لم يحاسبه على تجاهله الأوامر، اعتبره تراخيًا في التنفيذ. مضى على هذه الحادثة ما يزيد على ثلاثين عامًا، لا غفران مهما بعُدَ الزمن.

صديقه العميد حسين لم ينسَ أيضًا، مع ذلك فسّر قرار تسريحه بأنه ربما كان تقاعدًا عاديًّا، لئلا يدفعه الظن إلى اتهام الرئاسة بالانتقام منه. القرار لا غبار

عليه، إذا نظر إليه من الناحية العسكرية البحتة؛ أن ترفيعه إلى رتبة عماد في هذا الوقت، يعني أنه سيبتّ بقرارات استراتيجية، بينما كان مؤهلًا تكتيكيًا.

«تعلم، الرئيس وحده يتخذ مثل هكذا قرارات مصيرية».

استعد اللواء للمغادرة، بوضع اللمسات الأخيرة على تقاعده المقبل، آخذًا بالحسبان أن امتيازاته العادية ستتضاءل بالتدريج، إن لم تتدهور في اليوم التالي لمغادرته الفرقة، لن يفيده منصبه إلا مدة محدودة من الزمن، بضعة أشهر لا أكثر. وبما أن مكانته العسكرية إلى تلاشٍ، فلا دوام لصداقات أو معارف، ألم تضعف صداقاته مع الذين سرحوا وتقاعدوا قبله، وتبددت بعدما فرقت بينهما الأمكنة والأزمنة؟ أنذرته حساباته أن ما سيقع عليه لن يكون بأحسن، بل أسوأ.

أكثر ما طمأنه إلى تقاعده، أنه سيوَدّع الجيش بسمعة طيبة، فهو لم يتورط بعلاقات مع السياسيين المتنفذين والمشبوهين من التجار، أو يستثمر نفوذه في جني المال، مع أن سمعته النظيفة فتحت له الأبواب، فأغلقها بابًا وراء باب، ولم يسعَ إلى تحقيق أي مكسب، ما ألّب الكثير من الضباط عليه. بالنسبة إليهم، شكل مثالًا جبانًا بتركه الغنائم للمدنيين اللصوص ينهبونها دونما عناء، فالبلد لم يتطور ويتحسن إلا بعدما وضع العسكر أرواحهم على أكفهم، واستولوا على السلطة، وإذا استأثروا بشيء، فهو نصيبهم العادل، وهم الأحق به. آل الحال به إلى وصفه مع أمثاله بـ«الضباط البؤساء» الذين وجدوا في الفقر نزاهة، وفي الاستقامة كرامة، وتميزوا بالتجهم والنكد، فلا ترفيه وبذخ، ولا سكر وعربدة، ولا نساء وتعريص، ولا سلبطة واستخراء للناس.

انتقاداته لم تصل إلى أسماع خصومه من الضباط فقط، بل تعدتها إلى أسماع القيادات السياسية والحزبية والعسكرية، فُسرت على أنه يستشرف عليهم، فكانت سابقة لا تغتفر. الأدهى انتقاده الحل الأمني، ومن بعده العسكري في القضاء على الاحتجاجات الشعبية، مع أن صديقه العميد حسين حذره من مغبة التهور في إبداء آرائه، وكانت السبب في عدم إسناد أية مهمة قتالية له، أعقبها تجريده من بعض ضباطه الكبار بنقلهم إلى القطعات الأخرى، وانتزاع دبابات الفرقة وإرسالها إلى جبهات الاشتباكات، كانت كلها محاولات للضغط عليه، ما وضع الفرقة في حالة تحلل متواصل.

ليس أن القيادة لم تهتم به، كانت تعليمات الرئاسة مراعاة اللواء حتى آخر لحظة، في انتظار إبداء تأييده الكامل للحرب الشاملة التي شنّها الجيش على المتظاهرين، ليعدلوا عن نيّات تسريحه، بينما كان في وادٍ آخر، يأمل أن القيادة ستتراجع عن الحل العسكري، وتطوى معها قصة تقاعده القسري.

لم يتنبه إلى خطل مراهنته، فالحرب تتسع وتشتد، ولا أفق منظورًا يشير إلى أن أطراف القتال في وارد وضع حد لها. وإذا كانت القيادة تسامحت معه، فلأنهم لا يشكّون في ولائه الكامل، وماضيه المشرف، وما يعرفونه عن طيبته. وكيلا نبالغ في قصة الطيبة، لم تكن بالنسبة إليهم سوى الغباء. ولقد أبدت القيادة قدرًا كبيرًا من التسامح والصبر على عناده، لو كان غيره، لأخضع، لا ريب، لمحكمة ميدانية.

لم يأسف اللواء على ما سيفقده من امتيازات، مع أنهم سيتركون له سيارة واحدة من السيارتين اللتين فرزتا لاستعماله الخاص، بينما هناك ضباط لديهم أسطول من السيارات، كانوا أدنى منه رتبة وكفاءة. الامتياز الحقيقي الذي خشي أن يفقده، ما يتمتع به من احترام، فبعد التقاعد سيصبح بلا رتبة ولا فرقة، فإذا كانت أموره مُيَسّرة من قبل، فماذا عمّا بعد؟ سيعود إلى الضيعة، ويشهد تقلبات انحسار مكانته. وقد ترتد عليه انتقاداته القاسية بالويلات، فهو لم يوفر الذين نجحوا في تكوين ثروات طائلة في زمن قياسي، من احتقاره لهم.

كان من ضمن ترتيباته حماية ابنه أحمد وابنته حنان، عائلته الصغيرة بعد وفاة زوجته. كانت حساباته بشأنهما على غير ما يرام، نجاحهما في المدرسة غير مضمون، ابنته حنان لم تكن المشكلة، كانت تنجح دفشًا، المهم أنها تنجح، لكن أحمد عالق في البكالوريا منذ عامين، والعام الثالث لا يبشر بخير. كان مصدر قلقه.

كان الابن راغبًا في الحصول على شهادة البكالوريا، للتطوع في الجيش، لكنه فقد الأمل في النجاح؛ البكالوريا عقدة العقد. أبوه لم يساعده، بينما أصدقاء أحمد من أبناء الضباط، يحصلون على أسئلة الامتحان، أحيانًا مع الأجوبة. أما هو، فلا أسئلة ولا أجوبة. مع أن رتبة أبيه كانت أقدم من رتب آبائهم. لم يكن امتناع اللواء عن الأساليب الملتوية للحفاظ على سمعته، بل لأنه لا يتصور أن ينجح ابنه بالغش والخداع. هذا الأسلوب بالذات كان مرفوضًا تمامًا، ولا نقاش حوله، أو تلميح إليه. فترك أحمد المدرسة، ولم يعد يتردد على البيت، ثم اختفى. بعد أيام جاءه الخبر، انتسب أحمد إلى الشبيحة.

طار صواب اللواء: الشبيحة؟!

كان الشبيحة الزعران لصوصًا ومجرمين فوق القوانين. وإذا كان مستقبل أحمد قد أصبح معروفًا بالانضمام إليهم، فلأنهم بعد الثورة أصبحوا مليشيا مسلحة معترفًا بها، وأضافوا إلى خطوط التهريب والمخدرات والخوّات وإذلال الأهالي، وخط الدفاع عن العائلة المالكة، تحت عناوين على شاكلة

الأرض والضيعة والطائفة والعرض والشرف... فاكتسى النهب والخطف وطلب الفدية مشروعية ما بعدها مشروعية.

اضطر اللواء إلى الذهاب إلى الضيعة وانتزاع ابنه من براثن الشبيحة، وعاد به إلى دمشق، ليتفاجأ بحقيقة أن ابنه وابنته كانا في الصف نفسه؛ مع أن أحمد يكبر أخته بثلاث سنوات. المخجل إذا لم ينجح ابنه البكر فستسبقه أخته إلى الجامعة. كيف ستدخلها البنت ولا يدخلها الولد؟ نجاحه أولوية شاء أو أبى. اقترحت ابنته أن يشرف عدد من الأساتذة على تدريسهم برنامج البكالوريا. كانت فكرة الاستعانة بأساتذة غريبة على ذهن اللواء، مع هذا رضخ لها، ربما أفلحت.

لم يدرِ أنه علق بمشكلة يستحيل حلها، تكاليف الدروس الخصوصية تزايدت عشرات المرات في العقود الأخيرة، فبينما كان الدرس بعشر ليرات، أصبح بآلاف الليرات؛ أي إن تكلفة تدريسهما برنامج البكالوريا يعادل ثروة.

لأول مرة، يضيق اللواء بنظافة يديه. كان عجزه كاملًا، فتراجع عن الدروس الخصوصية لضيق ذات اليد، رغم توافر المستعدين للدفع، ولا خلاف على أسلوب التسديد، كما لا فرق إن كان عاجلًا أو مؤجلًا. فرفض بكل إباء وشمم.

كي نفهم هذا العناد، أو يباسة الرأس، أو التحجر، كان اللواء من جيل يؤمن بالمبادئ والمثل العليا، ويعتقد أن لا قيمة للإنسان من دونها. الذي لم يعرفه، أن هذا الزمان ذهب، ولم يذهب معه، أي أنه كان في الزمان الخطأ. فلو أنه رحل مع ذلك الزمان، أو ارتحل إلى زمان قادم في علم الغيب، لانحلت مشكلته، لكن لا هذا ولا ذاك.

الأقدار ستلعب دورها إلى جانبه، أو إنها مجرد مصادفات. على كل حال، سواء كانت هذه أو تلك، فربما كانت في صالحه.

٢. جامعة في الهواء الطلق

الأقدار أو المصادفات أخذت دورها في الاجتماع الشهري الذي عقده اللواء مع ما تبقى من ضباط فرقته. أصرّ اللواء على عدم الإخلال ببرنامج الدورة التدريبية للعام المقبل، لن تتخلف الفرقة عن المشاريع الميدانية، ولو كان في أرض خلاء، والجنود منزوعو السلاح، وبلا ذخيرة، إضافة إلى النقص الحاصل في تعداد الضباط. بينما كان الجيش المدجج بالعتاد في أنحاء الجمهورية يهدر الذخيرة على انتصارات وهمية، كان أغلبها تراجعات عن المواقع المحصنة، والطائرات تسرح وتمرح في السماء، ترمي قنابلها على البيوت الآمنة..

في الاجتماع، لم يركز اللواء على الخطط المقترحة، ولا البديلة لمشاريع الفرقة. كان ذهنه مشغولًا بقصة الدروس الخصوصية، شروده استرعى انتباه الضباط، عادة كان اللواء أكثرهم تيقظًا، لكن بدا ساهيًا عنهم، مبقبق العينين، لم يأخذ كفايته من النوم، بعد أرق ليل طويل، يرى ما لا يرونه. ما الذي كان يراه؟

رتل من الأساتذة تجمعوا على مرمى النظر كأنهم أهداف معادية تتقدم نحوه، وهو عاجز عن نقدهم أجورهم... لنقص في الذخيرة. بينما كان يتناقش مع ضباطه شاردًا، ويفكر ملهوجًا في التنسيق بين الأساتذة، أين يستقبلهم في بيته المتواضع؟ قضية الدفع، أبعدها عن ذهنه، كانت مستحيلة. أخيرًا خامره حل، لن يستقبل أحدًا، سيسجن ابنه في البيت مع كتب البكالوريا، ولا يسمح له بالخروج منه إلا في اليوم الأول للامتحان.

بعد انتهاء الاجتماع، لم يغادر الرائد قائد الكتيبة ٤٥ القاعة، وكان مقرَّبًا إليه، واحد من أقربائه الموزعين في الجيش. أراد أن يسأله عن أسباب عدم إسناد مهمات قتالية للفرقة قبل أن تضمحل، إن اقتحم الجيش الحر مواقعها، فسيأخذهم أسرى. وبما أنه لا يجوز طرح هذا السؤال بشكل مباشر، لئلا يظن أنه يتهمه بالإهمال، أو الخرف، فلم يشر إلى الحرب الدائرة على مقربة منهم على بعد كيلومترات، كأنها تجري في قارة أخرى.

كان من المستحسن أولًا الاستفسار عن صحته. كان شحوب وجهه يوحي بأنه يشكو من مرض قد يكون عضالًا، فقد كان على رأس الاجتماع مشوشًا، يتمايل يمنة ويسرة.

«سيدي اللواء، أرجو أن يكون مجرد عارض».

«وعكة بسيطة».

اضطرب اللواء، كأنما الرائد ضبطه ضائعًا في حشد الأساتذة، وانتزعه منه. ارتد حانقًا، وتدفق من فمه، سيل من القهر والإحباط وانعدام الرجاء... خليط بدا للرائد في منتهى الركاكة من تدافع الكلام بصوت مبحوح تارة، ومخنوق تارة أخرى. أما الشرح فكان مزيجًا من مصاعب عائلية، ودروس خصوصية، وبكالوريا عصية على النجاح، والجامعة التي ستغلق أبوابها في وجوههم.

كانت تداعياته تلقائية بحتة، فاللواء المتكتم، إذا كان يشكو، وعلى وشك الانفجار، فلا بد أنه يعاني، لم يتكلم، إلا بعدما كبت طويلًا ما اعتلج في داخله، وإذا لم يكن قد انفجر بعد، فلأنه لم يسبق له أن انفجر أمام مرؤوسيه.

بعدما أفلت زمامه، تنبه إلى أنه أطاح هيبته بكل حماقة بسرد قصص عائلية في موقع عسكري محظَّر على هموم مدنية الطابع. أحسّ بالحرج أمام قريبه

الرائد الذي صعب عليه انكسار اللواء الذي لا ينكسر. سنوات طويلة، ورئيسه صامد في شتى الظروف القاهرة، حسبما سمع عنه ممن عاصروه؛ في الحرب اللبنانية؛ لم تفلح القوات العميلة، ولا القوى الوطنية اللبنانية، أو الفلسطينيون بمختلف منظماتهم، ومعهم الأمريكان والفرنسيون بجيوشهم وبوارجهم... في إثارة غضبه، كانت أعصابه حديدية على الدوام، إلى لحظة انتقاله مع قواته إلى الداخل، وخروجه من الأراضي اللبنانية مرفوع الرأس. فإذا به تخور قواه من مجرد بكالوريا سخيفة وبضعة أساتذة مرتزقة، ويتحجج بضيق ذات اليد، بينما بإمكانه كسب الملايين، وشراء أساتذة لا استئجارهم. وإذا لم يرد تدنيس يديه بالمال، بوسعه اعتقال عدد من المشهود لهم بالخبرة في التدريس، وإجبارهم رغماً عنهم على تدريس أولاده بالمجان.

لم يتجرأ على عرض هذا الحل، اللواء يأنف من هكذا بلطجات. حسنًا، بدلاً من اللف والدوران، الأسهل طلب أسئلة الامتحان من مصادرها، هناك من يتمنى أن يقدمها إليه هدية بلا ثمن، لكن يستحيل إغراء اللواء، يعتبرها جريمة يُعاقب عليها مرتكبوها مهما كانت مناصبهم.

لم يتحير الرائد كثيرًا، ما يقيد اللواء لا يقيده. ثمة حل محلي ضمن الفرقة. عثر عليه ببساطة؛ المجندون بالعشرات، لا عمل لهم سوى انتظار موعد انتهاء خدمتهم العسكرية.

«سيدي اللواء، لدينا ضباط صف خريجو جامعات، لو جمعناهم خارجًا في الساحة لحصلنا على جامعة في الهواء الطلق تحوي الاختصاصات كافة، بوسعهم تدريس الأولاد، ليس منهاج الصف الثالث الثانوي بجميع مواده فقط، بل مناهج الكليات النظرية في الجامعة، لو كان لدينا مخابر لدرسوهم أيضًا مناهج الكليات العلمية».

لم يكن الرائد يمزح، هتف اللواء متسائلًا:

«ماذا عن الفرقة؟».

«البطالة قد تودي بهم إلى التفكير بالفرار من الجيش».

«هل يفعلونها؟».

«ما يدرينا؟ إنهم شبان وناقمون، يرغبون في العودة إلى بيوتهم».

«هل تظن أن أحدًا منهم يفكر بالانشقاق؟».

«بصراحة، حملة الشهادات، لا يؤمن لهم».

بان الامتعاض على وجه اللواء، فامتنع الرائد عن المزيد من الصراحة، الجيش بالنسبة إلى المجندين لا يعدو أكثر من زريبة، محبوِسون في داخلها، بلا عمل،

لا همّ لهم سوى طلب الإجازة، يمنعونها عنهم، مع أنه لا فائدة من وجودهم.

«إنهم مجندون، سنوات خدمتهم قاربت على الانتهاء، وتسريحهم خلال أشهر».

«مستحيل، نحن في حالة حرب».

عثر الرائد على سبب أقوى:

«باتوا يشكلون عبئًا علينا من ناحية الإطعام».

«هل يأكلون كثيرًا؟».

«هناك نقص في المواد الغذائية، الجنود في القطعات المحاربة لا يظفرون بأكثر من وجبة».

وإذا كان الرائد يفخر بتزمت قريبه اللواء، لكن عزة نفسه لا جدوى منها إلا في تعقيد مسألة تافهة جدًا، بدلًا من اليأس المعشش في تلافيف دماغ اللواء، القليل من الفساد لا يؤذي، بل يبعث على الأمل، لا بأس في إقناعه بالتخلي عن حذره، وحساباته المتشددة، والاستغناء عن عدد من ضباط الصف لتدريس أولاده:

«إنهم يقضون الوقت بلعب الورق في الخنادق».

لاحظ الرائد تردده، فقال:

«إذا أردت، ادفع لهم أجرًا مقابل الدروس».

راقت الفكرة اللواء، فتردد أكثر. تساءل:

«تعلم الأجور مرتفعة، وأنا...».

لم يدعه يكمل:

«السعر رمزي».

«بل حسب التسعيرة القديمة، لكن ألن يحسوا بالغبن؟».

«أسعار الجيش لا تخضع للعرض والطلب».

انبسطت ملامح اللواء، كان الحل طوق إنقاذ له، لكن سرعان ما ظهر الخوف على ملامحه.

«ألا تعد مخالفة استخدام هذا القدر من العسكر لشأن خصوصي؟».

«سيدي، إنه شأن تعليمي».

تردد اللواء. مهما يكن، تُعَدّ مخالفة، استغلالهم في خدمات منزلية، الأولاد سيتلقون الدروس في المنزل، وليس في الفرقة.

دافع الرائد عن فكرته بأن التعليم يرفع من شأن البلد و...

لم يعد يستمع إليه. كان يفكر بالمشكلة الناشئة عن وجودهم، أين سيستقبلهم؟! تخيل على الفور جنودًا يدخلون، وجنودًا يخرجون... من بيته، ماذا يظن الجيران؟ بالأحرى، وهذا ما جعل الخوف ينقلب إلى رعب، ما الذي ستعتقده المخابرات؟ لن يخطر لهم سوى أنه يدبر انقلابًا.

«من سيقنع المخابرات بأن مهمتهم تعليمية؟».

فاجأه اللواء بسؤاله، فخاف الرائد؛ الفكرة فكرته؛ الأهون أن يرسب الأولاد.

كادت المصادفة التي جاءت هكذا عفوًا على شكل تداعيات، وقاربت على النجاح أن تتبدد، لولا أن الرائد، صحا من الصدمة، وتذكر أمرًا في منتهى الأهمية:

«سيدي، لن يظنوا شيئًا، يستحيل القيام بانقلاب بحفنة من ضباط الصف، تعلم أنّ الضباط هم عماد الانقلابات».

«العقبة، في عددهم الكبير».

«إذا كان كلا الولدين في الفرع نفسه، فمن الممكن تنزيل عددهم».

من حسن الحظ، كلاهما كانا بكالوريا أدبي، ما بشّر بتخفيض عدد الأساتذة إلى النصف. فاستعادت المصادفة تأثيرها الفعال. تابع الرائد إعمال ذهنه صوب خفض النصف إلى الربع، فتذكر أن لديه رقيبًا مجندًا، ذكيًّا جدًا، وعنيدًا جدًا، اعتاد تشغيل مخّه، يشغل أوقات فراغه في القراءة، ولا يكتفي، فيأخذ من ساعات التدريب والمناوبة والطعام، ويقتطع من سويعات النوم، والأنكى أنه كان يصطحب الكتاب معه إلى المرحاض الميداني. عندما سجنه في الثكنة لعدم انضباطه، لم يتأثر، أمضى فترة احتجازه في القراءة الهانئة، ما شجعه على استمراء فلتاته. السجن المخصص للعسكر كان مثاليًّا، غرفة لا يعكر صفو الرقيب فيها ضجيج، يقرأ ويتأمل ويفكر أيضًا.

لم يكن الرائد يكلم نفسه، كان يصور للواء نوعية هذا الرقيب غير المألوفة، ما يحبذ الاستغناء عنه، إلى ما يمكن الاستفادة منه.

«إذا كان الرقيب بهذا الانكباب على القراءة، فقد يوفر عليك أستاذين أو ثلاثة».

لم يكن التخفيض كبيرًا، ما زال العدد عائقًا.

٣. الرقيب قارئ الكتب العنيد

إثر توافق اللواء مع الرائد على اختصار الأساتذة بحيث لا تثير أعدادهم شكوك المخابرات مع تخفيض الكلفة. سارع الرائد بإرسال الرقيب ، قبل أن يغير اللواء رأيه.

وقف الرقيب باستعداد يرتجف (ما يذكرنا بارتجافه أمام المهندس والعميد بعدما أصبح محققًا، مع أنّ الحادثة كانت فيما بعد، وحادثة الارتجاف هذه وقعت قبلها بنحو عامين، وربما أكثر، لكن الحدث أملى التقديم والتأخير). إذًا وقف الرقيب يرتجف، ورجلاه تتقصفان، الأمر عادي تمامًا، كان في حضرة اللواء، بينما هو صف ضابط مجند برتبة رقيب. بدا من رهبة الموقف كأنه سيتلقى حكمًا بالإعدام، فكر في رغبة أخيرة، مع أن أقصى عقوبة، إرساله إلى سجن تدمر لمخالفاته المتكررة، حيث لا قراءة ولا تأمل ولا تفكير، فقط موت بطيء، أسوة بمعتقلي الإخوان المسلمين، وربما كان أحسن حالًا، فهو ليس منهم.

تذكر أن الطريق، غير سالكة إلى تدمر، الإرهابيون قطعوا الطرق إليها، وإذا كانوا ينوون السيطرة عليها، فلتفجير الآثار الوثنية. على كل حال، السجون لم تعد صالحة للقراءة، سيُقضى عليه من دونها.

تكلم اللواء، كان قد تشجع أكثر، لكنه لم يكن مفهومًا. في الحقيقة، ما أراد قوله لا يستعصي على الفهم، كان خجلًا من البوح به، إلى أن عثر على مادة للحديث، تصبّ في ما هو بصدده، فتطرق إلى إدمان قراءة الكتب، ما شكّل صلة وصل بين الكتب التي يقرأها الرقيب والكتب المدرسية.

فهم الرقيب أنه متهم بالقراءة، فتفاقم شعوره بالحصار، بينما كان اللواء ينجز الخطوة تلو الأخرى؛ رَبَطَ القراءة بالتعليم، والتعليم بالدروس، والدروس بالوقت، والوقت بالكلفة. فاختلط على الرقيب، وإذا كان قد فهم شيئًا، فمن الخلاصة التي كانت واضحة جدًا: المطلوب منه التحول من رقيب إلى أستاذ يُدرّس منهاج القسم الأدبي- بكالوريا... هكذا دفعة واحدة.

هل يريد اللواء تعليم العسكر ما يؤهلهم لتقديم امتحان البكالوريا؟!

كرر اللواء نشيد العلم والتعلم، وأردف: «التلاميذ أولادي، صبي وبنت».

وافق الرقيب فورًا، وبلهفة يشوبها الفرح والتهور معًا، أبدى استعداده لتدريسهما المواد كلها.

«كلها؟!» هتف اللواء.

«نعم كلها سيدي اللواء».

بلغت المصادفة حد الروعة دفعة واحدة.

لم يتمالك اللواء إزاء الرغبة الجامحة التي أبداها الرقيب بحماسة، إلا أن يتحير، تجاوز العرض تقديراته المتفائلة جدًا، بتخفيض عدد الأساتذة إلى أقل رقم يمكن تصوره، لا أكثر من شخص واحد لا يستلفت الانتباه. إذ يستحيل تدبير انقلاب من جيش يضم لواءً ورقيبًا مجندًا. بذلك، انتهت أزمته الكبرى مع العدد الغفير اللافت للشبهة.

للحظة خامرته الشكوك؛ الرقيب بلغ به الجشع، ألا يشرك أحدًا بما ظن أنه غنيمة، فكان عرضه اللافت فرصة للاستيلاء على الدروس جميعها، وما تدرّه من مال، بينما لا مال ولا غنيمة. الدروس لن ترتد عليه بأجر مجزٍ. سيخيب ظنه، لن يستحي منه، سيساومه.

سأله اللواء عن التكلفة، لكن ليس قبل إعلامه بالوضع الخاص للدروس:

«طبعًا يمكن اعتبار الولدين ولدًا واحدًا، سيتلقيان الدروس معًا».

وتابع قائلًا:

«ثم إنه لا مشقة ولا تعب دماغ، ابني لن يستفسر منك عن شيء. أما البنت، ففضولية قد تطرح عليك بعض الأسئلة».

أي لا مضاعفة للأجر، وبما أن الدروس ستكون برنامج البكالوريا الأدبي بالكامل، فالمفروض أن يحظى بسعر الجملة، عادة ما يكون أقل من سعر المفرق.

لم يلحظ الرقيب هذا التفاوت، اعتقد أن اللواء يُكرمه بتدريس أولاده، والمفروغ منه أنها مجانية. كان في سؤاله عن الأجر امتحان له.

«سيدي اللواء، لا أريد شيئًا، تدريس أولادك شرف لي».

تضاعفت المفاجأة، فكاد يُغمى على اللواء من الفرح. لكنه لن ينساق إلى الإغماء، فهو لم يحلم أصلًا بتنزيل المبلغ إلى الصفر. فظن أن ترفّع الرقيب عن طلب المال عائد إلى خوفه منه، بعدما لاحظه يرتجف.

كان الموقف ملائمًا لاهتبال فرصة تفرضها رتبته، وما تبعثه من رهبة، لكنه أصرّ على أنّ يدفع أجر الدروس. في الوقت نفسه، أصرّ الرقيب بشدة على موقفه، كان يتكلم وهو مطرق برأسه، متحرجًا من مناقشة أي شيء يتصل بالنقود.

تمهل اللواء، ما الذي يفعله؟ خشي من الانزلاق إلى استغلاله، فعزم على أن يهدده بسلطته العسكرية، ويجبره على قبول أجر الدروس. لكنه تروى، إذا

طلب الرقيب أجرًا مرتفعًا، فلن يستطيع تنزيله، فأصرّ من جديد، من دون تعنّت وإلحاح، وتمنى في سرّه أن يكون السعر رمزيًّا، أو على الأقل معقولًا، لا يشكل عبئًا كبيرًا عليه، الرقيب تنّحَ ولم يستجب. لم يملك اللوء إلا الإصرار بشدة، ويا للعجب! لم يتمكن من تليينه. الرقيب العنيد ركب رأسه، وحلف ألا يأخذ قرشًا واحدًا مقابل الدروس، أي إن التكلفة لا شيء.

دهش اللواء، وهو عادة لا يندهش إلا نادرًا، ارتبك لم يعرف ما ينبغي فعله، الفرصة لن تتكرر. هل يدعها تفلت منه لقاء دروس بلا مقابل؟ لا، لكن ربما انعكست على جودة التدريس. حسنًا، إن أحسن الرقيب المهمة، وهذا لا يمكن معرفته إلا بعد نتيجة الامتحان، فسيعوضه بشيء ما، حسب قدرته المالية.

عندما أراد إعلان ما خطر له على أنه اتفاق بينهما، أحس بالذنب، لقد حرمه ثروة، مستغلًا الحجم الضخم لرتبته، وهزال رتبة الأستاذ العسكرية، وحصل على دروس إن لم تكن مجانية، فشبه مجانية، وخان مبادئه في عفة النفس.

لن يستمر في محاكمة نفسه، الأجدى انتزاع وعد من الرقيب العنيد، يقيده بضمانة أكيدة تنهي قصة البكالوريا برمتها، ترمي بأولاده إلى الجامعة. فاستعاد سطوته، بعدما انزاحت عنه غمامة ضياع مستقبل الأولاد. وهو عادة عندما يستعمل سطوته، فكاملة لا ناقصة؛ فهول من العواقب في حال عدم حصول النتيجة المرجوة، وإن لم يشر إليها، لكن الواضح أنه قصدها.

فخاف الرقيب، وارتاع اللواء، قد يُضيّع بحماقته ما أنعمت به المصادفة، ويفقد معها ما تهيأ له من ميزات، فغيّر من أسلوب الترهيب، وارتدّ إنسانًا طيبًا وبائسًا، ورجاه بصراحة:

«اسمع يا بني، يجب أن ينجح ابني ولو بعلامات متدنية».

«سيدي اللواء، لن أخذلك».

أيقن أن هذا الرقيب قارئ الكتب العنيد، صالح لهذه المهمة، فلم يكتف بإغرائه بالعلامات المتدنية كتسهيلات مشجعة، بل طمأنه إلى أن لا يهم أية كلية سينتسب إليها الولد. أما البنت، فأمرها غير مهم، نجحت أو رسبت، لن تستفيد من علمها شيئًا، لأنها يومًا ما ستتزوج.

٤. الطالب الشرس - المستمعة العابثة

هذه المصادفات العارضة، سواء تعثر بها، أو تعثرت به، أدت المفعول المرجوّ منه في تسلّم الرقيب المجند سامر سفان زمام تدريس الولدين أحمد وحنان، وهما ليسا ولدين، كما يصفهما أبوهما اللواء. كانا في سنّ المراهقة

الطويلة التي تبدأ قبل العشرين بسنوات، وتنتهي بعد الثلاثين بسنوات، أحمد في الثانية والعشرين من عمره، وحنان في التاسعة عشرة من عمرها.

لم تقلّ النتيجة عن معجزة. تغلّب الرقيب على طيش الولد المراهق، وتدارك تقصيره الفادح، وكراهيته المستحكمة للعلم والتعلم، وأثمرت جهوده لنيل شهادة البكالوريا. أما أخته، فنجحت بتقدير جيد، وليس مصادفة. كلفه هذا الإنجاز ملازمتهما نحو ستة أشهر، وسهر الليالي، وتكريس وقته وعلمه لهما.

رتّب هذا النجاح على اللواء دَينًا للرقيب، وإذا ذهب الظن بنا إلى أنّ المقابل كان إعفاءه من المهام العسكرية، فقد كان غير مساوٍ البتة، اللواء لم يأخذه بالاعتبار، ضباط الفرقة وجنودها كانوا عاطلين من العمل ينعمون براحة إجبارية. لا تنغصها تحية العلم صباحًا، أو ترديد شعار «أمة عربية واحدة»، ويتمتعون بقيلولة الظهيرة في المهاجع، والمسامرة مساءً في الخيام، أو في العراء... مع حماية كاملة من هجمات الجيش الحر والفصائل الإسلامية، تؤمنها القطعات العسكرية المجاورة للفرقة الكسلى.

بالمقارنة بما أنجزه الرقيب في مجال التعليم، مالت الكفة إلى صالحه بشدة، التدريس كان مضنيًا، الطالب الشرس كان معاديًا للبكالوريا، وأخته المستمعة العابثة، كانت الشهادة أبعد شيء عن ذهنها، واظبت على حضور الدروس، كان اللقاء بالرقيب الشاب قد استحوذ عليها نهارًا من أجل الانفراد به ليلًا.

قدّر اللواء الضرر الذي حاق بالرقيب، فالبطالة في الفرقة كان سيمضيها في القراءة المفيدة. بينما المشاق التي عانى منها، تفوق أية مهمة عسكرية، فقد اطلع من قرب على سماكة ذهن ولده، ما أجبر الرقيب على تلقيمه المعلومات، معلومة معلومة، مرارًا وتكرارًا، ربما علق منها شيء، وإن ساعد مراقبو الامتحانات ابن اللواء على التذكر، فجاءت النتيجة فوق المتوسط.

العبء الإضافي الذي اضطر الرقيب إلى القيام به، وتحمّله طوال الأشهر الأخيرة، كانت كلفته أكثر مما توقع، جسديًا ومعنويًا، فالابنة التي أسقطته في غرامها، ورطته في ألاعيبها، ومع أنه روّح عن نفسه، من دون رقابة، كان متهاونًا في شؤون الغرام العنيف، فالرقيب كان مراهقًا أيضًا، وما جرى بينهما كان تحت لهيب الشهوات المضطرمة، أية قبلة انتزعها منها أو انتزعتها منه، أغرقته في فاصل من العرق والخوف. ولا تعدو القبلة وتداخل الألسنة إلا مثالًا متواضعًا على النشوة المسترقة في ظلمات الليل، تضاعفت مع الوقت حتى باتت ضروب الالتحام الجسدي في وضعية الوقوف، وهما بكامل ملابسهما أشبه بالامتحان اليومي، كان يخفق أحيانًا، بينما كان جهدها ونجاحها متميزين.

المكسب الحقيقي، العلاقة الشخصية التي نشأت بينه وبين اللواء. كان على مدار أشهر لصيقًا به في البيت، ولو أن اللواء كان أغلب وقته في الفرقة.

بعدما تعرّف إليه من قرب، اعتبره أحد أبنائه، ونظر إليه على أنه ولد لم ينضج بعد، ما دام لم يعرف كيف يسوس مصلحته، بتنازله عن أجر الدروس الخصوصية، وخسر بجهله مبلغًا معتبرًا من المال، كان أحوج إليه، يساعده على الزواج بعد انتهاء خدمته العسكرية، وحاليًّا على تحمّل ارتفاع الأسعار اليومي، ولو أنه كان يتناول طعامه في البيت مع الأولاد، لكن ماذا عن أجور المواصلات؟ لم يعرف أن الرقيب كان يتسلل بعد خروجه عائدًا إلى البيت.

إحساس اللواء بالمسؤولية تجاه الرقيب أبهظه، خاصة أن ليس بمقدوره تسديد ما عليه من دَين لا يدري حجمه بالضبط. هذا الولد لا يدرك حقائق الحياة، فألزم نفسه بمساعدته على تأمين موقع حصين، يجعله بمأمن من غدرات الزمان. كانت تلك أفضل خدمة يسديها إليه في بلد تختلف فيه الحقائق من آن لآخر.

خرج بهذا القرار في أواخر أيامه في الفرقة، بعدما أدرك هو نفسه حقائق إضافية عن الحياة، فاته بعضها، بل جلّها، طوال أكثر ما يزيد على أربعين عامًا قضاها في الجيش غافلًا عنها. فسعى قبل تقاعده بأيام إلى نقل الرقيب إلى المخابرات، بالتوسط له لدى صديقه العميد حسين، الذي أجرى الترتيبات اللازمة، لثقته بوجاهة أسباب صديقه بأنها لخير البلد والولد، وإن لم تقنعه حينها، مع أن اللواء تعلّل بأن الولد مثقف متعدد الكفاءات، ستحتاج المخابرات إلى خبرات الرقيب القانونية، فهو خريج كلية الحقوق. ثم إن محاضر التحقيق بحاجة إلى جامعي كفء في اللغة العربية، لضعف صياغتها، عدا أنها تعجّ بالأخطاء الإملائية والقواعدية. كان السبب واهيًا جدًا، فالمخابرات لا تحتاج إلى اللغة العربية، ولا تعبأ بها. كانت تتكلم لغة واحدة لا تعرف غيرها.

هنا، لا بد من وقفة، للقول إن الرقيب تردد كثيرًا، ولم يوافق إلا تحت إلحاح اللواء الذي جهد في إقناعه، كان نقله إلى المخابرات نجاة من الحرب، إن لم يكن الموت نصيبه، فعاهة مستديمة، وإذا لم يكن هذا ولا ذاك، فلن يُسرّح من الجيش إلا مع انتهائها، متى تنتهي؟ لا بد ستنتهي يومًا ما، لكن بعد سنوات.

بالمقارنة مع الخدمة العسكرية في الخنادق، كان العمل في المكاتب مريحًا وآمنًا، أبنية الفروع مجهزة بملاجئ جدرانها سميكة جدًا، تحميها من السيارات المفخخة. بينما قريبًا، بعد تسريح اللواء سيُزج بما تبقى من الفرقة بعد ترميمها في جبهات القتال، عندئذ لن يعرف من أين تأتيه الرصاصة أو القنبلة. وبالنسبة إلى المستقبل غير المنظور، هذا إذا كان هناك مستقبل للبلد، التطوع في المخابرات، يعفيه من البحث عن وظيفة.

لم يكن إقناعه سهلًا. استعمل اللواء أسلوبًا متخلفًا، عفا عليه الزمن، وإن بات مشوشًا في ذهنه تحت عنوان واحد، هو: الوطنية. وكانت خلاصة تجربته

الأخيرة غير السعيدة، أنّ هذا الوطن الواحد قد يختفي، ويصبح أوطانًا. بينما في الماضي، كان السعي لتكبير الوطن بالوحدة مع البلدان العربية هدفًا، ها هي الحرب تتجه إلى تصغيره، عبّر عنها باختصار مع غيرها من الحقائق التي باتت عكسها:

«يا بنيَّ نحن في زمن مقلوب».

قالها له، لأن هناك ما انقلب في ذهنه رأسًا على عقب. وما حزّ في نفسه، أنه لم يرَ الزمن القديم على حقيقته، وعندما تلمحه، ظهر مقلوبًا، كما الحال الآن. وهي الحقيقة التي جهلها عمرًا بطوله، بات عليه معرفتها، والتعلم منها أيضًا في وقت لم يعد مجديًا التعرف إليها، ولا التعلم منها، وإذا أراد تمريرها إلى الرقيب فلينقذه من الحقائق التي تلعلع في الإذاعة والتلفزيون والشوارع، كانت قابلة للانحدار نحو الأسوأ. أما هو، فلن تفيده، فالنهاية مهما كانت بعيدة فهي في اقتراب حثيث.

وإذا كان اللواء قد كسب شيئًا، فهو صيانة ولديه من الضياع، وكانت الجامعة الخير كل الخير لمستقبلهما، وبما أن الجامعة في دمشق، وإقامته ستكون في قريته مغربال، وضعهما تحت رقابة الرقيب الذى أصبح محققًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

الفصل السابع
الفرع ٦٥٠

١. سيمفونيات الرعب

لم يأخذ إعداد الفرع ٦٥٠ سوى بضعة أيام. ففي اليوم الأول، وصلت سرية من الجنود، استولوا على بناء مهجور، كان تحت الإكساء على مقربة من ضاحية السومرية، كذلك اقتُطع جزء من الأرض المجاورة مع الأشجار المرافقة، ضُمَّت إلى المساحة الملحقة بالبناء. في اليوم الثاني، حضر عمال مع بلدوزر، مهدوا التربة حول البناء، ثم أحيط بسور وأكياس رمل وحواجز إسمنتية، جرى التعجيل خلال الأيام التالية لإنشاء غرفة للمقدم وأخرى للمحقق، ومهجع للعناصر، وغرفة للضابط المناوب، ومكتب للدخول. أما تحضير غرف التحقيق والقبو للموقوفين، فلن يتأخر. بينما لم يحدد موعد لتجهيز الفرع بالكامل، كانت المهلة مفتوحة. هذا التأجيل فرضته فكرة أنه سيكون على أحدث طراز، بما يتلاءم مع شاغليه الاستثنائيين، وتخصصه النوعي.

بعد أسبوع، التحق المقدم جميل المرعد بعمله. كان الفرع قد استقام واقفًا في الداخل على البلاط، لكن ما حوله ما زال على الأرض، لم يجهز بعد بخنادق وسواتر ترابية. بعد يومين، تعرّف إلى المحقق سامر إثر التحاقه بالعمل، كان العنصر الوحيد الذي سيعاونه، ونظرًا لخبراته في الإدارة، سيشرف على تأثيثه. راعى المحقق في طلباته التناسب بين عدد العناصر والطاولات والكراسي والغرف الفارغة. أما التجهيزات الفورية، فكانت تعليق صور الرئيس الخالد، والرئيس الحالي وأخويه، الأكبر الفارس الشهيد، والأصغر العقيد الحيّ، ما أعطى لجدران الغرف شكلها النهائي. فأصبح الفرع فرعًا نظاميًّا.

بعد أسبوعين، أصبح الفرع ٦٥٠ صورة مصغرة نحو عشرين مرة عن الفرع ٣٣٣. الظروف لم تكن مواتية للتوسع السريع، المهندس لم يكن على عجلة من أمره، وإن كان المأمول في المستقبل غير البعيد أن يضاهي أكبر الفروع وأرقاها، هذا في الواقع يعتمد على تقدم الثقافة تحت ظلال الأمن.

في التحضير لافتتاح الفرع، أبدى المقدم قدرًا من النشاط بوضع بعض الخطط، فارتأى من مشاهداته أو مسموعياته، خطة من بنات أفكاره للقضاء على المظاهرات الطيارة، وهي مظاهرات لا تستمر أكثر من دقائق، تختفي قبل وصول الشبيحة، وذلك بضبط الشوارع بمخبرين مناوبين، يسارعون إلى الإخبار عنها، بمجرد أن تحطّ على الأرض، وتفريقها قبل المباشرة بالهاتف.

لم يُظهر المحقق استخفافه بخطة المقدم الذي جاء متأخرًا جدًا، ولم يطّلع على مجريات الشارع. أعلمه بلباقة بعدم علاقة الفرع بالاحتجاجات الشعبية. وكان رأي المقدم، أنه إن لم يُقضَ على هذه المظاهر، فستحرّض الأدباء على المشاركة فيها، ليس بأشخاصهم، بل بعصير أفكارهم. إزاء إصراره، نبهه المحقق إلى أن المظاهرات بأنواعها ليست في تراجع حثيث، بل تكاد أن تكون معدومة، وكما هو معروف طارت أو تلاشت نهائيًّا. وهي مرحلة انتهت قبل سنوات، عندما لم تكن الثورة ثورة بعد، وكانت احتجاجات سلمية، حينها كان المتظاهرون يتساقطون برصاص القناصة، فيهرع رفاقهم إلى تلقينهم الشهادة وهم يلفظون أنفاسهم الأخيرة، فلفظت المظاهرات أنفاسها معهم.

المدهش أنّ ما قصده المقدم من المسارعة إلى تفريقها، تشتيت شملها وطردها من الشوارع، ليس بالهراوات والرصاص الحقيقي أو المطاطي، بل بإصدار أصوات أشبه بزمور الخطر، قبل مجيء الشبيحة، أو دوريات الأمن، وإذا قبض الفرع على بعضهم بالجرم المشهود، فاحتجازهم وإجبارهم على الاستماع لمحاضرات توعوية تنصحهم بالكف عن إحداث الفوضى، وإذا كانت هناك حاجة لتأديبهم، فتهديدهم بفلقة أو ما شابه، ثم إطلاق سراحهم.

ظنّ المحقق أن المقدم صاحب نكتة، وتلك إحدى مزحاته، فارتأى عدم تدخل الفرع في ما لا يعنيه، المهمات قادمة، وهي أدبية حصرًا.

سرعان ما حقق التعاون بين المقدم والمحقق مستوى ممتازًا من التفاهم، سواء في تأثيث الفرع، أو في استقدام المزيد من العناصر للحراسة، وتأمين الخدمات في الداخل. كذلك فرزت القيادة إلى الفرع كمرحلة أولى، ثلاث سيارات: واحدة للمقدم، وأخرى للمحقق، وثالثة للطوارئ. اتفق كلاهما على عدم استخدام السيارات المخصصة لهما إلا عند الذهاب في مهمة عائدة إلى الفرع. وفي حال الحاجة إلى سيارة للتنقلات الشخصية، فاستئجار تاكسي عمومي، وهي حالة نادرة، المقدم تنقلاته محدودة جدًا، بينما المحقق أمضى حياته بلا سيارة خاصة، واعتاد ركوب الميكرو باص في تنقلاته، غير أنّ النعمة المرفوضة للسيارتين، نبهتهم إلى افتقار الفرع إلى مرأب تودَع السيارات فيه.

لم تظهر الخلافات بينهما إلا عندما ناقشوا تجهيزات القبو. المحقق ارتأى عدم الحاجة إلى أدوات استنطاق، ليُبعد عن الفرع ما يُسمى أدوات تعذيب بأنواعها كافة. المقدم الحديث العهد بالفروع، استهجن الاقتراح، فرع بلا أدوات تخويف وترعيب!

«هل هو فندق للمنامة؟!» تساءل المقدم.

«لا، بل فندق بنجمة واحدة، لا تتوافر فيه وسائل الراحة. بالمناسبة، يعتبر عقابًا قاسيًا لأدباء لم يعانوا من الآلام، سوى مشاقّ الكتابة، ومتاعب الإلهام».

ضحك المقدم، إذا كان الافتقاد لوسائل الراحة عقابًا، فقد قضى حياته معاقبًا في الخنادق والخيام والبراكيات. فلفت المحقق نظره إلى أن مفهوم الراحة بالنسبة إلى الشعراء والقصاصين والروائيين مختلف تمامًا، هؤلاء لو تضوروا جوعًا، وارتعدوا من بردهم، ولم يجدوا طعامًا ولا لباسًا... لا يؤثر فيهم، البؤس يشحذ مواهبهم. والفندق السيّئ، ليس في خدماته السيئة، ولا في أسرّته المخفسة، والبرغش والبق والناموس، وقلة الماء، وانقطاع الكهرباء... العقاب الأشد، إذا هبط عليهم الإلهام، ولم تقع أيديهم على قلم وورقة.

المحقق تكلم جادًا، ليقنعه بفندق يخلو من الورق والأقلام، إذا شاء تعذيبهم. فاستغرب المقدم هذا العقاب.

قبل أن نتابع هذه المناقشة التي تبدو مستحيلة، والأدهى أشبه بأنها متخيلة، فيما كانت واقعية، تدور بين محقق وضابط قادم من الخطوط الأمامية، كان مرابطًا في جحر معزول مع حمولة خليط من الوطنية والتضحية والاستشهاد، أُوكِلت إليه رئاسة فرع مخابراتي، لم يستطع إيجاد منافذ موازية لتطلعاته، ما أصابه بالتشوش. بينما كان المحقق يعرف بأصول التحقيق وعلى دراية بالوسائل القاسية المعمول بها في الأقبية، فقبل أيام أمر باقتلاع أظفار معتقل بغية إنقاذه، فكان السبب في انتحاره. ما اضطره إلى عدم إهمال تجربته المؤلمة، خاصة أنه ضد تعذيب المعارضين. فتحدث عن العقاب بالحدود الدنيا، وكأنه أتيكيت مخابراتي ينبغي مراعاته.

قبل هذا الحديث الخيالي، ما يجب معرفته، أنّ المهندس اتصل مع المحقق، وألحّ عليه لدى برمجة أسلوب العمل المستقبلي في الفرع، بعدم التعامل مع الأدباء بغلظة؛ لا نريد للإشاعات التهويل من مهمات الفرع ولا الإساءة إليه، لئلا تتحول هذه المكرمة الرئاسية إلى نقمة على الأدب. تعلم، في بلدان العالم يجري خلط الأدباء مع المجرمين في السجون، فتضيع الطاسة، ويعامل الأدباء على أنهم مجرمون. أما أنتم، فستعاملون الأدباء على أنهم أدباء.

هذا الحديث سيبدو على شاكلة ما جاء بعده، والأشبه بالمتخيل، نجم عنه توكيل المحقق بإقناع المقدم بمعاملة الأدباء بالحسنى، وألّا يعتبر نفسه رئيس فرع للمخابرات، بل أقرب إلى أنه رئيس جمعية الرفق بالأدباء. لا صعوبة في هذا الأمر، فالمقدم حديث العمل في الأمن، يصدق أي شيء، ولا داعي لتوريطه بقصص التعذيب. بالتالي عليه أن يزرع في رأسه أنهم سيضعون الأسس لمخابرات لا تضرب ولا تجرح. وكانت كلمات المهندس الأخيرة:

«ابذل جهدك في هذا الاتجاه».

هذا الاتجاه، لم يكن من أساليب المهندس، أملاه على المحقق بحجة، أن الأدباء نائمون فلماذا نوقظهم؟ لا يتحرشون بنا، فلماذا نتحرش بهم؟ قد نثيرهم ضدنا.

سار المحقق على هدى تعليمات المهندس الموجزة. فكان من الطبيعي أن تكتسي مناقشته مع المقدم قدرًا من اللامعقولية، على وزن لامعقولية اجتهادات المقدم، شجعه عليها، أن المهندس كما بدا يريد التخلص من المقدم بإشغاله بفرع متخيل، ولو كان قائمًا على الأرض.

لم يستغرب المحقق كثيرًا هذا الاتجاه غير الواقعي، مقابلته مع ف.خ عززت فكرة أنّ ما صادفه من مواقف غريبة، فلأن أحوال البلد الخفية تُيسّر تعويم الخيال وإخفاء الواقع، مع أنّ مسلسل الأحداث الطافية في أرجاء الجمهورية بلغ من شدة واقعيتها الفظة حدود الوحشية في قتل المعتقلين، وتجاوزها إلى التشنيع بهم، حتى باتت الوجوه بلا ملامح، فالتعذيب لم يعد تعذيبًا إن لم يقتطع عينًا، أو أنفًا، أو أذنًا، ولم يُعرَف للجثث صدرٌ من ظهر، ويدٌ من قدم... إلى حد استحال عليه في تصوراته ترميم وجوه ما كان يصادفهم في القبو والممرات المؤدية إلى الزنزانات في الفرع ٣٣٣، كانت قد فاقت الخيال الإجرامي. وكي يتخلص منها في أحلامه، اعتقد أنه يتخيلها، مع معرفته الأكيدة أنه يغوص في وحل الواقع الدامي.

هذا التباين بينهما، كان موضوع نقاش مكثف مع المقدم الذي وجد في التمييز بين عامة الشعب، والأدباء المشبوهين، معاملة مجحفة، بينما المفترض جعلها أقرب إلى التساوي، لكنه وإن كان ضد التعذيب، كما أظهر، باستخدام وسائل غير مؤذية، فإنه كان مع اعتماد التلويح، مجرد التلويح بوسائل رادعة، وإلا فلن يخافوا. بيد أن الوسائل الرادعة، في ذهن المحقق، كانت حسب المتعارف عليه، ليست أقل من الخيزرانات والكرابيج والهراوات، فإذا كان هذا الأقل، فالأكثر بلا حدود.

لم يدرك المحقق أن كلًّا منهما في وادٍ، فلم يتراجع عن اقتراحه، بل بالغ به، وأكد للمقدم أنه لن يتحمّل وِزر إرسال أدباء إلى القبو، وما يمكن أن يصيبهم من كوابيس وجروح وربما عاهات، لو تزحلق أحدهم على الدرج من جراء دفعة من الخلف، لانكسرت له يد أو رأس، في حين أنّ الاستعاضة بوسائل ضغط ليّنة أفضل. لم يذكر أدوات التعذيب، كأنه لا وجود لها، كي لا يشتّ ذهن المقدم إلى الوسائل الشائعة في الأقبية. ولقد كان المقدم متعاونًا وغير متعنت، فارتأى تعليقها على الجدران، ما يوحي رمزيًّا بالتعذيب، فتُستغَلّ في التخويف فقط.

احترس المحقق، مشوار الألف ميل، يبدأ بخطوة واحدة.

«تعليقها ليس مأمون العواقب، هل تتصور العناصر يقنعون بالفرجة عليها؟».

ويا للعجب! وجد المقدم الفكرة صحيحة:

«نعم، قد تسوّل لذوي النفوس الضعيفة استعمالها».

استغل تفهم المقدم، إذا كان لا بد من وسائل تعذيب، فالاكتفاء بالمؤثرات الصوتية يؤدي الغرض ذاته، وحددها بتسجيلات تحتوي على ثورات الطبيعة من عواصف وزلازل وبراكين. ولكي يقنعه، أعطى نموذجًا عن تأثيراتها القاسية في الفروع الأخرى:

... فالأديب المعتقل في الزنزانة، مقرفصًا في العتمة وحيدًا، ستزلزل كيانه أصوات راعدة ومزمجرة، فيدهمه القلق والأرق، وقد يصاب بالإسهال من فرط الخوف.

ظهرت علامات عدم التصديق على وجه المقدم، فنبهه المحقق إلى فاعليتها.

«لا تستخف بغضب الطبيعة، إنه مدمر، يذهب بقرى ومدن... فما بالك بأديب حساس وأعزل، ستذهب به التصورات إلى أنه في الجحيم».

«مهما كانت مؤثرة، فلن تزيد على موسيقى تصويرية».

كان اعتراضه وجيهًا، ما هي إلا حلول سينمائية غير فعالة. وعلّق عليها:

«ما دام الفنانون يصطنعونها، فلن يصدقها الأدباء»،

«لا تستهن بالأصوات، قد تميت، إن لم تصب بالجنون».

حاول إقناعه بعدم الاستهانة بالسماعي، كانت من واقع مشاهداته.

«رأيت بأم عيني رجالًا أقوياء ينهارون لدى سماعهم بكاء معتقلين كبار في السن وأولاد يصرخون من شدة الألم. ورأيت نساء يُغمى عليهنّ تحت تأثير أصوات الأنين والبكاء والصراخ والنشيج. كانت من شدة قوتها وجعيرها، تخترق الأرض والسقف، وتصدع الرؤوس».

فنبس المقدم مشدوهًا... ألمجرد أصوات فقط؟!

«التعذيب الصوتي نهج معتمد؛ وذلك بضرب المعتقل على مسمع آخر، ما يحصل هو أن الذي يتعذب لا يعترف، بينما الذي يسمع يعترف. هناك معتقلون اعترفوا تحت ضغوطها بما لم يفعلوه، وهناك من همدت أنفاسهم على وقعها من الرعب».

فتعجب المقدم؛ أن تبلغ الأصوات هذه القوة في التأثير، أي إنّ الذي يُضرب، يتعذب أقل من الذي يسمع، لكن المحقق سيستدرك ما قاله من شدة

خطورته، قد تثير فضوله، ويفكر بتجربتها،. كانت توازي التعذيب وتفوقه أحيانًا، في حال استعملت بدراية.. في بعض الحالات، تُوقِعُ ضحايا حقيقيين.

كان المحقق بصدد الدفاع عن التعذيب السماعي عوضًا عن التعذيب الجسدي على أمل جرّ المقدم إلى مواقعه، إذا نجح ستكون خطوة متقدمة. أما الآن، فقد بات استبعاد الصوتي لا بد منه أيضًا.

إزاء دهشة المقدم، ما زالت الفرصة سانحة لتزويده بوسائل لطيفة، بناءً على تصور فرع مسالم، منزوع الأدوات والأصوات فعلًا، وعدم المساعدة على تسويق أي تصور قد يحيل الفرع مع الوقت إلى فرع حقيقي، مدركًا أن ما يزرع اليوم في رأس المقدم، قد يحصد صرخات يائسة في المستقبل.

«أرى عدم استخدام الأصوات على أدباء مساكين لا حول لهم ولا قوة، الرحمة ضرورية».

لكن فات الأوان، المقدم لم يرضَ، صحيح أنه رفض التعذيب الملموس، لكنه لم يجد ضيرًا في التعذيب المسموع، ما دام لا يزيد على موسيقا، ولو على سبيل التجربة. فسارع المحقق:

«من حسن حظك، لم تسمع جعير التوسلات، وخوار الألم، وشخير الموت».

انقلب المقدم على تعاونهما، واعتبر التعذيب المسموع أشبه بتمثيلية إذاعية، وربما سيمفونية، يكثر فيها قرع الطبول.

«ما الذي يضير الأدباء من سماع سيمفونية زاعقة؟».

فنفد صبره؛ إن لم يكن المقدم رجلًا طيبًا، فأقرب إلى البلاهة.

في هذا الفاصل من النقاش، خطر له الرجل الذي يدعى ف.خ، ولم يكن قد نسيه في حمأة انتقاله إلى الفرع ٦٥٠، استعاده بلمحة خاطفة، فبدا كأنه لم يقابله، بل اخترعه، وجوده مستحيل. تؤكده أحاديثه مع المقدم، كانت أقرب إلى الخيال، بعد قليل قد يختفي من أمامه، إن استمر يهرف بلا كلل برغي الكلام، وإذا لم يتلاشَ، فوجود ف.خ لا يعتوره الشك، وليس متخيلًا، إلا إذا كان الآن يتخيل المقدم.

لم يغادر المقدم وجوده، كان ثابتًا، لا يُدحض، كذلك وجود ف.خ.

تابعا النقاش من دون جدوى، تمسك كل منهما بموقفه، ما هدد الفرع بالانشطار إلى فرعين: صوتي وصامت، ما اضطر المحقق إلى إعلام المهندس بمشكلته الطارئة مع المقدم، عن وسائل التعذيب القابلة للتطوير، ما قد يوفر أوركسترا مختصة بسيمفونيات الرعب.

٢. الشر الطليق في العالم

إزاء هذا الخلاف، وحلًّا له، قام المهندس بزيارة المقدم، لإبلاغه رسميًّا بتسنّم منصبه الذي تسلمه قبل أكثر من شهر. في الحقيقة، كان متشوقًا للتعرف إليه. استقبله المقدم في مكتبه، الغرفة لم يكتمل تأثيثها بعد. كانت من دون ستائر، الأثاث الوحيد كان ساعة الحائط، وصور العائلة الرئاسية إياها، بلا اتصالات سلكية ولاسلكية، خطوط الهاتف لم تمدد بعد، ولا تغطية للهواتف الجوالة. الهواء يتلاعب بالأوراق الموضوعة على الطاولة؛ النوافذ عبارة عن فجوتين في الجدار، مطلة على أشجار أغصانها يابسة، وأوراقها صفراء، اضطجع الجنود تحتها وركنوا أسلحتهم جانبًا، أصوات العمال تتعالى في الفضاء، الإكساء مستمر.

إضافة إلى الفضول الشخصي، كان الهدف الفعلي من زيارته، إعلام المقدم بصلاحياته المحدودة، وذلك بالتركيز على تحديد صلاحيات الفرع، وكانت بالحد الأدنى، أشبه بأنه بلا صلاحيات؛ لا يمكن تقييده إلا بتقييد الفرع، ما دام رئيس أي جهاز أمني يعتبر نفسه «أنا ربكم الأعلى». بهذا يضعه على السكة نحو الهدف المنشود والمسدود.

البارحة، اطّلع على تقييمه العسكري. لم يكن سارًّا، لم يصادفه من قبل بيان أوصاف مخاتل شبيه به. كانت التقييمات مختصرة ومتناقضة، تتخبط -على إيجازها- بالخفايا المتعمدة، كان أغلبها للمراوغة، والقليل منها تبرئة للذمة. التوصيف عمومًا يشير إلى أن الضابط نشيط لا تنقصه روح المبادرة، لكن مع شيء من البلادة، جريء ومقدام، مع التشكيك بشخصيته القيادية، والتلميح إلى لامبالاته بالانضباط العسكري، مستقيم في عمله، ومتشدد في التخلق بالخصال الحميدة.

أوحت سلسلة التقييمات أيضًا، بغرابة تصرفاته، ردات فعله تتميز بالبرود، عدا عن رخاوته وتساهله مع العناصر، كل هذا لم يمنع بعض التوصيفات من إعطائه درجة كانت فوق المتوسط.

الملاحظ بجلاء، أنّ الإشارات المتكررة إلى نواحي قصوره وتقصيره، لم تفلح في تسريحه من الجيش أو تأخير ترقيته، بل أفلحت محاولات التعمية عليها. ونجح مدبجو التقييم على مدار سنوات، من قائد السرية، فالكتيبة، فالفوج، فاللواء، في الأخذ بالحسبان رعاية القصر الجمهوري للملازم، فالملازم أول، فالنقيب، فالرائد، فالمقدم.

استرعى انتباهه، نقطة استوقفته مليًّا، وإن كان يعرفها. كانت محاولة تفسير تهوره في الإقبال الأعمى على الموت، ليس بداعي اليأس، بل لما يتمتع به من حماسة وطنية، كاد أكثر من مرة أن يورط الفوج، عن عمد وليس

مصادفة، باشتباك مع دوريات العدو الإسرائيلي، تحت شعار تطهير تراب الوطن، لم يتجرأوا على ذكر الاستشهاد، كان ملغومًا. خلص منها إلى أن المقدم قد يورط الفرع بوساوس تنجم عنها عمليات، لا يعلم إلا الله بأخطارها، إن لم يبرأ من شعارات التضحية.

بدا المشوار طويلًا في رحلة تأهيل المقدم ليكون إنسانًا عاديًّا. لن يأخذه على عاتقه، لقاؤه معه لن يمتد أيامًا، لن يطول أكثر من نصف ساعة، سيلقي إليه بتعليماته مع تحذيرات قوية بالالتزام بها، وتنبيهه إلى أنه لن يُعامل معاملة خاصة، إذا كانوا في القطعات العسكرية تحملوا ميوعته، ولوثات جنونه الاستشهادية، فخوفًا من توصيات انهالت عليهم من العائلة الرئاسية مباشرة. أما هو، فغير ملزم، بعدما نفد صبرهم منه في الرئاسة، وأوكلوا إليه إيجاد حل نهائي للمقدم المدلل، فوُهب منصبًا يحتاج إلى قدر قليل من العمل، أو بلا عمل، لئلا تؤرقهم أمه صباح مساء.

أحبَطَ المقدم حديث الرتبة توقعاته، لم يكن كما تصوره، أو حسبما كشف عنه تقييمه. كان لطيفًا ووسيمًا، متفهمًا وقانعًا. جذبه إليه تواضعه الجمّ، وارتباكه اللافت. للوهلة الأولى، ظنّ أنه يخدعه، فاحتكم إلى فراسته العسكرية والمخابراتية والاجتماعية والريفية، ما أكد أنّ المقدم ليس سوى شاب غرير، لم تعركه الحياة.

أعجب به رغم استغرابه الشديد لطبيعته الخام المثيرة، كأن خدمته في الجيش لم تعجنه برمالها وغبارها وسخامها ودخانها ووحلها. بدا متوثبًا للفهم والنقاش. لا ريب أن شخصيته الهادئة منعته من الاصطدام مع المحقق، رغم خلافهما على أمر يعتبر جوهريًّا، ضابط غيره رئيس فرع كان رماه في القبو وأشبعه ركلًا وسحلًا.

لن يختصر لقاءه معه، فليمتدّ ساعة، إذا أثمر، سيشتد عود المقدم. لم ينتبه إلى الوقت، كان ينقضي بسلاسة، أمضاه من طرفه بإلقاء درس متقطع على حلقات، شارك فيه المقدم بتعليقات موجزة، وبعض التساؤلات، لم تخلُ من أفكار مشوّقة. كان مستمعًا جيدًا، تجاوب معه بإيماءاته واستيعابه الملحوظ، لم يُخف شيئًا، ما يفكر فيه عبّر عنه بتروٍّ. كان بسيطًا وسليم الطوية، فلا عجب أن تكون علاقاته غير جيدة مع رفاقه الضباط الأجلاف، لم يكن من طينتهم. يعيش في عالم آخر، لكن ليس في عزلة تامة، كما قيل له.

الخطأ كان في التقييم العسكري المضلل، قَلَبَ التروي بلادة، والشجاعة تهورًا، واللامبالاة إلى ما يشبه الإعاقة. لم يبق سوى أمر واحد، وكان أخطرها؛ قصته الاستشهادية، تلك معضلة حقيقية. فاستوضحه عنها، كانت مختلفة عمّا سمعه عنه، بريئة من الجهاد والجهاديين، وإن كانت قتالًا حتى الرمق الأخير،

الغريب كما أفصح عنها، أنها كانت على علاقة بعقائد التقمص والتناسخ، فالموت كان انتظارًا للعودة إلى الحياة بصورة مشرّفة!!

كادت هذه اللحظة أن تكون فارقة، ما يعيد تصنيف المقدم إلى الأسوأ. خشي أن يتحول الفرع إلى مشيخة أمنية تنشر التوق إلى الشهادة على أنه طموح لاقتناص مركز مرموق في حياة تالية، موثقة بالتناسخ، وإن أضاف إليها المقدم نكهة خاصة تخالطها لمسة عاطفية قوية كانت وراء سعيه الحثيث للموت، بقصد جمع شمل العائلة الشهيدة تحت سقف واحد في الحياة القادمة. فالمقدم منذ نعومة أظفاره عانى من فقدان أبيه وأخوته، فتحول الشوق الدائم إليهم إلى ولع لم يفارقه، وإن كان من دون أم ثرثارة. كانت تحولات التناسخ تدعم استبعادها، فالمرأة تحوز مرتبة أدنى.

العملية الاستشهادية كانت لهذا الغرض، لكن المقدم نفسه لم يعد واثقًا من نتائجها ولا مصداقيتها، أبدى تراجعًا عنها وتشكيكًا فيها. وصارح المهندس بأنه لم يصادف أحدًا يلغو بها إلا في جلسات المسامرة، وللمسامرة فقط.

عاد الحديث إلى سياقه، ولم تعد اللحظة فارقة، بعدما أزيحت مأثرة الاستشهاد جانبًا. انفسح المجال أمام المهندس ليُبَصّره بعمله الأدبي حصرًا، ولو كان مخابراتيًّا، أنه لا يزيد على التحقق من توجهات الأديب، لا مشكلة في ألا يكون مواليًا، وإنما ألا يكون معارضًا يمارس تحت ستار الأدب نشاط هدّام، أي التأكد مما إن كانت السياسة أو الأدب شغله الشاغل. الأمر ليس بهذه البساطة، بل معقد بعض الشيء، فكّ اللحمة بين الأدب والسياسة ليس بالهين.

الغاية، ألا يتسرع ويتهم أديبًا بالعمالة، لا يجوز الأخذ بالشبهات، ولا الاتهامات المسبقة، أو الجاهزة كالخيانة والتجسس. هذه كانت أساليب الفروع الأخرى. لم يميزوا الأدباء عن العملاء، بينما يجب ألا يُلجأ إليها إلا في حالات خاصة تستدعي فيها الضرورة القضاء على الأديب قضاءً مبرمًا، ولو من دون خيانة وتجسس، وهذا ليس من اختصاص الفرع. إضافة إلى أن تصرفات الأديب غير السياسية، كالفلتان والشتائم والبذاءة، والانحطاط الأخلاقي، لا تشملها المحاسبة، ولو وصمت الأدب بقلة الأدب.

لاحظ أن المقدم يفكر، ويبدو أنه أجهد ذهنه فشرد عنه. انتظر ريثما يعود من شروده. لم يعرف أن «قلة الأدب» شوشت ذهنه. تابع المهندس الكلام من حيث توقف؛ تسهيلًا للعمل؛ سيتولى معاونك المحقق سامر التعامل مع الإخباريات، طبعًا تحت إشرافك، لحيازته خبرةً كافية، تعينه على تمحيص كل قضية على حدة، والفصل في طبيعتها، إذا كانت سياسية برمتها، فتحويلها إلى فرع آخر لا على التعيين، وهو الكفيل بها. وإذا كانت أدبية تشوبها هفوة

سياسية، يقع على اتحاد الكتاب تحري أبعادها ومراميها وما وراءها من نيّات، تبتّ فيها لجنة من الأدباء. في حال ثبوت الشبهة على الأديب، يرسل إلى الفرع لتحويله إلى المحكمة المختصة.

اعتقد المهندس، وقد استغرق المقدم في التفكير ثانية، أنه يحاول استيعاب الجانب الدقيق والحساس من اختصاصه المخابراتي.

فعلًا، كان المقدم يفكر، إذا كانوا قد جرّدوه من السياسة لصالح الفروع الأخرى، وانتزعوا الأدب المشكوك فيه لصالح اتحاد الكتاب، فعمله ليس إلا شرطي مرور، ينظم السير، بتوجيه القضية نحو الاتحاد، أو أحد الفروع. وإن أُعيدت من الاتحاد، فتحويلها إلى المحكمة. إذا لم يكن للفرع مهمات جسيمة يضطلع بها، فموظف صغير يقوم بهذه المهام التافهة. ترى ما كنه هذا الفرع؟ هل هو عقدة مواصلات؟

أخذ المقدم أكثر من وقته في التفكير العميق، وكان في الإجابة عن السؤال الذي طرحه على نفسه؛ إذا كانت هذه صلاحياته، فلماذا الفرع؟ الجواب، لن يقف مكتوف اليدين، مسؤولياته الوطنية تملي عليه اقتراح عمل ذي نفع للوطن والمجتمع والأدب، أوحاه له المهندس بإطلاعه على ما قد يصم الأدب بقلة الأدب.

«لماذا لا تكون مهمة الفرع أخلاقية؟».

فوجئ المهندس، لم يكن مستعدًا لهذه اللفتة غير المتوقعة؛ كانت جيدة وسيئة، جيدة لمجرد أنها دلته إلى أين كان تفكير المقدم يذهب في رحلاته الذهنية الشاقة. أما السيئة، فعاقبة أن يكون المخابراتي الموعود ساذجًا. الأمن لا علاقة له بالأخلاق، إلا إذا أردنا تقزيم عمل المخابرات إلى حماية الأخلاق من الكذب والنفاق، هل هذا معقول؟ البشر يكذبون وينافقون مذ خلقوا، تعلموه مع التنفس.

بعد قليل من الغمغمة، أوضح المقدم ما يقصده، وهو حماية المجتمع من السلوكيات المنحطة، كالفسق والفحش... قالها بتلكؤ، وفسّرها بخجل، أي لا دعارة، أو ما يلتحق بها، أو يشبهها. أما لماذا هذه السلوكيات بالذات؟ إنها مجال للتفاخر بها بين الضباط خبرها في قطعات الجيش، لكن لا تجوز بين الأدباء.

فكّر المهندس؛ مستحيل، من كثرة تعريص المسؤولين وجماعاتهم، تمتع العهر بالحماية، وأصبح قانونيًّا أكثر من القانون نفسه، لماذا نحرم منه الأدباء؟ هل يقولها لهذا الأخلاقي؟ لكن كيف يقولها؟

لن يقولها، خالطه الظن، فقد كان سيّئ الظن؛ ليس الغباء البريء وراء هذا الدافع الأخلاقي، بل الذكاء الشيطاني المخاتل. المقدم متحرق لصلاحيات، لن تكون فعالة من دون قمع، لماذا؟ لأنه يريد إحراز تقدم سريع يرضي شهوته للتسلط بالتنكيل بالأدباء، وربما أيضًا بالأديبات، يستطيع اتهام أي امرأة بشيء ما؛ ترى ما مقياسه للعهر؟ إذا كانت بالغمز، أو باللمس، فلن يستثني السيدات المحترمات والعذراوات البريئات.

نظر المهندس إليه، فرآه صافنًا، هل يحاول أن يبدو شابًا فاضلًا؟ لكنه كان متنبهًا له، لن يسمح له، مهما ادعى البراءة، إذا كان يدور ويلفّ نحو هدفه، باحثًا عن مبرر لصلاحيات بلا حدود، وجده في قلة الأدب.

ردّ المهندس، وكان حاسمًا، بالعودة إلى الخلاف الأساسي، لا لممارسة التعذيب مهما كان السبب، هذا اختصاص الفروع الأخرى. وبالنسبة إلى الأصوات المختلف عليها، لن تتعدى أكثر من هبوب الرياح، وقصف الرعد، وربما الأعاصير وزمجرة العواصف.

الصدمة التي استشعرها على وجه المقدم، أعادته إلى المقدم الساذج. إلى أين ذهب بأفكاره؟ حسنًا، إذا كان فاضلًا فعلًا، فالفرصة سانحة لتنويره، وكان الوقت يمضي، فالساعة انقضت، وتكاد الساعة التالية أن تمرّ، لكن الفرصة السخيفة نفسها أملت عليه تمديد الاجتماع، ليضع المقدم على الطريق الصحيح، ولن يتمّ إلا بتعريفه إلى العالم الموبوء بالشر، بكل خشونة، ليس كما يعرفه أو سمع عنه، بل الشر الطليق كمحرك للعالم، الشر الذي لا تقدم من دونه، الشر الذي هو أصل السياسة، الشر منبع الفساد الذي لا بد منه.

دون توانٍ، بادر إلى اغتنام الفرصة قبل أن تتبدد، بإحالة ما يعتقده المقدم شرًّا خالصًا، إلى خير خالص، بكشف الغطاء عن الجانب السيّئ من العهر، ولا يختلف اثنان موسوسان بالفضيلة على احتلال الاتجار باللحم الأبيض، واجهة الشرور في العالم. في حال إغفال ما يقال عن انحطاطه، ونزع ما يسيء إليه، ستكون ضربة موفقة ضد المقدم الذي لا بد يعتبره الشر الأكبر. بينما سيقنعه بالعكس تمامًا.

أصغِ اليَّ جيدًا... قد تجد في تحسين السمعة الوسخة للدعارة، إثمًا عظيمًا، لكن لو نظرت إليه على أنه فعل عادي، أسوة بأي عمل آخر، ومن دون انحياز إليه أو ضده، لوجدت أنّ له جانبين: سلبي وإيجابي. سلبيته معروفة؛ المال مقابل الجسد، لماذا؟ المرأة بحاجة إلى المال، ولا تملك غير جسدها. أما إيجابيته، فقدرته التبادلية، التي تسهم بإعادة توزيع الثروات بين الناس المتخمين والذين يعانون من الفقر، فترتد على العائلات المحتاجة بما يخفف عنهم أعباء المعيشة والغلاء، وقد يحقق بعض الرفاهية.

لم يخطئ، أحدث خلخلة في دخيلة المقدم، بسقوطه في الواقع، فقد أخذ يفكر بواقعية، والدليل أن تعليقه كان واقعيًّا؛ وجد العهر مؤلمًا ومهينًا في شقه الأول، كعملية بيع وشراء. وتساؤله أيضًا كان واقعيًّا؛ عن مدى إيجابيته من ناحية تحسين مستوى المعيشة للنسوة اللائي يمارسن الفاحشة.

عقّب المهندس؛ إذا كان ما أطرحه مستهجنًا، لكنه لا يفتقر إلى الحقيقة؛ العاهرات لا يفتقدن للجنس، وربما يكرهنه، بل ويقرفن منه لاضطرارهن إلى مزاولته تحت ضغط الحاجة، لكن بشكل مؤقت. بعد اكتفائهن ماديًّا، إن تركن العمل، يتمتعن مما يدخرنه من أموال برغد العيش، من دون تبذير، وينبسطن بالجنس مع زوج أو حبيب. فالعهر فترة مؤقتة، ثم تعود الحياة إلى طبيعتها. إما إذا استحلته المرأة، فهذا شأنها. وفي الواقع ليس ذنبها، السبب هو الفساد. فأومأ المقدم موافقًا من فرط الصدمة.

هجوم المهندس سدد ضربة قاضية إلى الفضيلة في أكثر مكامنها مناعة وعفة، لكنه لم يدرك أنه من دون قصد، تطرق إلى أحد فصول قصة الفساد الكبرى، وأسهم بفتح ملفاتها. كان ذلك خطأً ارتكبه عن غير قصد.

هذا الخطأ العابر سمح للمقدم الذي أزاح عنه الصدمة جانبًا، بغنيمة لا يستهان بها، فانتقد الفساد ووصفه بالغول الذي يلتهم الوطن والبشر، والدليل أنه يدفع النساء البائسات إلى تأجير أجسادهن للرجال الشهوانيين، ليقمن أود عائلاتهن من الجوع. هل هناك دليل أفضل؟ إذا كان في اجتماع الجنس مع التعاسة، قضاء على الفقر والجوع، فماذا عن الكرامة؟ ما عزز اقتراحه حول الفرع الأخلاقي مع قفزة إلى الأمام:

المقدم الطموح يريد مكافحة الفساد من بوابة الجنس، بدعوى الكرامة.

كاد أن يصرخ في وجهه، هل أنت مجنون؟ لقد قتلنا المتظاهرين، لمجرد مطالبتهم بالكرامة، من دون فحش وفسق وتعريص وشرمطة.

لم يقل شيئًا إلا بعدما بردت أعصابه قليلًا، حاول أن يستوعب ما قد ينجم عن اقتراح المقدم؛ إذا أصرّ على تجيير الفرع للقضاء على غول الفساد، ووجد في الرئاسة حمقى يستمعون إليه، سيطلقون هذا المعتوه إلى متاهة، ينجم عنها تلك المحنة المتكررة في إصلاح ما لا يصلح، إلا ليصرفوه عنهم، ولن ينجح إلا في إثارة الغبار، هذا الغبار سيقضي عليه.

خرج عن طوره؛ لن يسمح بالمزيد من الشطط، يجب الحجر على المقدم قبل أن يجد وسيلة للاتصال بالرئاسة. حدق إليه بلؤم، وأمره بعدم التطرق إلى هذا الموضوع، لن ينحط الفرع إلى هذا المستوى، هناك قانون ومحاكم وشرطة مختصة بالتعامل مع القوادين والشراميط وطلاب اللذة الحرام.

٣. أطروحة المجتمع المثالي

وقف المهندس منهيًا اللقاء، أعصابه لن تحتمل نزرًا، ولو كان يسيرًا من الأخلاق؛ أضاع الكثير من الوقت الثمين بلا جدوى، ما دام المقدم في تقدم ضئيل وتراجع كبير. تجنب إظهار غيظه، آلية التفكير لدى المقدم، تكمن وراءها عقدة بسيطة، لكنها عقبة كأداء، تحتاج إلى عدة اجتماعات لتفكيكها. لا بد بعدما زجره بشدة، أدرك أن الفرع والأخلاق لا يجتمعان.

في لحظة الوداع، بدا صمت المقدم واعدًا، لكنه فتح فمه. فكر المهندس، ليته يغلقه، ويمتنع عن الكلام، ويُعمل عقله بما سمعه. ترى هل يفعلها؟ لا، لن يفعلها. فسارع نحو الباب قبل أن يسمع ما سيتفوه به، لكن صوته أدركه:

«إن في تقَيّد الأدباء بالأخلاق، ما يسهم بإقامة المجتمع المثالي».

فارتدّ راجعًا، ما سمعه فاق كل ما تصوره عنه، ولا سيما أنه توصل إلى هذه التحفة بعد برهة من الصمت. ماذا لو امتدت البرهة إلى دقيقة؟ سيخرج منها حاملًا خطة لإصلاح العالم، إن لم يكن الكون. لا مفر من جولة جديدة على أن تكون سريعة.

جلس حانقًا ومرغمًا، لن يدع هذه الفكرة معلقة إلى اجتماعه القادم معه، ربما اختمرت لديه. لا بد من تطويعه اليوم، إن تركه لما بعد، فسيطور فكرته عن المجتمع المثالي.

خلال لحظات، كان المقدم قد استرسل في الكلام حول مزايا المجتمع المثالي، كأنه لم يصرف معه نحو ما يزيد على ساعتين على تفنيد أفكار ظهر أنها هذر. من جديد، تركه على هينته، يوضح أفكاره الغثة بالمماحكة ذاتها. المروع هذه المرة اعتقاده أنه اكتشف فكرة، لا يعرف أنه من كثرة ما حلم بها البشر، أخفقت وأصبحت من الطرائف المبتذلة. أشفق عليه منها، بينما كان المقدم يلحّ عليها بمنتهى الطيبة.

تمنى المهندس لو أنه لا يناقشه، لئلا يردّ عليه. لكنه اضطر، قبل أن يصبح المجتمع المثالي مشروعًا واقعيًّا في رأسه، ومادة لوساوس راقية لهلوساته الحمقاء. فقاطعه:

لو أنك أعملت عقلك، لأدركت أن ما ينشده المجتمع المثالي في عصرنا، سينتج منه ما يعطل حياة الناس، ويزعزع أركان المجتمع. اسأل نفسك لماذا تغلب الفساد وهيمن؟ لن تعرف الجواب؛ المثاليات ليست أكثر من تطلعات موتورة تنحو إلى التغيير بلا هدف ملموس، مجرد حلم لا يتحقق، ماذا يكون المجتمع المثالي؟ تهويمات لم تصمد في أي زمن. الدرس المستخلص من

إسقاطها من حسابات البشر، ليس بلا جدوى، لماذا؟ الفساد يُسهّل التعامل بين الدولة والناس، بينما المثاليات تعقدها.

كان هذا دفاعه عن الفساد الحميد، حشاه أمثلة عملية. المثال الأقوى كان واقعيًّا، أشبه بتمثيلية، اقتطعه من هذه الحرب الدائرة. التفت إلى النافذة، الأمر الجيد أنها كانت فجوة بلا زجاج، تطل على منظر معبّر. أشار بيده نحوها:

لو أنك مددت بصرك بعيدًا، لرأيتَ من خلال أعمدة الدخان، النيران تلتهم المنازل والمحلات والحقول. لن تخطئ عندما تتصور أن هناك بشرًا يموتون اختناقًا أو احتراقًا. هؤلاء طرحوا شعارات على شاكلة مجتمعك المثالي، زعموا أنهم ثاروا على الفساد، وطالبوا بالحرية والكرامة، وأيضًا بإصلاحات، فأوصلوا الأمور إلى عكسها. البلد ستُدمَّر بالكامل، ولم يستسلموا. إنهم بذلك أعطوا الحق للنظام في إبادتهم وحرق بيوتهم.

فتح المقدم فمه مذهولًا من اعتراف المهندس بأنّ إبادة هؤلاء الناس الذين يموتون الآن اختناقًا واحتراقًا، إنما لمطالبتهم بالمجتمع المثالي. استغل المهندس الفرصة قبل أن يتكلم المقدم، ففمه ما زال مفتوحًا، وانتقل إلى الخطوة التالية، وكانت تذكيره بفضل النظام عليه.

تعلم أن الرئاسة جاءت بك إلى الفرع، وأرسلوني إليك كي أرشدك إلى الصواب. وأذكرك بأنهم قلدوك هذا المنصب، لا لتكون مثاليًّا، بل واقعيًّا. لو أنك عملت على تنفيذ فكرتك، فإنك ستعمل على مجزرة، قد لا يبقى بعدها امرأة ولا رجل. فلا تخيب آمالهم.

هذا التفنيد للمجتمع المثالي، هل كان مجديًا؟

أغلق المقدم فمه، ولم يتكلم. كان، كما بدا، مصغيًا إليه بانتباه شديد، وكما سيتبين للمهندس بعد قليل، أنه كان يفكر بعمق طوال الشرح الذي لم يكن مفيدًا، ما دام خلال دقائق تمكن من تحويل فكرة المجتمع المثالي إلى منهج ذي قوام صالح للتطبيق العملي، كأنه لم يسمع ما قاله له، بل تابع كلامه من حيث توقف، وحدد الجنس القادر على القيام بهذه العملية، من هو؟ المثقفون، وفي مقدمتهم الأدباء، إنهم الفصيل المؤهل لقيادة العملية الانتقالية إلى المجتمع المثالي، على عاتقهم يقع عبء تشييده، بما يتمتعون به من وعي ومسؤولية، إنهم القدوة، ما يؤهلهم ليكونوا الجيش الأخلاقي للدولة.. وختم فكرته:

«تعلم، الإخلاص مطلوب من الأديب في جميع مناحي الحياة، حتى مع زوجته».

ثم قفز إلى الذروة بجملة، كانت أشبه بقانون:

«ولئلا نُخدع، يجب وضع الأدباء تحت الرقابة».

كلما ظن أن المقدم قد ينضج، يؤكد بكلمات قليلة استحالة بلوغه سنّ الرشد. هذه المرة تجاوز الرشد والنضج معًا، ينشد تحويل الفرع إلى مدرسة لتلقين الأخلاق، مستخدمًا وسائل مخابراتية في الدعوة إلى مجتمع خالٍ من الشرور والموبقات. بدا من شدة حماسته مصممًا على نوازعه في الكمال الإنساني، وارتأى حسب اقتراحه العمل على نمط الفروع الأخرى، باستخدام المراقبة والتنصت كعناصر فعالة للتوغل في أدق شؤون الأدباء الشخصية.

أحسّ بالعبث؛ إذا كان الفرع ٦٥٠ سيحتكر المثالية، بوصفه المرجعية في الأخلاق، ويحدد المعيار الذي يميز الشرفاء من الأنذال، فلا شك، إن مارس المقدم سلطاته بموجبه، فلا نجاة للأدباء. سيزج بالغالبية العظمى منهم، إن لم يكن جميعهم في السجون... من سيتجرأ على التصدي للمصلح الاخلاقي؟ سيستمد من مراقبتهم الأدلة الدامغة على لاأخلاقيتهم... هذا إذا سايره في جنونه.

للحظات، راوده الظن أنه ذهب بعيدًا في توقعاته، لعدم استقراره على رأي بشأنه، هل هو ولد غبي، فاضل وطائش؟ ربما، وربما كان خبيثًا، وإلا فكيف خطرت له هذه الفكرة الجهنمية في بوليسيتها الأخلاقية المخابراتية، تحت غطاء من المثالية الفجة؟ إذا كان قد وافقه على مضض في الخصال الحميدة، فلأنها لا تعني غيره، هذا شأنه. لكن أن يفرضها على الأدباء، ويعاقبهم في حال عدم التحلي بها، لا تعني إلا التدخل في خصوصياتهم.

هل تدرك ما تعنيه الخصوصية؟ سأله المهندس بحدة.

بحلق المقدم عينيه. فكر قليلًا، وخلص إلى أن لا خصوصية في قضايا الأخلاق والوطن، إنها عامة تهمّ الجميع.

يبدو أنه لا يدرك، ولا يعرف أن الخصوصية لم تكن، ولن تكون مبرأة من المعاصي، إنها في حقيقتها نزوات جنسية وضيعة، وزلات اجتماعية منحطة. ما يجب أن يفهمه هو أن الخصوصية بلا أخلاق، وإلا ما كان السعي للتستر عليها، والقانون يحميها.

في تلك اللحظة، ولأنه يستحيل على المقدم أن يتفهم هذه التشكيلة الوضيعة والمنحطة من الخصوصية، وأنه لا سلطان له عليها، ليس لأنها منزهة، بل لا يجوز التفكير ولا التورط فيها، وإلا وضع النظام ومعه المجتمع من رأسيهما إلى قدميهما وراء القضبان.

عندئذ، ما الذي دار في رأس المهندس؟ شيء واحد، أن يصفعه على وجهه، ليس صفعة أو صفعتين، بل يصفعه على عدة دفعات: الدفعة الأولى، كي يشفي غليله منه، والدفعة الثانية، لينسى كل ما تفوّه به من حماقات مثالية. الدفعة الثالثة، كي يرتد إليه صوابه. الدفعة الرابعة، أن يشبه غيره من البشر العاديين، العاديين جدًا. الدفعة الخامسة، أن كل ما هو أخلاقي لا علاقة للفرع به.

ما جعله يتريث، وكان قد نهض واقفًا، وتوجه نحوه، متحفزًا لإرسال الدفعة الأولى، أن ملامح المقدم تخضبت بالاحمرار، ولمعت في عينيه دمعتان، كان متأثرًا من امتناع الخصوصية على الفرع، وبدا من شدة إيمانه بقصة المجتمع المثالي وخيبته من الأدباء ذوي الخصوصيات اللاأخلاقية، أنه لم يفهم لماذا يعتبر أي تدخل في سلوكهم، تعديًا عليهم؟

كان محبطًا جدًا، الدمعتان سالتا على خديه، البناء الذي شيده، قد انهار.

لم يكمل تقدمه نحوه. حسنًا، لم يعد المقدم خبيثًا ولا معتوهًا، بل شابًّا طيبًا بلا خبرة يحمل نيّات حسنة، لا تصلح لهذا العالم المجرم بأنواعه، المتقدم والمتخلف، ينقصه الكثير من التعقل، الفاسد والمفسد. نقطة ضعفه، عدم اطلاعه على الواقع، ولا دراية معقولة بالبشر، والأسوأ يجهل أن بديهيات الإخلاص والنزاهة، ما هي الا كلمات كبيرة جدًا، تقال لمجرد أن تقال.

أحسّ بالرثاء نحوه. هذا الشاب العفيف، يجب أن يشكر الله على أن الحقائق القاسية فاجأته في وقتها.

استسلم المقدم، القضاء على الفساد ليس مهمته، هذه القضية أكبر منه.

قدّر المهندس استسلامه المزري، اعتبره إنجازًا جيدًا. مبدئيًا، الحال التي ستسود بينهما، هي عدم التوافق الكامل. صحيح أنّ المقدم أبعد عن ذهنه فكرة القضاء على الفساد، لكن فكرته الطامحة إلى أدباء أخلاقيين، لم يصبها الفتور، ما زالت على حالها، وربما أصابها التطور بعدما وضع الرذيلة تحت عنوان قلة الأدب، وأضاف إليها المجتمع المثالي. يُخشى على المقدم أن ينفر من العلمانية، ويتوافق مع الإسلاميين. هناك الكثير مما يجمع بينهما، هم أيضًا يجدون في الأخلاق معبرًا إلى السياسة والسلطة.

وإذا كان قد لام نفسه على شيء، فعلى دفاعه عن الدعارة، ولو أنه قدمها كمثال، لكنه كان على حق، ما دام الإسلاميون يتاجرون بالفضيلة، فالتعريص قضية علمانية.

٤. الوطن في خطر

انتهى اللقاء بينهما، لكن قبل المغادرة، ثمة درس صغير جدًا، يضع به خاتمة مؤقتة، أفضل من خاتمة مفتوحة، يستغلها المقدم في تفعيل نزواته. درسٌ من بضع كلمات يعوضه به عن منهاج كامل في علم الأخلاق والنوازع الوطنية.

اسمعني جيدًا، لا تلازم بين ممارسة الأدب والتحلي بالأخلاق، أو بين الوطن، وإخلاص الرجل للمرأة. إذا كان ما تدعيه صحيحًا، فسيلزمنا كتائب وسرايا من المخبرين الأخلاقيين المتخصصين بالإخلاص، هل تعتقد أن هناك مخبرًا، أو متنصتًا يتحلى بنزر يسير من النزاهة؟!

لم يكن لدى المقدم جواب، مرّ الوقت بطيئًا، ملامحه تعبّر عن العجز المطبق، لم يتوقع درسًا كهذا.

«الأمر يفوق طاقتي، طبعًا ستساعدونني».

خطوة جيدة، المقدم أوقف نشاطاته الذهنية، وطلب المساعدة. كان قد هُزم تمامًا.

«لن نساعدك، نحن نريد من يساعدنا».

تُرى، هل سيتخلى عن مبادئه؟ طبعًا لا. الهزيمة ليست دليلًا على التراجع. هذا ما كان المهندس واثقًا منه، السذاجة كالغباء داء لا شفاء منه. وريثما يستعد للآتي من أفانينه، استعاد ما جرى بينهما بلمحة خاطفة. أزعجه خوضه في جدل سخيف، مدعمًا بمبررات سخيفة، لا تخلو من حقائق نهائية. وإذا كان له أن يفعل شيئًا، فتنزيل عيارات الرعونة إلى أدنى درجاتها. يعرف، لن تؤتي مفعولها، إن لم تنزح عن المقدم الغشاوة الأخلاقية، بإضاءة العوالم الغريبة للأدباء، فهي رغم انحطاطها عادية، لا تمسّها شبهة عمالة. سيتعامل معه بصبر، ويتوقع منه بعض السخافات، ولن ينساق إلى ما يثيره من دخان يُعمي العيون، لئلا ينجلي عن مشكلة لا حل لها، حسب هذه الخاتمة المؤقتة، أن يكون الفرع جحرًا يحبسه فيه، مع أقل قدر من التفكير، لكن بلا مخططات.

سيغادره مضطرًا. الاتصالات المستعجلة لم تهدأ، تجاهلها طوال الاجتماع، كان من آن لآخر يتسلم بلاغًا أو أكثر؛ إعلام باشتباكات، أو حادثة اختطاف، أو ضبط سيارة مفخخة، أو تحضير لاقتحام. الإبلاغ الأخير أجبره على الكف عن حديثه، الإشارة وردته لتوِّها من عميل في الغوطة، حذر من مجموعة مسلحة ستخترق وسط دمشق خلال الساعات القادمة، بهدف السيطرة على ساحة الأمويين بضع ساعات، وربما احتلال مبنى الأركان، أو التلفزيون.

وقف على حين غرّة قائلًا: لا تفعل شيئًا، انتظر تعليماتي.

لم يُبدِ المقدم اعتراضًا، بل تجاوب معه، ملخصًا الحديث بينهما، بشعار طنان:

الوطن في خطر.

طنطن في رأس المهندس، فجزم دونما تردد بأنّ الفرع لن يكون فرعًا بأي حال من الأحوال، قبل تجريد المقدم من وساوسه المتشعبة، لكن أي منها؟

سارع خارجًا، قبل أن يبتدع المقدم جديدًا، ولم يكن مطمئنًا البتة، لم يخطئ التصميم المريب في عينيه، نظرة تحمل شبهة عصابي متزمت، تهيّأت له الفرصة لإطلاق عقده النفسية. الذنب ذنبه، باقتراحه الفرع اختلق مشكلة ليس هذا وقتها، وليس مستعدًا لها.

المقدم حشره في مأزق، ولا متسع لديه من الوقت له، أصلًا كان محشورًا، ومع الإشارة الواردة أحسّ بأنه على وشك الاختناق، إذا صدق عميله في الغوطة، لن يستطيع منع الهجوم، والنتيجة لا أقل من مقتل العشرات من الجنود والشبيحة وبضعة مدنيين عابرين، ثم تنسحب المجموعة تاركة وراءها خسائرها، أشلاء جثتين أو ثلاث.

بينما مأزقه المستعصي العالق في الفرع أتفه من أن يكون مأزقًا.

٥. الطبيعة الخارقة الجمال

طوال الأيام التالية، لم ينجح في تنحيته عن ذهنه. كلما استرخى على كرسيّه الدوار، يخطر له ذلك الفرع تحت الإكساء، ورئيسه المثالي العنيد. وحين يتمدد على الكنبة العريضة، ينغّص عليه قيلولته، ويضغط عليه بأخلاقياته العتيدة، فيتعكر مزاجه، ويحسّ بالاختناق من غلاظاتها. كان المقدم يناكده، ويستأثر بأفكاره، ولو لبارقة، يبلغ فيها غايته، ويفسد عليه صفاءً كاد أن يظفر به.

بينما كانت الحرب تضغط عليه، حرب كان من الممكن ألّا تحدث، اعتقد أنّ من السهولة التحكم بها، لكنها أفلتت، بات إيقافها معجزة، بعدما أفرزت جنون النهب والخراب... وها هي تفرز المقدم. كيف يضع حدًا له، إذا كان ينقُضُ خلال لحظات ما اتفقا عليه قبل لحظات؟ بات عبئًا إضافيًّا على كاهله.

تمنى لو تخطئ الطائرات الحائمة في السماء أهدافها وتقصف الفرع. ما دامت لم تستثنِ المستشفيات الميدانية والمستوصفات والأفران والبيوت والأسواق والمدنيين... ليتهم استهدفوه، قبل أن يلغو بمجتمعه المثالي. الوقت لم يفت، إذا أصرّ على البدء ببرنامجه في الترميم الأخلاقي، وإعادة بناء المجتمع من الصفر. عندئذ، لا بأس بتسريب إحداثيات الفرع إلى أحد الطيارين؛ فكرة جنونية، لكن يستحيل تنفيذها.

لم يحبذ إعلام الرئاسة بحماقات المقدم، يظنون أنهم ارتاحوا منه، بالتأكيد لا يريدون سماع أي خبر عنه. لو أن القصر يوكل إليه أمر تربيته من جديد، لرماه

في قاووش بين المعتقلين الجنائيين، ليُبتلى بجميع الموبقات التي يريد البشر إلغاءها من قاموس الجريمة. عام واحد في السجن يضمن تأهيل هذا المعتوه على نحو مضاد لكل ما يلغو به، يخرج بعدها إلى الدنيا لصًا ومحتالًا وقاتلًا ومدمنًا وواشيًا ولائطًا وملوطًا به... ويتعرف إلى الانحطاط البشري على أصوله. عندئذ، يصبح ندًّا لهذا العالم المأفون.

... أو إرساله إلى قطعته العسكرية، الحرب ستلتهمه، لكن الرئاسة أرسلته إليه، لا ليعيده من حيث أتى.

ما أدراه بردة فعل العائلة الرئاسية على توريطهم بالفرع، ألم يكن لئلا يسمعوا بالمقدم؟ مشكلته مع الذين يحفون بالعائلة، بعضهم يحقدون عليه، وبعضهم الآخر يجدها حجة لإقصائه، وربما تخوينه. سيتهمونه بما يعنّ لهم، ما داموا يجهلون ما يواجهه وحده، لو ترك المقدم لأهوائه المثالية؛ سيختلق عشرات المشاكل، ويُحاسبونه هو، لا المقدم، كأنه المسؤول عنه، لن يستطيع إصلاحه، ولا إعادة خلقه من جديد، لقد خلق هكذا. لو كان الأمر عائدًا إليه، فالأسهل قتله، وتعويض أمه بتسمية زقاق أو مدرسة باسمه في الضيعة، لِمَ لا؟ اغتياله يعزز الدليل على تكاثر العمليات الإرهابية. ويقدم خدمة للنظام بموته، أفضل من بقائه حيًّا، لن تبكيه سوى أمه.

إذا شاء حل المشكلة جذريًّا، فهكذا تعالج، ولا داعي ليعلم بها أحد. أما إذا أراد التصرف بحكمة، فما راوده عن التخلص منه حماقة، لسبب بسيط؛ اعطاؤه أهمية لا يستحقها بالتورط بارتكاب جريمة تافهة.

من فرط ما توهم حلولًا تراجع عنها، تخايل المقدم أمام عينيه، خجولًا ووسيمًا، شابًا بمنتهى الطيبة، برفقته طموحاته المثالية اللعينة، يستعرضها بغية إقناعه بها. يتفحصه، عقله سليم تمامًا، فيشفق عليه من مصير، ليس هناك غيره. في الحقيقة، ليس ذنبه، لقد أخطأ، منحه منصبًا لا يستحقه. وإذا أراد تقويم شذوذ عقله، لا بد من إجراء عملية غسل شاملة لكل ما يبطنه من أخلاق فاضلة ومثل عليا، نشأ عليها. أما من أين جاء بها، فليس من أزقة الضيعة، أو أساتذة المدرسة، ولا الجيش حامي الديار، أو العاصمة اللامبالية به؛ إنها الطبيعة؛ السماء والأشجار، النسيم والبحر، شروق الشمس وغروبها، واللحظات الطويلة للشفق والغسق، وعذوبة القمر في كبد السماء... هذا الولد عاش في نشأته حياة عزلة في تلك الطبيعة الخارقة الجمال، الممسوسة بالنقاء والصفاء. وأراد عالمًا شبيهًا بها، نقيًّا وصافيًا. المسكين لا يشكو إلا من هذه العاهة؛ الصدق، الإخلاص، النزاهة، السذاجة... يا إلهي! العاهة عاهات، ولا تفتر عن التكاثر.

احتياطًا، لئلا يرتكب المقدم هفوة، شدد تعليماته. الفرع معطل إلى ما بعد استكمال جميع النواقص. فتتالت اتصالات المقدم، يسأله الاجتماع به لأمر عاجل. لم يردّ عليه، نبذ فكرة استئناف ثرثرات لن تفضي إلى شيء، لن يراه قريبًا، وربما أبدًا، لديه أعمال تفوق إشكالات فرع قيد التأسيس، واجترار أفكار حول الرذيلة والفضيلة.

مهما يكن، إذا كان من تجربة تنفع، فإخضاعه لسلسلة من الدروس تنسف مفاهيمه المستقرة، وتحولها إلى نقائضها. هل يستطيع المحقق سامر سفان القيام بهذه المهمة؟ لا، إنها تفوق قدراته، من يضمن ألا تكون لديه هو الآخر انحرافات أخلاقية؟ خلافاتهما لم تكن جوهرية، وربما ماثله أخلاقًا. أحسّ بالإحباط، ما زال الحل مفقودًا.

بيد أنه لم يغادر خواطره، كل ما حوله يرده إليه؛ عراضات هتافات التأييد للرئيس، الأغاني تشيد ببطولات الجيش، شعارات حماية المراقد المقدسة، ولبيك يا حسين... كل هذه الادعاءات صناعة مفضوحة، بعضها شارك في تصنيعه، لماذا المقدم وحده كان حقيقيًّا؟ كأنه صنع من مادة نقية، لا تقبل الغش.

عندما أفلس من الحلول، خطر له صديقه عارف، ليس فجأة، بل بالتداعي تحت وطأة الشعور أن المقدم أصبح قضيته الخاسرة. كان يتفرج على قناة الأكاذيب المحلية. لم تنجز شيئًا قابلًا للتصديق، ما دام الواقع هو الأكاذيب. اضطر إلى متابعة برنامج يصور الإرهاب على نحو مؤثر في وحشيته،، لا يقنع حتى الموالين، فلا الإرهابي إرهابي، ولا المدسوس مدسوس، ولا العميل عميل... كلها مفبركة. الضرورة تملي اطلاع الشعب على نماذج منهم، كي لا يُظَن أن الأعداء أشباح لا قوام لها، ولا ملامح، بل هناك مؤامرة، ودول تمول، وجماعات تهرّب السلاح، وجماعات تحشش وتهلوس، وجماعات تسرق وتذبح، وجماعات تعذب وتغتصب.

تمثيليات مختلقة، لم يحسنوا صناعتها، كان صديقه عارف يرددها ساخرًا في معرض انتقاداته للإعلام الذي لم يفلح، إلا في تصدير كميات هائلة من القصص الغبية، لم تخلف حقيقة واحدة.

من تداعي الإرهاب، ظهر عارف، كيف لم يخطر له من قبل؟ عارف صديقه الوحيد، الضليع بالصحافة والسياسة والأدب، مع علاقة جيدة بالوسط الثقافي... ليس أنه لم تمسّه الاخلاق، لكنها لا تهمه، وإن كان أحيانًا تحدثه نفسه بها، الحياة المتقلبة أبعدته عنها مسافة معقولة، وجعلته بمأمن منها. سيفلح هو بالذات، بزلزلة المقدم، وتحويل الولد الأخلاقي إلى عاقل أزعر.

اتصل بعارف، لم يطل الحديث معه، أسند إليه المهمة بإصرار. عارف لم يعطه جوابًا، فافترض قبوله. إذا لم يقبل، يمكنه تخجيله بداعي الصداقة، وإلا اضطر إلى إرغامه بداعي الصداقة أيضًا.

ثم اتصل بالمقدم، وأعلمه بأن الرئاسة فوضت الأستاذ عارف بدّور، الصحافي والأديب المعروف، إطلاعه على الحالة الثقافية في البلد، وخفايا المثقفين، بما فيهم الأدب والأدباء، ما يجنبه مزالق التعامل معهم.

«إياك وأن تقدم على عمل من دون الاستعانة بالمفوض الأستاذ عارف».

تنفس الصعداء. مع هذا، لا يخلو المقدم من طرافة غير مستهجنة، فلينظر إليه على أنه كان مسليًا، لكن ماذا لو كان يعبث به؟ إذا كان قد فعل، فقد قامر بروحه.

لا، مستحيل، ونفضه من رأسه حانقًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

الفصل الثامن
المفوض

١. كوميديا سوداء

استقبل عارف بلا امتنان تكليفه معالجة قصة المقدم رئيس الفرع ٦٥٠. دارى امتعاضه، وتظاهر بالقبول، لا يصحّ الاعتذار. نادرًا ما يطلب منه صديقه سليمان خدمة، لكن أن يعيّنه مفوضًا، ويعطي لهذا المنصب طابعًا نوعيًّا رسميًّا، ما ذكّره بمفوضي الشعب للشؤون الداخلية في الاتحاد السوفياتي. كانوا رسل المعتقلات والمحاكم والسجون والمنافي، وإن مثلوا النضال من أجل إقامة مجتمع بلا طبقات، بينما كان الرعب والتعذيب والموت هو الألصق بمهماتهم.

لم يوفر المهندس حجة لإقناعه؛ المهمة بسيطة، المساعدة في تهيئة فرع جديد للمخابرات لاستقبال الأدباء على أنهم زبائن غير عاديين، وإرشاد المقدم حديث العهد في العمل المخابراتي إلى التعامل معهم باحترام وتقدير دونما افتعال مشكلة، أو إثارة حساسيتهم.

لم يذهب إلى الفرع، تباطأ. هذه المهمة، لا تعدو أكثر من تجربة عارضة لصديقه المهندس في العالم الخفي للمخابرات. إذا كان صحيحًا كلامه عن معاملة الأدباء باحترام، يستحيل أن تنجح، لا متسع للتجارب اللطيفة، ما دامت التجارب الدموية لا تكف عن التسارع، والبلد إن لم يكن يتقدم حثيثًا نحو الانهيار، ففي قلب الجحيم، بينما الأطراف كلها في تنافس على أبشع أنواع القتل؛ الجنود ينفذون الإعدامات الميدانية، بينما شبيحة النظام، والإرهابيون الدواعش، يواصلون أعمالهم في قطع الرؤوس وبقر البطون وتقطيع الأجساد والتمثيل بالجثث.

هل يريد المهندس تجميل صورة النظام وإظهاره على وفاق مع حملة القلم، بغية عدم استعدائهم ضده؟ الفكرة واردة، لكن ما لزومها لأدباء لم يحركوا ساكنًا، بعدما هرب من هرب، وبقي من بقي، كلاهما لم يقدما شيئًا للنظام والمعارضة. إلا إذا كان الاتجاه ينحو إلى عدم التحرش بالصامتين، ربما تكلموا، وتوخي الحذر مع أدباء قد يثير اعتقالهم شوشرة إعلامية، مع أن معارضتهم لو عارضوا، لن تكون إلا في السر، بأصوات غير مسموعة، لا تزيد على نزوات غضب مكتومة، لا تضرّ ولا تنفع في حرب، لم تُجدِ في حسمها التصريحات الغربية الغاضبة، أو اجتماعات مجلس الأمن، ولا النداءات الدولية بإيقاف القتال، أو دعاوى المنظمات الإنسانية.

جامله، وحبذ الفكرة على الرغم من غرابتها، وإن خامرته الظنون، يستحيل وجود فرع كهذا، هذا مضاد لطبائع أجهزة الأمن، وإذا وجد، فللإيقاع بالأدباء. ثم منذ متى كان النظام حريصًا على عدم إثارة حساسيتهم، أو يُعنى بالمشاعر؟ عدا كل هذا، الأجهزة الأمنية تحتقر الأدب، فلماذا تراعيه؟ فلم يذهب.

بعد يومين، اتصل صديقه المهندس، وتساءل عما أخّره عن الذهاب إلى الفرع، أجابه: ظننتك تمزح، فرع للأدب، مستحيل. هل جننتم؟

لا، لم نُجَنّ بعد، لكن على وشك...

إذاً ما الذي يجري؟

استشاط المهندس غضبًا، هناك من يدفعه إلى الجنون، لماذا؟ لديه رئيس فرع مجنون؛ داعية إلى الأخلاق في مبغى، ما الذي يفعله هناك؟ بماذا يبشر، ولمن؟ المشكلة أننا لا نستطيع التخلص منه، نحن الذين أعددنا المبغى خصيصًا له، ولا حل لهذا الإشكال إلا بتحويل الداعية إلى قواد. هل أدركت أي مأزق نحن فيه؟

حاول عارف المراوغة، لكن المهندس لم يقبل أي حجة:

أنت هو الرجل الذي سيقنعه بأنه في مبغى، ولا عمل له سوى القوادة.

بعدما هدأت أعصاب المهندس، فهم أن صديقه تورط بالفرع، والأسوأ بالمقدم رئيس الفرع، المطلوب منعه من ارتكاب أخطاء جسيمة، لن تكون إلا فضائح بلا معنى.

...لا نريد أن نمنح الأدباء الأسباب ليقفوا ضدنا، هناك على الطرف الآخر من سيتلقفهم، فما بالك برئيس فرع أرعن ينوي التسريع بإرسالهم إلى المعارضة، مع أنه ليس لديه شيء ضدهم، لا اتهامات تآمرية، ولا مآخذ سياسية.

هل تصدق؟ يريد تقويمهم أخلاقيًّا.

ادعى المهندس أن وجود الفرع ضروري في حسابات المستقبل المنظور؛ الأدباء نقطة ضعف الدولة، إنهم مهملون، تستهويهم المشاكسة، وقد يصبحون غنيمة سهلة للإسلاميين، مثلما كانوا من قبل غنيمة لليساريين. تعلم، ما زلنا نعاني منهم، مع أنّ بعضهم في صفنا، لكنهم قلائل. تعرفهم، موتورون وحمقى.

عارف لم يفكر كثيرًا، إذا كان مخيرًا، فالجواب سلبي. صديقه يعتقد أنه يقدم إليه وظيفة ممتازة، لا تنقصها الهيبة ولا الشر؛ الثنائي الفعال لإيقاع الرعب،

لكنها ذريعة لتوريطه بقضايا أمنية يزعم أنها أدبية. لا، لن ينجرّ في هذا الوقت إلى لعبة خطرة، كان ينوي الابتعاد عن كل ما يجري في البلد. لم يُخفِ عنه:

«بصراحة، لن أكون مخبرًا للفرع، ولا رقيبًا على اتحاد الكُتّاب».

أقسم المهندس أنه لم يكذب عليه، العملية برمتها ضبط وظيفة رئيس الفرع، فلا يتجاوز اختصاصه، والشرط الرئيسي، فرع شكلي بلا صلاحيات. من ناحية أخرى، لن ينال أصدقاؤك الأدباء أي أذى. نحن نعمل على أن يكون اتحاد الكتّاب البقعة الوحيدة الناجية من حمام الدم.

بعد استفسارات مطولة، عرف أن مهمته لولا طرافة طابعها، لكانت الحماقة بعينها؛ تتبدى غرائبيتها في تأدية دور المرشد إلى الضلال لرئيس الفرع، الضابط العصابي الطهراني. وللمزيد من الغرائبية، هذا الضابط المتعنت أخلاقيًّا إذا تُرك له الحبل على الغارب، فسيحول الفرع إلى مسرح لكوميديا سوداء، يستهويه التدخل في الخصوصيات الشخصية للأدباء، ومع الوقت سيقترح مراقبتهم في خلواتهم، وردهم إلى الصراط المستقيم. المطلوب تنويره بأن أخلاق الأدباء تختلف عن أخلاق العوام.

اتعرف ما الخطأ الذي ارتكبناه؟ لقد وضعنا ضابطًا مغفلًا وأخرق في غابة من الأدباء اللاهين، تعجّ بالمشبوهين أخلاقيًّا. تعرف أسواق الأدب، لا تخلو من الأبرياء، ولا من المدعين والمحتالين، سيعتقلهم بالعشرات، إن لم يكن بالمئات، لمجرد خطأ أخلاقي بسيط. من حسن الحظ، أفصح عن نياته، قبل أن يبدأ العمل، لا تقل لي انقله إلى مكان آخر، لا أستطيع، المستحسن رده إلى جادة الصواب.

لم يتحمس عارف للمهمة، مع أنها كانت مثيرة ومشوقة؛ تعليم ضابط وتنبيهه إلى أن الأدباء في العالم كله، يتمتعون بأخلاق نوعية، تخصهم وحدهم، لا يجوز التعرض لهم، مهما بلغت كتاباتهم وتصرفاتهم من إسفاف. الجانب الإيجابي في مهمته الارشادية، حمايتهم من رجال المخابرات الجاهلين بالتأثير الإنساني لأدب قد يقاوم، لكنه منزوع الأظفار.

٢. غابة الدولة

منذ هبط عارف مع صديقه سليمان إلى دمشق قبل ما يزيد على ثلاثين عامًا، اختلف طريق كل منهما عن الآخر. كانت طموحات سليمان طلب العلم، فذهب إلى الجامعة - كلية الهندسة، ثم انقلبت عسكرية، فذهب إلى الكلية العسكرية، ثم انقلبت وأصبحت مخابراتية، فذهب إلى القصر الجمهوري. أما عارف، فجاء حاملًا من الضيعة ذخيرة من الحكايات القروية تصلح قصصًا قصيرة، وقصائد شعرية حماسية للمناسبات الوطنية والقومية، تلك كانت

عدته المتنوعة، إن لم تفلح هذه، فهذه. كان تواقًا إلى العمل في الصحافة، لكن من دون أمل.

في سنواته الأولى، حالفه سوء الحظ، فيما كان الحظ مبذولًا للقادمين إلى العاصمة، أبوابها مفتوحة، لكنها أغلقت في وجهه، مع أنه دخلها لا خائفًا ولا وجلًا. كانت تغصّ بالقادمين من الريف. لم يمهد له أحد الطريق. الكثيرون سبقوه، وتنازعوا على المناصب الكبيرة والمتوسطة والصغيرة والرثة، احتلوا الأماكن كلها، لا شاغر لأمثاله، فاشتغل لدى أحد معارفه في ضاحية السومرية في بيع البضائع المهربة، وكانت مزدهرة؛ مشروبات كحولية، دخان، معاجين أسنان، منظفات، حفاضات أطفال، وأدوية... فوجد موطئ قدم في شبكات التهريب. يعمل نهارًا في الكشك، وليلًا ينام في المستودع.

حصيلة مغامرته الأولى في العاصمة؛ رحلة خسائر متواصلة، فقد خلالها الآمال والأحلام، ولم يكسب إلا القليل من المال. كان يدفع القسم الأكبر من أرباحه رشًى لدوريات الجمارك والتموين. بينما حالف الحظ صديقه سليمان، وتمتع بأفضليات يُحسد عليها، سواء عندما انتسب إلى كلية الهندسة، أو عندما تركها بعد سنتين وتطوع في الجيش، ليستقيل بعد سنوات برتبة نقيب، وينتقل إلى القصر الجمهوري، ويُكلَّف مهمات أمنية.

صنع سليمان حظه بيديه، عندما تعرّف أيام كان طالبًا في الثانوية إلى الضابط الذي سيصبح رئيس البلاد، ولم يكن من قبيل المصادفات، قدم له خدمة، حفظها الرئيس له، وكافأه بقبوله في الجامعة، بعدها لم يكفّ سليمان عن الطلب. منذئذ، عرف بلقبه «المهندس»، ولم يكن على علاقة بالهندسة إلا من ناحية تأسيس أجهزة، وتخطيط مشاريع على علاقة بأمن البلد.

استطاع عارف، على الرغم من ضيق الوقت، وعمل لم يدرّ عليه سوى المتاعب والخيبات، أن ينشر بعض القصص والقصائد. يستيقظ متأخرًا، يعمل إلى ما بعد الظهر، ثم استراحة الغداء، فدوام العمل المسائي. تبدأ رحلته الإبداعية، قبل منتصف الليل أو بعده، يقرأ ويكتب ويمزق، ثم يحلم بالمجد. عندما ظهرت له قصة في صفحة «إبداعات شابة»، جافاه النوم وداعبته أحلام اليقظة، كانت سلواه الوحيدة في ظلمات القنوط.

صداقته مع سليمان حافظت على تماسكها، كان يراه بين فترة وأخرى. لم يكن لدى سليمان من يأنس إليه سواه؛ تدرجه السريع في المناصب علّمه ألّا يثق بأحد. وجد في صديقه المنكود شاهدًا على نجاحاته. وهبه إصغاؤه متعة الظفر بإعجابه، لم يشعر أنه يرتقي من رتبة إلى رتبة، ومن موقع إلى موقع، إلا عندما يرى صعوده المتسارع مرسومًا بملامح الدهشة على وجه صديقه. استفاد أيضًا من نصائحه، ومعرفته بدمشق بفعل انخراطه في حياتها اليومية.

بعدما استقر عمل سليمان في القصر الجمهوري، أنقذ صديقه من العمل في كشك المهربات، والتسكع أمام أبواب مديري التحرير في الجرائد، ورؤساء أقسام الصفحات الثقافية، والتقرب إلى صحافيين لديهم محاولات أدبية، درّت عليهم سمعة شاعر أو قاصّ، ربما ساعدوه، بينما كانوا بحاجة إلى المساعدة.

وظفه في جريدة «تشرين»، براتب شهري مجزٍ، لقاء أن يكتب أو لا يكتب، وبدوام جزئي، أي أن يداوم أو لا يداوم. فاعتزل عالم التهريب، وغادر ضاحية السومرية. ذاك الزمن رحل إلى غير ما رجعة. هذا ما تمناه.

في الجريدة، حاروا في استرضائه، الإشاعات سبقته؛ القصر الجمهوري أمر بتوظيفه، فاعتقدوا أنه رجل القصر في الجريدة. أدرك النعمة التي هبطت عليه، فرتع فيها. أكرموه بأعطيات على أنها تعويضات ومهمات ومكافآت، كفلت له رفاهية معقولة، ولم تكن بالشيء القليل. أصبح يتردد على المكتبات، يشتري الكتب والمجلات الأدبية، ويرتاد المقاهي والمطاعم. كانت النقلة واسعة من الفلافل والفول، إلى مشاوي الكباب والشقف، ومن سجائر «الحمراء» إلى «المارلبورو» المستورد، والتخلي عن العرق المحلي ملك المشروب، لصالح النبيذ الفرنسي.

فرصة ذهبية، قد لا تتكرر ثانية. كل ما رغب فيه سيتحقق إن لم يتكاسل. الشائعات تحدثت عن منصبه الخفي؛ ولم يكن إلا أنه مخبر صحافي يرفع تقاريره للقصر الجمهوري. اعتقدوا أنه بتوصية منه، يرفع من يشاء ويطرد من يشاء، لكنه لم يستثمر ما خيل إليهم. حافظ على اتزانه، ولم يتورط بادعاء منصب وسلطة، أيام الشظف علمته ألا شيء يدوم. لم تخدعه سمعته، فلم يتعدَّ على أحد.

أدرك، وقد بدأ يخالط مجتمعات المثقفين في المقاهي، أن الفرص كانت سانحة أمام مثقفي الريف الزاحفين إلى المدن مسلحين بالثقافة البروليتارية. بعدما أفسحت العاصمة صدرها للثقافة المنتصرة، التاريخ لن يرتد إلى الخلف. بينما كانت دمشق تعجّ بالبرجوازيين لمجرد أنهم من سكانها، ولو كانوا فقراء، وأخليت من الأعداء حملة الثقافة الرجعية. لم تقل ثورية شباب الأحزاب عن البعثيين، كانوا أكثر تشددًا منهم؛ يساريين وشيوعيين، نقطة ضعفهم منبتهم الطبقي، لم تكن أصولهم فلاحية ولا عمالية، بينما الريفيون كانوا أبناء فلاحين. مهما بالغ مثقفو المدن في راديكاليتهم، فليسوا في الحقيقة إلا برجوازيين صغارًا.

لأول مرة تخدمه الضيعة في أمر لا يد له فيه، كان ابن فلاح. سمعة لم تجد صدًى لها خارج مجتمعات المثقفين، فلم يُقم أحد له وزنًا، بعد وقت لم يطل،

أخفاها عن قناعة، لم تعد تميزًا يُعتد به، كان مثل الكثيرين الذين تطفح بهم العاصمة. كما كان قد تبرجز دون أن يدري.

لم يؤخذ بهذه المعايير، سيطر عليه إحساس، أن وجوده عابر في الجريدة، قد يتخلى الحظ عنه في أية لحظة، وتُنتزع منه منحة نالها بلا جهد. ما الذي يضمن بقاء سليمان في القصر الجمهوري؟ فحرص على أن يكون متسامحًا مع الأعداء الطبقيين.

الفائدة العاجلة؛ فتحت له الجرائد والمجلات صفحاتها، لكنه امتنع عنها، لن ينشر عملًا أدبيًّا إلا بسوية عالية. كان قد طلّق القصص القصيرة، وشعر المناسبات، فاستعد ليكتب شيئًا ما، فكتب مقالات ناقدة لبعض المظاهر الثقافية المتعارف على إساءتها للأدب.

الحفاوة التي استُقبلت بها مقالاته، وكان أكثرها من نوع المجاملات العابرة، شجعته على استثمار ثقافته، بعدما توافر له مجال يستهلكها فيه. كان على دراية بالأدب الجيد والرديء. فخطا خطوة إلى الأمام، وكتب في النقد الأدبي، وكان من النوع الانطباعي. فلم يتقيد بالمناهج النقدية، فكتب سلسلة مقالات كانت تسويد صفحات. هذا النوع من النقد، تأثيره المحلي لا يستهان به.

أجرى بعض الرتوش على صورته، فأشاع أنه غير راضٍ عن تجاوزات الأجهزة الأمنية، أو منحى بعض السياسات الاقتصادية. تجرأ على الإشارة إليها في مقالات الرأي، كان قد أزمع على التلويح بالثقافة على أنها سلطة.

في ذلك الوقت كان صديقه سليمان قد طار صيته، وأصبح على رأس جهاز للمخابرات على المخابرات في القصر الجمهوري، وكان من مشاريعه تصنيع معارضة شكلية في داخل البلد. الفكرة لم تتطور، النظام رفض أي معارضة، ولو كانت صنيعته.

استهوت عارف الصورة المغايرة للمثقف المنافق، فتابع تشكيلها على مهل، فاكتسب سمعة معارض وطني يساري ذي رأي مستقل حتى عن المعارضين بأنواعهم. أسست له مع الوقت سمعة إضافية، كمثقف له رأي في ما يدور في أوساط الذين يفكرون، فبدا كأنه من بطانة الرئيس الشاب الذي ينشد القيام بإصلاحات، وإن لم يصلح شيئًا.

فكرة الثقافة كسلطة، لم تنضج أو تتجسم، كان وحيدًا، وهذا ما أراده، لا أكثر من السمعة. بالمقابل، لم تُقم المعارضة له وزنًا، أو تثق به. وإن شكل وضعًا غامضًا أسهم فيه بتواتر انتقاداته، وكانت تنوس ضد السياسة العالمية والقضايا المحلية اليومية. الأوساط المخابراتية لم تعترضه.

حسب ظنها، كان أحد عملائها السريين، لعلاقته الوثيقة بالمهندس، أكد صلته الخاصة به، بنشر كتاب باسم مستعار، كانت مديحًا خالصًا لصوابية السياسة الاستراتيجية في الصراع العربي الإسرائيلي للرئيس الراحل على أنها رؤية عبقرية. انضم إلى ما كتب عنه في مجال تكريس خلوده. بذلك دفع جزءًا من الدين المترتب عليه للنظام.

في الوقت نفسه، منحه المهندس تسهيلات في التخاطب مع الأجهزة الأمنية، ساعدته على بناء قدر معقول من المصداقية، استخدمها في التوسط للأدباء، بالكف عن ملاحقة فلان، أو عدم استدعائه إلى التحقيق، وإزالة المنع عن سفر بعضهم، والتغاضي عن النشاطات الأدبية المشكوك في أصحابها. فكان متنفسًا لهم.

لم يكن بليدًا، ولا متنطعًا لأدوار كبيرة، فلم يبالغ في حجمه؛ تعلم ممّا حظي به، لولا سليمان لتعفن في السومرية يبيع المهربات. وأصبح على يقين أن ليس لإنسان مهما كان ذكاؤه ووصوليته، أو عبقريته وانتهازيته، اقتحام غابة الدولة، إن لم يشد أحدهم أزره، كل شيء محسوب، وبشرط أن يلعب الدور بحدوده، دونما زيادة أو نقصان، وبلا تبجح، وإذا تجاوزه قضي عليه. الامتيازات لا توزع مجانًا.

شجعه المهندس على أداء دور فعال، لكن الخوف والتوجس ساعداه على النظر إلى أبعد، فاكتفى بالحماية التي منحها له صديقه. أما الدور، فاختار المراقبة، ولم يكن متفائلًا. كان من فرط توقعاته المتشائمة، أنه استشم رياح الثورة، مع أنه لم يتلمح نذرًا لها. ركبه تساؤل لم يفلته، أقضّ أحيانًا مضجعه: هل يعقل أن تمضي البلد ضد المنطق والحقيقة والقانون والعدالة والأخلاق...؟ إذا كان، فإلى أين؟ ليس سوى الهاوية. ولقد كان على صواب، الغالبية العظمى كانت متضررة من الفساد، وما يتعرض له الناس من قمع. بات يعاوده خاطر، صار أكثر من يقين، أنه وضع مهما طال، فمؤقت لن يدوم، بينما كان صديقه المهندس يعمل على تأبيده.

تركزت آماله على ترسيخ مكانة أدبية معتبرة ومعترفًا بها، هذا مكسبه الحقيقي ، فرصة ينبغي ألّا تفوته. كان على ثقة بأن الكثيرين سيتنافسون على إدراجه، سواء أفلح أو لم يفلح، بين كبار الكتاب. اتخذ قراره، سيحترف كتابة الرواية.

٣. زمن الثقافة التقدمية الظافرة

في وحدته أيام التعتير والشظف، سحرته عوالم الرواية. كانت سلواه في مستودع المهربات بين صناديق البيرة الألمانية والويسكي الاسكتلندي، وكروزات الجيتان الفرنسي، والسيجار الكوبي، يقرأ متكئًا على حفاضات

البامبرز، وحوله علب البيبسي كولا، وشوكولا مارس والتويكس والبانادول... الصراصير تجوس ذهابًا وإيابًا، الهواء راكد، والبعوض يحوّم، لطخات السخام على الجدران، شِباك العناكب تحتل زوايا السقف، رائحة رطوبة عفنة، وحبابة متدلية تضيء صفحات يفتحها وصفحات يغلقها. يلاحق مصائر من كلمات تتسارع، تطوي حيوات وغراميات وثورات وعروشًا وقصورًا.

في الظلام، للحياة وجه آخر، تتألق على صفحات روايات تعيد تفسير الحقائق الكبرى على أديم الليل؛ للسلطة سطوتها، وللحب بهاؤه، وللمرأة فتنتها، وللدموع رجاءاتها، وللقلب أسراره، حتى الكوارث أثارت في داخله متعة الهدم والتدمير؛ كآلية للإفناء والولادة من جديد. الوحدة لا تثقل عليه في عالم تسوده العتمة، ثمة طريق يلوح في نهايته بصيص ضوء، كلما اقترب منه يبتعد. لم يكن فريدًا في تعاسته، ولا متفردًا بشقائه. كان سعيدًا في بارقات أحلام يقظته الهانئة؛ الرواية جعلت منه إنسانًا متفائلًا.

في سنواته الأولى، كانت دمشق ملجأه الموحش، وستتجدد علاقته بها في أيام الرخاء، على نحو أخاذ، لن ينفصل عنها، خُلق لها أو خلقت له، ولم يكن الخلق المتبادل، سوى تكريس وجوده فيها بالانصراف إلى الكتابة. لم يأته هذا اليقين من خاطر عارض، بل مما بدا قدرًا مرصودًا له، يرسم خطواته اللاحقة، ويتحكم بحياته. إن لم يكن لديه مقدار كافٍ من الموهبة، فالإصرار والدأب يعوضانها.

كانت أوضاعه الحياتية مواتية لبداية مشواره الروائي، مقارنةً بما كان عليه من فاقة، فحصل على أكثر مما تمنى. الوظيفة كانت بلا دوام، أتاحت له التفرغ، بلا هموم يومية، تكاليف المعيشة لا تؤرقه، راتبه الشهري وملحقاته يزيد عليها، لن ينصاع لبطر الفراغ، ولا لكسل الراحة. أصبح الشقاء مجرد ذكريات ممضّة. ودّع كوابيس النحيب الليلي، والسهر إلى الصباح، نادبًا سوء أحواله. قلب صفحتها؛ التفاؤل شدّ من أزره.

أعدّ العدة لاستقبال الإلهام الأدبي، في شقة صغيرة بالإيجار في أزقة منطقة المزة الخلفية الهادئة. الغرفة التي خصصها للكتابة، جدرانها بيضاء مريحة للنظر، تحتوي على مكتبة، تطل نوافذها على حديقة خلفية صغيرة، روادها قلائل، لا أطفال ولا ضجيج. جالس وراء طاولة، وأمامه ورق ناصع البياض وأقلام وآلة كاتبة... في رأسه تتزاحم عشرات الأفكار.

كان من المبكر خوض تجربة روائية حداثية، سيبدأ بنموذج آمن، مجرب ومستحسن، ولو أنه أصبح قديمًا ومستهلكًا، كان طليعيًّا في زمانه، صاغته مقولات الواقعية الاشتراكية في رحلة تكلسها، موضوعها الشعب الكادح يفرز البطل الإيجابي الذي يأخذ على عاتقه شعارات الثورة في التغيير الجذري،

وفي الطرف المقابل شعب متواكل لا يكدح، بينما الأقلية البرجوازية الخاملة، تفرز البطل السلبي.

استحوذت عليه. فكرة السخرية من العالم البرجوازي، وإن فات زمانه. حرضته عليها رغبة قوية في التشهير بالمجتمع الدمشقي، وإن كان يجهله، كان لا يعرف سوى أمثاله من الذين يشقون طريقهم بصعوبة فيه، ويلبثون على هامشه. مجتمع لن يختلف عمّا قرأه عن أشباهه من البرجوازيات الغربية، لا يزيد على شبان مرفهين عاطلين من العمل، ونساء متحذلقات لا همَّ لهن سوى الموضة القادمة من بيروت، سيعاقبه لمجرد أنه امتنع عنه. سيكرس موهبته لرواية مضمونة النتائج والقراء، موضوعها انتصار الثورة الاشتراكية على الرجعية المحلية.

انكبّ على الكتابة بحماسة، على الرغم من بلادة موضوعها المطروق، كان يعيد ما كتبه الروس قبل عشرات السنين، ليته يتحرر منها، لكنها مجرد بداية، يجب أن يكون للسوريين روايتهم الثورية حسب رؤية طبقية، يجترحها بأسلوبية تحمل بصمة متميزة، لا تخلو من نفحة عالمية بصبغة تقدمية.

المردود على الورق، كان قليلًا وعسيرًا، ربما كان مقبولًا، لكن يلزمه الكثير من التحسينات، أحدها تطوير الشخصيات، لكن ليس قبل معرفتهم من قرب، لكن كيف يتعرف إليهم؟ ولماذا يتعرف إليهم؟ إنهم هكذا.

لم تنقذ الرواية، الأسلوبية المتميزة، ولا الرؤية المختلفة، ولا النفحة العالمية، ولا الاشتراكية، ولا دعاوى التحرر، ولا حتى المنبت الطبقي الذي ينقذ أي عمل أدبي مهما كان تافهًا، أو ما افترضه من أخلاق ثورية، طرأت على شخصيات طائشة نفضت عنها اللامبالاة. النتيجة، كانت أقلَّ من التوقعات. مجمل ما اجترحه كان تسلقًا على قراءاته، ولم يكن جيدًا. كان سيئًا.

تحسّر على الوفرة، فما توافر له كان مثاليًّا، العزلة والبيت والغرفة والجدران البيضاء ونافذة تطل على حديقة، والورق والأقلام والآلة الكاتبة... يا ضيعانها! ما الذي كان يخطه؟ خطوط سوداء لا تزيد على خربشات على صفحات فارغة!!

إذا أراد أن يواجه الحقيقة المرّة، لا الحقيقة المستهلكة، الموضوع الذي بدا عظيمًا، أطاحه الواقع، فالثورة الاشتراكية لم تكن اشتراكية، كانت انقلابًا من صناعة العسكر، أعقبه انقلاب، فانقلاب، فانقلاب، ثم تصحيح الانقلاب الذي أسلم مسيرة البلد للديكتاتورية. لن يعود القهقرى ويهدر أدبه على دولة العمال والفلاحين، بعدما تلاشت قبل أن توجد. أو يبتذل رواياته على برجوازية مذعورة فرّت من البلد، وإن ما زالت بقاياها متوارية وراء الأبواب المغلقة،

فضحها شعراء وروائيون يساريون عتاة، حمّلوها الموبقات كافة، بعدما جردوها من امتيازاتها وأملاكها وأخلاقياتها وتاريخها الوطني.

أما المثقفون الذين سبقوه إلى الكتابة، فقد تجاوزت ثوريتهم الأحزاب اليسارية. كانوا موتورين أدبيًّا، لا أقل من التوق لتشييد عالم ثوري مثالي، فنالوا من العاصمة الوادعة التي آوتهم، هجوها ولعنوها، صارت شرشحتها موضوعًا أثيرًا. كان ذلك زمن الثقافة التقدمية الظافرة، بينما كان العسكر يرسخون الدكتاتورية.

تجربته الروائية الأولى المريرة أخطأت حساباتها، فأخفقت مثلما أخفقت ثورة العسكر، التي لم تخف دعوتها الزائفة لعدالة كانت في حقيقتها، حاقدة تبطن الانتقام؛ من ماذا؟ الوقائع فضحتها، ثورة جشعة، شرهة ونهمة. وما انغلاق العاصمة المغلوبة على أمرها إلا لعدم قدرتها على التصدي للانقلابيين الغزاة مرضى الحسد والكراهية.

لم يتحايل على الحقيقة، اعترف نادمًا ولو متأخرًا، بأن دمشق لم تكن محتكرة لأحد، ليست ملكًا حصريًّا لأهلها، ولا للذين يحتلونها، إنها مفتوحة للجميع، وملك للجميع، لا يستأثر بها أحد. في سريرته، أدرك أنه بات واحدًا منهم، يصيبه ما يصيبهم.

ردته الرواية إلى عالم لا يبعث على التفاؤل. مع هذا، كلما فكر برواية، تعثر بالزمن التقدمي، أدرك أنّ خيبته تفوق خيبة أولئك الذين كتبوا روايات ثورية، بعدما تبينوا أنه لا ثورة ولا ثوريين، بل انقلاب وانقلابيون.

أصبح أكثر وعيًا، لم تعد الرواية غواية مثيرة، أو شعارات. أصبحت تنقيبًا عن حقائق ضائعة، وضحايا طواهم الماضي، لا هروبًا إلى الخلف ولا إلى الأمام، إنها هذا الواقع. أما المكسب، فربما لا مكسب.

إذا كان سيمضي قدمًا في الرواية، فالعبء ثقيل وشاق: مع الحقيقة، لا تنازلات. هكذا الرواية.

٤. التجربة البلزاكية

لن يعود إلى الماضي، ولن يغفله، كان ينغل في الحاضر، وجّه بصره صوب مجتمع آخذ في الاتساع والتمزق، لا يجهله البتة، قاسى منه، عندما دخل العاصمة، قبل أن يصفو له الزمان، أتاح له معرفة الكثير من الأنذال، والقليل من الأخيار. كان، بلا مبالغة، مؤهلًا لتقصّي مصائرهم ، تُرى إلى أين ذهبت بهم لوثات طموحاتهم؟

روايته، ولو كانت فكرة غائمة، بوسعه الاتكاء عليها. كان بحوزته الكثير من الحوادث والمواقف والموضوعات والأشخاص، ليغرف منها. في الضيعة خبر

حياة الريف، وفي العاصمة خبر حياة المدن. بينما هنا في ذهنه، تمددت خريطة كبرى تعجّ بالبشر، الحياة ساحتها، وإحداثياتها الشوارع والأزقة، المساجد والثكنات، المطاعم والمقاهي، المؤسسات والدكاكين، ومناطق العشوائيات، وقرى وحقول... وما هبّ ودبّ من البشر.

لن يعيد تجارب فاشلة أدبيًّا، أدينت بالأيديولوجية، واعتُبرت من الماضي المشؤوم للرواية. كان من السهل عليه، بعدما غيّر البوصلة، مجابهة الواقع الغاطس فيه حتى قمة رأسه. هذه المرة، كان واثقًا مما هو مقدم عليه، والأدعى للأمان أنه لن يمضي في عالم الرواية بلا معلم؛ كان الفرنسي «بلزاك».

استولت عليه رواياته منذ قرأ ما ترجم منها في مستودع المهربات. أبطالها ما زالوا يخطرون في خيالاته، فوتران وبيناسيس، راستيناك وديسبلان، لويس لامبير وفيليب بريدو والكولونيل شابيرو... يتلامحون بين الظلال والغبار. لم يعسر عليه تصور أوجيني غرانديه، والأب غوريو، النسيبة بت، وخوري القرية، والعشيقات الخائنات، والعشاق المخدوعون... شخصيات باتت من لحم ودم، اختزلت طبائع البشر، سفالاتهم ونزواتهم، حقارتهم وحنكتهم، غباؤهم وحكمتهم... روايات لم تخلُ من الطيب والشرير، الشهواني والعفيف، المحافظ والثائر، اللوطي والنسونجي... أوحى له بلزاك بالمواد الفعالة التي سيستخدمها في روايته: الوصوليون الجشعون، الانتهازيون الأوغاد، البؤساء العميان، ومحتالون لصوص، ومثقفون أنذال، وسياسيون ساقطون، ومتسلقون سفلة... ينشدون المال ولو بالحرام، يحلمون بالسلطة ولو فوق أجساد ضحاياهم، رواية ستكون سورية مسرحها المتلاطم.

إذا كان أستاذه الفرنسي قد اخترق المجتمع الباريسي بملهاته الإنسانية، فهو أيضًا لن يوفر في رواياته المجتمع السوري، وصراعاته الباطنة والظاهرة، فصولها تحتدم في كل مدينة وقرية. سيعمل على ملهاته السورية، رواية شبيهة بالفرنسية، لن يقتفي آثارها، لكل ملهاة عالمها وعوالمها، ستكون صورة عصرها. ثمة ما يجمعه مع بلزاك، رغم ما يفصل بينهما من زمن يُعَدّ بالقرون، لكنه لا يبعد سورية الأسدية عن فرنسا البونابرتية. كلاهما يرزحان في زمان استبدادي، كانا على وفاق معه. يتشاركان قناعة واحدة؛ الرجال الأقوياء أصحاب الرؤى، وحدهم الجديرون بالإمساك بزمام الدولة، وينشدون التغيير رغم كل شيء. السؤال كان:

هل يحق للنبلاء والنخبة عدم الانصياع للقوانين؟ نعم، القوانين سُنّت للعوام.

ما جعله يتشدد برؤيته الاستبدادية، أن «بلزاك» نفسه كان من دعاة الحكم الملكي المطلق، وتركيز السلطات بيد الملك. بالمقابل، لم يتزعزع إيمانه

بالسلطة المطلقة للرئيس الراحل. كانت الدكتاتورية الرشيدة هي الحل المؤقت الأنجع، ريثما تتحول سورية إلى الديمقراطية، تحت رعاية الرئيس الوريث الابن، طبيب العيون، القادم من الغرب. عندئذ يبدأ الإصلاح والتغيير وفق بالزمن التقدمي، أدرك أنّ خيبته تفوق خيبة أولئك الذين كتبوا روايات ثورية، بعدما تبينوا أنه لا ثورة ولا ثوريين، بل انقلاب وانقلابيون.

أصبح أكثر وعيًا، لم تعد الرواية غواية مثيرة، أو شعارات. أصبحت تنقيبًا عن حقائق ضائعة، وضحايا طواهم الماضي، لا هروبًا إلى الخلف ولا إلى الأمام، إنها هذا الواقع. أما المكسب، فربما لا مكسب. لن يعود إلى الماضي، ولن يغفله، كان ينغل في الحاضر، وجّه بصره صوب مجتمع آخذ في الاتساع والتمزق، لا يجهله البتة، قاسى منه، عندما دخل العاصمة، قبل أن يصفو له الزمان، أتاح له معرفة الكثير من الأنذال، والقليل من الأخيار. كان، بلا مبالغة، مؤهلًا لتقصّي مصائرهم ، تُرى إلى أين ذهبت بهم لوثات طموحاتهم؟ استولت عليه رواياته منذ قرأ ما ترجم منها في مستودع المهربات. أبطالها ما زالوا يخطرون في خيالاته، فوتران وبيناسيس، راستيناك وديسبلان، لويس لامبير وفيليب بريدو والكولونيل شابيرو... يتلامحون بين الظلال والغبار. لم يعسر عليه تصور أوجيني غرانديه، والأب غوريو، النسيبة بت، وخوري القرية، والعشيقات الخائنات، والعشاق المخدوعون... شخصيات باتت من لحم ودم، اختزلت طبائع البشر، سفالاتهم ونزواتهم، حقارتهم وحنكتهم، غباؤهم وحكمتهم... روايات لم تخلُ من الطيب والشرير، الشهواني والعفيف، المحافظ والثائر، اللوطي والنسونجي... أوحى له بلزاك بالمواد الفعالة التي سيستخدمها في روايته: الوصوليون الجشعون، الانتهازيون الأوغاد، البؤساء العميان، ومحتالون لصوص، ومثقفون أنذال، وسياسيون ساقطون، ومتسلقون سفلة... ينشدون المال ولو بالحرام، يحلمون بالسلطة ولو فوق أجساد ضحاياهم، رواية ستكون سورية مسرحها المتلاطم. ما جعله يتشدد برؤيته الاستبدادية، أن «بلزاك» نفسه كان من دعاة الحكم الملكي المطلق، وتركيز السلطات بيد الملك. بالمقابل، لم يتزعزع إيمانه بالسلطة المطلقة للرئيس الراحل. كانت الدكتاتورية الرشيدة هي الحل المؤقت الأنجع، ريثما تتحول سورية إلى الديمقراطية، تحت رعاية الرئيس الوريث الابن، طبيب العيون، القادم من الغرب. عندئذ يبدأ الإصلاح والتغيير وفق تصور حداثي.

شدّت فكرة الإصلاح من عزيمته الإبداعية، لكن لا تقدم في الكتابة، كان بطيئًا جدًا، يراوح على الورق. مثلما الإصلاح، كان بطيئًا جدًا، إلى حد أنه يراوح على الأرض، أو كان يتراجع، طوال سنوات تطوي سنوات، إلا إذا كان يتقدم في الخفاء.

فليدع الإصلاح جانبًا، تلك لعبة السياسة، لكن لا تقدم في الكتابة.

هل هو الكسل؟ لم يكن الواقع فقيرًا، كان ممنوعًا، ثمة ما وقف حائلًا بينهما. كان حذرًا من السلطة، لئلا يصطدم معها، مع أنه لم يكن ضد النظام، كان جزءًا منه، وما يدور في البلد، لا يضيره شخصيًّا، بل يستفيد منه، لكنه يؤذي غيره، وتعني الكثيرين، كانوا في كل مكان؛ خارج البلد أو في السجون، أو مختبئين ومطلوبين وملاحقين.

لم يكن عالقًا، إلا لأن الرواية كانت بطبيعتها متورطة في الواقع، ولا يمكنه عدم السقوط في مستنقعه، ولا نجاة منه، إلا إذا كتب عن واقع محاذٍ، يسهم الخيال فيه، يوحي كأنه هو، وإن لم يكن هو.

لن يطول الوقت، عندما سيرى نفسه بطل كوميديا روائية، يَرى ولا يَرى، أو لا يريد أن يرى، يَعرف ولا يَعرف، أو لا يريد أن يعرف، يكتب ولا يكتب، وإن ادعى أن القلم لا يطاوعه. هل الكتابة تمتلك الإرادة؟ بعد حين، سيقول: نعم، إذ للقلم أهواؤه، كان يجري على الورق كما يشاء. ما أدركه كان رهيبًا؛ الكتابة تجري بمعزل عنه، كانت لها خطتها المعاكسة، خطتها المضادة.

خطابات الرئيس، مناقشات نواب مجلس الشعب، حرية الصحافة، العدالة الاجتماعية، ديمقراطية صناديق الانتخاب... قد يتواطأ مع ادعاءاتها، ثم يدعى أنها ضللته، لكنها لا تضلل الرواية، المسيرات والدعايات الانتخابية أدوات تدليس، وللدعاية فحسب، والأسوأ خطابات الرئيس، تزرع الأمل ولا أمل، تتعالم عن ادعاء، تراوغ ولا تقول شيئًا. كانت جميعها متضامنة على الغش والكذب والخداع.

هل تُسيّر الكاتب قوى غامضة؟ ربما، لكنها لم تكن غامضة.

إنه الواقع، وليس بوسعه إنكاره.

بالعودة إلى ملهاة «بلزاك»، فوجئ بأن الفرنسي واجه مثيلًا لهذا الموقف. وكان جليًّا في رواياته، لقد أفلتت منه، وتمردت على أفكاره وآرائه، واتخذت سياقًا حرًّا. كانت الروايات على تضاد مع صاحبها، أجبرته على وصف العالم كما تكشف له، العالم كما هو!! فشهّرت بالنبلاء ونزواتهم الوضيعة، وخسّة البرجوازية حديثة النعمة، وبالتجار الذين جنوا ثرواتهم من الاحتكارات، وأصحاب البنوك المرابين الجشعين. أما غراميات الأميرات والدوقات والكونتيسات، فلم تكن بريئة من العهر، وإن كان ارستوقراطيًّا.

أشهرتْ روايات «بلزاك» العظة التقليدية المعروفة، تهاوي الشرف والنزاهة والاستقامة أمام شهوة الثراء والرفاهية، والتهالك على الترف، ولذة التبذير، والاستسلام لنزوات الجسد... ما أفلت من بلزاك، شكّل عظمة ملهاته الإنسانية، وكشف الغطاء عن البشاعة التي رزح تحتها عصر بأكمله. لم تفلح

في القضاء عليها أو إصلاحها؛ الثورة والمقصلة، أو شعارات الحرية والعدالة والمساواة، ومعها شعارات النبالة التي سعى بلزاك لتقلدها طوال عمره.

من فرط ما انغمس في التفكير، انخرط في التخيل، صار طوعه، فلم يستعصِ عليه تصور المعلم الفرنسي، ليس بعين الخيال، بل رآه رأي العين بشحمه ولحمه، بطوله وعرضه، برأسه الضخم، بدينًا كما يبدو في صوره، وإذا كان قد حضر، فلأنه استدعاه، كي ينجده، ربما كان أحد المسؤولين عن الإلهام في نادي الرواية العالمي. فكان تجسده ليفسر شأنًا يخصها. فسأله:

ماذا عن هذا الانحراف الروائي؟

لم يلتفت بلزاك نحوه. كان منغمسًا في العمل، يكتب كما اعتاد واقفًا، لابسًا منامته البيضاء، يحتسي قهوته التركية، وجهه ممتلئ، مقرح العينين من السهر. أبعد ريشة الكتابة جانبًا، وتأمله بعينين حادتين تحت حواجب كثة. فارتفع وجيب قلبه حتى خشي أن ينضغط تحت وخز نظراته، أحسّ بهشاشته، بينما بدا «بلزاك» من شدة حضوره حقيقيًّا أكثر منه، يزيد على كتلة مكورة من لحم وعظم ودم، شعلة العبقرية تتوهج على محيّاه.

مضت لحظات تلو لحظات، يتبادلان الظهور والاختفاء، بلزاك يتجسد ويتصلب، بينما هو يذوي ويبهت، يخشى التلاشي في الفراغ، لو لم يتكلم بلزاك، لتبخر، أو لانسحق تحت ثقل عينيه الغائرتين من الإرهاق. غير أن اللحظات توقفت، وما تلاها، وهبه وجوده:

يا بنيَّ، كان انحرافًا نحو الحقيقة، لا تحريفًا لها، إنه أمر سواء تبينته أو لم تتبينه، لا يمكنك تفاديه حتى لو حاولت، لا تهرب من الواقع ولو كان سيصرعك، لن تفهمه إن لم تعانِ منه. وتتعلم منه ما يؤلمك، ويجعل قلمك لا يكتب قدر ما ينزف. إن القوانين والأخلاق عاجزة أمام بريق الذهب، ما السلطان المطلق إلا سلطان المال. إن الرواية، وافهم ما أقوله لك جيدًا، لا ترضى بأنصاف الحقائق، ولا بأنصاف الحلول. هكذا الرواية، إذا كانت حقيقية، لا سيطرة لك عليها، إما أن تكون أو لا تكون. نحن نذهب، وتبقى الرواية.

أضاء «بلزاك» بقعة مظلمة في رأسه، جعله يرى الواقع مكشوفًا ومشلولًا، آسنًا ومنحطًا، فالبرجوازية القديمة استجدّت بدلًا منها برجوازيات تافهة وحقيرة، لم تكن خفية، بل ظاهرة للعيان؛ الطغمة الرئاسية، الحلقة الضيقة والأضيق، الأقرباء الأوغاد، البطانة الفاسدة، المسؤولون المتنفذون، كبار ضباط الجيش، رجال المخابرات، ومثقفون أنذال، وورجال أعمال شبيحة... ينهبون ويسرقون ويحتالون، كوّنوا ثرواتهم من اختلاس المال العام، ليسوا إلا عصابات تسلبطت على الناس، وتسلطت عليهم بالقهر، تسلقوا السلم الاجتماعي قفزًا، تبوأوا أعلى المناصب، استغلوا نفوذهم، واحتكروا التجارات

الممنوعة وغير الممنوعة، وحققوا أرباحًا هائلة بلا رأسمال، وتمرغوا في أحضان البذخ السفيه... كانت مواكبهم أشبه بعرض عسكري مهلهل، تمرّ تحت أنظار القصر الجمهوري، ورعايته.

«اذهب إلى الواقع». حثّه بلزاك.

قدم الواقع لملهاته السورية مادة غنية بالانتهاكات والصفقات المشبوهة والدعارة السائبة، تجاوزت من شدة جشع أصحابها الحدود إلى البلدان المجاورة، ومنها إلى العالم، لا يعوقها قانون ولا أخلاق. كانت مواتية لحلمه الذي بات بلزاكيًا، خاصة أنه سيتصدى لبرجوازيات انتهازية، كانت قذرة ووقحة، خنوعة وبلا كرامة.

٥. خيانة الرواية

لم يقف إلى جانب طرف في معمعة الثورة والحرب، اتخذ موقفًا إنسانيًّا حياديًّا، سيعلو فيه على النظام والمعارضة معًا، لئلا يُتَّهَم بمحاباة أحدهم على حساب الآخر، سيكتب عن المفجوعين والثكالى والأرامل، والنازحين الذين يعانون الجوع والبرد، يهربون من بيوتهم تحت القصف، ويفقدون المأوى والأمان. اعتقد أن الرواية ستأخذه إلى دخائلهم الطيبة والحقيرة. فالبائسون كانوا بمتناول النظر في المخيمات وعلى الأرصفة، جزء من هذا الحطام الشامل، بينما المجرمون واللصوص والقتلة الذين لا يردعهم رادع، كانوا بمتناول بصره يذرعون الشوارع بأسلحتهم، يعتقلون ويقتلون ويدهمون البيوت، ويرتادون أماكن اللهو. أما أولئك الذين يموتون تحت التعذيب، فلم يكونوا ضحايا زلزال ولا عاصفة أو إعصار. كانوا ضحايا نظام فاجر.

وكان المثقفون الأنذال يزورون الثورة، أما هو فلا يستطيع.

لكنه استطاع، ياللعار... رغم أنه استعاد تعاليم المعلم «بلزاك» غير أنه سيُصمّ أذنيه عنها. ما اجتهد فيه، تخوف منه، وقف على عتباته. لم يتجرأ لهم ولا عليهم، فلم يكتب ما كان يعرفه عنهم. الخوف أطبق عليه، كان رعديدًا، لم يستطع إغفال الثورة، لكنها انغلقت في وجهه، خشي من الانحياز إليها، كان فوق طاقته، سيكتب كأنه لا ثورة ولا ثوار، وإن تكشف له ما تقاعس عنه.

«الحقيقة تفوق قدراتي».

ماذا تكون الحقيقة، إن قضت عليه؟

تابع بمنتهى الوعي والرعونة تعرية النفوس، وعزا انحطاطها إلى الطبائع البشرية المتقلبة بما فيها من خير وشر، واحترس مما لا يجوز الاقتراب منه، ولو مواربة، فاستثمر الإرهابيين، وحمّلهم الجرائم كلها، أليسوا مجرمين؟ لا بأس ما دامت تحميه من المخابرات. فكتب عن العذابات والسجون خالية من

قهر السلطة، وعلى أنها نتاج الجريمة والفقر والجهل. لن تقتصر الرواية على هذا الجانب الكئيب، ستتسع للجنس كمادة للتحرر، لا حرية من دون التخفف من التزمت والتقاليد. وأيضًا الدين، انتقاد الرضى والتواكل، وقولبته من جديد. بينما تجاهل النظام، كأنما لا وجود له. لا أمان للرواية، إلا بتنظيف أبطاله من الاحتجاج.

كان واثقًا من أنه يمتح شخصياته من منجم زاخر بمختلف أنواع البشر، أراده معقمًا من كل ما تمنعه الرقابة. وإذا رضي عمّا يفعله، فبدلالة الذكاء الحميد. لم يدرِ أنه استعاد قصة عجزه، ما كتبه كان سقيمًا، إخفاء الحقيقة، تعدى الفجور في الكذب، كان من إنجاز الذكاء المحض، وقد انحطّ إلى لعبة مراوغة.

أدركته الكلمات التي لم يقلها بلزاك في وجهه، بل لاحقه بها:

«خيانة الحقيقة، خيانة للرواية».

ولقد خانها؛ من دون الحقيقة، لا رواية.

لم يقسُ على نفسه، إلا لإدراكه أنه استنفد فرصة سنحت، مع أنه حاول. ما أدركه صدمه، لقد واجه ما يفتقده فعلًا، لم يكن الموهبة، بل في أن الكتابة تتطلب الإخلاص للواقع، لكن جبن عنه، لا قدرة له على تحمل تكلفه النزاهة. لن يدفع بنفسه إلى التهلكة. الرواية مجازفة، سيستعدي عليه النظام، ورجال النظام، وتجار النظام، وأجهزة أمن النظام، ويكافئ صديقه سليمان على صنيعه بالغدر به. كان وليّ نعمته، لولاه لما كان له مكان ولا مكانة... ولا هذه الفرصة المضيَّعة.

لن ترى «الملهاة السورية» النور، الغنيمة الكبرى لمشروعه الروائي سقطت بعد مقاومة ضعيفة. عزاؤه أنه يعيش عصرًا، هذا سمته، ومهما يكن، فلن يكون فاعلًا ولا مؤثرًا، سواء انتقد أو لم ينتقد. المسيرة الفاسدة للتقدم الأعمى، كيفما كان تقدمها، ونحو أي اتجاه، كانت تحرق المراحل في القتل والنهب، لو اعترضها، ستحرقه.

هل أقنعته هذه الحجة؟ لا، إن لم يفعل شيئًا، فلن يتغير شيء في داخله، إلا نحو الأسوأ، وكان ماضيًا إلى الأسوأ.

بيد أن تجربته أطلعته على القوة الهائلة للواقع، كان بحد ذاته، رواية تتدفق بغزارة، لا حاجة إلى إعادة صياغته، أو حتى إلى لمسة من الفن، فقط إلى من يكتبه، وإلى خيال يخترق المظاهر والظواهر، لكنه كبحها وخاف منها. الدرس الذي تعلمه وآلمه، كان أن الكتابة أكبر من الكاتب، وإذا عجز عنها، فلأن الموانع كانت أقوى من أن يتحايل عليها.

لن يكتب «الملهاة السورية» سيدعها لغيره.

كانت هذه أحد التحولات التي اعترته. وإذا كانت لم تُلحظ، فلأنها كانت تدور في داخله، لكنها زلزلت أعماقه.

لا، لن يذهب ضحية أية حقيقة، ولو كانت ستقوده إلى المجد.

شاركته مايا الصديقة والحبيبة من دون أن تدري، تحولاته المتبدلة على نحو معاكس. كان أخطرها هذا الربيع الدامي الذي عاصر تبدلاته، وما آل إليه من حرب مدمرة، بددت توقعاته الحسنة والسيئة، ففكر في العودة من حيث أتى قبل ما يزيد على ثلاثين عامًا إلى ضيعته مغربال.

٦. مايا البرجوازية الدمشقية

بدايةً، لم تخطر له مغربال، بل مغادرة دمشق، لكن ليس وحيدًا. حاول إقناع مايا بمرافقته، كانا بحاجة إلى بعض الاستقرار، والكثير من هدوء البال، ومن الممكن توافرهما في بيروت. سيتغيبان فترة من الزمن، أشبه برحلة استجمام تنتهي بانتهاء الحرب، ثم يعودان. كلاهما لا يرغبان في الإقامة طويلًا خارج البلد. أصرّت مايا على البقاء في دمشق، فأقلع عن السفر، لن يرحل من دونها. كانت علاقته الوحيدة التي شاء الحفاظ عليها. علاقاته المتعددة كانت عابرة كلها.

عندما كان فقيرًا، لم ينفعه تودده إلى الفقيرات أمثاله، لم يعتب عليهن، الفتيات يردن حياة أفضل بالزواج، أو من دون زواج، لا الاستنقاع في الفقر، ولو كان مع الحبيب. بعدما أصبح صحافيًا وكاتبًا معروفًا، توافرت له بعض المغامرات النسائية السطحية الممتعة، وأحيانًا السخيفة. علاقات لم تكن من جانبه على محمل الزواج، فلم يأخذنه على محمل الجد. لم يردن أكثر من تسلية بريئة أو غير بريئة؛ دعوة إلى عشاء أو غداء، سهرة في مقصف، مشوار إلى بلودان... ربما حصل شيء بعدها، أو لم يحصل، ذلك يعتمد على المزاج، قد لا يكون أحدهما رائقًا، كان الامتناع عن تجاوز الحدود المأمونة لئلا يتورط، أو يتورطن بعلاقة تبدو غير واعدة. ولم يكن قبولهن أو رفضهن يحبطه. كانت أهواؤه من طبيعة حياة هائمة على وجهها، بلا ارتباطات، دونما هدف سوى التمتع بالحياة، كأنها ستنتهي على حين غرة. كان الزواج لعنة، يسعى إليه شبان مهذبون ينشدون تأسيس عائلة سعيدة، ونهاية مبكرة لحياة متحررة من الالتزامات، لكن عندما أصبح ضروريًّا، بات الوقوع في شباكه عسيرًا، ما يريده من الصعب توافره.

تعرف إلى مايا مصادفة، التقاها في سهرة غير مدبرة. لفتت نظره، لكنه لم ينجذب إليها، بينما كرهته من النظرة الأولى، ولم يكن قد تبادل بضع كلمات

مع الطبيبة التي هجرت الطب. بدت البرجوازية الدمشقية محرجة بالجلوس مع أصدقاء حول طاولة في مقصف، تضم رجلًا ريفيًّا مشبوهًا. لم تهمّها سمعته، وعلى الأغلب كلما علت مكانته، كان مدعاة للاحتقار أكثر، ما دام من الطائفة المتحكمة بالبلد.

لم يكن انطباعه الأولي مغاليًا عنها. تأكد منه فيما بعد، حزره في محله. كانت مايا تتحسس من المثقفين الذين على علاقة بالسلطة، لم تكن تقولها على سبيل المزاح، وإذا استثنته منهم فيما بعد، فلأنهم ليسوا كلهم على الشاكلة ذاتها. دمشق غسلته من ريفيته، كما أن الثقافة صقلته، تقولها ضاحكة. كان هو أيضًا يسخر من البرجوازية أسيرة الياسمين والنوافير والموزاييك... ورجعية التقاليد الدمشقية المرائية.

اضطرته علاقته المضطربة بها للتعرف إلى شخصيتها، وقد أُتيح لها أيضًا من خلال لقاءاتهما التعرف إليه من قرب، وتخلى كل منهما عن أفكاره المسبقة نحو الآخر، إذ لم تكن ظنونهما ولا خبراتهما في محلها. ولن يستعصي عليه تفسير اضطراب شخصيتها واندفاعاتها غير المحسوبة. قصتها، كانت موت زوجها جراء اصطدام سيارته بشاحنة عسكرية، يقودها ضابط يتدرب على السياقة، خرج منها الضابط بريئًا، أثبت أنه لم يكن يسوق الشاحنة، وأن سيارة زوجها هي التي صدمته. كان الضابط من الطائفة المباركة بالسلطة.

تركت وفاته المفاجئة انهيارًا في داخلها، لم ترممه، بقدر ما سعت لتعميقه، ولولا انصرافها المحموم إلى تربية ابنتها، ووجود أمها إلى جانبها، لغرقت في أحزانها، ولحقت بزوجها على المدى المنظور. كانت تقاوم حياة أقامت حاجزًا معها، فغدت على هامشها، تعيشها من دون الإحساس بها، ليست محنة الموت التي احتلت ساحة أفكارها وهلوساتها فقط، بل في أن يُفرض عليها الصمت والخوف. توعدها الضابط بأنه إن لم تكفّ عن ملاحقته في القضاء، فسيقتلها. الصدمة التي عانت منها كانت مضاعفة، صرفتها عن أي رجاء، حتى القاضي نصحها، قائلًا: إنه لا يهددك وحدك، بل يهددني أنا أيضًا.

بات العبث محور حاضر مقيت، يتلوه حاضر مقيت، فلم تطمح إلى شيء، حتى إنها تخلت عن عملها طبيبة جراحة؛ لنفورها من منظر الدماء. كانت جثة زوجها المشوهة، محور كوابيسها. فغدت الجراحة جزءًا من ماضٍ أرادت نسيانه.

عندما خرجت من عزلتها، بدت معافاة بشكل سيّئ، وقد تنتكس، وإن تقدمت خطوة نحو ما كان يفصلها عمّا حولها، عاودت تلقي اتصالات الأصدقاء، والتواصل معهم. اطلعت على ما جرى في غيابها، ولم يكن كثيرًا. ما تركته، ما زال على حاله، لا شيء جديدًا، الحياة نفسها، العقيمة نفسها.

ما الذى أفعله؟ أنا مجبرة على العيش.

في ذلك الوقت التقيا، اصطدم معها، وأحب امرأة كانت نقيضه، وإذا كان له أن يفترض، فهي أيضًا أحبت رجلًا كان نقيضها. وحسب ادعاءاتهما، كأن أحدهما يكمل الآخر بشكل غير مفهوم. كان يعرف أن هذا الحب من طرفه بلا أفق، فهي لا ترغب في الزواج، وإن جمع بينهما الإعجاب، فلم يرجوا أملًا.

ساعدها في إصلاح نظرتها إلى البشر، ولم تكن سوى استعادة قناعاتها القديمة، لا أديان ولا مذاهب أو طوائف، تحدد أخلاق البشر؛ الطيّب طيّب، والنذل نذل. ما صحح كراهية عالقة في رأسها. كانت بحاجة إلى انتزاع عدم الأمان من داخلها، والإيمان بأن الشر عَرَض، وليس جوهر البشر.

ما جعله يحتمل علاقة كانت حساسة رغمًا عنه، أنه وقع في محظور رضخ له. أصبحت مأزقه، مثلما أصبح مأزقها، أخفت مشاعرها ولم تبادله مشاعره. لم تفكر في الاستغناء عنه، ولا أراد الاستغناء عنها، زعما أن كلًا منهما يستأنس بالآخر. بدت العلاقة المعقدة يشوبها مرض الخوف من الوحدة، لولاه لاكتفى كل منهما بعالمه.

لم يكن ما نشأ بينهما في منتهى الوضوح، إلا لأنهما يمضيان في طريق مسدود. كانا على بيّنة منه. ربما لهذا بدأت تتعافى على نحو أفضل. أما التشخيص النفسي لعلاقتهما، فالمرأة الموسوسة بالموت، على علاقة برجل موسوس بالإحباط.

لم يكن من صنف الرجال الذين يصلحون للغراميات العذرية، خصوصًا هذا العشق المتخم بمأساة راسخة، ويخلو من المشهيات والمقبلات معًا، سوى ذلك الحب الذي يكنّه لها، وكان غامضًا بالنسبة إليه، ما اضطره إلى التشبث بعلاقات عابرة، وجعلها أكثر دوامًا. كانت تخفف عنه عفة علاقة، لا تحرر منها.

لم يكن الزواج وحده محور خلافاتهما، كان أقلها شأنًا، يومًا ما قد تضطر إلى الزواج به، لسبب لا مفر منه، لا لأنه ليس هناك غيره، بل لأنها مالت إليه بقوة. لكن سيأتي الوقت الذي ستضطرب علاقاتهما وتسير على وقع تحولات احتجاجات الربيع العربي الذي تسلل إلى سورية بالمظاهرات. منذئذ، تمحور الجدل حوله، البداية كانت الاضطرابات التي اندلعت في درعا ودمشق. كانت شديدة الحماسة لها. عزا تعاطفها معها إلى دمشقيتها وكراهيتها للنظام.

أما هو، فكان حذرًا مما بدا شغبًا لن يطول، أثاره شبان صغار، هاجسهم التسلية ومواقع التواصل الاجتماعي والحب الافتراضي. كانوا قد تنصلوا من السياسة والوطن، فإذا بهم اصطدموا بالنظام، وكأن دافعهم كان التمرد. سيُفاجئ بأنه أخطأ التقدير، كان الشبان على رأس الاحتجاجات السلمية،

يرفعون الأعلام واللافتات ويوزعون الماء والورود... ولم يطل الوقت عندما لوّحوا بشعار التغيير وإسقاط النظام. خاف عليهم، كانوا أغرارًا، مهما كانت حماستهم وإخلاصهم، فليس لديهم القدرة على قيادة حراك شعبي واسع النطاق، أخذ يشمل البلد كلها، مع هذا قد ينجح في إجبار النظام على إجراء إصلاحات حقيقية.

الرد كان بالرصاص؛ النظام باقٍ ولا إصلاحات.

كان عليمًا بأساليب النظام، صدمه سحق الاحتجاجات بقسوة ووحشية. كانوا يستدرجون المتظاهرين العُزَّل، يطوقونهم، ويفتحون النار عليهم. صحيح أنهم يولون الأدبار، لكنهم يعودون بأعداد غفيرة يشيّعون جنازات شهدائهم.

... الكتابة الحقيقية أصابت في حدسها، هذا هو الواقع، فاقرأه.

توقع أن المظاهرات ستتحول إلى انتفاضة شاملة، الصدامات عمّت المدن والقرى. أما في المدينة، فلم تعانِ مايا معه إلا مما تبعثه أصوات راجمات الصواريخ من مخاوف. لم تكن تهدأ عن دكّ ضواحي دمشق وبلدات الغوطة، وإذا اشتد القصف خيّل إليهما أنهما قد يلاقيان حتفهما بالخطأ. كان العيش على هديرها ضاغطًا على الأنفاس والأعصاب.

ارتدّت مايا عن موقفها، روعها استشهاد الشبان بالعشرات، كانوا في عمر الزهور، استمرار الانتفاضة يعني المزيد من القتلى. الكارثة في بداياتها وفي سبيلها إلى أن تصبح كوارث؛ النظام لن يتراجع، وآلة القتل لا رادع لها. أصبحت ضد الانتفاضة تحت تأثير الرعب. لم تعد ترجو سوى إنهاء هذا الموت اليومي، كان مجانيًّا.

لم تعد الانتفاضة معركة ولا صراعًا، كانت انتحارًا.

قال لها إن الانتفاضة جُرّت إلى مقتلة لا تريدها، ولم يعد ثمة تراجع عنها. ما يجب أن تعرفه، أنّ الدكتاتوريات أصبحت من ماضي الشعوب. لكن البرجوازية الدمشقية لم تعد تطيق سماع صوت الرصاص؛ ما دام الضحايا من الشبان الجامعيين الصغار.

أخفى موقفه الحقيقي عن الجميع، لكنه صارحها به. كان ضد النظام، ومع الانتفاضة. في الحقيقة، يجب إسقاط النظام، يستحيل إصلاحه، لا حلّ آخر. كان غضبها عليه عارمًا، بعدما ظنت أنهما باتا في جانب واحد، واتهمته بأنه يريد ثورة يدفع تكاليفها الآخرون. كأنهما عند كل مفصل يعيدان تناقض سيرتهما.

كان في استمرار الربيع الدامي الدليل على أنّ القوة الهائلة للواقع قد انطلقت على الأرض، ولن تتوقف. جعلته الانتفاضة يمعن النظر في الحقائق

التي تصنعها، الناس توحدوا حول المطالبة بالحرية والكرامة وسيادة القانون وسورية موحدة. لم تكن مجرد كلمات ولا شعارات، كانوا مؤمنين بها. لكنه سيكتشف أنه أخطأ، مثلما أخطأ المنتفضون، ليس بالأمر السهل إسقاط النظام ولا حتى إجراء إصلاحات، ولا أنّ سورية واحدة ما دامت ممزقة في الصميم. النظام صامد وقوي أكثر مما يتصورون، ماضٍ في الحل الأمني والعسكري. أطلق الجيش والشبيحة وعشرات الجماعاتً الموالية المسلحة ضد المظاهرات. كان الأسلوب الوحيد لبقائه.

سرعان ما حملت الانتفاضة السلاح وأصبحت ثورة، واتجهت حثيثًا نحو الثأر للضحايا، وبات الحوار «القتل مقابل القتل»، بعد أربعين عامًا من «الصمت مقابل القتل». أصبح البلد أسير حرب شعواء، تجسدت دامية، الجيشان العقائدي والحر لا يثبتان في مواقعهما، ومثلما يقصِفان كانا يُقصَفان، ولم يتأخر الإرهاب عن المشاركة، فتدفق الجهاديون من بلدان العالم، لم ينقذوا الثورة، بل أغرقوها في الجثث، كانوا خصمًا لها، وبدأت تلفظ أنفاسها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل التاسع
الثورة

١. السير في ركاب التاريخ

تأججت فكرة الثورة في خياله، سمعتها المثيرة حرضت في داخله ماضيًا، كانت أيقونته الموثوقة، ألم تشكل مرارًا المنعطف التاريخي للبشرية؟ لكن الثورة في بلد مثل سورية، كانت أكبر من أن تحدث، وإن كان ما تشهده لا مثيل له منذ الاستقلال.

كانت الجماهير حقيقية، ليست مُسيَّرة، ولم يكن المتظاهرون مُسيَّرين. بشر عاديون تمامًا، لم يكونوا حسب الأنموذج المتعارف عليه لجحافل البروليتاريا، فلم يقتصروا على الهوية الطبقية، عمالًا وفلاحين، بل كانوا الأهالي جميعًا؛ رجالًا وشبانًا ونساءً واطفالًا.

ولقد راودته فكرة التاريخ في ارتداده إلى الخلف، فهو لا يتقدم دائمًا إلى الأمام. وإذا كان وراء الثورة الإسلاميون من الشبان المتشددين الذين يُصَلّون في اليوم خمس مرات، ويصومون ويحجون إلى بيت الله الحرام، ولا يخفون مشاريعهم التكفيرية، ويستعينون على قضاء حوائجهم بالكتمان، فماذا يكون الكتمان سوى أنهم يريدون الانقضاض على النظام العلماني؟ لكن هل كان تحليله للواقع صحيحًا؟

المعتقلات والسجون لا تبرر للعلمانية احتراف البطش والقمع. وإذا لم يرد أن يكون جزءًا من الثورة، فلأنه لا يرغب في إعادة تكوينه من جديد على النمط الإسلامي. كان مع النظام، ألم يستفد منه؟ لن ينكر، ما تمتع به من امتيازات، لم يُعطَ إلا لأمثاله.

ما زالت الثورة نقطة ضعفه. إذا كانت حقيقية، فهي ضمانة سيره في ركاب التاريخ. نازعته نفسه ليلعب دورًا ما بين صفوفها، فطمح إلى كتابة رواية الثورة. ستمدّه بحياة يعيشها على نحو يستطيع الدفاع عنها، وخاصة أن ما يدور في خلده وعلى الأرض يصلح رواية، تعويضًا عن الرواية التي لم يستطع كتابتها، طالما تمنى أن يكون ناشطًا ثوريًا، ويتنكر للمرتد الذي كانه. لم يمضِ بعيدًا في الكتابة، ليكتشف أنها رواية عن وصوليّ يعذبه ضميره، ينوي الالتحاقَ بالثورة، من خلال محضر استغفار مع اعتراف يغسل به ذنوبه.

وكأنه عاد إلى الزمن الروائي المشبوه بالأيديولوجيات الصماء، عن البطل الإيجابي والبطل السلبي، لم يغادره بعد، ما زال عالقًا فيه. لم يكن هو السبب، ولا هذه الرواية. الأيديولوجية لم تنجز مهامها بعد. وهذا الزمان المؤدلج، ليس عبثًا ولا اختراعًا. كان مزروعًا في صلب واقع زائف.

إذا لم ينصلح الواقع، فلن تنصلح الرواية. وبقي السؤال معلقًا: هل هو مع الثورة فعلًا أم ضدها؟

٢. الآخر

أحسّ لأول مرة في داخله بآخر يناكده. لم يكن متأكدًا منه، يربض متحفزًا خارجه، يمنعه من الإقدام على ما اعتزم عليه، إلا إذا أزاحه عمّا هو في سبيله. لم يتعرف إليه، كما لم يكن يجهله، ربما لأنه يحسّ بوجوده، كان قويًّا ولصيقًا به، لا تمييز بينهما، كأنهما اثنان، بينما هما واحد. ما ردعه عن الفعل والكلام، أن الآخر اعترضه، سواء على سبيل الحقيقة، أو على سبيل المجاز. اعتقد أنه إزاء ظهوره المفاجئ، يتخيله مثلما تخيل «بلزاك» الذي استدعته عصارة أفكاره، وكان ثمرة تخيلاته الروائية.

ما كان بصدده، دون أن يدركه تمامًا، أن الآخر لم يظهر من الظلام ولا من الظلال، ولو بدا شبحًا، لكنه حقيقي، سواء كان أو لم يكن، وجوده لا شك فيه. لن يطول الوقت عندما سيدرك أنه ليس عالقًا مع الآخر رغمًا عنه، ولا أنه متحير بين نفسه والآخر. كان ما يجري عاديًّا وتلقائيًّا على الرغم من غرابته. أما تفسير هذا الإشكال، فبسيط جدًا؛ هذه الازدواجية، انعكاس للانقسام الحاصل في داخله، تماثل خارجه.

كانت قناعته التي تولدت منذ تلبسه، وبدأ بالتشويش عليه، وكأنه أصدر قرارًا؛ عدم جواز مرور أي قرار بمعزل عنه، ليست حياته وحده، إنها حياة الآخر أيضًا، لا يمكن تجاهله، ولا تجاوز رغباته. لم يكن تمكن الآخر من الوجود عرضيًّا أو سطحيًّا، فهو الأصل حسب زعمه. فكان مصيره مرتبطًا بالآخر، مثلما مصير الآخر مرتبط به.

الآخر لم يتجسد، كان بلا جسد، مع هذا تكلم بالوقائع والأرقام، لا بالأماني والأوهام: إن لم تلفظك الثورة، فماذا ستمنحك؟ إن لم تنبذك، فالموت في جميع الأحوال. الثورات تقاضي ولا تغفر. ألست محسوبًا على النظام؟ أنت مدين له، لم يبخل عليك، وليس في وسعك التنكر له، لولاه لما كنتَ شيئًا يذكر. لو لم يساعدك ويفتح لك الأبواب، لكانت حياتك في دمشق، ما زالت موزعة بين كشك المهربات ومستودع الحشرات، تختلس الوقت لترجو صحافيًّا نشر قصيدة أو قصة. وإذا عدت إلى مغربال، فستقرض الشعر في مناسبة تجديد الرئاسة، وربما كنتَ أستاذًا في مدرسة ابتدائية، إن لم تكن شبيحًا... فأية نعمة!!

لم يحر جوابًا، ليس لأن الآخر أفحمه بقوة حجته، ولم يجد ما يردّ به عليه، إذ بعدما حذره، أصبح بديله، وأخذ يفكر عنه، وليس غريبًا أنه استولى عليه دونما

كثير مقاومة، كان إحساسه بالأمان حقيقة، بات تحت الحماية، ولو كان مهددًا.

في المقاهي، وردهات الاتحاد، ومكاتب رؤساء تحرير الصحف، خاض الآخر، بديله وصنوه، مناقشات حول الثورة، وأدانها باستدعاء ذكريات ثورات الماضي، وما خلفته وراءها؛ تعليق الرؤوس على أسنّة الحراب، المقصلة، المشانق، المقابر الجماعية، المحاكمات المفبركة، المنافي، معسكرات التشغيل، ضحايا بالملايين، وتشريد شعوب بأكملها. اسمها يشفع لها القتل والخراب، والسطو على حقوق لا رجوع عنها.

لن يسقط النظام، سيُجهَز على الثورة.

بدت تقليدًا باهتًا لنضاليات المسحوقين في الكتب، وليس على الأرض. الواقع يشهد بأنها لم تكن أكثر من عدوى أصابت سورية من انتفاضات مصر وتونس، الثورة تأتي من الداخل، ولا تستورد من الخارج. الربيع السوري ليس أصيلًا، كان زائفًا.

بينما على بعد مئات الأمتار، وأيضًا مئات الكيلومترات، اشتباكات على عشرات الجبهات. المتقاتلون بالعشرات وبالآلاف، ومئات الآلاف. يتساقطون بالعشرات والمئات، ويتبددون في الغبار، لكن للحظات لا أكثر، سرعان ما يغصّ بهم الفضاء من جديد. كان الملتحون والمجلببون والملثمون المسلحون يقاتلون لإقامة دولة الخلافة بالحديد والنار. ما أقلقه ومسّه في الصميم، لم يكن لهم وجود قبل الثورة، ثم أصبحوا على قيد الوجود بعدها. وإذا تمكنوا من وجودهم، فلن يكون له وجود.

سيمارس الآخر ضغوطه عليه، بلا رحمة، ويزجّ به في مشهد رهيب؛ يحشره في الزحام، فإذا به يكاد أن يختنق، يعتصره الرعب، تضيق الدائرة من حوله، يسعى باحثًا عن منفذ، ولا منفذ، يتحاوطونه، ويمسكون به، تنفرج الحلقة عن ملثم يخرج مسدسًا، يطلق على رأسه رصاصة لمجرد أنه علوي.

علّق الآخر على المشهد: لدى العلويين تاريخ من الظلم، هل ندعه يتجدد؟ الماضي يبيح لنا الانتقام مما عانينا منه، ولو كان منذ مئات السنين.

افهم، لن نسلّم رقابنا للسُّنّة، ولن ندعهم يضطهدوننا ثانية. ذاك زمان لن يتكرر.

في ذلك الوقت، عندما سأله صديقه المهندس عن رأيه، كان قد حسم موقفه، لا بد من الرد بعنف، مسترشدًا بتجربة تدمير حماة في الثمانينيات، لا حل سواه. هذا ما كان المهندس يرغب في سماعه. عارف سيستدرك ما قاله، أراد أن يكون عادلًا، النظام فاسد، لن يتخفى على جرائمه، ولا على

نزاع يدور بين طرفين، لا يقلّ أحدهم فسادًا عن الآخر. لم يخف رأيه، وكان أيضًا يبرئ ذمته تجاه النظام والثورة معًا. إذا كنا لصوصًا، فهم لصوص أيضًا.

كان بمساواته بينهما، تسويغ ليس للدفاع فقط، بل للقتل الاستباقي، فالحرب بين مجرمين ومافيات. وصارح صديقه بطائفيته المستجدة، فهو لم يكن يحسّ بها من قبل، أما الآن فوحدها تمنحه الأمان. لا الثورة الهوجاء، ولا صراخ المظلومين، لديهما القدرة على طمأنته، ليس سوى النظام يحميه، ليس له في الحقيقة سوى الطائفة. وبما يزيد على الدفاع إلى الهجوم.

لم يتجاوز عن مظالم مضى عليها عشرات وربما مئات السنين، هذا إذا كانت صحيحة، أما ماذا تكون علاقتها بما يحدث الآن؟ فالذي لم يتوقعه، أن الوصفة الطائفية أفلحت. الحرب الأهلية اشتدت على وقع المجازر. لم يتوقعها على هذا النحو المروع؛ جثث أطفال ونساء وشيوخ وشبان مذبوحين بحد السكين.

لم يشعر بالانتصار، بل بالهزيمة، وكانت أشد مرارة من العلقم.

إذا لم يكن قد غفل عن ضحايا التاريخ، لكن ماذا عن ضحايا الحاضر؟ إذا لم يكن بوسعنا تخليص التاريخ من المجازر، ألا ننقذ الحاضر منها؟

الواقع الذي يعرفه تصدع؛ الماضي تحكّم بالحاضر واستأثر به، وكان ذريعة لإخفاء الاستيلاء على الوطن ونهبه، والاستئثار بالمنافع. الخلل هنا في داخله. كان بأمسّ الحاجة للتعرف إلى نفسه من جديد، نفسه التي يجهلها، نفسه التي فقدها، نفسه التي يريد إحياءها، نفسه التي يجب انتزاعها من الآخر.

فوق بياض الورق، خطّ جريمته السوداء، كانت تنزّ بالدماء وأشلاء الجثث، لن يتنصل من كتابة هي اعتراف، الكتابة لا تماري الحقيقة. نعم، كان مجرمًا، مع أنه لم يقتل ولم يذبح، لكنه شارك في السعار الطائفي، وأصيب بلوثته، وتواطأ بالخيال مع ذرائع تدعو إلى الإبادة.

كان الوعي أشد إفحامًا وإيلامًا، علويته لا تبرر قتل السُّني. وكونهم ظُلموا في الماضي، لا يبرر أن يَظلموا في الحاضر، ولا أن يُظلم إنسان في أي وقت. والتعلل بالدفاع عن النفس، لا يشرّع افتعال المجازر.

في الكتابة، رأى العدالة، لأنها لا تعمل.

تمالك نفسه أو شيئًا منها، كان مدينًا لحياته في الضيعة، لم تتناقض يومًا مع حياته في دمشق، وكان الطريق الواصل بينهما مفتوحًا على الدوام، لماذا يغلقه؟ لم يستطع إلا أن يكون على سويّة ثقافته، لن يضحي بالإنسانية، ولن يتنكر للرحمة، أو يعاند ما عاشه وما تعلمه. لم يكن أعمى، وإن تعامى. الحقيقة هي أن النظام لم يكن ثوريًّا ولا اشتراكيًّا ولا وحدويًّا، ولا مقاومًا ولا ممانعًا. وإذا كان كما يدعي، عربيًّا وقوميًّا، وطنيًّا وجمهوريًّا، علمانيًّا

وديمقراطيًّا، فلم يكن هذا كله. كان فاسدًا وانتهازيًّا، متأسلمًا وطائفيًّا، ملكيًّا ودكتاتوريًّا... في الحقيقة، كان كل شيء، ولا شيء.

كلها مجتمعة لا تبرر القتل والتدمير.

الأسرة المتسلطة لن تترك الحكم قبل أن تحوّل سورية إلى بلد من قبور وخراب. وإذا كان قد وقف من قبل إلى جانب النظام، فلأنه لا جانب آخر يقف معه. ظن أنه أحسن صنعًا، لمجرد أنه لم يشارك في القتل. فلم يكن شبيحًا، ولا نصيرًا.

لا، لن يكون الجلاد. سينتقل من الجانب الخاسر، حسب ظنه، إلى الجانب الخاسر، حسب ظنهم.

بينما كانت الثورة تتقدم في اليأس، الاستجارات بالله تتعالى: ما لنا غيرك يا الله. الثوار أشهروا الله والتجأوا إليه.

كتب، لا يقين بعدالة قائمة ولا قادمة. تمنى لو أنه كان واحدًا من هؤلاء الذين يُطلق عليهم الرصاص، أو يموتون تحت الأنقاض، أو يقتلعون من بيوتهم ويلقون في الشاحنات ليرسلوا إلى حيث ينكَّل بهم، كي لا يرى النهاية، وكانت تبتعد.

٣. المضيّ في الحياة وحيدًا

استعاد حلمه الروائي، مع أنّ الكتابة أورثت في داخله رهابًا من الأقلام والورق، لم يعد صالحًا لمغامراتها المضنية. اعتقد أنه انضم إلى أفواج الكتبة الذين لا يتميز الواحد منهم عن الآخر إلا بدرجة الركاكة، وإن كان تحوله الأخير قد جدد علاقته بها على شكل دعوة إنسانية مائعة، ناقمًا على الربيع الذي بات شتاءً قارسًا، أسير القصف اليومي والأحقاد الطائفية، ومجانين الإرهاب، ونظام مجرم بلا ضمير، والرعب من ثورة باتت فوضى، وحرب تأكل الأخضر واليابس، تحصد آلاف الضحايا، وتصدر ملايين النازحين، ودمار يتمدد عشوائيًّا... اعتقد أن بمقدوره إدارة ظهره لبلد أوشك على التلاشي من الواقع والخرائط، والإيمان بالرواية كخلاص.

لن يكون متفائلًا، ليست الرواية كل شيء، ما سيكتبه كان اعترافًا كئيبًا؛ الثورة لن تحرر السوريين، ولا انتصار النظام سيوقف القتل، كلاهما سيأخذان الناس إلى المزيد من القهر والموت. البراميل المتفجرة تقتل دونما تمييز؛ الثوار والإرهابيين والمدنيين، وتدمر المستشفيات والمستوصفات والبيوت والأسواق والدكاكين، مترافقة مع كمائن الموت، وغزوات الانتقام والثأر. ما حوله يحبطه. النظام حلل القتل بأبشع الأساليب، والإرهاب الأعمى يتفنن بالتنكيل.

إن لم يكتب هذه الرواية، هو أو غيره، فلن تكون هناك سوى رواية وحيدة، رواية النظام لا غير. أما الرواية التي يجب أن تكتب، فعن الموت، الحقيقة الوحيدة، ولا حقيقة غيرها، كل ما عداها وهم. رواية لا يمكنه التنصل منها، ولا تحمل نتائجها، ولا الهرب منها. لا، لن يكتبها. ليس له سوى القبول بقدره، لن يكون روائيًّا، اشتراطات الكتابة الحقة، مستحيلة. وما تعهد به يومًا، لن يستطيع الوفاء به.

من قلب اليأس، لاحت مغربال آمنة وهادئة.

كان في مغادرة دمشق خلاص من ضجيج المؤيدين المسعورين يتجولون في الشوارع بمكبرات الصوت ودوي الرصاص، ونجاة من قذائف الهاون، وأجواء مآسي الموت؛ جنازات تُلفلَف على عجل، وموتى يُدفَنون كيفما اتفق، وفي الهواء رائحة حريق تهبّ من الأرياف. الحواجز تتكاثر، أرتال الجنود والمدرعات والدبابات تحاصر بلدات الغوطة، موجات النازحين تتدفق إلى الشوارع، يحملون متاعهم القليل، ملابس وبعض المؤنة... يتشردون بلا مأوى، ينامون على الأرصفة وفي الحدائق والمدارس، ويلتحفون السماء.

خلخلت الثورة علاقته بمايا، ثم جاءت الحرب وعصفت بها، وقد تفرقهما. مع أنه لم يُعلمها بتحولاته، وإن حدس بتحولاتها، كانت تشكك فيه، ولا تطمئن إليه، تظنه عدوًّا لها. بيد أن ما خطر له عنها، ليس إلا تخمينات، لا يوثق فيها.

شعر بالخيبة، عندما رفضت مرافقته إلى مغربال. لم تطمئن إلى سلامة ابنتها وأمها هناك، هل بمقدوره توفير الحماية لهما. صمت مدركًا أنها لا تبالغ، ظنونها ليست تهيؤات، قد لا يستطيع توفير الحماية لنفسه. الفوضى عارمة، وقد يُختطفون على الطريق، أو بعد الوصول إلى مغربال. من يدري بما يجري في مغربال؟ لم يعد على ثقة من أي شيء.

كانت امرأة أخرى. لم تعد الأرملة العنيدة التي تعيش مع أمها وابنتها، ولا الطبيبة التي تجددت حياته معها، وأصلحت أحواله مثلما أصلح أحوالها. كانت امرأة ضائعة، لإحساسها بأنها فقدته في لوثات الطائفية. كانت امرأة بلا بوصلة، تهذي بالأمان، تدعو الله أن يتوقف القصف والقتل، بأي شكل وبأي ثمن، لا يخفي النظام نياته، يعلنها كل يوم على الملأ، الأسد أو لا أحد؛ بقاؤه أو دمار سورية، والثورة من فرط ما تشرذمت، باتت تخوض حربًا بلا أفق، يدفع تكاليفها الأهالي.

لم تتستر على ما خطر لها، كان تحولًا عما سبق: يجب إنقاذ شيء ما، أي شيء، حتى لو رضخنا للنظام. لا يهمّ من المستفيد، ما دام القتل والتدمير سيتوقفان.

لم يتوقع أن تبلغ بها الهستيريا حدّ الاستسلام كلية للنظام. لن يلومها، ضياعها واكب ضياعه، وكان متبادلًا، لن تستقيم أمورهما إلا بأن يجد طريقه إليها، وأن تجد طريقها إليه. لن يتعثرا طويلًا، ما دام يبحث عنها، وهي تبحث عنه.

في الوقت الذي ظنه النهاية، استعادها كما استعادته. كانت بأمسّ الحاجة إليه لتبلغه قرارها؛ ستعود إلى ممارسة الطب، كانت تريد إنقاذ شيء ما!!

المقلق في اختيارها، كان العمل طبيبة مسعفة في المستشفى العسكري، حيث القتلى والجرحى بالمئات يوميًّا. حاول أن يثنيها عمّا اعتزمته، كان تهورًا؛ الإنسانية لا تُنشد هناك. ما سمعه عن مشافي الجيش لا يشجع على العمل فيها. الرقابة شديدة، لن تعمل بفم ساكت، قد تفلت منها كلمة، تذهب بها إلى السجن، وتحقيقات لا أول لها ولا آخر.

ولم يكن سوى أنه أثارها كي تنفجر في وجهه، وتتهمه بتهربه من مسؤولية أن يعرف، بل لا يريد أن يعرف، بل يسعى إلى أن يجهل، لئلا يشارك بوقف نزف الدم. ما الذي فعله عدا إظهار تململه، وانزعاجه من الاشتباكات على مقربة من ساحة العباسيين وفي الغوطة والضواحي القريبة، والقنابل التي تنهال على الأحياء، بعدما اكتفى من دمشق بعدة شوارع آمنة تحرسها حواجز الجيش؟

لم يفته أنها تورطت، كانت رغبتها قوية في العمل الطبي، لن تبقى مختبئة بين الجدران، ستخرج منها، ومن دون احتياطات، كانت تريد أن تشعر بوجودها، وأنّ باستطاعتها أن تقدم شيئًا للآخرين؛ شيئًا مضادًا للموت، قد تكون الحياة، كانت تعتقد أنها ستستمد من الضحايا ما يعينها على البقاء.

خوفًا عليها، بالغ في تحذيرها من أي زلّة لسان، لن يكون العقاب عاديًّا، ولن تنظر به محكمة، الانفلات داخل الفروع الأمنية مروع، إن لم يعرضها للاغتصاب، فللموت. قد يستطيع إنقاذها، إذا أدركها قبل فوات الأوان، هذا إن اعترفوا بأنها معتقلة لديهم، ستصبح غنيمة، لن يدعوها إلا بمقابل قد لا يكون قادرًا عليه.

نصحها باختلاق حجة، والاستنكاف عن الارتباط بالعمل قبل الالتزام به. كان هذا جهده الأخير لتعود عن قرارها. كان من الضروري تخويفها. تحذيراته لم تُجدِ. تمسكت بقرارها. حجتها، المساهمة في عمل إنساني من دون التقيد بأي طرف في الحرب.

أدرك للحظات، أنهما استعادا ما جمعهما من تناقضات، هذه المرة لن يصمدا، اقتربا من حقيقة اللاتوافق بينهما، تجمعهما القطيعة، من جانبه لم تنجز تمامًا، لكن حان وقت البعاد، وإن أحسّ أنه مقيد إليها، لكنها تخلت عنه، رغم تعلقه

بها. لن ينجح في التخلص منها إن لم يقتنع بأنه ليس عاجزًا عن الفعل. كان في استعادة ثقته بنفسه سبيل خلاصه، وفي اختيار حياته القادمة.

كان يخشى أن يمضي في الحياة وحيدًا. اعتاد على وجودَها، الجانب الأكبر منه كان متواطئًا معها، الفراق لن يحِلّه منها، قد يفقد نفسه من دونها. تخوف مما قد يبعده عنها. لم يتجرأ على الخطوة التالية، وإن تراءى له أنها تخلصت منه.

كان بوده مغادرة دمشق، كي يخفف من وقع النهاية؛ أن يختفي في أي مكان، أصبحت مغربال مبررًا لغياب عزم أن يطول، يساعده على إنهاء علاقته بها، بخسائر عاطفية محدودة.

لم يتساءل، إذا كان يحبها، ربما لإحساسه بالتعب. أرهقته حياة تمضي من دون أن يملك أمرها. غير أنه سيبعد التساؤلات الممضّة، ويذهب إلى ما ليس في وسعه تجاوزه. إذ لا تعريف لما جمع بينهما سوى الحب، ومهما تطيّر من تصرفاتها، كانت هي أيضًا تبحث عن حياتها، تلك التي تريد أن تعيشها راضية عنها.

اعتقد أنها سبقته بمراحل في مشوار الانفصال، وخلّفته وراءها يعاني وحيدًا. كانت تمهد لفراق أطول، ثم لفراق أخير. لكنه كان مخطئًا، كانت تعاني بقدر معاناته، وأقدر منه على تجاوزها، وكانت على يقين بأنه لن يتركها.

لم يتجرأ على الابتعاد عنها، وكانت أكثر التصاقًا به مما قدر، أكثر من أي وقت مضى. كان الفراق والسفر وإعادة النظر في علاقتهما، لا محل لها. وتقبلا الفصل القادم من حياة لا محيد عنها؛ مايا ستبدأ دوامها في المستشفى العسكري، وسيبدأ بممارسة عمله الجديد في الفرع ٦٥٠.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

الفصل العاشر
زيارة إلى الفرع ٦٥٠

١. المخبر عند مكتب الدخول

في السكون المخيِّم على الفرع ٦٥٠، المولود حديثًا، على الرغم من ضجيج الأخبار، وأحداث لا تكفّ عن التسارع، القصف لا يتوقف، والقتل لا يتوقف، والنزوح لا يتوقف. كانت الحرب رغم دورانها، الثابت الوحيد.

لم يظفر الفرع بزبائن. كان ممنوعًا عن العمل.

ذهبت التقديرات بالمحقق سامر، تحت تأثير الركود إلى أن الحرب ستبقى هكذا إلى ما لا نهاية في انسجام مع الأبد الرئاسي. وكان من حسنات العطالة القسرية أنها نشّطت لديه ملكة التفكير، فحاول تفسير مشهد من فرط تدخل الدول، أفرز حروبًا، تتوالى وتتجدد.

اطلع المقدم جميل على المشهد نفسه، حسبما شرحه له معاونه، فلم يضف إلى معلوماته جديدًا، النظام يقاتل الجميع تحت مسمى الإرهابيين. وإذا كان قد دار في رأسه سؤال فهو، أليس هناك غير الإرهابيين؟

وبما أن الفرع مقيد، مضت الأيام مملة.

شكلت زيارة المخبر سعدي للفرع حدثًا، اكتسى أهمية تستحق الذكر، مع أن ظهوره كان طبيعيًّا عند مكتب الدخول، ولن يكون مستغربًا دخوله إلى الفرع، أين سيدخل، إن لم يدخل إليه؟ ولو أنه لم يفتتح بعد.

جاء مفترضًا أنه مدعوّ إلى المشاركة في تأسيسه، الواجب يدعوه إلى تزويد قسم المخبرين بخبراته، ومجهزًا بمجموعة أفكار، سيعرضها على المقدم ويقنعه بها. وإذا كان قد خسر جولته السابقة في الفرع ٣٣٣، فتحت ضغط قوة قاهرة؛ أقوال الرئيس الخالد طحشته. حاليًّا الأمر مختلف، أوضاع الأدباء ساءت على أثر قصة أحمد حمد الحمود، ولولا أنه مشكوك في ولائهم، لما خصصوا لهم فرعًا يتولى مراقبتهم ومحاسبتهم. إذا كان هناك ممثل للفرع في الاتحاد، فلن يكون سواه، ليس بحكم الأقدمية، ربما هناك من سبقه، فالاتحاد لا يخلو من أمثاله، لكن الخيار سيقع عليه، هناك من يشهد له بالأفضلية.

استباقًا لمقابلته معاون رئيس الفرع، لا بد من التنويه بأنه ليس المقصود وحده بما سيواجهه من استخفاف. المهندس أمر بعدم استقبال الزوار من أي نوع، لئلا يتورط المقدم الغشيم باستخدام مخبر قبل إنهاء خطوات توعيته، خشية ارتكابه خطأً يتعذر إصلاحه، بذلك شطب المقدم من لائحة همومه. وكلف المحقق تسيير أمور الفرع، ريثما يباشر المفوض العمل.

خلال فترة إدارته المؤقتة، صمم المحقق، ولو أنه بلا صلاحيات ولا سلطة، ألا يُعرّض ضميره للنكسات. تبنّى خطة من واقع عمله، كانت طموحة؛ إرساء تقاليد للفرع تتصدى لمحاولات المخبرين الكيدية، بوضع شروط تحمي الأدباء منهم، مع الوقت تصبح بمثابة القانون.

مبدئيًّا، حدد قائمة الأشخاص الذين سيفتح لهم الفرع أبوابه؛ سيستقبل المراجعين، مع أنه لا مراجعين، وبعض الزبائن الاضطراريين، مع أنه لا زبائن ولا اضطرار... وربما المهنئين، وهم من المخبرين الذين سيعرضون خدماتهم، لن يطردهم، فهم من لوازم كل فرع، مع أنه لن يحتاج إليهم، المهم صرفهم بالحسنى إلى أجل مسمى، وليكن بضعة أيام، أو أسابيع، أو حسب الظروف. وقد يكون لأجل غير مسمى، ما يدفعهم إلى اليأس، ريثما يمارس المقدم مهامه فعليًّا.

عند مكتب الدخول، وقبل أن يدخل، طلب سعدي مقابلة المقدم، فاتصل العسكري بأحد ما في الداخل، فحُوِّل لمقابلة معاون رئيس الفرع، لا بأس ما دام المقدم مشغولًا، وإن أحسّ بكرامته انجرحت، فالشاعر كان حساسًا، ربما بسبب الشعر، ولو كان ادعاءً. هذا الجنس الأدبي حساس من فرط رقته وشفافيته. الأجدر بالمقدم أن يستقبله شخصيًّا، فرع بلا خبرة، يتطاول على مخبر خبير.

ما طالع الشاعر لم يكن سارًّا على الإطلاق، لم يكن معاون المقدم سوى المحقق الذي تجادل معه في الفرع ٣٣٣. لحظة وقع بصره عليه، انعدم تفاؤله، ألم يخض معه مناظرة خاسرة، أبطل فيها المحقق دعاواه الاستخباراتية؟ فتكهرب وارتجف، مع أنّ المعاون استقبله بترحاب وبوجه باشّ.

حافظ الشاعر على متانة أعصابه، كان متأكدًا من أن مساعيه في رفع سوية التخبير، لن تفشل. إذا كانت أقوال الرئيس الخالد وتعليماته قد وقفت حائلًا من قبل أمام طموحاته، فقد استُنفدت في الفرع ٣٣٣. ما سيقترحه بعد قليل كان عمليًّا وفعالًا، وسيدفع معاون المقدم طائعًا إلى الموافقة عليه رغم أنفه.

باشر يعرض أفكاره، وكانت كثيرة وبلا سقف، اختار منها تشكيلة لا يستطيع المحقق من فرط إحكامها رفضها أو انتقادها، تؤكد تضلعه في التخبير، ما يوفر للفرع مشبوهين من الوزن الثقيل والمتوسط والخفيف. أي من الأنواع الخطرة، أو المتوقع خطرها الأكيد، يضع الاتحاد في خانة الأمان المطلق.

لم يدعه المعاون يستطرد:

«يسرّ الفرع التعامل معك، لكن علاقتك ستكون مع الاتحاد حصرًا، إلا إذا اعتُمدت مراسلًا له. عندئذ يمكنك التردد إلى الفرع بصفتك هذه».

كانت الصدمة مبكرة وصاعقة؛ انخفضت مرتبته على أثرها من ضابط أمن الاتحاد إلى مراسل!! ليس مراسلًا حربيًّا، بل مراسل يستطيع صبي صغير يركب دراجة هوائية القيام بتوصيل الرسائل من حارة الاتحاد إلى حارة الفرع.

لحظتها فقد الأمل بأن يكون الوكيل الحصري للفرع في الاتحاد. حاليًّا، لن يستطيع فعل شيء، ما سمعه كان جائرًا، فعزم على الردّ بانتقاد هذا الإجراء التعسفي، فأشار إلى قضية القاص أحمد حمد الحمود، على أنها معلقة في الاتحاد لم يبت فيها، إن لم يتخذ الفرع قرارًا فيها، تذهب بالتقادم.

رفع المعاون حاجبيه مندهشًا:

«القضايا الأمنية لا يطاولها التقادم».

«حسب معلوماتي، القاص المتهم شرع في إنجاز قصة أخرى، لا تقلّ رمزية عن قصته السابقة. إن لم تنالوا منه في القريب العاجل، فلن تظفروا به أبدًا، إنه يفكر في الفرار من البلد، وأي تأخير في معالجتها، سيتحمل الفرع مسؤوليتها».

أحسّ المعاون بالارتياح، ما دام القاص سيفرّ هاربًا، والمخبر سينقلع بلا رجعة قريبة، فأنهى الحديث:

«ليكن بعلمك، لم تأذن الرئاسة بعد باستقبال قضايا الأدباء».

٢. أخلاقيات رفاق القلم

من الآن فصاعدًا، مع بدء عارف بممارسة مهامه، سيُعرف بهذا اللقب الذي أسبغه عليه المهندس. ففي المراكز الأمنية، لا وزن للأسماء، بل للرتب والألقاب، فهي التي تحفظ للعاملين فيها مراتبهم ومكانتهم.

لم يتأخر المفوض عن الالتحاق بعمله، إلا بعدما تغلب على تردده، وعثر على سبب يدفعه إلى القبول بما فرض عليه، لم يكن سوى اقتناعه بأنه سيسدد خدمات صديقه المهندس بخدمة مشبوهة لمجرد أنها ستؤدى في فرع للمخابرات، كانت سببًا إضافيًّا أقوى من التخجيل، ولم يجد في رفع الشبهة عن الوظيفة عناءً، وكان بترقيتها إلى عمل جيد ونافع، بالاستناد إلى المهمة نفسها، حسب المهندس، توعية رئيس الفرع بمعاملة خاصة للأدباء لا تخلو من فوائد جمّة لهم، على رأسها حمايتهم من المخابرات.

لم تعد مهمة طارئة مشكوكًا فيها، كُلَف تنفيذها، بل عملًا ينقذ أو يساعد به أدباء لا على التعيين، تورطوا بقول أو فعل، عن قصد أو غير قصد، لن يعرضهم للإجراءات المعتادة، سيقترح حلولًا متسامحة، ترتدّ عليهم بالسلامة.

في اليوم السابق لوصوله إلى الفرع، اتصل المهندس بالمقدم رئيس الفرع، وأمره بالإصغاء إلى المفوض جيدًا، سيطلعه على العالم المجهول للأدب والأدباء، ويزوده بمعلومات ثمينة عن أحوالهم وأفكارهم. وأمره أيضًا ألّا يُقدم على أي خطوة قبل استشارته، فالمفوض مفوض بكل شيء، نصائحه ستساعده في القيام بمسؤولياته على أكمل وجه في المستقبل.

استقبله المقدم بكل تهذيب وعلى استحياء. بعد التعارف والمجاملات السطحية، ارتأى المفوض بينه وبين نفسه ألّا يستعجل الدخول في الموضوعات الساخنة، ويتجاهل الموضوعات الشائكة، والتركيز على الأخلاق بشكل عام. كانت العقبة التي ستذلل غيرها، والأجدى قبل سحبها من التداول في الفرع، اختبار مدى سماكة الخصال الحميدة للمقدم. بداية، من المستحسن استدراجه إلى الكلام عن أحوال البلد، آملًا أن تنشأ بينهما علاقة شخصية شبه حميمة، تؤسس لثقة متبادلة.

لم يكن مخطئًا. أصاب حدسه. تناولا المشهد المتوتر جدًا في البلد. لم يكن من المعقول تجاهل أصوات قصف راجمات الصواريخ من جبل قاسيون. كانت من شدتها تهزّ جدران المكتب، كأن الفرع مستهدف، لا بلدة داريا، بينما طائرات الهليكوبتر تحوم في الجو، والدبابات تجوب شوارع المعضمية وجديدة عرطوز. تعمّد المفوض وصفها بالقلاقل، لم يرد أن يعطيها وصفًا آخر، متجاهلًا ما يجري بعيدًا في شمال البلاد وجنوبها من اشتباكات لا أقل من حرب. لم يرغب في تضخيمها، أصلاً لا تحتاج، بعدما تجاوزت الضخامة نفسها، بينما معلومات المقدم عنها متواضعة جدًا، مع أنها تدور على مقربة منه، لكنه استقاها من نشرات الأخبار المحلية، على أنها حرب قاربت أن تضع أوزارها بسحق المؤامرة الكونية. فتحاشى المفوض وصفها بأنها قاربت أن تكون بلا نهاية. ثم انحرف الحديث إلى الأمور الشخصية، فأدهشته بساطة المقدم.

كان ساذجًا، حسبما وصفه المهندس تمامًا، لم يبالغ في ذكر الجانب الوديع من شخصيته. باختصار، لا يصلح ضابطًا للمخابرات، فهو يختلف عن هذا الجنس الشرس كليًّا، وحتى لو كان سيعمل على تأهيله ليصبح ضابطًا في الأدب، أو ضابطًا للأدب، لن يكون في وسعه ضبط ما لا يضبط من الطبائع البشرية.

عزم المفوض في الأيام التالية، قبل الدخول في الموضوع، على تمضية الوقت معه في جولة عامة، خاصة وشخصية. بعدما لاحظ عدم وجود موانع

لدى المقدم الذي وثق به، في الإفضاء بمشاكله الحساسة، ما دام المهندس أرسله ليسيّر أموره وييسرها.

تجاوب المقدم معه ببراءة، ولم تزد شكواه على ما لاقاه في الحياة من سوء فهم، عاد عليه بالعتب والضغائن جراء علاقاته العاطفية المحبطة. وجدها المفوض من النمط العفيف القديم، وكان قد فات زمانه مع الأفلام المصرية الرومانسية؛ عذرية وروحانية، عواطف ودموع، أخلفت هجرانًا وفراقًا، عرّضه لأقاويل مشينة، نالت من صلاحيته للنساء. لمجرد أنه لم يرغب في الزواج. وقتها، كانت فكرة القيام بعملية استشهادية مستحوذة عليه، فاعتقد أن الأمانة تحتّم عليه ألّا يترك وراءه أرملة شابة تشقى طوال عمرها من بعده، بينما ينعم بالموت.

عادة لا يحكّ المفوض رأسه إلا في الأمور العويصة جدًا، ونادرًا ما تصادفه. هذه المرة اضطر إلى حكّه. قصة المقدم ستكون أكثرها استعصاءً من فرط بساطتها، لو أنها معقدة، لاحتملت اللف والدوران، إذا كان بهذه الطيبة، لن تجد حلًّا، ولو بالتقادم، لن تختفي إلا بالتحايل عليها.

تكلم المقدم على هينته، كأن السذاجة طبيعة لصيقة به، في زمن تُعَدّ فيه خرقًا مبكرًا. ربما كان يشكو من عقدة جنسية، تخفت تحت طلب الشهادة، لكنها أخلاقية على الأغلب. فقد حافظ على عفته، لم يلمس، أو تستثِره امرأة جنسيًّا. تحرشت به نساء مجربات وفتيات غير مجربات، ردَّهن خائبات. حسبما ظن أو خمن أو اعتقد، لا يجوز ممارسة الجنس إلا بالحلال، وشرعيًّا بموجب عقد زواج.

أضاف المفوض الرهاب الجنسي إلى اللائحة التي سيتولاها من الخصال الحميدة. من حسن الحظ أنها لا تحتاج إلى تحليل نفسي، ما دام منشؤها أخلاقيًّا، لا داعي للتعثر في المجاهيل الجنسية لطفولة منسية، وإن كان المثقفون يجدون متعة في تحميل الجنس أعباء الأمراض، حتى العضوية منها. بدت عقدة «أوديب» جاهزة لتفسير عذريته، مع أنّ أباه الميت لم ينازعه على أمه الحيّة. لو أنّ العقدة نفسية، لأزاح فرويد عنه عبئًا ثقيلًا، وما دامت المشكلة أخلاقية، فالعبء أثقل، ولا سيما أن في خلخلة هذا التصور الراسخ ما سيضطره إلى تبصيره رغمًا عنه بالجنس، كسلوك عادي جدًا، لا يتناقض مع مكارم الأخلاق، وهو أمر لم يرُق المفوضَ القيام به، أن يكون مرشدًا جنسيًّا، بينما إذا أراد النجاح السريع، فبهجمة كاسحة على عفته، على ألّا تؤدي إلى عكس مفعولها، الأفضل دسّها في ثنايا دروسه عن الأدب.

ما بدد هذه الغمامة، أنّ المقدم بدا سعيدًا في الفرع، مع أنه لم يختبر عمله بعد، كان مستبشرًا لأنه سيتعامل مع أدباء محترمين، ولو كان بعضهم غير

مهذبين، يعوض عما تحمّله من عنت رفاق السلاح في القطعات العسكرية.

الخطر لم يبتعد، تصحيح قصة الأدباء غير المهذبين تحتاج إلى جهد، بما أن المقدم البريء تبنى جادًا قصة الأدباء المحترمين، كما وردت في منهاجي المرحلة الإعدادية والثانوية، وما يشاع عنهم في البرامج الثقافية، والمسلسلات التلفزيونية، متوهمًا أنهم يكتبون أدبًا رفيعًا، ومهمومون ليلًا ونهارًا بقضايا الوطن والمجتمع، لا يجدون وقتًا لتناول الطعام في بيوتهم، ويرتادون المطاعم الشعبية، ليكونوا أقرب إلى الشعب، ولا يظفرون بالراحة، ولو كانوا يستجمون في شاليهات اللاذقية وطرطوس، يحلّقون بأفكاره، إن لم تلهمهم السماء، ألهمهم البحر. البون شاسع بين هذا التصور المثالي نوعًا ما، والحقيقة غير المثالية إلى حد بعيد، خاصة أن المقدم لمّح إلى أنه على جميع الأدباء التقيد بها، لئلا يسيئوا إلى الصورة الشائعة عنهم. ما زاد الأمر سوءًا أنّ الأوساط الثقافية وزعت عليهم الألقاب من أساطين الفكر، مرورًا برهبان الشعر، عباقرة النقد، إلى عمالقة الدراما.

سيختصر له الحديث عن أخلاق الأدباء؛ إنهم، وأرجو أن تتفهمهم، يعيشون حاضرهم على نمط مستقبلي، يتحدون تقاليد ستصبح بائدة، المكسب منها، أنهم باستغلالها يتمتعون بطيبات الحياة الآجلة.

علّق المقدم متحمسًا: البشر جميعًا يرغبون في التمتع بطيبات الحياة، ومن العدالة تعميمها على الشعب، لئلا يُحرَمَها.

ترى، هل فهم قصده؟ لا، لم يفهم. وقع في ظن المقدم أن الطيبات تقتصر على المأكولات الدسمة، وما يضاف إليها من بهارات.

«الطيبات لا تخصص بالطعام فقط. لا تنسَ، هناك الخمور...».

وأكمل لاعطائه فكرة عن انها لا تقتصر على الأكل والشرب.

«شهية الأدباء مفتوحة لكل شيء، الجنس مثلًا، بخصوصه: لا تابوهات، أي لا تحريم ولا محرمات».

لم تكن النتيجة جيدة، الخشية لم تفارق المقدم، بدا كأنه استعاد رهابه من الجنس اللطيف على نحو مفزع، وإن ألبسه ثوبًا من العفة، فبعدما غصّ بريقه، كان لديه وجهة نظر قوية:

«الأدباء لا يكتبون إلا عن مباهج الغرام وآلامه».

ما جعل المفوض يدرك أنه استعجل، كان المقدم على حق في استنكاره غياب الحب في الواقع، وتوافره في القصص والأشعار. يبدو أن معلوماته عن الحب توقفت عند رومانسية أدب «المنفلوطي».

لم يستغرب. الواضح أنها معاكسة لمفاهيم المجتمع المعلنة لا الخفية، ما يعزز الخلافات بينهما. وإذا كان سيتطرق إليها، فستشكل للمقدم جرحًا نفسيًّا قد ينقلب إلى شرخ، عليه أن يتحمل، ما فُوض به يتطلب الخوض فيه، عند اللزوم سينقذه:

ما يجب أن تعرفه، أنّ الأدباء يخلطون بين الحب والجنس، ينظرون إليهما على أنهما أمر واحد، لا حواجز بينهما، أدبية أو غير أدبية. فمثلًا، لو ضاجعت أديبة أديبًا، أو أكثر، من دون عقد زواج، وربما من دون حب، فلا تثريب عليها، فهذا يؤدي إلى ذاك، ويعوض عنه، ولا يشترط أن يُقصد بالمضاجعة الحب، أو الاستمتاع بالنكاح، فالأمر بحدوده، لا أكثر من تجربة جنسية، يتوخاها الطرفان ليضيفاها إلى خبراتهما الكتابية، لا الحياتية، لئلا تستثمر في غير محلها. أي إنها لوجه الأدب من شعر ورواية وقصة.

ولتحصل الفائدة من هذا الاستعراض الطليق الذي اضطر إليه، لا بأس بتوضيح إضافي، حتى لا يتخيل أن للأدباء قدرات استثنائية:

لا ريب أنك ستصادف أدباء يتباهون بقدراتهم، وخصوصًا الجنسية، حتى المصابون منهم بالعنّة. مزاعمهم عن فحولتهم تفرضها طبيعة الأدب التي تستعين بأجنحة الخيال، فيتفاخرون بما لا يستطيعونه، لا تصدق أكاذيبهم، و لو أحالوها إلى سيرتهم الذاتية، تلك التي تطفح بالأكاذيب حتى المقرفة، وإذا تقصدوها فلأنهم مقرفون، طبعًا هؤلاء نادرون. لئلا تظنهم من هذه النوعية.

إذًا، لا يذهب بك الظن إلى أنهم بارعون في غزو قلوب النساء، أو أن جاذبيتهم لا تقاوم، كما يشيعون عن أنفسهم، وهي لا أكثر من مبالغات طائشة، إن لم تكن أوهامًا. فلا تخدعنك مغامراتهم الخلبية؛ يختلقون قصة عشق مبرح من نظرة، غالبًا أول نظرة، وسواء تعدد النظر أو لم يتعدد، فالقصة لا ينقصها السهاد والأرق والهجران، وقد يسكبون الدموع. ولا تندهش إذا نسجوا من امرأة سمعوا عنها قصة تحيلها إلى محبوبة مجهولة، يبتدعون لها ملامح وأحاسيس، فيجردونها من ملابسها. ماذا تتصور أنهم سيمارسون بعد تعرية فتاة أحلامهم؟ تفانين من المضاجعات الخيالية، يداوون بها حرماناتهم.

تخضب وجه المقدم بالاحمرار واعترته حالة من الصفن، هناك ما انقلب في رأسه. الجرعة كانت قوية، الأدباء في ذهنه أنموذج، يفترض تحليه بالفضيلة، كانت فجيعته بهم كاسحة؛ إذا كان سيتسامح معهم بخصوص النساء والخمر.. فما الذي بقي؟

لا يجوز الاكتفاء بصدمة واحدة، هذا ما حدّث به المفوض نفسه، كي ينفض المقدم مخه. عمومًا يلزمه عدة صدمات متتالية، الواحدة تكمل الأخرى. ربما

جرعة مضاعفة أخرى، وتضيء في رأسه شعلة، لا بأس أن تحرقه، ويكبر عدة سنوات دفعة واحدة، ويشيب شعره، ربما نضج. مع هذا، أصبحت مهمته أسهل، صحيح أنه بالغ في إساءته للأدباء، لكنه وضع التعريف الأقرب إلى الصحة لأخلاقيات رفاق القلم، وإن كان في تعميمها مبالغة ظالمة. فاستدرك هذا الخطأ الجسيم:

... وهناك من يزهدون في هذه الأمور، وينصرفون بكليتهم إلى معاجم اللغة، والإعراب والنحو والصرف والعروض، وتاريخ الشعر والنثر في العصور الإسلامية... وهلمّ جرًّا. هؤلاء لن تصادفهم، يشدون الرحال إلى التراث، ولا يعودون منه، يعيشون في الماضي، خارج العصر.

أما الذي لن يأتي على ذكره، كمثال معاكس، يمكن الاستفادة منه، في استكمال مشهد واسع قد يروق المقدم، فقصته العاطفية العالقة مع مايا، ولو كانت في منتهى الخصوصية، تتحكم بها صروف الحرب، ويعاني منها، لا يفكر في وضع حد لها، يبدو فيها شبيهًا بالمقدم نفسه. نعم إنه الحب، مهما أنكرناه، فهو منتشر بين البشر، أشبه بمرض لا تفسير له، ولا رغبة في النجاة منه، بل غواية الغرق فيه.

سرعان ما أوقف تداعي أفكاره، يُستحسن عدم صبّ المعلومات دفعة واحدة، بالتدريج أفضل. ولا سيما أنه كشف له عن جانب حساس من عالم الأدباء العجيب، وما يحفل به من غرائب. ومع أنه أحس بالذنب، كان راضيًا عن الحط من سمعتهم، كانت لصالحهم، لن يتمكن المقدم من القضاء عليهم متذرعًا بالأخلاق، وهي عقبة كبرى بالقياس إلى الدين، لسمعة الأخلاق سطوة أكبر من نواهي الدين في المجتمع.

على عكس ما نوى، لم يتمكن من المضي قدمًا، ليس لأن المقدم أشبع توجيهات ونصائح، بل لأن وجهه احتقن وقد ينفجر. ما ثبط همته، ربما أخطأ في تبني خطة الصدمات المتوالية.

فكر في خطة رديفة. المقدم بحاجة أكثر إلى تأهيله أدبيًّا، وهذا لن يحصل إلا باطلاعه على الخريطة الثقافية في الجمهورية، قبل أن تضمحل، بما أنها في حالة تمزق إلى لاجمهورية من إقطاعات وإمارات وكانتونات، وأراضٍ محررة، ومستعمرات صغيرة، ومناطق موالية، ومناطق متنازع عليها... إذًا استمر النظام على هذا المنوال من التخريب الجنوني، مستعينًا بالإيرانيين والروس، فسيتمزق الأدب أيضًا إلى أنواع لا تحصى من فرط تكاثرها، ومعه الأدباء أيهم الصحيح؛ العلماني، المتدين، الملعون، النازح، الطائفي، اللاجئ، الإرهابي، البوليسي، المخابراتي، الانتهازي، التشبيحي...؟ ولكل واحد منهم إشكالاته. لذا، من الضروري إلقاء نظرة على الخريطة قبل أن تتفتت.

سأله المقدم:

هل انتهت الدروس؟

بل بدأت، أي إنها ستبدأ قريبًا، بعدما أنهى في بضع جلسات وصدمات ما تراكم لدى المقدم من أخلاق مبالغ بها، كان من المستحسن نزعها عن الأدباء. المهم لم تعد أخلاقية الأدب قضية مفروغًا منها.

٣. رجل صالح في زمن موبوء

بعد تلك الجولة، أحسّ عارف بالذنب، ما المشكلة في كون المقدم شابًّا مثاليًّا؟ من الخطأ تشويهه، لكن الواقع يتطلب، وإلا فكيف يواجه، ليس الأدب، بل الذين يدّعونه، قد تجعله أكثر قدرة على التعامل معهم، لكن الأدباء على قدر من التنوع يصعب حصره، ولو كان أغلب الذين في الواجهة من تلك النوعية المنحطة التي أتقنت التسلق.

اتصل بالمهندس، وكان الوقت مساءً، لينصحه بإعادة النظر بقصة الفرع. كان المهندس مشغولًا، وقال له إذا كان من أجل الفرع، فتصرف كما تشاء. قال عارف إنه يخشى ألّا يتابع العمل فيه. سأله عن السبب، فتلكأ. أدرك المهندس أن صديقه يدير الأسباب في رأسه لينسحب من المهمة، فاقترح أن يسهرا الليلة معًا.

أرسل إليه سيارة، تكامل سوادها مع زجاج نوافذها المُفيّم. تشاءم عارف، كان في لونها المأتمي ما يحرض على تفجيرها بعبوة ناسفة، أو إطلاق الرصاص على الراكب الوحيد فيها. عندما عرف من السائق أنها سيارة سليمان الخاصة، اطمأن؛ زجاج النوافذ مضاد للرصاص، وربما كانت محصنة من الألغام أيضًا.

كان البناء حديثًا، الحراسة مشددة، الأسلحة مهيّأة ومصوبة، لم يكن هناك سوى الفضاء والليل وطلقات رصاص بعيدة، وانفجارات أبعد، وأصوات دعسات أقدام عناصر المرافقة والحماية.

كانت تلك أول مرة يزوره في موقعه الجديد، يبدو أنه استقر فيه بعد الأحداث، من قبل كان سليمان يزوره، أو يلتقيان في مكان عام. توقع أن الحديث سيطول مع صديقه. لم يستبعد اقتناعه بكل ما سيسمعه منه رغمًا عنه، للصداقة حقوق والتزامات. في هذه الحالة، سيحاول تقليص زمن مهمته في الفرع إلى مدة محددة بشهر لا أكثر.

استقبله سليمان بالعناق، أجال عارف بصره في الغرفة المتقشفة إلا من الخرائط المبعثرة على أكثر من طاولة، والمعلقة على الجدران. من هذا الجحر تحت الأرضِ يخطط صديقه ويراقب المعارك ويطلع على ما يجري في

أكثر من جبهة ليلًا ونهارًا. وكما هو واضح بجلاء، كان صديقه في حالة حرب، يتلقى بين الحين والحين اتصالًا هاتفيًّا، فيهرع إلى خريطة ويضع إشارة عليها. هكذا أمضيا الوقت معًا.

كان المهندس حاضر الذهن على الهاتف يتأكد من التحضيرات لعملية ستنفذ قريبًا، ولا يهمل التفاصيل، عدد الجنود ونوع الأسلحة والآليات. وعندما يلتفت نحوه، يتابع الحديث معه. لم يفهم شيئًا سوى ما قاله المهندس عنها؛ مجرد عملية عسكرية تأديبية صغيرة.

ما سمح لعارف بأخذ فاصل من التفكير بين اتصال واتصال، فلم يستقر منحى الحديث المشتت، إلا بعدما أعطى المهندس أوامره الأخيرة بالتنفيذ، وكان حسبما قال، مطاردة الإرهابيين، على أن تنجز قبل شروق الشمس. وإذا كانت الاتصالات قد هدأت، لكنها لم تنقطع كلية، بين الفينة والفينة كان يطمئن إلى سير العملية.

ابتدأ عارف من النهاية، وهو التمهيد الذي ارتآه بخصوص الخريطة الثقافية. وجده المهندس معقولًا. عقّب عارف من دون مقدمات، بأنه عبث لا جدوى منه، ليس هناك ما يشجع على أن يكون أستاذًا لتلميذ بريء، يشكو من علل خفية أكثر منها ظاهرة. في الحقيقة، حتى لو كانت أمراضًا مبتدعة، لا يحبذ التلاعب في نظرته إلى الأخلاق.

ما ابتدأ به حديثه، وما عقّب عليه، وما تتالى بعدها، طرح إغلاق الفرع كحل مجدٍ، الأسباب كثيرة. سارع إلى توضيحها، هذا العمل توريط للمقدم بشأن عبثي، إن لم يكن تخريبيًّا. وإذا كان هناك حل، فمن الصفر، أي العودة إلى الوراء عشرات السنين بمقدار عمر المقدم، وإعادة تربيته. لدى المقدم الفاضل من الجهل بالطبائع البشرية السيئة، ما لا ينفع فيه إلا استدراكه بالدراسة، وبالتحديد الحفظ غيبًا. وفي حال الظن أنها عقد نفسية، فتحتاج إلى جلسات معالجة. ما أراد قوله أيضًا، أن المهمة مملة بحالتها الحاضرة، تلقينه معلومات، لن تجدي، كذلك المعالجة.

لاحظ أنّ المهندس فهم ما يقصده، وقد يقتنع. فأراد تعقيد المهمة: قصة المقدم في الحقيقة جنسية، ليس من النوع المعتاد، يجب بناء شخصيته من جديد.

لم يتوقع المهندس أن تحتوي قصة المقدم على دراسة وحفظ عن ظهر قلب، وفقر في المعلومات، وجنس ومعالجة وجلسات، القصة أتفه حتى من أن تكون قصة. لم يخمن، من الحماقة الأخذ بتهاويل صديقه، إنه يريد استبدال شخصية المقدم بأخرى!! لن يلومه، يعرف هوسه بعلم النفس، وأفكاره في الجنس. ألم يحاول إقناعه مرارًا بأن الجنس المؤثر الأكبر في حياة البشر،

فإذا كان يصنع شخصياتهم وكبواتهم وطموحاتهم وأحلامهم، فقد صنع بهدوء جنون المقدم على نمط بسيط وراسخ، ما جعله متخلفًا عن العصر... بدا عارف في تنظيره وكأنه عثر على لقية، كانت مادة نموذجية تصلح تطبيقًا عمليًّا لقراءاته، بعدما أحبطته شخصية المقدم بدل أن تشدّ عزيمته.

طبعًا، صديقه يهوّل ليتخلص من المهمة. لن يناقش ترهاته النفسية، لئلا يتغلب عليه بحججه. الأفضل تغيير وجهة الحديث، لكنه تأخر، كان عارف قد استرسل، ويستحيل إيقافه عن استعراض مواهبه في علم النفس، بعدما ظفر بموضوعه المحبب:

لدى المقدم مشكلة جنسية. قصصه العاطفية عذرية تمامًا، تخلو من القبلات والملامسات السطحية، فما بالك بقصص الجسد والجماع، إنها مستنكرة مع أنه يجهلها، ليس بفعل الخجل، بل أسوأ، إنه «الخواف من المرأة»، احتل مساحات في داخله، تحت تأثير تجارب طفولية، تركت بصمتها في اللاوعي. أقول بثقة، إنه لم يتجاوز هذه المرحلة، ما زال طفلًا. ظهرت مفاعيلها في تصرفاته المتحفظة، مقَنّعة بالرفض لكل ما يوحي بالجنس إلى حد النقمة عليه. أنا على ثقة بأنه لا يكذب. إذا أردت تقدير حجم مشكلته، تصور شابًّا تجاوز الثلاثين من عمره، لم يضاجع امرأة في حياته، من دون أي إحساس بالنقص، بينما يتباهى الذكور من مختلف الأعمار بغزواتهم النسائية، ولو كذبًا.

التقط المهندس المجال الذي أتاحه له سؤال عارف، كان فرصة لمجاراته في شطحاته، بشطحات واقعية على السوية نفسها. اقترح عليه المباشرة بتنوير المقدم جنسيًّا، الحل ليس مستحيلًا ولا صعبًا لو أنه يعرّفه إلى امرأة مثقفة، الأفضل ألا تكون مبتدئة في الأدب، لئلا تكون مبتدئة في الجنس. يستحسن، إن كانت شاعرة، أن تكون قطعت شوطًا في الشعر، لا أقل من بضعة دواوين شعرية، وإذا كانت قاصة، فعدة مجموعات قصصية، وإن كانت روائية، فروايتان وما فوق. لا يهمّ المستوى الأدبي، ولضمانة التأثير، أن تكون مُطلّقة، ولديها بضعة عشاق وآلاف المعجبين؛ تعرف مواقع التواصل تزود الكاتبات بهذه الأعداد والأنواع، لا تكلف أكثر من نقرة إعجاب... ما يفي بالغرض تمامًا.

قبل أن يعترض، ويصف الحل بالتعجيزي، ابتسم المهندس ساخرًا، وأعطاه خيارًا إضافيًّا:

ما رأيك بامرأة من ملفاتنا؟ ستدعي أنها كاتبة، أما أي طراز، وماذا تكتب، فعليك أن تعرف، النوع الذي يستهويه من الأدب؟

لم يلتفت لسخرية المهندس ولا لتصوراته، لن يشتغل قوادًا. قال لصديقه ضاحكًا: يبدو أنك مخدوع بسمعة الكاتبات، نعم يتشدقن بالحب، لكنهن

محافظات، فما بالك بالجنس؟ إذا كنّ يمارسن الغرام، فبالسر، وكل علاقة تلغي الأخرى، يعترفن بالعلاقة الأخيرة على أنها الحب الوحيد في حياتهن. هل تريد أنموذجًا شائعًا للكاتبة، إنها تؤمن بالحب العذري، مع أنها متزوجة. تتباهى بإخلاصها ووفائها لزوجها، تتشبث به، ولو كان مقيتًا، تدعي أنه فارس أحلامها، اختارته لاهتماماته الأدبية والفنية والسياسية، تزعم أنه كاتب، أو تشكيلي، أو مُنظّر في شيء ما، وربما عبقري... بينما هو لا أكثر من زوج لزوم المظاهر. في الحقيقة، إنهن محافظات، وأحيانًا متزمتات، مهما كنّ، لا يتسامحن في قضايا الأخلاق.

أوقف استطراداته، وارتدّ إلى حالة المقدم، أصرّ على أنها عويصة، ولا يجوز الاستهانة بجلسات المعالجة النفسية، ستأخذ عامين وأكثر. خلالها تطوى قصة الفرع.

اعترض المهندس:

«هناك أسرار للدولة، قد يبوح بها للطبيب المعالج».

«ما الأسرار التي يعرفها؟ إنها الشيء الوحيد الذي يجهله».

«مهما يكن، فهو رئيس فرع أمني. تصور أن تكون الخطط الأمنية، ولو كانت تافهة غير سرية، بحوزة شخص يتعرض لجلسات معالجة، وهي لا تعدو سوى الكلام».

توقف لحظة، ثم تساءل:

«ما دامت كلامًا، فلماذا لا تستمع أنت إليه؟ لن يتسرب شيء إلى الخارج، سيبقى محفوظًا في الفرع، لا أقول إنه مهم، ربما كان فضيحة، لأنه غير مهم».

ترفَّع عارف عن إجراء هكذا جلسات... فعقب المهندس:

«ماذا تكون طفولته؟ لن يكون الكلام عنها، غير ذلك الوخم الجنسي الآسن منذ زمن بعيد».

لم يخف على المهندس أن صديقه يلف ويدور، لا بد من إغرائه بما يشجعه على عدم التراجع عن المهمة، سيمنحه بصفته المفوض صلاحية مطلقة ليدير الأمور في الفرع كيفما يشاء، بينما المقدم عبارة عن واجهة عسكرية.

قالها، وأدرك أنه منحه الكثير، فرع بحاله، وليس أكثر من طعم. إلا إذا تنبّه إلى أن الفرع أساسًا بلا صلاحيات يعتدّ بها.

ابتسم عارف، لم يكن العرض مغريًا أبدًا، لم يقبل به، ولينهيَ النقاش سيكون المفوض فحسب، والاتفاق على أنها مهمة سيتحرر منها بمجرد انتهائها، وخدمة سيقدمها إلى صديق العمر. أما قضية المقدم، فلا تزيد على أن هذا الشاب اختار الحب العذري، وألغى الجنس من حياته، فما الجدوى من علم النفس والمعالجة والجلسات؟ مجرد أنه أراد الإيحاء بأمراض نفسية متقدمة، ليدفع المهندس لإحالة المقدم على طبيب نفسي؛ غير أن العملية فشلت.

إذا أراد اختصار المشكلة في ذهنه، فهي أن المقدم رجل صالح في زمن موبوء.

٤. شاهد مغفل على المجزرة

في الحقيقة، لم يمض الحديث بينهما بهذه السلاسة، فقد انقطع وتقطع عدة مرات. كان المهندس يتابع أعماله على الهاتف، وفي الوقت نفسه، كان مستعجلًا على إنزال عبء الفرع السخيف عن عاتقه، لا الوقت ولا الوضع يسمحان به، لكن ليس قبل التأكد من أن المهمة راقت لصديقه، والتزم بها. بعدها ليذهب الفرع والأدب والأدباء إلى الجحيم.

كانت الاتصالات التي يتلقاها تشير إلى أنّ عملية عسكرية سبقت اللحظة الصفر المحددة لها، بدأت في وقت مبكر، ليس كما خطط لها. اضطرهم إليها، كما قال المهندس، المتمردون الإرهابيون الذين هاجموا حاجزًا للجيش، قتلوا الجنود، وأطلقوا سراح معتقلين، فما كان منه إلا أن سارع بتقديم توقيت خطة الاجتياح، فانطلقت ثلاث دبابات وأربع مصفحات، ترافقها شاحنات عسكرية تحمل جنودًا بالسلاح الكامل، حاصروا المتمردين. أمر المهندس بعدم الإبقاء على أحد حيًّا، فتكفلت بهم قذائف الدبابات وراجمات الصواريخ والهاون.

تلك كانت العملية العسكرية التأديبية الصغيرة.

قبل أن يغادر، فهم منه أن الحملة تابعت طريقها إلى القرية التي انطلق منها الإرهابيون، وانضمت إليهم ثلاثة باصات من قوات الدفاع الوطني. طوّقوا القرية، أطلقت الدبابات قذائفها على ساحة الضيعة، كانت تحذيرية للسكان ليبقوا في منازلهم، أعقبها فتح نيران رشاشات «ب ك س» والأسلحة الفردية. دخل بعدها الجنود لتمشيط القرية من المسلحين. دامت العملية نحو ساعة ونصف من إطلاق النار، حصلت بعض الاشتباكات، ما استدعى قدوم سيارات الإسعاف، فنقلت الجرحى المدنيين إلى المستشفى.

أدت العملية التي قادها المهندس غرضها، بثّت الذعر في أهالي الضيعة، وكانت درسًا لهم لئلا يستضيفوا إرهابيين في ضيعتهم، وكادت أن تكون

نظيفة، لولا أنه أمر بإعدام جنود الحاجز الشرقي، وكانوا أربعة جنود وضابطًا، لتواطئهم مع الإرهابيين، ساعدوهم على التسلل من الضيعة، كما أبلغه وشاة.

تحجج المهندس بأنه لا تهاون مع الخونة.

خلال الأسبوع التالي، سيعلم أن العملية لم تنتهِ مساءً، حسبما قال المهندس، بل استمرت طوال الليل، ولم تقتصر على الدبابات والمصفحات والجنود وقوات الدفاع الوطني الذين اجتاحوا الضيعة تحت غطاء كثيف من النيران. وفي الحقيقة، لم يواجهوا أية مقاومة من الأهالي، فمشطوا الأزقة، وأطلقوا النار على كل ما صادفوه، رجلًا كان أو امرأة أو طفلًا. رافق قائد الكتيبة ملثمون، أخذوا يرشدونه إلى شبان شاركوا في التظاهر ضد النظام في بداية الاحتجاجات، انتزعوهم من بيوتهم، ثم جاؤوا بأهاليهم إلى ساحة القرية ليتفرجوا عليهم. أمروا الشبان بالاستلقاء على الأرض، وضربوهم بالقضبان الحديدية والعصيّ والهراوات على رؤوسهم، حتى تهشمت ولفظوا أنفاسهم، وسط صراخ الأهالي وبكائهم، ما اضطرهم إلى فتح النار عليهم أيضًا. ثم قبضوا على شابين كانا يحاولان الهرب، فربطوهما إلى شاحنة بيك آب وسحلوهما في أزقة الضيعة حتى تمزقا أشلاءً.

تجددت العملية مع قدوم شبيحة القرى المجاورة. بعضهم كان بالزي المدني، وآخرون كانوا بالزي العسكري المبقع، حليقي الرؤوس ومفتولي العضلات، مستعملين وسائل نقل، سيارات وميكروباصات وطرطيرات، يحملون عصيًّا وخناجر وسواطير ومسدسات وكلاشينكوفات ورشاشات. اقتحموا البيوت وقتلوا الأهالي المختبئين في داخلها. الآباء سقطوا صرعى وهم يحاولون الدفاع عن عائلاتهم بأجسادهم، الأمهات احتضنّ أولادهنّ ومتنَ معهم. أما الذين حاولوا الهرب، فأدركهم الرصاص، وتبعثرت جثثهم في الحقول.

ليلتها سكر الشبيحة ورقصوا ابتهاجًا بالنصر.

وإذا كانت سيارات الإسعاف قد استُدعيت، فللتخفيف من أعداد الجثث. كانت التعليمات تقضي بنقلهم إلى المستشفى العسكري، وإن وجدوا من يتنفس، فالإجهاز عليه. لا أحياء.

في الصباح، كانت الضيعة تسبح بالدماء، الدخان يتصاعد، تفوح منه رائحة احتراق لحم بشري. لم يخرج الشبيحة والجنود قبل التمثيل بما فضل من الجثث، أغلبها كان متفحمًا، أطفالًا مذبوحين، امرأة حاملًا بُقر بطنُها، رُضَّعًا دِيسوا بالأقدام، جماجم مهشمة، حناجر مقتلعة، عيونًا مقلوعة، أيادي نسائية قطعت من المعصم... قبل إضرام النار في البيوت والدكاكين والسيارات، حملوا ما نهبوه في الشاحنات والميكرويات والطرطيرات وشاحنات البيك

آب، وعادوا من حيث أتوا رافعين العلم السوري وصور الرئيس مكتوبًا تحتها: بالروح، بالدم، نفديك يا بشار.

شاعت أخبار المجزرة في وسائل التواصل الاجتماعي، بعدما نجا اثنان من أهالي الضيعة بمحض المصادفة، كانا شاهدَي عيان على المجزرة.

في اليوم الثالث، عادت الباصات والميكرويات والطرطيرات إلى الضيعة، تحمل شبيحة القرى المجاورة. نفوا وقوع المجزرة، واتهموا الإرهابيين باشتباكات ذهب ضحيتها بعض المدنيين. كانت قد سبقتهم الجرافات، نظفت ساحة القرية من الجثث، وسوّت البيوت المهدمة والمحترقة بالأرض. شارك الجنود والشبيحة فرحتهم، رافقتهم مذيعة التلفزيون السوري ومراسلو الإعلام الرسمي، واحتفلوا معهم بالقضاء على الإرهابيين، فزغردوا ودبكوا معهم، وهتفوا للرئيس المحبوب سيد الوطن: الأسد أو لا أحد.

بعد اليوم لن يكون سليمان صديقه، كان في ما مضى. ليت ذاك الزمن لم يكن. لن يعتب عليه لإخفائه عنه المجزرة، بل فعل حسنًا، كان ماهرًا في تحويلها إلى مطاردة للإرهابيين. لن يستطيع سليمان إلا أن يكون رجل النظام العتيد، وصانع جرائمه.

ما آلمه أيضًا أنه كان على نحو ما شريكًا في مجزرة، كان الشاهد المغفل عليها، تابع أحداثها دون أن يدري. لم يبق للضيعة أثر، فلا جثث ولا دماء. ما بقي من جثث الأهالي دُفن في مقابر جماعية، كأنهم لم يولدوا، ولم يعيشوا... ولم يوجدوا البتة.

ꝏ ꝏ ꝏ ꝏ ꝏ

فريق متميزون
E-BOOK

الفصل الحادي عشر
الثقافة، الأخلاق... وأمور أخرى

١. المسألة الأخلاقية ثانية

حار المفوض من أين يبدأ. ليس بالأمر السهل تأهيل المقدم ثقافيًّا مع متابعة تنويره لاأخلاقيًّا. إنه شاب طيب، لكن لا ينبغي أن يكون سليم الطوية، العمل المخابراتي يقوم على سوء النية، على ألا يُبَالغ به لئلا يماثل ما يجري في الفروع الأخرى، يجب توخي أن يكون سوء النية في محله.

لا ريب، عالم المثقفين مجهول لضابط تعرّف إلى الأدباء الأموات من الكتب المدرسية، والأحياء من صفحات الجرائد اليومية، وبرامج الإذاعة والتلفزيون، يظهرون بأجمل حلة، ووجوه مبتسمة، ويتكلمون بأعذب الألفاظ. هؤلاء ممثلون يزعمون أنهم مثقفون. المطلوب، المشكوك فيهم، لا المختبئون في جحر الاتحاد، بل المجهولون، يظهرون في الملمات، وغالبًا رهن الاعتقال. وكي يكون على بينة بأنواعهم، فالدائرة ليست واسعة.

على الطرف المقابل، تخيّل المقدم أنه في دورة دراسية، ولم يكن مخطئًا، الواجب يملي عليه استيعاب ما يسمعه. بدا التلميذ النجيب تواقًا للمعرفة، ومعترفًا بالجميل للقيادة، فأن يرسلوا مسؤولًا ثقافيًّا كبيرًا لإطلاعه على سياساتها المخابراتية تجاه المثقفين، يعني اهتمامهم بإنجاح عمله في إدارة الفرع. لن يفوّت هذه الفرصة.

الدرس الأول كان مثاليًّا، موضوعيًّا ومطابقًا للواقع، بدأه المفوض بالتطرق إلى مشكلة سيواجهها المقدم من ناحية التباس صفة الأديب بالمثقف والمعارض، ولا يستبعد اجتماع الصفات الثلاث في شخص واحد. الكثيرون يزعمون أنهم معارضون، لماذا؟ لأن الموالاة كانت وصمة مشينة، سواء جرى إنكارها أو التخفي عليها، الغالبية تنفيها، لكن الموالين في زمن الثورة والحرب اضطروا إلى الكشف عن وطنيتهم، أي موالاتهم.

من قبل، كان إقبال المثقفين والأدباء والفنانين على الالتحاق بالنظام يجري خفية، يدّعون علنًا أنهم ليسوا راضين عن الفساد والمحسوبيات وأشياء كثيرة من هذا القبيل، هذا لضرورة الانتفاع المعنوي، كمظهر يساري لائق لا غنى عنه في الوسط الثقافي، وإذا تنافسوا مع المعارضين، فعلى التوقيع على العرائض النظيفة لا أكثر، كالتنديد بالتدخل الغربي في انتخابات بلدان أوروبا التي كانت اشتراكية، والتمييز ضد السود في أمريكا، وتجارب الأسلحة النووية، إلخ. يتشارك فيها الجميع فيضيع الحابل مع النابل، لكنهم يعتصمون بالصمت تجاه الاعتقالات الحاصلة على بعد كيلومترات وربما أمتار من

الاتحاد، ويتجاهلون قمع الإصلاحيين في إيران، وتعدي «حزب الله» على سلطة الدولة اللبنانية.

عمومًا، العرائض تفرضها ضرورة وجود المثقفين على قيد التأثير خوفًا من التهميش، مع أن المخابرات تحتكر الجماهير، ولا يسمح لغيرها بممارسة أي تأثير فيها. فكان في ادعاء اليسارية، نوع من البطولة الفكرية التي لا تخشى في الحق لومة لائم، مع مراعاة الحذر منعًا للاستدعاء إلى الفروع المختصة.

قد تسألني، كيف يمكن تمييز المعارض من الموالي، ما دامت كتاباتهم تتشابه، كلاهما ضد الأمريكان والتدخل الخارجي وضد الرجعية والدكتاتورية، ومع حقوق المرأة...؟

الأمر بسيط، المعارضون قلة من ذوي الرؤوس اليابسة، تتبدى في نشفان عقولهم، ولو كانت الدماء الساخنة تسري في عروقهم. بينما الموالون متعجرفون ووقحون، ويتخفون على حقاراتهم وجشعهم، وبقدر ما تدعمهم السلطة، يرفعون عيارات ادعاءاتهم، فهم يكتبون من مواقع منيعة وقوية، حتى إنّ بوسعهم التفاخر بخساساتهم.

لاحظ المفوض أن شروحه لم تضف حولهما الكثير، مع أنه استهلكهما، فتوقف.

أرجوك تابع. قال المقدم.

بدا المقدم صاحيًا لهذه الخريطة، متوقعًا أنها ستتوسع بعد قليل، وليس من المعقول أن تكون بهذا الضيق. كان حريصًا على ألا تفوته كلمة، الموضوع يهمه، فالخريطة مقبلة ربما أيضًا على التعقيد، فالمفوض يتكلم عن خريطة متغيرات، قد تتعرج وتتقاطع أو تتبعثر... لكن ما زال هناك بعض التفاصيل، فأصغى متنبهًا للمزيد، تابع المفوض:

المعارض أقوى شكيمة، ولو كان ضعيف البنية، يشكو عادة من القرحة أو عصبيًّا بالوراثة، أو مصابًا بتصلب الشرايين على كبر، وأحيانًا موتورًا. تُلاحظ هذه المظاهر المرضية لدى الموالين أيضًا، لكن بنسب آمنة صحيًّا. أما الصنف الثالث...

توقف المفوض عن الكلام، شرد ولم يكمل. فرجاه المقدم ثانية:

تابع، الموضوع حساس.

حسنًا، الصنف الثالث: الناشزون الزاعمون أنهم محايدون، يتباهون بأنهم خارج هذا التقسيم الثنائي، أبرياء من الموالاة والمعارضة. في الحقيقة، ليسوا بناشزين ولا محايدين، بل مذبذبون محنكون، التحقوا سرًا بكليهما، وأدخلوا

في روع الموالين أنهم من جماعتهم، ومثلهم المعارضون، فكانوا من أولئك وهؤلاء معًا. يتقصدون إحداث بعض الشوشرة ليظهروا معارضين، مع تأكيد موالاتهم خفية، فينجون بأنفسهم ولا يصيبهم مكروه.

الدروس التالية، لن تكون على نمط الدرس الأول، فالمفوض سيتنازل عن أستاذيته، والتلميذ سيتشجع ويدلي بآراء يخالطها تشغيل العقل، ولو أنها ضعيفة، نتج منها بعض التساؤلات، وكانت تفاعلًا جيدًا من طرفه.

الدروس أو ما يشبهها، أصبحت فسحة لملء الفراغ، حفلت بتبادل الأحاديث المتنوعة، وكلها تصبّ في المنحى ذاته، ومن دون تقدم كبير. وإذا كانت جلساتهما لم تنتظم، فللحاجة بين يوم وآخر إلى فاصل؛ المقدم كي يرتب أفكاره المثالية المتطرفة، والمفوض ليُعمل ذهنه لإيجاد جواب مقنع، ليس إلا مادة لتخريبها، تسويغًا للرجوع عنها.

كان الوقت مبذولًا بسخاء لكليهما، خصوصًا المقدم الذي أصبح له ركن خاص داخل الفرع إلى جوار مكتبه، فأثث غرفة منامة متقشفة، كان ينام فيها إذا تأخر في الفرع، وغرفة جلوس لا تزيد على بضع كراسيّ لاستقبال ضيوف قلائل لا يأتون الا نادرًا، ومطبخ يقوم بشؤونه مجند ، فاقتصرت الوجبات الثلاث على الحليب ومشتقاته، والزيتون والزعتر، وسندويشات الفلافل والمسبحة والبطاطا، والفروج في أيام الجمع.

ساعد المناخ المتسامح الذى أرساه كلاهما على استمرار الجدل المتقطع بينهما، وإن لم تؤمن عواقبه مفاجأة غير متوقعة. يستحيل في بعض الأحيان تكهن إلى أين تذهب تساؤلات المقدم الجسورة، ووجهات نظره الممسوسة بالبراءة، إن لم تخالطها المرارة، فالغيظ، حتى لو كتمه، يظهر في احمرار وجنتيه.

لم يتوقع المفوض بعد تقدم مستوى التفاهم بينهما، ولو كان في الحد الأدنى، ويتقدم بطيئًا، تغلُبُ عليه الهدنة تلو الهدنة، أن يجد المقدم ثغرة يستعيد من خلالها وجهات نظره الأخلاقية المتعنتة، ويعللها بأنه لا يقصد الأدباء جميعًا، بل جماعة اندسوا بينهم، الأدب بريء منهم، يجب كشفهم على حقيقتهم. الفرع هو الأقدر على ذلك. سنده تخريجة «الاندساس» الشائعة في أجهزة الإعلام الرسمية، ولا يمكن الأدباء التبرؤ منها، إلا بأن يكونوا الأنموذج العملي للخلق القويم.

لم يشكك في نيات المقدم، لكنه انزعج من ردته الأخلاقية، بعدما طويت صفحتها أو تأجلت. للأسف، لم تُطوَ ولم تتأجل. وإن ظفرت جلساتهما بفترة راحة من الأخلاق. حسنًا، لا ريب أنه يتمتع بمناقبية أخلاقية عالية، يجب

التسليم بها. كيف تاه عنه انطباعه الأوليّ؟ إذا كان لم يتغير، فهذا المرض يعاوده بين فترة وأخرى؛ مجرد أن الجرثومة هاجعة.

لذلك لم يطمئن، عندما ظهرت على ملامح المقدم إمارات الثقة، ما أوضح أن لديه رأي مفحم. لم يكذب حدسه، كان موجزًا، وجامعًا مانعًا:

المحاسبة الأخلاقية هي الرد الحقيقي على جميع أنواع الشرور.

وبما أنه توقع شيئًا من هذا القبيل، أشفق عليه، هذا الرأس المفلطح مكمن الأخلاق، إذا أراد التوصل إلى حل معه، تكسيره أجدى. لو أن في داخله نزرًا من العقل، لما كان لهذا النقاش محل. أما والحالة عدم الفهم، فلا يجوز تركه نهبًا لأقداره الأخلاقية المتحجرة. لا بد من تسليط الأنوار عليها ودحضها، ولو أنه سيضطر إلى التشهير بالنظام:

عزيزي المقدم، إذا كانت أجهزة الدولة تغضّ النظر عن الرشى والاختلاسات والاحتيال، ولا يعاقب القانون مرتكبيها الكبار... فلماذا الأخلاق؟

وكأن حفنة من الهموم دهمت المقدم، ظهرت متعرجة على وجهه، كان تجريد الدولة من الأخلاق دفعة واحدة، كأمر مسلَّم به، قد أذهله. فسارع المفوض إلى تبريرها عالميًّا، لئلا يمتد النقاش:

حسنًا، أصلًا لا يوجد دولة في العالم لا تقوم على شراء الضمائر.

المقدم لن يلين، وهو بالمقابل لن يلين، إذا سمح له بإطلاق مواهبه العتيدة في اكتشافات ليست اكتشافات، وإنما واقع الحال، ففي المستقبل القريب، سيتحول الفرع إلى قلعة؛ الداخل مفقود والخارج مولود. قلعة لا تشذّ عن الفروع الأخرى، وإلا لم يكن فرعًا لأصل هو النظام.

في تلك البرهة، تردد في داخله سؤال حيّره:

لماذا في أكثر مفاصل هذه الدولة شرًّا يفكر مأفون بالأخلاق؟!

سيجيب المقدم عن سؤال آخر يتردد في داخله، ويناقشه بحمية، ويحدد جوهر المشكلة، ويرفقه بالحل:

إنّ أقل ما هو مطلوب من الأدباء، أن يكونوا القدوة لغيرهم، بما يمثلونه. إذا لم يعملوا بما يمليه عليهم الوازع الوطني، فللفرع الحق بجعلهم يدفعون ثمن تنكرهم للوطن.

تلكأ المفوض، ما خطر له لا يقال؛ هذا الوطن المهلهل، يقع خارج الفرع لا داخله، كان في استدعائه استثمار سيئ له، بعدما أحاله تسارع الرعب في أرجاء الجمهورية إلى كابوس، قال آسفًا:

إذا استمر الحال هكذا، فلن يتأخر اليوم الذي ستبحث فيه عن الوطن ولا تجده.

هل يقول له إن الوطن ينسحب شيئًا فشيئًا، ولا جدوى من إنقاذه، ما دام النظام يتحدث كاذبًا عن حلّ سياسي، بينما الجيش لا يعفّ عن قصف قرية ولا بلدة أو حتى مدينة. الأوامر هكذا، ولم يعد هناك بقايا للعهد السعيد للمظاهرات، حتى الخاطفة منها... لتحسّ أن هناك رأيًا آخر.

المقدم في عالم آخر، لا يحرز تقدمًا، عالق في تلك البداية الصعبة، لا يتجاوزها، يفتش في النيات، ولن تساعده. بينما وطن بحاله يسارع إلى الفناء، سواء مع الأخلاق أو دونها. المشكلة أنه يجهل عالم الأدباء بشكله العادي المبذول في الصحافة والمنابر والندوات، والمبتذل في الحانات والمطاعم. ليس أنه موضوع شائك، إنه بسيط جدًا، ما الجدوى من التعرف إليه؟ هذا لن يفهمه. كما لن يفهم أن الفرع لن يطاول المثقفين، عقدهم انفرط تحت تأثير الخوف، وانخرطوا في العجز. الذين في الداخل صامتون، أو عملاء يشاركون في إيجاد الذرائع للقتل، أما الذين خرجوا من البلد، فهم يثرثرون، يعتقدون أن العودة قريبة، بينما لا عودة قريبة، ربما ولا بعيدة. في البلد لا ثقافة ولا مثقفين ولا أدباء، يوجد ما يشبههم على نحو رديء.

أما المثقفون الحقيقيون في الداخل، فمن فرط يأسهم، أداروا ظهرهم للجميع، يعرفون العلة، لكنهم مقيدون... فلماذا الفرع؟

الوقت حان لإغلاق الجدل نهائيًّا. المقدم يحتاج إلى إصلاح تركيبة دماغه. كان على الرغم من صدقه مشوهًا بقدر كبير من السذاجة، الأخلاق تمسك بخناقه، وهذا ما حرضه على تجديد حربه على الأدباء، مبطنًا بنزوع خفي بات ظاهرًا إلى الانتقام منهم. يجب إغلاق هذا الفصل السقيم الأخير، قبل أن يستفحل.

بعد محاولات لم تُجدِ، أصبح إحساسه بالإحباط من المقدم طبيعيًّا جداً، أخلاقياته باتت تصيبه بالعجز، باتت تبهظه، لم يكن ضدها فعلًا، لكن المسكين يغالي بها. ما الذي يريده المهندس منه، أليس استجراره إلى إفساد المقدم؟

أحسّ بالحاجة إلى الشجار مع صديقه المهندس الذي لم يعد صديقه، لكن ليس قبل أن يستعيد صداقة كانت بريئة أيام الضيعة، تسمح بالتماسك بالأيدي، والتدحرج فوق التراب، والإطباق على عنقه، هذه المرة لن يتوقف قبل إزهاق روح رجل كان انتزاع صداقته من جذورها، قد تأخركثيرًا. وهكذا يكون الوداع قاسيًّا، لا مؤلمًا.

قرر المفوض إنهاء مهمته؛ تأهيل المقدم فكرة عبثية، الأفضل إرساله إلى القطعات المقاتلة، الحرب ينقصها الكثير من الأخلاق، هناك يجد ما يفعله،

على الأقل عدم التدرب على التصويب على الأسرى للمران فقط، ربما أنقذ بعضهم، ريثما تخترق رصاصة رأسه من الخلف.

اتصل بالمهندس، وكانت هذه نصيحته له، وراءها يكمن قطع صلته به أيضًا.

المقدم لن يتغير.

٢. فرع من النوع الراقي جدًا

لم يعتب المهندس على صديقه، ولو أنه فشل، لن يلومه، يعرف، لا تكفي عشرات البراهين لتفكيك منظومة المقدم الأخلاقية، المهمة صعبة. عَذَره، كانت الموانع أقوى من أن يتصدى لها، واجه الأخلاق بصورتها الغضة، القوية والراسخة.

لن يشكل الفرع ٦٥٠ عقبة أو عائقًا للمهندس، ليس إلا مهمة أوكلت إليه، لن يُعدّ انتصارًا إذا نجح، ولا هزيمة إذا أخفق. المهم ألا يلحقه من جرائها انتقاد. مهمة سهلة، حتى إنها لا تحتاج إلى تنفيذ، ما دام المطلوب فرعًا لا أكثر من هيكل من الأسمنت، وعسكرًا يحرسونه، وضابطًا في الداخل لا يفعل شيئًا.

اتصل به صديقه عارف ثانية، وأعلمه بأن المقدم أبدى تفهمًا جيدًا للمهام الموكولة إليه. فأدرك أنه لم ينجز شيئًا، المهمة على حالها، ويسعى إلى التنصل منها، بالتالي هذه المهزلة قد تنقلب إلى تراجيديا.

«هل تعلم أن حياة المقدم بين يديك؟».

«إذا قلت لك إنني أريد مغادرة البلد، فصدقني».

«إذاً ستسمع أخبارًا غير سارة بعد رحيلك».

«لا تقنعني بشيء».

فكان لا بد من إقناعه بإعلامه بها:

«سيغتاله الإرهابيون، إنهم يترصدونه، لقد فرغ صبرهم منه».

المهندس سيغتال المقدم. الرسالة موجهة إليه. يريد تحميله مسؤولية مقتله، هذا إنذار له، المهندس لا يمزح. هل يتجرأ؟ فكر، حتى لو كان المقدم خطًا أحمر، فالمهندس لا يعدم الوسائل والذرائع.

وعده المهندس بأن يساعده في مهمته، سيزور الفرع، ويحرص على الاجتماع بهما معًا، ويلزم المقدم بالخطة التي أقيم الفرع بموجبها، خطة لا تترك مجالًا لتغيير أو تعديل، حتى المصادفة لا دور لها، ستنفذ بحذافيرها.

لم يتأخر المهندس عن القدوم، وبما أن وقته ضيق، استهل حديثه، بطرح أمر غير خاضع للمناقشة، وتوجه بالكلام نحو المقدم:

« لن يفتتح الفرع، إلا بعد تأهيلك لرئاسته. أما متى؟ فغير مهم. إن لم يكن هذا العام، ففي العام المقبل».

ثم شدّد على نوعية العلاقة المستقبلية مع الأدباء:

«سيستقبلوا ضيوفًا، أكثر منهم زبائن».

ليكن بعلمك، أنّ لدى الفرع من المزايا النوعية ما يجعله متفردًا بمسؤوليات في منتهى التحضر، لا يضارعه بحداثتها أي فرع في العالم الأول والثاني والثالث. ما سأقوله سيقتصر على الحقائق فقط:

هل تعرف أنه لم يسبق لدولة، سواء كانت تقدمية أو رجعية، أو حتى إمبريالية، تخصيص فرع أمني على نمط هذا النوع الراقي جدًا؟ هذا الفرع سيشكل انعطافة هائلة في العمل المخابراتي، وبناء سمعة عالمية مرموقة، ستحاول الكثير من الدول تقليدنا.

لم يعلّق المقدم، أو يعترض، أو يسأل، الانبهار ظهر على وجهه من هذه النقلة الحضارية جدًا. بينما الاستخفاف بدا على ملامح المفوض. كان يعرف ألاعيب صديقه، لذلك توقع أن شيئًا بهلوانيًّا آخر في جعبته.

انتقل المهندس إلى النقطة التالية من برنامجه. كانت عن أسلوب التحقيق، وأتى على بعض التفاصيل الدقيقة حوله، لكن ليس قبل تصحيح وصفه، في الواقع لا يجوز إعطاؤه هذا الوصف، لئلا يشتبه في التحقيق المعروف، فهو متفرد، ويختلف عنه، بل ليس تحقيقًا بالمطلق. لن يزيد على حديث ودي. لن تأخذ الجلسة طابع الاستجواب، بل تبادل الرأي؛ لا أسئلة، بل تساؤلات عن القضايا المثارة، تتداعى إلى حوارات وتحليلات ومناقشات حرة. وبشرط ألّا تمسّ مشاعر الأديب المستدعى بأي أذى، بالمختصر، لن تستعمل الأيدي، ولا قارص الكلام، فقط العقل.

كما ترى، لا علاقة لإجراءاتنا بالتحقيق، وما سيحصل هو المناقشة للمناقشة، وإبداء الرأي للرأي، والثرثرة للثرثرة، من دون التعرض لأي نوع من أنواع القسر. مع الوقت، تتكون داخل الفرع مساحة حرة أشبه بمنتدى أدبي، يُستشف فيه ما يدور في أوساط الأدباء من موضوعات قيّمة أو مشبوهة، آمنة أو خطرة.

أعجب المقدم بما سمعه، وأحسّ بالارتياح، يبدو أنه في داخله كان يخوض صراعًا، جاء المهندس وحسمه، المصادر العليا تريد الفرع على هذا النحو الراقي.

هل هناك سؤال؟ قال المهندس.

تمنى ألا يكون لسؤال المقدم، إذا سأل، طبيعة أخلاقية، لئلا يعيد كل ما قاله إلى ما قبل الصفر. غير أن المقدم لم يظهر أية رغبة في السؤال. وكما بدا له، بشكل مؤكد، أنه استسلم، وخلفيته الأخلاقية باتت رخوة، وما سيثيره في المستقبل ليس سوى إشكالات هي من الكماليات، لا من الضروريات.

انتهى الحديث. التفت المهندس إلى صديقه ليرى تأثير كلامه، بدا راضيًا عمّا سمعه، ولم ينتبه إلى ملامحه التي تجمدت على تعبير غامض، بينما كان يرمق بطرف عينه المقدم، لن يستطيع بعد اليوم تخيله إلا ومسدس مصوب إلى رأسه.

اطمأن المهندس، وهو يغادر، إلى أنه أغلق وراءه جدران الفرع على قصة المقدم.

الأمر الذي فاته، أنه لا أحد يستطيع أن يعمل حسابًا للغيب، كانت هناك خريطة أخرى، الجميع في سياقها، لكن مَن ستأخذ في طريقها، ومَن ستدع؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثاني عشر
اللواء الحزين

١. معمعة الألقاب

في التمهيد لهذا الفصل، ثمة ملاحظة صغيرة لئلا يحصل ارتباك لدى القارئ، مع أننا ندرك أنها لن تفوته، ففي هذا الفصل ستتغير صفة الشاب سامر سفان، كما سبق وتغيرت من قبل. التغيير الحالي ليس بالجديد، وإذا كنا نلفت النظر إليه، فبداعي الحرص على ألا يلتبس علينا، والظن أن شخصًا آخر دخل إلى الرواية، بينما لا شخص دخل، ولا شخص خرج، فهما الشخص نفسه، فالمنصب أو العمل المسند عليه يسبغ عليه لقبًا خلال فترة أو مرحلة، سواء كانت عابرة، أو مؤقتة.

في هذا الفصل، سيتحرك تحت اسمه سامر تارة، وتارة أخرى تحت لقب الأستاذ، فقد كان أستاذًا لأحمد وحنان، ابنَي اللواء. كانت علاقته بالشاب أحمد علاقة الأستاذ بالتلميذ، الصفة نفسها مع أخته الشابة حنان، وإن غلبت عليه صفة العاشق الولهان، سواء كانت العلاقة عاطفية أو ما يزيد عليها، بينما بالنسبة إلى اللواء، فقد كان سامر بمثابة الابن له، كما مرّ معنا، بعدما كان الرقيب ثم الأستاذ.

ولا ننسى، في هذه العجالة، أن المثال الأبرز لتغير الألقاب هو ف.خ، الذي كان حسب المحقق، المفتش المختص، وفاعل خير، وربما أضيف إليهما مع تقدم الرواية ألقاب أخرى، حسب المواقف المتغيرة، وهذا راجع لحيوية ف.خ، ما يُسبغ على شخصه من صفات مستجدة جراء تنقلاته من موقع لآخر، والمهام التي يوكلها لنفسه، ما يتيح له تقمص شخصيات متنوعة، كلها مدينة للمرونة التي يبديها، وحسن أدائه للأدوار التي يقوم بها.

هذا إذا كان ف.خ شخصًا حقيقيًّا، فنحن لم نعلم بوجوده أو عدم وجوده إلا من طريق سامر سفان، لذلك نشير للمرة الثانية أو الثالثة، وقد تكون الرابعة، إلى أننا لا نضمن وجوده الا في الرواية، أما في الحياة، فسامر نفسه لا يدري إن كان يتخيله.

٢. حادث مؤسف

بينما كانت حركة تأهيل المقدم في الفرع بين تقدم وتراجع، حدثت بالموازاة معها، قصة أخرى، لا علاقة لها بالفرع. بدأت بطلب المحقق من المقدم بحضور المفوض الموافقة على إجازة بضعة أيام للسفر إلى ضيعة مغربال لأمر طارئ. توجه بطلبه إليهما، وكانا معًا، فهو لم يدر بعد أيهما الآمر الناهي

في الفرع. ما أدهشه أنهما وافقا فورًا دونما تردد، ولاحظ أن المقدم الذي بادر أولًا، لم يشاور المفوض.

لم يدر أن المهندس كان قد اتصل بالمقدم، وتكلم أيضًا مع المفوض قبل عشر دقائق، وأبلغهما بالتالي منح المحقق سفان دونما تأخير إجازة مدتها ثلاثة أيام، لأسباب إنسانية؛ توفي قريب عزيز عليه، والواجب يدعوه إلى المشاركة في العزاء.

ما الذي جرى حتى تدخّل المهندس بالذات بطلب إجازة للمحقق سامر؟

البارحة، طلب العميد حسين من المحقق الحضور إلى مكتبه فورًا، وأعلمه بوفاة الشاب أحمد ابن اللواء المتقاعد محسن درواد، جراء حادث مؤسف، لقد غُدر به، والفاعل مجهول. عثروا عليه صباحًا باكرًا صريعًا، جثته مرمية على قارعة الطريق، وكانت مشوَّهة. جرى التعرف إليها بصعوبة. التفاصيل غير واضحة. أبوه اللواء لم يعرف عن ملابسات الحادث سوى أنّ ابنه ذهب ضحية اشتباك جرى ليلًا مع الإرهابيين. أما حقيقة مقتله، فلم تكن كما جرى تداولها، كانت مختلفة تمامًا. تمنى على المحقق الشاب ألّا يعرف بها الأب اللواء.

لم يكن للعميد حسين أن يعلم بمقتل أحمد، لولا تلقيه اتصالًا من الأب اللواء محسن، الحزن أعماه وخنق صوته، التمس منه أن يكون سامر إلى جانبه في محنته. وبما أن الظروف لا تسمح بإجازات مهما كان السبب، لجأ العميد إلى المهندس، وحده يمون على الفرع، كان تحت إشرافه. والأفضل، أن يكون على علم بحركة المحقق الدمشقي، لئلا يُختلق من ذهابه إلى مغربال قصة أمنية. إذا اقتنع سيأمر المقدم بالموافقة على الإجازة؛ الجنازة لا تحتمل التأخير، ستنطلق غدًا في موعدها ظهرًا.

استغرب المهندس أن يتوسطه العميد لإرسال المحقق لمواساة اللواء، كأن الشاب الذي كان رقيبًا في الجيش، ثم محققًا في المخابرات، على قدم المساواة مع ضابطين كبيرين أحدهما عميد يمارس عمله ضابطًا أمنيًّا في القيادة، والثاني لواء متقاعد على وشك استعادة رتبته. سأله:

«ألن تحضر العزاء؟».

«سينقل المحقق سفان مواساتي واعتذاري».

لم يحرجه السؤال؛ اعتبر تكليفه المحقق الدمشقي بأن ينوب عنه أمرًا طبيعيًّا، مع أن التعزية بحكم علاقتهما الشخصية الحميمة، لا يليق أن تكون بالوكالة.

«كان من المستحسن مشاركتك اللواء مصابه الأليم، أليس كذلك؟».

«تعْلمْ الأوضاع لا تسمح».

لم تُخفِ ملامح المهندس وساوسه الأمنية من العميد الحزين واللواء المفجوع والمحقق الدمشقي، كأن العزاء مؤامرة ثلاثية. اضطر العميد إلى التوضيح:

المحقق سفان كان الأقرب إلى اللواء محسن. في السنوات الأخيرة، كان بمثابة أحد أبنائه. للأسف، ابنه الشهيد أحمد، تمرد عليه وترك البيت، وابنته تدرس في الجامعة. إنه وحيد تمامًا، ولا سيما الآن في محنته.

استغرب المهندس أن يكون الابن المتمرد شهيدًا.

«ما الذى تعرفه عن الحادثة؟».

«في الحقيقة، لا شيء، كذلك أبوه».

اتصل المهندس بقيادة منطقة الساحل، واستفسر عن الحادثة، فأعلموه بالتفاصيل. بعدما أغلق الهاتف، علّق بأن الولد أحمد ليس شهيدًا، لكن سيعامل معاملة الشهداء كرمى لأبيه اللواء.

«هل من الصواب أن يحلّ المحقق سفان محلك؟».

«ليتني أستطيع أن أكون إلى جانب اللواء».

«صداقتكما، صداقة عمر. لا ريب تشعر بالتقصير».

«نعم، الأولى حضوري».

«أظنك أرسلت إليه برقية».

«إنها رسمية. لا تفي بالغرض».

بدا تعاطف المهندس لن ينتهي. لكنه سيغير الحديث.

«بلغني أنك رشحته لمنصب مستشار عسكري في الأركان».

«خسائرنا عالية من ضباط الجيش، عدا أن خبرة اللواء...».

«أعلم... أعلم».

قاطعه، وأنهى المقابلة.

بدا، وكأن كرم أخلاق المهندس، دفعه إلى التعاطف مع محنة اللواء، إلى حد أنه لام العميد على عدم قيامه بالواجب نحو صديق العمر. لكن مهما بلغت سذاجة العميد، لن تودي به إلى هذا الظن الحميد.

كان المهندس يستنطقه، هكذا أسلوبه في التحقيق.

استغل العميد ذهاب المحقق سامر للتعزية، وكلفه استمزاج رأي اللواء بالمنصب المرشح له، والإلحاح عليه بالقبول.

«قل له، إن ترشيحه حاز موافقة قيادة الجيش».

المشكلة، اللواء ضد تسلم أي منصب.

«ما يجب أن يعلمه، ظهور بعض المستجدات».

ما الذي تغير؟ طبعًا الكثير، المشكلة أن هذا الكثير لن يشجعه على التعاون. وأكد على سامر، استغلال مكانته لدى اللواء، للتأثير في قراره.

«هناك ترتيبات جدية لإرضائه، الجيش بحاجة إليه فعلًا. عدا والأهم، استعادة مكانته العسكرية ستساعده على الخروج من وحدته، وتخطي مأساته».

وشكا مذهولًا وهو ينظر إلى الخريطة:

«لولا الأزمة، لكنت إلى جانبه. الحرب لم تترك بقعة لم تصل إليها».

بدا العميد وكأنه يتكلم مع نفسه. عندما تنبّه، أحسّ أنه قال ما لا يصح قوله، كأنه يضيق بأعباء الحرب. ثم تذكر شيئًا، لقد حاول الاتصال مرارًا بحنان، ابنة اللواء، ولم يعثر عليها.

«هل تعتقد أنها في طريقها إلى الضيعة؟».

«إن لم تكن هناك الآن».

طلب منه ألّا يتأخر في السفر. اللواء في موقف عصيب، أبلغه تعازيي واعتذاري.

كان يكذب، حنان في مكان ما في دمشق، وحتى لو عرفت، فهناك ما يمنعها، ستتذرع بمسؤولياتها، وإذا ذهبت ستتشاجر مع أبيها. إنها في عالم عاصف جميل، لن تستبدله بالبكاء والعويل، وإن سيحاول إعلامها بالحادث.

٣. لوحة الأمجاد

لا تتعدى المسافة إلى «مغربال» مائتي كيلومتر. الحركة البطيئة على الحواجز، أجبرت سامر على الانتظار، ريثما يحل دوره، وهكذا من حاجز إلى حاجز. ساعده أمر المهمة الصادر عن الفرع، والبطاقة الأمنية على عدم التوقف طويلًا للتفتيش على الحواجز العسكرية، لكنه اضطر إلى سلوك طرق التفافية، خشية الاصطدام بالجيش الحر، أو فصائل المعارضة المسلحة، أو مقاتلي المليشيات المحلية الصديقة. فقد ينقلبون إلى قطّاع طرق، رغم رايات بعضها المذهبية، وربما المسيحية. بعدما أشهرت الأديان

الخاشعة للرب شعاراتها الدموية، لا تمييز بينها. باتوا جميعهم تواقين إلى الذود عن حياض المقدسات.

لم يكن وصوله إلى الضيعة بالأمر السهل، كان مخاطرة. كاد أكثر من مرة خلال الطريق أن يكون بمرمى تبادل إطلاق النيران بين المتقاتلين. وكان متطيّرًا من انفجار لغم مزروع على الطرقات، وربما صاروخ من طائرة تحوم في السماء، هذا إن لم يُختطف، أو تدركه رصاصة قناص... لا شيء يحميه سوى السرعة والحظ.

لم تلُح «مغربال» في الأفق إلا بعدما قطع الأمل في إدراك الجنازة والمشاركة فيها. خلافًا لما اعتقده، دخل الضيعة قبل موعد الدفن. في الوقت الملائم، بعد صلاة الظهر، مع انطلاق موكب التشييع من الجامع سيرًا على الأقدام، متخذًا دربه إلى المقبرة القريبة.

في المقدمة، عربة الإسعاف تحمل جثمان الشهيد الشاب، خلفها سيارة جيب عسكرية، وسيارتان تابعتان لقيادة المنطقة، تلتهما عربة دفع رباعي تصدح بالقرآن. العربات مجللة بأكاليل الورد، لم تَبقَ جهة عسكرية في المنطقة لم ترسل إكليلًا. المشرفون على توزيع الأكاليل وترتيبها، حاذروا إخفاء صور الرئيس الملصقة على مقدمة العربات وزجاج المؤخرة، من خلال الورود يظهر الرئيس بوجه مبتسم، أو بالنظارات السوداء، أو تلك التي تجمعه مع أخيه يحدقان بشراسة في شيء ما، كتب تحتها: هكذا تنظر الأسود.

على جانبي الطريق تجمهر المارة، أخذ بعضهم بالتسرب من الأرصفة إلى موكب الجنازة. شبان اللجان الشعبية يطلقون الرصاص في الفضاء، اختلط دويها بصوت القرآن، وامتزجت مع هتافات الحناجر المبحوحة:

«بالروح بالدم نفديك يا بشار».

مشى على الرصيف بمحاذاة الجنازة، سارع بخطواته، وجال ببصره بين الأبنية المنخفضة، والفيلات البعيدة على التلال. لم تكن «مغربال» ضيعة كما كان يتصورها. كانت بلدة. ثمة شارع رئيسي وطرق متفرعة منه، وعلى مد النظر، لاحت أزقتها الضيقة، وأسواقها المتشعبة، ودكاكين تنوعت لافتاتها، كانت مغلقة، بسبب الجنازة.

على طول الشارع، علقت في العالي لافتة كتب عليها: «الشهداء أكرم من في الدنيا وأنبل بني البشر»، كانت من أقوال الرئيس الراحل. بينما امتلأت الجدران بالصور الملونة للشهداء، شبان مزنَّرون بجعب الذخيرة، يتأبطون أسلحتهم، أو يلوِّحون ببنادقهم، مستعدون للقتل والقتال، نظرات التحدي في عيونهم تقدح عنفوانًا... لن يتجرأ الموت على الاقتراب منهم، لكنه غَدر بهم.

وشبان أيضًا من فرط وسامتهم، البراءة تطفح من وجوههم، تليق بهم الحياة الجميلة، ابتساماتهم الخجولة بدت اعتذارًا عن السلاح، كأنهم راعوا أن تُلتقط صورهم خصيصًا لهذا الفراق الذي أسبغ على وجوههم ملامح الوداعة والحزن، يرحلون مرغمين، الحرب لم ترأف بهم.

لم تتخلف عن صور الشهداء جميع الرتب العسكرية من المجند إلى اللواء، إضافة إلى رتب الشرف الممنوحة لشبان المليشيات والقوات الرديفة. الموت العظيم محجوز للشهداء المدافعين عن الوطن.

بدا مهرجان الشهادة على الجدران، منيعًا على الأموات العاديين، لم يلمح أوراق نعي للأهالي من كبار السن. إذ لا يحق لموت تافه على الفراش الظفر بحيّز على لوحة الأمجاد. كانوا يشيّعون خفية وبخجل، كأنهم طوال حياتهم لم يكدوا ويفرحوا ويحزنوا، ويرزقوا أولادًا وأحفادًا... لم يعيشوا بفخار، حتى يموتوا بخيلاء.

انعطف الموكب في زقاق ضيق، المقبرة في نهايته. تطاول برأسه يبحث عن اللواء، ظن أنه في إحدى تلك السيارات لا يقوى على السير. لكنه رآه، عرفه من شعر رأسه الأشيب، يلوح بين الرؤوس، يتقدم المشيعين مشيًا على الأقدام.

الموكب يخطو ببطء، لاحقه من بعيد مقتربًا من الصفوف الأولى، إلى أن حاذاه في موقعه على الرصيف. كان اللواء يمشي الهوينى، ثم رآه يميل مندفعًا نحو اليمين، منحرفًا عن خط سير الجنازة. بادر رجل يمشي معه وشده من يده. فارتدّ وراء النعش يترنح إلى اليمين واليسار، نظراته هائمة، يكده العرق، ساهمًا لا يعي ما حوله.

نزل سامر عن الرصيف، تخلل صفوف المشيعين وزاحمهم ليأخذ مكانًا إلى جانب اللواء. لاحظه مجهدًا، بحاجة إلى من يعينه على إكمال مشوار الدفن. نجح في التسلل بينهم وتخطيهم، أثار انزعاجهم وتكهناتهم، لم يكن من البلدة. تجاهل همهماتهم ونظرات الاستهجان التي رمقوه بها.

لدى وصوله إليه، تأمله من قرب، لم يكن كما عرفه، ولا كما بدا له من بعيد. بدا هرمًا جدًا، يتحامل بصعوبة، حزينًا ومهمومًا، يلوب بنظراته الذاهلة، يتمتم بشفاه مشققة مرتجفة. فأحاطه بذراعه، التفت اللواء ورآه، توقف للحظة، ونفض عنه ذهوله. عانقه وزفر زفرة قوية:

«لقد انتهيت».

للوهلة الأولى، لم يستوعب ما سمعه منه، فهز اللواء رأسه بعصبية، وشرح مغمغمًا:

«أنا ميت».

واتكأ على ذراعه، بعدما أبلغه بخبر موته، وتابع السير كأنه ذاهب إلى قبر ابنه ليُدفن معه.

الموكب الذي توقف للحظات، عاود التقدم. سمع رجلًا يقول للذين حوله:

«إنه قريب لسيادة اللواء».

«لو أنه يقرب اللواء، لعرفناه».

تناهت إليه أصواتهم منخفضة، محملة بتعليقاتهم؛ إذا كانوا لم يلمحوه في مغربال من قبل، فلا يحق له تصدر الصفوف، ولو كان قادمًا من العاصمة، فالشهيد شهيدهم.

أثار شكوكهم، منذ سمعوه يعتذر منهم، وهو يشق صفوفهم، تميزوا لهجته، كانت مألوفة، من كثرة ما سمعوها في التمثيليات الشامية. جزموا، الشاب من دمشق. تحزروا همسًا، اللواء مثل غيره من الضباط الكبار، تزوج امرأة شامية، وأنجب منها هذا الشاب، أخفى زواجه، والجنازة فضحته. سرت الإشاعة من الصفوف الأمامية إلى الصفوف الخلفية. راقهم ما تناقلوه، ابنه الشامي أخرجه عن صمته، ألم يعانقه اللواء، وذرف دمعة على كتفه، واعتمد على ذراعه؟

حول موائد الطعام في خيمة العزاء، لم يخطر للواء أن يشكر قائد المنطقة، الجالس إلى جواره، على ما بذله تكريمًا للشهيد، بالتبرع بكلفة الطعام والشراب، ولم يكن بالشيء القليل، إذ لم يسبق لميزانية المنطقة أن أخذت على عاتقها موائد، ولو كانت متقشفة. فالبلد يعاني من نقصان كل شيء. يسقط بين يوم وآخر عشرات الشهداء، ولم يحظ واحد منهم، بما حظي به ابن اللواء.

تنحنح قائد المنطقة بعدما نهش فروجًا بكامله، وابتلع كراديش اللحم، وكرع إبريقًا من اللبن العيران، طبطب على كرشه، وتناول عودًا وأخذ ينكش أسنانه مما علق بها من نثار الطعام، قبل أن يهجم على الفواكه والحلويات. ثم تجشأ وبلع ريقه، وألمح إلى أنّ هذا القدر من الكرم المفتوح، كان تقديرًا لسيادة اللواء.

تجاهل اللواء ما سمعه، أو أنه لم يسمعه. لم يتناول لقمة واحدة، أبقى فمه مزمومًا وحزنه مهيمنًا. تناول سامر بضع لقيمات سدّ بها جوعه، ثم آزر اللواء بزمّ فمه. لم يستغرب مجاملة قائد المنطقة، هذا السخاء ليس مجانًا، القيادة في دمشق أوعزت إليه بمعاملة اللواء بسخاء. يبدو أنهم باشروا العمل على

استرداده إلى الجيش، المأدبة كانت تعويضًا له عن تسريحه، وترحيبًا بعودته. لا شيء بلا مقابل. عقّب قائد المنطقة مؤكدًا:

«سيدي اللواء، مكانتك محفوظة».

تُرى، هل يعرف اللواء الحجم الفعلي لمصيبته؟ تقدير القيادة له، تجاوز أيضًا الملابسات التي أحاطت بمقتل ابنه، ربما يجهلها، حسب نعي ابنه على صفحات التواصل، كان شهيدًا، قتل في اشتباك مع إرهابيين حاولوا اختراق الحاجز في مدخل مغربال الشرقي، فاستبسل في الدفاع عن البلدة، وسقط مضرجًا بدمائه الطاهرة.

ما الذي يدور في ذهن اللواء؟ خمن أنه لا يعرف أن أحمد لم يستشهد دفاعًا عن البلدة. إذا كان تخمينه في محله، فلن يشير إلى الحادثة، لئلا تتأزم حالته. العميد حسين طلب منه التكتم حول الحادثة، وكما وصلته، اندلع الشجار بينه وبين أصدقائه الشبيحة عقب اقتحامهم محل بائع مجوهرات، على أثره تلقى الرصاصات القاتلة. كانت الغنيمة كبيرة... ومميتة.

الحقيقة قد تقضي على الأب، قيادة المنطقة كرست القتيل ضحية الإرهاب لا شهيد المنهوبات. سمعة اللواء لن تُمَسّ بأذى، البيان الصادر عزز شهادة الشهيد، ولو أن أهالي مغربال شككوا في قصة الشهادة والإرهاب، لم يقتنعوا بها، ما داموا يعانون من الفدية والملثمين.

طوال طريق العودة إلى البيت، تأبط اللواء ذراع سامر. الفجيعة احتلت الصمت وأوغلت فيه، دموع اللواء تحجرت، ولا شيء يعزيه عن فقدان ابنه.

٤. قصة أحمد التشبيحية

أثار تخلف ابنة اللواء عن حضور عزاء أخيها تساؤلات الأهالي، المأتم لم يحظ بما يليق به من التفجع، مع أن الأهالي شاطروا اللواء مصيبته بالدموع، لكنه سيرتد وحيدًا، الشاب الدمشقي سواء كان ابنه، أو لم يكن، شد أزره بشحنة عاطفية، أعادت إليه شيئًا من الرشد، لن تطول، بعدها سيعود إلى العاصمة.

لو علموا أن الشاب لا يمتّ بصلة إلى اللواء، لأثاروا تساؤلات أكثر استهجانًا. ماذا سيقولون لو عرفوا أنه لم تمضِ على أبوّة اللواء بضع سنين. كان الدمشقي قبلها يربض في خندق بكتيبة متقدمة على الجبهة في الفرقة ٢٤، يؤدي خدمته العسكرية برتبة رقيب باختصاص شؤون إدارية، وكان أسوة بباقي الجنود، لا وجود له إلا على قوائم ملاك فرقة تضم الآلاف من اختصاصات متنوعة، ولولا قصة الدروس الخصوصية لما تبناه اللواء.

وبما أننا نعرف هذه القصة، لن نعيدها، أقاويل أهل الضيعة لن تقدم ولن تؤخر، كل ما يمكن قوله، أنه كان مُحرجًا إزاء اللواء الذي كان شبه غائب عن

وعيه، وإذا صحا اضطرب ودهمته الذكريات.

لا، لم يكن الابن البار، وعده برعاية أحمد وحنان، وأخفق بوضعهما تحت رقابته. أحمد أفلت منه بعد أيام، ترك الجامعة واختفى في دمشق. أما حنان، المفترض أن تكون صلة الوصل بينهما، فلم تساعده. كانت رعايتها مطلوبة أكثر. داومت في الجامعة، وفي الكلية أخذت على عاتقها استفزاز زملائها من الطلبة المناهضين للنظام، وتعدت عليهم بالاتفاق مع رفاقها من أولاد الضباط والمسؤولين. لم تتورَّع عن التحريض على اعتقالهم وتقييدهم في مكاتب اتحاد الطلبة، وضربهم وتسليمهم لدوريات المخابرات. لم تكن هذا التصرفات جديدة. كان لها السبق في قيادة مظاهرات الموالين من الشبان والفتيات في ساحة الجامعة، ردًا على مظاهرات المحتجين، والتراشق بالشعارات والحجارة. أدت انشغالاتها التشبيحية إلى انحسار لقاءاتهما النهارية والليلية، وباتت على ندرتها حسب موعد مسبق.

أما أحمد، فقد ظهر بعد اختفائه بعشرة أيام، وفاجأه بالسفر من دمشق، مخلفًا وراءه على الهاتف بيانًا وطنيًّا زاعقًا: الواجب يحتم عليه الدفاع عن مغربال، قبل أن يجتاحها الإرهابيون. وختم البيان، بأن تخليه عن الجامعة كان لإنقاذ ضيعة الأجداد. وقتها، أعلم اللواء أنه فقد أثر أحمد في دمشق. لم يدعه اللواء يكمل، لديه الخبر اليقين؛ أحمد في الضيعة، لا يريد العودة إلى الجامعة، ينام خارج البيت لدى أصدقائه، أخباره الأخرى سيئة أيضًا.

بعد أيام، تلقى اتصالًا من تلميذه المقاوم، يعلمه بمآثره البطولية، أصبح في عداد دورية للدفاع الوطني، تجوب أرجاء المنطقة بحثًا عن كمائن العصابات الإرهابية، والكشف عن عملاء متنكرين، ومعارضين خونة، وتحرير مختطفين... والكثير من هذه المغامرات البطولية.

استحثّ تلميذه المتمرد على مصالحة أبيه، والعودة فورًا إلى دمشق، ليستدرك ما فاته من محاضرات في الكلية. غضب أحمد، هل يتسكع مع الفتيات في مماشي الجامعة، ويجالسهن في كافيتريا «النجوم»، بينما «مغربال» مهددة من الفصائل الإسلامية؟

أخباره اللاحقة، علم بها من حنان، أنه ترك مليشيا الدفاع الوطني، لم يلتزم بهم إلا بضعة أشهر، وانضم إلى اللجان الشعبية، وأخيرًا التحق بالشبيحة، بتزكية من صديق له. عقّبت على أخباره بأن تأثير هذه النقلة كان جيدًا على شخصيته، الولد أصبح رجلًا دفعة واحدة، التشبيح أعاد تكوين شخصيته على نحو أكثر ثقة بالنفس.

كانت النقلة واسعة جدًا، من الجامعة إلى التشبيح؛ يستحيل تصور أحمد شبيحًا. لكن اكتسابها لم يكن صعبًا؛ يكفي أن يحمل سلاحًا، ثم يشبح على

حاجز، ليعثر على غنيمة، يحصل من ورائها على فدية بمئات الآلاف.

أبدت حنان إعجابها بما حققه أخوها من تقدم في طريق الرجولة.

ما الذي يدعو للإعجاب في تحوله إلى مجرم؟ قال لها.

اجتمع معه، بعد أكثر من عامين، عندما جاء إلى دمشق. تواعدا على اللقاء في مطعم بحارات دمشق القديمة. كانت المفاجأة محبطة، أعطاه عنوان مطعم، كان ملهى. انتظره هناك. وكما لم يره من قبل، ظهر من خلال حلقات الدخان وضجيج الموسيقى، وطاولات تناثر حولها الرجال ببدلاتهم الرسمية والعسكرية المبرقعة، بعضهم كانوا مسلحين؛ مسدسات وقنابل وجعب ذخيرة، بينما النساء بأروابهن القصيرة، مكشوفات الصدور والنحور، يتناوبن الرقص على إيقاع الدربكة... وضجيج النصر.

قبل أن يجلس، تمايل أحمد مستعرضًا جماليات جسده بإبراز عضلاته، وإظهار المسدس على خصره. تلميذه القديم تغير، بات واحدًا من هؤلاء الذين يعجّ بهم المطعم، كانوا لحظتها يرفعون الأنخاب، ويضحكون بأصوات عالية... في احتفال، كأن الحرب انتهت.

الولد الذي أصبح رجلًا، تضخم إحساسه بأهميته، تبجح بفجاجة بعظم المسؤوليات الملقاة على عاتقه. كان على رأس دورية شبيحة تقوم بالمداهمات والمطاردات والاشتباكات، لكن الأمور أحيانًا ليست على ما يرام، هناك من يسعى للإساءة إليهم.

لم يخف شكواه، كانت غامضة تدور حول جهات متنفذة تتسلبط على جماعته، الوضع غير مريح؛ نحن لا نملك أمرنا.

استغرب الأستاذ؛ شبيحة، ولا يملكون أمرهم؟!

سيفسرها أحمد على نحو سافر... نحن نعمل بلا مقابل. وشَابَ نظراته شيء من التقزز والفتور.

تلميذه القديم، لم يكن سعيدًا كما هؤلاء الذين حولهم تجعر أصواتهم بالبهجة والحبور. ما يعاني منه لم يكن مخاوف، بل تعديات حقيقية.

أخيرًا أفصح عن السر: عائدات التشبيح تتعرض للتشبيح!!

من هؤلاء الذين تخولهم سلطتهم التشبيح على الشبيحة؟!

«شبيحة مثلنا، يزعمون أنهم متعهدو التشبيح في المنطقة».

خطر له أنه لم يأتِ ليطلعه على شخصيته التشبيحية إلا عرضًا، ربما كان يرغب في العودة إلى الجامعة، وإلا فما الذي جاء يفعله هنا؟

كان على خطأ. جاء أحمد إلى دمشق ليطلب المساعدة. حسب قوله، يريد وضع حد لمقتلة قد تعصف بمغربال، الاصطدام بين الشبيحة على وشك الوقوع. ولم يكن اجتماعه معه إلا ليسأله إذا كان يعرف مسؤولًا يستطيع مساعدته.

«من أنا حتى أساعدك؟».

«لا بد تعرف أحدًا، أو دلني على شخص يعرف».

اعتذر بأنه لا يعرف، وحتى لو كان يعرف، فلن يتدخل.

في الحقيقة، لم يكن أحمد بحاجة إليه، كان يمضي الوقت معه، ريثما يأزف موعده بعد منتصف الليل مع شخص يتولى منصبًا رفيعًا يخوله التدخل والتأثير في الخلافات الجارية في مغربال.

الموعد هام جدًا، كان أحمد يريد استباق مفاعيل قانون صادر حديثًا، قانون سري أُبلِغ إلى كبار الشبيحة في البلد: قانون تنظيم التشبيح في أرجاء الجمهورية.

٥. تحت ظلال القانون

قبل أن يعود أحمد إلى مغربال، رآه مرة أخرى. لم يكن على ما يرام. كان غاضبًا إلى حد أنه أشار إلى وجود مؤامرة، ورثى الأيام الذهبية للتشبيح، عندما كان على البركة، لا حساب ولا محاسب أو حسيب. كانت مصلحة الوطن هدف الشبيحة الأول والأخير. أما اليوم، فضاعت هيبته بعدما دخله ما هبّ ودبّ، وترأسه المحتالون.

الخلاصة: استطاع متعهدو التشبيح تجيير قانون التشبيح الجديد لصالحهم، وتثبيت سلطتهم المطلقة. ولا شيء يمنع من سريانه.

خسر أحمد الهدف من قدومه إلى العاصمة، وأخفق في إيجاد قناة مع الجهة المركز في العاصمة. ما زالت تبعيته للمنطقة، لم يطرأ عليها تعديل. وضعه التشبيحي القديم ما زال على حاله، ما أصابه بالإحباط.

لم يفهم أستاذه شيئًا من التبعية والجهة والمركز، سوى أنها فذلكات، يدلل بها أحمد بالتوريات على أنه يتكلم كالسياسيين. التشبيح عشوائي، بينما أحمد يتكلم عنه وكأنه مؤسسة، ربما كان صحيحًا. لِمَ لا، ما داموا ابتكروا قانونًا لتنظيمه؟

أخطأ الأستاذ عندما لم يقدّر خطورة ما أقدم عليه تلميذه الذي أصبح شبيحًا ذا اتصالات لا يستهان بها، ولو أنها أخفقت. كان أحمد بنزوله إلى دمشق، قد تجاوز مسؤول التشبيح في المنطقة، مخاطرًا بمستقبله التشبيحي.

الرجل ذو المنصب الرفيع الذي قابله بعد منتصف الليل، كان مسؤولًا كبيرًا على علاقة وثيقة بالحرب والقصف وضباط الجيش النظامي والحزب، وقادة المليشيات المتنوعة العادية والوطنية واللاوطنية والمذهبية والعابرة للأديان والقوميات، والتشبيح بفصائله وتنويعاته ودرجاته ومصادر تمويله... والأهم صلته بالقصر الجمهوري.

في مقابلته مع المسؤول الكبير، أعلمه أحمد أن الجهة المسؤولة عن التشبيح في المنطقة، تتسلبط على مجموعته والمجموعات الأخرى؛ إن ما تدفعه لهم لقاء تعريض حياتهم للخطر، أقل من الكفاف، بالكاد شيء يذكر، إن لم تسلبهم كل شيء. تزعم أنها تموّل التشبيح وتدفع رواتب لأهالي الشهداء، لكنها تسرق الحصة الأكبر.

«بصراحة، لو لم نقتطع من عملياتنا ما يسد الرمق، لكنا نعمل ببلاش».

كان يتكلم باسم مجموعته التي فوّضته بالطلب من المركز أن تكون علاقتهم بهم مباشرة، لا من طريق وسيط.

ردّ عليه المسؤول بأن العمل التشبيحي ليس سائبًا؛ كل شيء يتم بمعرفتهم، متعهد المنطقة، يأخذ منهم ومن غيرهم، ليدفع إلى متعهد تشبيح المناطق الغربية، ومنها إلى متعهد التشبيح في العاصمة، ثم إلى متعهد التشبيح في الجمهورية، ومنها إلى... وهنا توقف، الحلقة الأخيرة يجهلها، أي يحظر الإتيان على ذكرها.

هذه التراتبية، يُحظر تجاوزها أو التلاعب بها، سواء كان بمقابل أو بلا مقابل. قانون التشبيح أصبح متعارفًا عليه، وإن لم يكن مكتوبًا، أخذ بالحساب كل ما ليس بالحسبان، فإذا كنتم تقتلون وتذبحون وتخنقون وتشوهون وتخطفون وتغتصبون بسبب وبلا سبب، فسيأتي يوم تُسألون عما اقترفتموه، هذا وارد جدًا، وليس مستبعدًا، لن يكون الحكم أقل من الإعدام. بينما عندما يكون هناك متعهد، فهو المسؤول عن تصرفاتكم، حتى الإجرامية منها، وتخليصكم من حبل المشنقة، مهما كان ما فعلتموه، بتنزيل العقوبة من الإعدام إلى المؤبد، أما الحرية، فالعفو الرئاسي قادم.

هكذا تكلم معه المسؤول الرفيع بكل شفافية، وكان تحذيره مخيفًا، نبهه بشدة إلى عدم جدوى البحث عن ثغرة في قانون تنظيم التشبيح لاستغلالها، ولو وجدت، فهو يشمل أراضي الجمهورية دونما استثناءات، واعتُمد بشكل نهائي، منعًا للفوضى والتقاتل بين مجموعات الشبيحة، وكانت تندلع بين وقت وآخر بتأثير الكبار، وتخمد بتدخل الكبار.

لا تجاوز لقانون التشبيح، الغبن أصبح منصوصًا عليه قانونيًّا. سيبقى كل شيء على ما هو عليه، ولا رجعة عنه. لم ييأس، وإن بدا مهمومًا، خشي العودة إلى مغربال خالي الوفاض. لو أمكنه معرفة المفتاح الذي يصله بمسؤول التشبيح الأول في الجمهورية، لانحلّت أموره كلها. وكان من سابع المستحيلات؛ مجرد التفكير في اختراق هذه السلسلة، والوصول إلى قمتها التشبيحية، حماقة كبرى.

بهذا الإخفاق، انتهت الجلسة، ولن يراه بعدها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثالث عشر
لقاء مع فاعل الخير

١. تعزية بعد منتصف الليل

هل كان من قبيل المصادفات، أنه في تلك الليلة، لم يشعر سامر بالحاجة إلى النوم؟ ما أكثر الأفكار التي انقدحت في ذهنه! وصادف أنّ اللواء كان نائمًا، مع أنّ المتوقع ألّا تغمض عيناه طوال الليل.

مناسبة هذه التساؤلات، أنه سمع طرقًا على الباب أكثر من مرة، ولئلا يستيقظ اللواء، نهض من الفراش وفتح الباب. فوجئ بالشخص الذي لا يمكن أن يلتقيه في مغربال في عتمة الليل. كان الرجل هو المفتش والمحقق المختص، والمتطوع لفعل الخير، ف.خ. ما الذى جاء به؟ إذا كان يقصده بالذات، فكيف عرف أنه هنا؟

قاده إلى غرفة القعود من دون كلام أو سلام. جلس بعدما جال ببصره في المكان، ثم كأنه يتكلم همسًا، أو بلا صوت، ويهزّ رأسه موافقًا على شيء ما. ازدادت دهشة سامر من هذا الموقف، حركات فاعل الخير كانت إيمائية، وكأن ما جاء من أجله سينجز في الصمت. خطر له أنّ حضوره كان لواجب التعزية التي تجري بلا كلام في دمشق، بينما في المدن الأخرى بكلام أو من دون كلام. الأغلب أنّ فاعل الخير اعتبرها من الأعمال التي يثاب عليها، وخشي أن تفوته، فجاء ليلًا. وإن كانت غير مستحبة في هذا الوقت المتأخر.

لم يدعه ف.خ يتحزر، قال له إنه جاء إلى المنطقة بمهمة تفتيشية، فسمع بقصة استشهاد أحمد، وأراد مواساته، وأثنى عليه لمشاركته اللواء مصابه، لديه بعض المعلومات، لن يقولها له، قبل أن يسمع منه ما يعرفه.

لم يحضر فاعل الخير للتعزية فقط، بل على علاقة بمقتل أحمد، وإلا لم يسأله. فاستعد للإجابة عن أسئلته، مدركًا أنه في حضرة المفتش ف.خ، وكل كلمة يقولها ستكون بحساب، وإن نازعته نفسه عدم البوح بما يعرفه، لكنه تذكر بقوة أنّ هذا الرجل مهما تبدلت المهمات التي يقوم بها، والصفات التي ينتحلها، بوسعه الوثوق به، خاصة أنه في عداد شبكة الذين لا يعرف بعضهم بعضًا.

روى على مسامعه كيف لقي أحمد حتفه، إثر شجار بين أفراد جماعته، سببه الطمع عقب اقتحامهم دكان صائغ، الغنائم كانت وفيرة، فاختلفوا على حصصهم، فأشهروا أسلحتهم، ويبدو أن أحمد قتل برصاصة طائشة.

«لا تنسى أنهم شوهوا وجهه» قاطعه المفتش ف.خ.

«هذا ليلصقوا الجريمة بالإرهابيين».

المفتش ف.خ لم يقتنع، كانت لديه رواية أخرى.

«يبدو أنك لا تعرف ما جرى فعلًا مع تلميذك أحمد».

فور عودته من دمشق إلى مغربال، أقنع مجموعته بالانشقاق عن شبيحة المنطقة.

خلال أيام شقوا طريقهم منفردين في غابات التشبيح، بلا ممولين ومتعهدين. استهدفوا في عملياتهم أصحاب الأموال الطائلة المكدسة من التشبيح. فاختطفوا منهم من طاولته أيديهم. بداية لم يُعرف من قام بها، ألصقت بمجهولين، واستمروا على هذا المنوال. الشبيحة المختطَفون، لم يظهروا ثانية، قتلوا واختفت جثثهم، مع أن الفدية دفعت، وكانت بمبالغ طائلة وبالدولار.

تذكر سامر، ما قاله له تلميذه أحمد عن الذين يتسلبطون عليهم ويسلبونهم ما ينهبونه: إن لديهم مستودعات، الدولارات فيها بالشوالات. ها هي وجدت تفسيرها؛ المخطوفون من الشبيحة الذين لا يقبلون الفدية إلا بالدولار، تعرفوا إلى خاطفيهم، فالشبيحة يعرف بعضهم بعضًا، فوجب قتلهم، لا إطلاق سراحهم.

خطورة ما أقدم عليه أحمد، تابع ف.خ قائلًا، تحدي قانون التشبيح، واستهانته بالتراتبية الحديدية للطبقية التشبيحية. عندما عرفوا بأمره، دُوهِم موقعه ليلًا، وقُبض عليه، وأُبلغ بالحكم الصادر عليه من المركز، لخرقه المحاصصة المالية بموجب القانون، بصرف النظر عمّا قام به، وإنما لأنه لم يسلّم العائدات للموكل بالمنطقة، فعجّل الكبار بتصفيته، ودفع حياته ثمن عدم تقيده بالأخلاق التشبيحية. ليس المهم مَن قتل، أو ما طلبه من فدية، بل الأمانة، ما استولى عليه، له نصيب فيه، لا أكثر؛ فالحصص هي الحصص، لا تلاعب فيها، مثلما أن الأصول هي الأصول.

عقوبة الإعدام. نفذت بمسدس كاتم للصوت، أما رفاقه فأعلنوا توبتهم، وعادوا إلى صفوف الشبيحة. ولم تكن تلك العاصفة من الرصاص إلا إعلانًا بعودة الأمور إلى نصابها. كذلك كان تشويه وجهه، عبرة لصغار الشبيحة. وبالنسبة إلى الأهالي، فإنه مات شهيدًا دفاعًا عن مغربال، تقديرًا لأبيه اللواء.

بالمناسبة، لا أنت أستاذ، ولا هو تلميذ.

هذه المعلومات كانت تسريبًا خيريًّا، للإضاءة على مقتل أحمد.

الزيارة انتهت. عند الباب قال ف.خ لسامر:

«غدًا، سأرافقك في طريق العودة إلى دمشق، إذا لم يكن لديك مانع».

«على الرحب والسعة».

تمدد سامر على الفراش، فتذكر أنه لم يقدم له فنجان قهوة مرّة، كما في التعازي، ولا حتى كأس ماء. فأنحى باللائمة على نفسه، لا يجوز نسيان تقديم القهوة، فالتقاليد هي التقاليد، كما الأصول هي الأصول. ماذا سيقول عنه؟ ما خفف عنه الملامة، أن ف.خ لا يُعنى بالرسميات، وإلا لم يطرق الباب بعد منتصف الليل.

بدا له، وهو يغالب النوم، أنه لم يكن يغالبه، بل كان نائمًا، والباب لم يقرع، والمحقق المختص، أو المفتش، أو فاعل الخير العتيد، لم يأتِ ولم يتبادل معه أي حديث. وما رآه، إنما تخيله، وما تصور أنه سمعه، كان متوقعًا ومعروفًا، فالاختطاف والفدية والقتل والإعدام والتشويه من طبائع التشبيح. فما الجديد؟

تذكر وهو يسقط في النوم ثانية، أن الرجل لو كان عطشانًا وشرب كأسًا من الماء، أو أخذ شفة قهوة، لكان حقيقيًّا.

في الصباح، كان كل ما تراءى له ليلًا، قد انطوى في الظلام.

٢. وصية اللواء

صباحًا، قاربت زيارة سامر على الانتهاء، لم يبقَ منها سوى مفاتحة اللواء بموضوع إنهاء تقاعده وعودته إلى الجيش، لكن ما زال صامتًا. حان الوقت لانتزاعه مما بدا صفنة غير عميقة، لينقل إليه خبر موافقة القيادة على ترشيحه مستشارًا عسكريًّا في الأركان، ما يرفع من معنوياته، ويسلو مصابه الأليم.

أبلغه برسالة العميد، وحثه على التوجه إلى العاصمة بعد انتهاء العزاء مباشرة لتسلّم منصبه الجديد. توقع أن يقفز اللواء من الفرح، لخلاصه من هذا التقاعد السقيم، كما لن يكون حزنه مقيمًا. التفت نحوه، كان شارد اللب، زائغ العينين؛ فأبلغه ثانية برسالة صديقه العميد، بالمقابل أعاد اللواء ما قاله له في الجنازة:

«لقد انتهيت، أنا ميت».

مغزى الكلام، أنه ما زال ميتًا.

بدت مجرد كلمات ساقها من فرط حزنه، فهو حيّ، أنفاسه تتردد في صدره. وإن دلّ هزاله إلى أن صلته بالحياة أصبحت واهية.

استغرب اللواء ما ارتسم على وجه سامر من أمارات عدم التصديق، يبدو أن الظن ذهب به إلى أنه غير ميت. هذا الشاب الأقرب إليه، لم يستوعب ما سمعه منه، مع أنه يعوّل على ذكائه، وتأجل بقدومه موته، وكان مفروغًا منه. تمنى أن يفهم نوع الموت الواقع فيه. ليس الذي يعرفه، بل عدم رغبته في العيش، كل ما كان يربطه بالحياة، ويريده منها، أن يجرّ ابنه من أذنه، ويجبره على ركوب الباص إلى دمشق ليعود إلى الجامعة. بحث عنه من حاجز لحاجز، ومن جحر لجحر، لكنه كان يتهرب منه. لماذا امتد العمر به؟ لا يدري، ربما لحضور جنازته. لو أنه مات معه، والأحسن قبله، لأراح واستراح، وفارق الحياة مطمئن البال، ووفر على نفسه العار. ابنه لم يرأف به، كيف يقولها؟

«ليته مات في الخفاء. الشبيحة غرروا به، وأفسدوه. أصبح مثلهم، هل أنكره؟».

سرعان ما بكى:

«آه، لن استطيع، أنا أب».

تلك عذاباته، كانت عقابًا له على ما سها عنه، يحفر في جسده وروحه.

أشفق عليه، ليس الذنب ذنبه، بل جريمة الذين نجحوا في تمزيق البلد، وتمزيق العائلة. كان من الذين تمزقوا وتمزقت عائلاتهم. نكبته بابنه فاقت طاقته على الاحتمال، كان وحيده الشاب، مصيبته الكبيرة، وخسارته الأكبر. أراد سامر مشاركته مأساته من شدة ما أحسّ بهوانه. قبل أن يفتح فمه، انطلق اللواء في رحلة الهذيان الهادف.

ما آمن به، كان باطلًا، ليس وحده، آمن به الكثيرون، وكان أعمى، أمضى أربعين عامًا في الخنادق، قاتل أعداء الداخل وأعداء الخارج، وقبع على الحدود سنوات عديدة، انتظارًا لتحرير أراضٍ محتلة، لن تحرر.

في هذيانه، تنشط وعيه، وتفتقت ذكرياته، فارتدّ إلى ثورة العمال والفلاحين. لم تكن أكثر من انقلاب عسكري، ولا أقل من مؤامرة. أما التصحيح، فلم يكن تصحيحًا، وإنما المؤامرة مستمرة، ضحاياها الرفاق الانقلابيون، نفذها الرفاق التصحيحيون. كُرّس الجيش بعدها لحماية القصر الجمهوري.

في هذيانه أيضًا، اكتشف أنه كان مخدوعًا، يعيش في بلد متوهم، لا هذا البلد الذي ينفرط يوميًّا، وشعب أصبح شعوبًا تتقاتل، لن يوقفهم إلا الفناء. هل كان طوال حياته يعيش بمعزل عنهم، إذًا عن أي بلد كان يدافع، واستحلى الموت من أجله؟

ينزف آلامه، بينما الوقت ينفد، وما يختزنه في داخله، كان أكثر إيلامًا، هل هناك سوى الجرائم والفضائح، وشعوذات الأمان، وأكاذيب الاستقرار...؟

إذا استمر بالكلام على هذا المنوال، فسيُفرِج عمّا يعرفه الكثيرون، ويخشون قوله، لكن في هذا الوقت، لن يكون الحساب عليه عسيرًا، بل مميتًا. لا وسيلة لإسكاته، سوى أن يسأله جوابًا عن طلب الأركان.

«ماذا أقول لهم؟».

«قل لهم، ما قلته لك».

سيقول لهم إن اللواء قد جنّ. غدا هذا سيكون وشاية.

استعاد اللواء هذيانه على نحو مختلف، احتقنت ملامحه والتهج، كأن هناك من يتعقبه، أو أن رجلًا واقفًا وراء الباب يتنصت عليه، قد يدخل في أية لحظة ويجبره على الصمت. سارع بصوت هامس:

«ساعدني على الموت باطمئنان».

صمت، وحدّق إلى الأرض، فاعتبر سامر أنه لم يسمع ما سمعه.

«ستنفذ ما سأطلبه منك».

كان يحاصره، ما الذي يريده منه؟ مهما طلب منه، سيساعده على الحياة.

«أودعك وصيتي».

خامره الشك في عقل اللواء. هل يجوز لابنه غير الحقيقي أن يحل محل الكثيرين ممن تخولهم قرابتهم أن يودعهم وصيته. ثم ماذا يعني أن يكون ملزمًا بتنفيذ وصية لرجل على قيد الحياة؟ هل يريد الانتحار؟

سيبلغ اللواء قمة الهذيان، عندما أبلغه فحواها: «أن تتزوج حنان».

للوهلة الأولى، اختلط عليه الأمر، ما حلم به منذ سنوات، تحقق الآن. هل هبط الإلهام على اللواء ونطق بما كان مستحيلًا؟ ما أسهلها وما أصعبها من وصية!! تبدو سهلة، بينما هي مستحيلة. لن يعده بشيء. حنان التحقت بالشبيحة مثل أحمد الشهيد. لم تعد مضطرة إلى الدوام في الجامعة، تحصل على أي شهادة بالتشبيح، فلماذا تدرس؟ بوسعها الارتباط بمسؤول أو ضابط، فلماذا تتزوجه؟

تمنى لو تواتيه الجرأة، ويقول له، حنان لن تقبل به زوجًا ولا حبيبًا، إنها تريده عشيقًا ريثما...؟! آه، لن يجهد ذهنه. الحقيقة لا تقال إلا كاملة، لن يقولها، لئلا يؤذيه، يكفي أنه فجع بابنه.

قال له إنه سيحاول، وإن كان بلا أمل. لمح علامات الاستهجان على وجه اللواء، فصارحه، لئلا يعتقد أن زواجه بات قاب قوسين:

«حنان بحاجة إليك، وليس لي، أنت أبوها، أنا ماذا أكون؟».

تغضنت ملامح اللواء، بدا على وشك البكاء ثانية، ظنه يرفض الزواج بابنته. بات من فرط هشاشته، يضيره أي شيء. لا يجوز أن يقسو عليه، حلف له أنه لا يتهرب من تنفيذ ما يطلبه منه.

«يجب أن تعرف ألّا سلطة في العالم تجبر حنان على فعل شيء لا ترغب فيه».

«ابنتي مثل أي فتاة تحلم بالعريس».

«لكنها لا تفكر في الزواج».

اللواء لا يعرف أن الفتيات ما عدن يرغبن في الزواج، قبل خوض بعض المغامرات العاطفية، فتاة بلا ماضٍ، فتاة بلا ذاكرة، أضافت إليها حنان نشاطات تشبيحية.

«ألا تحبها؟».

لم يتجرأ على القول إنه يحبها.

«إنها في عالم، لا مكان لأمثالي فيه».

«يا بني، افهم. إنها إرادتي».

سيجرب، إكرامًا له، ولو كان سيرتبط بوعد يقيده.

«ثق بي، سألتزم بها».

لم يجادله، أصلًا الوصية باطلة لتعذر تنفيذها، لكنه سيتفهمها بشكلها البسيط؛ أن يأخذ حنان على عاتقه، ليخلو اللواء هانئ البال إلى موته.

عندما ارتدّ إلى المهمة التي جاء من أجلها، كما كان متوقعًا، كان إخفاقه ذريعًا: اللواء لم يغير ما اعتزم عليه، قراره ما زال كما هو، لن يقبل بأي منصب، أصبح الجيش شيئًا من ماضيه التعيس، كأنه لم يكن، كان مخدوعًا.

لم يعن المنصب شيئًا للواء، والمستغرب أنه بدا مهتمًا بشيء يشغل باله، لا يجب أن يخطر له في هذه الظروف، صرّح به وكان يلومه، وكأنه ابنه فعلًا؛ ويعاتبه على أنه ولد لا يعرف كيف يصون مصالحه، خاصة وقد بات على وشك تحمل أعباء زوجة، وفيما بعد أولاد:

«يا بني، الحياة لا ترحم. أعلمُ أنك مغرم بقراءة الروايات، ما ينشط الخيال، لا بأس، لكن على أن يكون بالحدود المعقولة، لا تسرف فيه، لئلا يصرفك عن الواقع».

كيف عرف؟! غمغم مشدوهًا ببضع كلمات:

«الخيال يساعدني على تحمل الواقع».

عجل بالمغادرة. أعصابه لا تحتمل مشهدًا ختاميًّا، سيكون عاطفيًّا، سيتعانقان ويبكيان، من يكفكف لهما دموعهما؟ لن يشهد رحيلًا عن هذا العالم أشد بؤسًا من رحيل اللواء... سيرحل بلا وطن، بلا عائلة. ليست مأساة، إلا لأن اللواء من الأشخاص الذين يؤمنون بأن الأرض التي نعيش فوقها ونتقاتل عليها، هي الوطن.

لن ينتظر. سيوفر على نفسه وداعًا مؤلمًا.

إلى اللقاء مغربال، وربما وداعًا.

٣. الرجل الذى يعرف الكثير

قبل أن ينعطف بالسيارة نحو الطريق المتجه إلى دمشق. رآه عند الرصيف، واقفًا في انتظاره، بحلق يتأكد هل هو فاعل الخير الذي كان البارحة ليلًا مفتشًا؟ كان هو بالذات، يلوّح له بيده. لم يطمئن إلى ما كان يراه، قد يختفي. قبل قليل حذره اللواء من الخيال، مع ذلك لن ينكره، أو يتهرب من مواجهته، سيعمل على دحضه، إكرامًا للواء.

توقف فورًا، فانشحطت دواليب السيارة على الأرض عدة أمتار، وأطلقت المكابح زعيقًا حادًا، تعبيرًا عن استغرابه لرؤيته، ألم يعتقد جازمًا قبل سقوطه في النوم، أنه تخيله، وأنكر وجوده صباحًا؟ ها هو ظهر في وضح النهار... لم يثق بتجسده، رغم أنه كان متجسدًا.

تبادلا السلام، كما لم يثق بسلامه. جلس إلى جواره. حسنًا، إذا تكلم، لن يثق بكلامه.

ما استغربه، أنه ليلًا لم يقل له متى سيغادر مغربال، حتى هو لم يكن يعرف الوقت، إذا به في انتظاره، كأنما حددا موعد اللقاء بالساعة والدقيقة. هذا الغموض يمكن إدراكه في حالة واحدة؛ ليس سوى تدخل روحاني على مستوى مخابراتي متقدم، قرأ ف.خ ليس ما يدور في النفوس فقط، بل ويعرف ما سيحدث فيما بعد.

لم يأخذ بما دار في رأسه، المخابرات علاقتها بالأرواح محددة بإطلاقها رغمًا عنها من الأجساد. إذا كان البارحة تخيله، فقد كان آمنًا في الفراش، وإذا كان الآن يتوهمه إلى جانبه في السيارة، يتلهى بالحديث معه، فقد يكلفه حادث اصطدام حقيقي؛ وإن كان المشوار سينتهي على خير، فالطريق طويل إلى دمشق، لن يقضيه رغمًا عنه مع خيال.

لم ينعطف، دار حول الساحة، رأى بائعًا جالسًا خلف بسطة مشروبات باردة وساخنة. قبل أن ينزل من السيارة، سأله عمّا يشربه، ساخن أو بارد؟

لا ساخن ولا بارد، اعتذر ف.خ.

تفاقمت شكوكه، وتيقن منها؛ هذا الرجل خيال، ما دام لا يشرب.

اشترى علبة بيبسي وعبوة ماء. دفع بالماء إلى ف.خ، كان مصرًا على امتحانه، مدركًا أنه لن يتجرأ على الشرب، لئلا تنكشف حقيقته. أخذ يكرع البيبسي على دفعات، بينما كان ينظر إليه بطرف عينه. أزال ف.خ السدادة عن العبوة، رفعها وبادله النظر متحديًا، كأنما عرف بنياته، وأخذ يزرنق الماء بالجكارة... كان حقيقيًّا.

لم تضره هزيمته السريعة، في دخيلته كان يرغب في أن يكون حقيقيًّا، لئلا تعبث به أوهامه، وجوده إلى جانبه، مصادفة طيبة، سيؤنسه خلال الطريق. كذلك إن حديث البارحة الليلي، اكتسى بقدر معقول من المصداقية، ولم يعد أضغاث أحلام.

مهما يكن، الرجل مطّلع على الكثير من الخفايا، ولم يخفها عنه، ولديه غيرها، لن يبخل عليه بها. فتح له سامر قلبه، وأطلعه على ما يحزّ في نفسه، وكان عن اللواء الذي اختار الموت إثر فجيعته، مع أن الرئاسة لم تتخلّ عنه، كذلك فإنّ قيادة الجيش عرضت عليه منصبًا كبيرًا؛ مستشار عسكري، لكنه رفضه... هل تصدق هذا؟

اعترف ف.خ، بأنه يكنّ للواء كل تقدير، إنه أحد الضباط الذين أدركوا أخطار هذه الحرب على الشعب، ولم يشارك فيها. لكن يُخشى عليه، سينجم عن عناده أسوأ العواقب، وإن كان قبوله سيصيبه أيضًا بأعظم الضرر.

«لا أعتقد ذلك، المنصب نوع من التكريم، بعدما شعروا بمغبة تسريحه، لو لم يدركوا أنهم بحاجة إليه، لما سعوا لإصلاح خطأهم معه، بادرة من باب رفع العتب. تعلم لقد أعطى حياته كلها لجيش البلاد دفاعًا عن الوطن».

أحسّ أن ف.خ لم يعجبه كلامه. فتابع قائلًا:

«عدا هذا وذاك، اللواء من الطائفة، يستحيل أن يسيؤوا إليه».

التفت إليه ف.خ، وقد لوى فمه ساخرًا.

«سواء كان من الطائفة أو لم يكن، عندما تصل الأمور إلى الخطوط الحمراء، فلا شيء يشفع له. يؤسفني، أنّ ما تجهله كثير، مع أنك محقق، كذلك صديقك العميد حسين، مع أنه مسؤول أمني. أعذركما، وإذا كنت سأكشف لك عنها، فلأنه لا يستقيم فهم تكريمه بهذا المنصب من دونها».

ندم لأنه منح ف.خ الفرصة ليتنفج بمعلوماته على أنها أسرار لا يعرفها حتى المسؤولون الأمنيون. ما ارتسم على ملامح ف.خ من الثقة المفرطة، بدا وكأنه أصاب فعلًا في ظنونه، قبل أن يتلفظ بكلمة واحدة.

لم يخطئ، سيُظهر ف.خ سريعًا، ودونما مقدمات قدراته الخارقة، وبشكل جازم من الكلمات الأولى التي سيتفوه بها:

ما يجب أن تعرفه، أنهم ليسوا بحاجة إليه؛ ترشيح اللواء، لم تتطلبه العمليات الحربية. وصديقه العميد لم يقصد بمبادرته سوى إعادة الاعتبار له. وللعلم، القيادة لم توافق. أرسلوه إلى التقاعد ليتخلصوا منه، لكن جهة في القصر بعد بعض المشاورات، أوعزت بالموافقة.

هذا التصرف غير المفهوم، تفسيره معقد بعض الشيء، لن تعرفه الا إذا علمت إلى أين ذهب التفكير بالحلقة الضيقة في القصر، يعتقدون أن الدوائر الغربية جادة بالعمل من على بعد آلاف الكيلومترات، على البحث عن ضابط علوي كبير في الجيش ذي سمعة حسنة، لا يهمّ إن كان ضابطًا عاملًا أو متقاعدًا، المهم أن يكون جديرًا بتمثيل الطائفة، ما يساعد على وضع حد للحرب، فيما لو تهيأت الظروف. العقدة هي التخلص من الرئيس، فانصرف تفكيرهم إلى إيجاد بديل له، يكون جاهزًا لاحتلال مكانه.

هل فهمت؟ الحلقة الضيقة لا تفوتها هذه الأمور.

رمقه سامر بابتسامة لا معنى لها، سوى أنه يبالغ في التفسير، ومع أنّ ف.خ فهم مغزى الابتسامة، مضى في الكلام لا يلوي على شيء:

بلا شك، لدى الغرب أسبابه الوجيهة، ففي طرح اسم اللواء كرئيس مقبل للجمهورية، ما يطمئن الطائفة إلى أن إسقاط النظام لن يصيبها بأذى، بالتالي يضمن تأييدها لهذه الخطوة، ويحثها على التضامن مع المعارضة، ويعزز قيامها بدور فعال في التغيير المرتقب، ما يؤهلها للمشاركة في الحكم على قدم المساواة مع الطوائف الأخرى.

لا تنسَ أنّ في اتخاذ الطائفة موقفًا ضد الرئاسة، دليلًا على عدم رضاها عن جرائم النظام، ويعبّر عن غضبها على العائلة الرئاسية. إن تعاونها في إسقاط النظام سيبطل أي عمليات انتقامية ضدها في المستقبل.

«هل يفكر الغرب هكذا؟!» تساءل سامر، ثم أردف:

«أقصد، النظام هل خطر له التفكير هكذا؟».

في الحقيقة، نعم. ما دام الغرب قابلًا ليفكر هكذا، ولا تتساءل، هل هي حنكة من الغرب أم النظام؟ إنها خطوة متراكب بعضها مع بعض. تنظر الدول

الغربية إلى الحرب على أنها طائفية، لماذا؟ لأنها تجدها طائفية، فتعالجها طائفيًّا. بذلك، ليس اللواء أكثر من حجر على رقعة شطرنج، ستصيب بتحريكه عدة أهداف في وقت واحد.

بدا ف.خ أشبه بالمحللين السياسيين الذين يستسهلون تفسير المتغيرات الداخلية بالمؤامرات الخارجية. بينما هي خطط متداولة في كواليس السياسة الدولية، قابلة للتسرب.

سامر لم يصبر، اندفع قائلًا:

«بصراحة يا صديقي، من يكون اللواء؟ إذا كانت الدول الغربية تظنه مهمًّا، فالحلقة الضيقة للرئاسة، التي لا تزيد على شخصين أو ثلاثة، وأحيانًا شخص واحد، لا تقيم له أي وزن، وربما لا تدري بوجوده، تركت أمره للأجهزة».

ابتسم ف.خ ابتسامة العارف الذي لا تخيب حساباته.

«في الواقع، هناك الكثير من الأسماء المطروحة. وإذا كانت أغلب الشروط المطلوبة قد توافرت في اللواء، فلأنه ضابط وطني، نظيف اليد. خاض حروب البلد الكبيرة والصغيرة، وأثبت كفاءته كقائد لواء مشاة، ذي سمعة عسكرية مرموقة، منع العدو من التقدم نحو العاصمة في فترة حرجة، ولو كان باشتباكات محدودة. فوثقت به قيادة الجيش، وكلفته رفعَ ملاك اللواء إلى فرقة... كل هذا كان في الماضي. حاليًّا، مغضوب عليه، انتقاداته للحرب منعت ترقيته، وأحيل من جرائها على التقاعد. كذلك فإنه في مغربال، استنكر في أحاديثه الخاصة توجيه مدافع فرقته العسكرية نحو الأهالي».

كان يتكلم بتؤدة، وكأنه يقرأ من كتاب أو جريدة، أشبه بأنه يضع النقاط على الحروف، عقّب عليها بخلاصة ما توصل إليه:

«إنه الأوفر حظًا بين المرشحين العسكريين الذين وقع الاختيار عليهم لتقلد منصب الرئاسة، وقيادة البلد خلال المرحلة الانتقالية. خصاله الشخصية ذللت عقبة إيجاد بديل للرئيس الوريث، مجرد بديل حسن السمعة، ما يضمن الإجماع عليه من أغلب أطراف المعارضة، سواء ضُغط عليها أو لم يضغط، لا حل آخر».

لن يخفي المحقق رأيه، ولو أن تحليلات ف.خ لاقت لديه بعض القبول. فقاطعه واثقًا:

«إن الدول الغربية ليست غشيمة لتعقد على اللواء هذه الآمال العريضة، بينما تعرف أن ضابطًا صغيرًا في المخابرات يطيح بجرة قلم بهذه المؤامرة، ماذا تكون سوى انقلاب، يحتاج إلى تحريك قوات، أين هي؟ إنها مبعثرة في

الجبهات. أما الموجودة على مقربة من القصر، فمهمتها أصلًا منع أي انقلاب».

ابتسم ف.خ ووافقه:

«نعم، هذا صحيح، لكن الدول الغربية تعرف، وتقديراتها بمجملها على صواب، ترتكز على أن اللواء لن يقوم بانقلاب، بل على الأغلب حركة تصحيحية من داخل القصر والجيش، تمنع خراب البلد».

اعتدل في جلسته، وألقى نظرة على جنبات الطريق، كان متخمًا بأطلال البيوت المهدمة، ورائحة الموت المنتشرة. بينما السراب على مدّ البصر، محمَّلًا بأطياف رجال يجرّون وراءهم نساءً، والنساء تجرّ أطفالًا، والأطفال يجرّون أقدامهم. وطائرة تحوم فوقهم، ثم تغادر باتجاه الجنوب. تابع حديثه:

«قضية اللواء أوكلت إلى المهندس الذي قطع شوطًا فيها، لكنه تسرّع واقترح: التعجيل بالقبض عليه، أو اغتياله، قبل أن ينشغل باله بحكاية الرئاسة، من دون إحداث أي شوشرة، ما يجهض آمال الغرب، ولا يعكر الحل العسكري.

أما من سيغتاله في ضيعته النائية، فلا عائق. من سيثير قضيته؟ المعارضة لن تهتم به، وقد لا تعلم بوجوده، وحتى لو عرفت به، فثقتهم بالعلويين حتى النظيفين منهم ضعيفة، ولا يرغبون في استبدال واحد بآخر، ولو كان مرسلًا بتوصية من السماء، سترحب بموته في الخفاء، وتحتج في العلن. لكن مقتل اللواء سيغضب الطائفة، فهي ليست غائبة عمّا يجري، الرسالة موجهة إليها بالدرجة الأولى؛ الخونة مصيرهم معروف. إذا كان من جهة يخشاها النظام، فهي الطائفة بالذات، إنّ فقد تأييدها، فالعائلة الحاكمة بلا سند جدي، ولا تنسَ أنها باتت تسانده مرغمة عن خوف».

تراءى له أن ف.خ لا يبالغ كثيرًا، ما يقوله يحتمل قدرًا لا بأس به من الصحة، لكن ما يغيظه منه، الإيحاء بأنه موجود في قلب الأحداث، مع جميع الأطراف، ليس جاسوسًا مزدوجًا فحسب، بل جاسوس ثلاثيّ، وربما رباعيّ وأكثر، يعمل مع أكثر من جهة، يعرف ما يدور في القصر الجمهوري، والكواليس السرية للدول الغربية، والمعارضة، والطائفة، وما يدبره المهندس، وعلى دراية باللواء!!

لم يخيّب ف.خ ظنه، وإن سيغيظه. كالمعتاد.

«لهذه الأسباب، أعاد المهندس النظر في موضوع الاغتيال، لإدراكه أن اللواء كان في حسابات الخارج مشروعًا تحت الدراسة، ولا يجهل أنّ الغرب يثرثر كثيرًا، ويفكر كثيرًا، ويتوعد كثيرًا، ثم لا يفعل شيئًا. بينما اللواء يتآكل في

عزلته، ويتعذب في وحدته، ويجترّ ماضيه، من جراء هذا التقاعد الظالم. فاقترح على القصر إعادته إلى الجيش، لن يكلفهم أكثر من رتبة وراتب.

في الرئاسة، لم يتحمسوا أن يكون اللواء في العاصمة على مقربة منهم، هل يسهلون له القيام لما يُخطِّط له؟ مركزه في القيادة سيحيطه بمجموعة من الضباط الكبار، ربما استمزج رأيهم، أو استمزجوا رأيه، وطمحوا إلى تحرك ينتج منه تغيير أو إصلاح، وقبل كل شيء إيقاف الحرب. هذا وارد، فرُفض اقتراح المهندس».

هبّ سامر، وعندما كاد ان يتكلم، كانت السيارة قد اقتربت من حاجز للجيش، فانتبه وسكت. طلب الضابط ما يثبت شخصية كل منهما. ناوله المحقق بطاقته الأمنية، بينما أخرج ف.خ من جيبه ورقة عليها أختام، ألقى عليها نظرة وسمح للسيارة بالمرور.

سأل المحقق ف.خ عن الورقة والأختام، فقال له إنه مكلف مهمات لعدة جهات. فسأله ثانية: مَن هي الجهات، وما هذه المهمات؟ فضحك ولم يجب. فقد كان للحديث بقية:

«دعني أتابع، فأنا لم أُتمَّ كلامي بعد.

أعاد المهندس النظر في قضية اللواء برمتها، ورفعها إلى الرئاسة مرفقة بالأسباب والحل. وهو أنّ عودة اللواء إلى الجيش، كانت لاستدراجه إلى الأركان، ووضعه تحت المراقبة، المخابرات العسكرية ستضبط تحركاته ولن تخفى عليها اتصالاته، ما يلغي مشروعَي الانقلاب والتصحيح معًا. إن أعطى أذنه للتحذيرات الغربية وحاول الفرار من البلد، فسيقبض عليه فورًا. بعد جدل داخل العائلة الحاكمة، شاركت فيه الحلقة الضيقة، تمّت الموافقة على الحل: تعيين اللواء مستشارًا رغم أنفه تحت الرقابة المشددة».

استرخى ف.خ في مقعده، ويبدو أنه تذكر شيئًا، سارع يستدرك به تحليلاته:

«المثير للسخرية، أن التقديرات الغربية السياسية والعسكرية والمخابراتية، بمجموعها غير صحيحة، ولنقل غير واقعية؛ اللواء في وادٍ آخر، ليس في وارد انقلاب ولا تصحيح، والحرب غير طائفية لمعالجتها طائفيًّا».

وكان من الطبيعي أن يخطر لسامر هذا السؤال:

«حسنًا، إذا كان اللواء لا يرغب في المنصب ولا في الجيش، ولا في الرئاسة أيضًا على وجه التأكيد، هل يدعونه في حاله؟».

«بالنظر إلى حالات مشابهة، المفروغ منه أن مصير أي مرشح للرئاسة الموت، إذا كان على علم بهذا الاختيار، ولم يبلغ عنه، العقوبة مفروغ منها؛

الإعدام شنقًا أو ذبحًا».

«حمدًا لله، أنه لا يعلم بشيء على الإطلاق».

«حتى إذا لم يكن يعلم، فلن يطول الوقت كي يعتقل من دون أن يَعرف ما هي تهمته، ويُرمى به في زنزانة ضيقة، من دون تلفزيون، لا يرى سوى الجدران، يغالب أمراضه، ويتكلم مع نفسه، يتساءل عمّا فعله، إلى أن يُودّع الحياة ولا يظفر بجواب. وأحيانًا لأسباب خاصة، للنكاية مثلًا، يوضع في غرفة مجهزة بتلفزيون، يرى المحطات المحلية، ونشرات أخبار انتصارات جبهة المقاومة والممانعة، وحدها تميته، فيلفظ أنفاسه من فرط اليأس. عمومًا، هذا يعتمد على صموده، سيعتبر مفقودًا، ويبقى مصيره مجهولًا».

«أليس هناك ما يشفع له؟».

«مستحيل، المصادر الغربية رددت اسمه».

عندما نزل ف.خ من السيارة، كان قد ترك انطباعًا لدى المحقق الشاب عبّر عنه بانبهار:

هذا الرجل يعرف المصائر أيضًا.

يا إلهي! إنه يعرف الكثير، وربما كل شيء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الرابع عشر
النهاية الغامضة

١. خبر في جريدة

اعتاد المفوض صباحًا قراءة المانشيتات في الصحف، وهي عادة قديمة اكتسبها عندما كان يعمل في الصحافة، لتوافر الجرائد على الطاولة في مكتبه. استعادها بعدما توافرت على طاولته في الفرع.

عناوين اليوم، ركزت على ضرب تجمعات الإرهابيين في الشمال، وتقدم الجيش في جميع محاور القتال. أما التفاصيل، فلم يقرأها، كانت لا تضيف شيئًا، ما يعرفه أكثر؛ بلدات الغوطة محاصرة، بهدف تجويع الأهالي وتركيعهم؛ الأهالي جاعوا، لكنهم لم يركعوا. هكذا حال المناطق الأخرى وغالبية الأرياف.

الأوضاع العامة كما يعرفها، تنحدر بتسارع نحو الفوضى الشاملة، تسهم فيه بقوة المليشيات المذهبية الإيرانية والعراقية واللبنانية. الدبابات تجوب المناطق المدمرة، والطائرات تحوم فوق المناطق المحررة وترمي البراميل المتفجرة فوق تجمعات المدنيين في الأسواق وأمام الأفران، راجمات الصواريخ على المرتفعات تقصف البلدات القريبة من دمشق... هكذا الحال، لم يتغير.

كما اكتسب عادة جديدة، تأمل صور الشهداء من الضباط والجنود، بعدما صار الجيش يسرب أسماءهم ومناطقهم، لم يعد يتكتم على خسائره، رغم أنه ما زال يتكتّم على أعدادهم الحقيقية، خشية على معنويات أهالي المناطق الموالية.

استوقفته صور التوابيت مصفوفة بانتظام، وأكاليل الورود، والضباط المرافقين، المشية العسكرية الموزونة... كان لجلال التشييع رهبة، تحثّ على الشهادة. يوحي بها الجنود حملة النعوش، بقسمات وجوههم الجامدة، وتحضّ عليها صورة الرئيس الخالد، على أمل أن تستدرج الطقوس المهيبة الشبانَ إلى التطوع في الجيش.

حانت نظرة منه إلى الصفحة الثالثة، لمح إعلان وفاة مكتوبًا بالخط العريض، إلى اليمين في الزاوية السفلى، ضمن إطار أسود:

العصابات الإرهابية تغتال الرفيق المهندس «سليمان حسن».

للوهلة الأولى، بدا الإعلان عاديًّا في زحمة أخبار الموت، الشهداء يوميًّا بالعشرات، هذا شهيد إضافي، ولو كان رفيقًا في الحزب. ثم كأنه صحا، تنبه إلى أن ما قرأه ساهيًا كان لافتًا، ضرب وترًا في داخله، قرأ الاسم ثانية، كان

لقبه المهندس!! قطّب جبينه؛ هل يكون صديقه سليمان، مع أنه لم يعد صديقًا بالمعنى الحقيقي للكلمة!!

لا، إنه تطابق أسماء. رغمًا عنه تشبثت عيناه بالإعلان. أحسّ بالذهول للحظات، وكاد أن يغيب عما حوله، ربما كان هو! لا ليس واردًا، ولا معقولًا. رمى الجريدة من يده وكأنه ينفي الخبر، ثم ارتدّ إليها، يحملق فيها، ليس هناك غيره، لكن هل يكون هو فعلًا؟ قد يكون هو، اجتمعت فيه العلامات المميزة: الرفيق والمهندس وسليمان وحسن، إلا إذا كانت مصادفات.

حتى إذا كان هو، فثمة خطأ، المهندس لا يموت... بل يموت.

كان هو بالذات!! تناهبته مشاعر، لم يستطع تحديدها، خليط من القنوط والحيرة والخوف. الأرض تميد من تحته، ولغط في أذنيه. لم يدعه يضجّ طويلًا في رأسه. رغب متعمدًا في تكذيب النعي، هذا الموت ليس صحيحًا. يكذبه أنّ الإعلان محشور في الصفحات الداخلية، بينما ينبغي أن يتصدر الجريدة، إن كان قد أغتيل، فالإعلان لا يليق بنعي مسؤول كبير. وفي حال كان المقصود الرفيق المهندس سليمان حسن فعلًا، فالخبر ليس دقيقًا، سليمان لم يكن مهندسًا، ولو أن اللقب التصق به. ولم يكن رفيقًا في الحزب، كان أكثر من رفيق، وأكبر من الحزب. اتصل بصديقه رئيس التحرير في الجريدة، فأكد له الخبر.

«جاءنا الخبر من مصدر رسمي، ونُشر كما وردنا تمامًا».

وكان مصحوبًا بتعليمات؛ عدم نشره على الصفحة الأولى، ولا إظهاره بشكل بارز.

«أظنك فهمت، لا يريدون إحداث شوشرة».

المفاجأة انتهت، لقد اغتيل فعلًا.

كان لتأكيد مقتله من جديد وقع الصاعقة عليه. وإذا كان بداية لم يصدق الخبر، فلأنه افترض أنّ سليمان محصن من الاغتيال، بينما كان معرضًا له أكثر من غيره. لم تنفعه كثرة الحراسات. أما تعليمات عدم إبراز النعي، فربما لم يحبذوا المبالغة في حادثة الاغتيال، لئلا تتجدد الانتقادات عن وجود ثغرات أمنية، سمحت بمقتل مسؤول كبير في جهاز الأمن، ما يشير إلى اختراق عميق وواسع النطاق، لهذا لم تتضمن الصيغة الموجزة جدًا، أية معلومات عنه، رغم الوظائف المرموقة التي تسلمها في عهدي الرئيسين الأب والابن، لا إشارة إليها، ولا موجز عن سيرة حياته، كأن وظائفه السرية بالغت في سريتها حتى إنها أخفته، وتسترت على كل ما يمتّ إليه بصلة، أبرزت

المعلومة الخطأ، ونسبته إلى سلك المهندسين، وتغاضت عن إسهاماته في صناعة أحداث، كانت الأكبر تأثيرًا في البلد.

بعد لقائه الأخير معه، لم يحاول رؤيته، وإن تحدث معه هاتفيًّا، الآن تحققت أمنيته؛ ألّا يراه أبدًا، لكنه أثار في داخله تساؤلات عن الصداقة والموت وانحطاط الطموح وعبث الحياة... وذلك السفاح المختبئ في داخله. لا، لم يكن غشيمًا عنه، يعرفه لا يتورع عن شيء، لكنه لم يتصور قَطّ، كيف استطاع في يوم المجزرة أن يبدو بارد الأعصاب، مجرد أنه يقوم بعمل ما، وينجزه على أحسن وجه. ادعى أنه يحاول ألّا تسيل نقطة دم واحدة، بينما كان يُغرق قرية بالدماء وأشلاء الجثث. لم يبقَ من سليمان إلا ما يثيره اغتياله من غموض، لكن لا بأس بالاستفسارعنه.

اتصل بالمركز الذي كان المهندس مديره، ليتسقط بعض التفاصيل عن الحادثة. بدا المتكلم معه مكلفًا عدم الردّ على أي استفسار، فهو لا يعرف شيئًا عن الاغتيال. وعندما سأله عن موعد التشييع، ليرافق موكب الجنازة إلى الضيعة، قال له إنه دفن في دمشق. المتكلم يجهل في أية مقبرة.

مساءً، عرف من صديقه أحمد، الذي اتصل به من «مغربال» ليسأله عن صديقهم سليمان علّه يعرف، فلم يفده بشيء. بالعكس، عرف من أحمد أنهم استدعوا البارحة والد سليمان بعد مرور يوم كامل على وفاته، ليشارك في تشييع ابنه، اقتصر موكب الجنازة على بضعة جنود مسلحين في سيارتي جيب، وسيارة دفع رباعي سوداء يركبها ضابط لم ينزل منها. رافقوا النعش إلى القبر، جرى الدفن ليلًا، الأب جهل المقبرة، هذا إذا كان المكان الذي دفن فيه مقبرة، فهو لم يلمح شواهد رخامية، وإن تعثر بما يبدو أنها قبور، عبارة عن أتربة، بلا علامات تدل عليها.

قابل أحمد الأب بعد عودته إلى الضيعة. كان الشيخ الثمانيني مصدومًا، عيناه زائغتان ويداه ترتجفان، لم يودع ابنه، منعه الجنود من فتح النعش وإلقاء نظرة إليه. قالوا له إنها إجراءات أمنية. لم يرَ ابنه منذ عدة سنوات.

في الفرع، فسّر المقدم دفن المهندس ليلًا وسرًا من دون مراسم، خشية من الإرهابيين لئلا ينبشوا قبره. وعلّق أنه لولا الخيانة لما نجحوا بقتله. كان المهندس أحد المسؤولين عن حماية الرئاسة. استغرب المفوض؛ هل هم عاجزون عن توفير الحماية لمقابر الشهداء؟

بعد أيام، أبدى المقدم شكوكه، لا يعقل أنه اغتيل، الحراسة مشددة. ضابط صديق أعلمه أن رجال الإسعاف أخرجوه جثة هامدة من مكتبه، لم يُسمع صوت إطلاق نار، ولم يقبض على أحد. بدت الحادثة لا أكثر من لغز يحوطه الأقاويل، ما دام موته محاطًا بالسرية، ما يشجع على المزيد منها، لماذا هذا

التعتيم المبالغ فيه؟ لم يطل الوقت، عندما قال المقدم إن الضابط نفسه أعلمه بأن المهندس انتحر بمسدس كاتم للصوت.

قد يصدق عارف أي شيء عن سليمان، إلا الانتحار، كان مستحيلًا، ليس من هذه النوعية، لا يعرف اليأس حتى ينتحر. ما حرضه على تسقط ما يتداول عنه، من همسات في كواليس المخابرات؛ كلها تدور حول، قُتل أو قتلوه، اغتيل أو اغتالوه، أعدم أو انتحر، أو نحروه. لم تُعزَ إلى مصدر موثوق، أغلبها يشير إلى الإرهابيين، وبعضها لا يُغفل أطرافًا مجهولين. المستغرب أن الرئاسة تجاهلت اغتيال المهندس، وقيل إنه عندما جرى التطرق إليه في أحد الاجتماعات، علق مسؤول في القصر بأنه حتى لو كان شهيدًا، لن يُطلق اسمه على مدرسة أو زقاق، ولن يرشح لأي وسام، أو يظفر بتأبين.

اختفى المهندس تمامًا، كأنه لم يوجد قط.

لم يأخذ عارف بالأقاويل، خصوم المهندس يروجونها عنه للانتقام منه ميتًا، بعدما اضطهدهم حيًّا، فعتموا على وفاته، وتجاهلوا إنجازاته. نقم على الرئاسة، لم يحصد سليمان سمعته السيئة إلا من مبالغته في خدمتها، كان عليهم مكافأته، بدلًا من تنكرهم له. وإذا كان قد اغتيل، فلانحيازه إلى النظام ضد الثورة.

مع احتدام اللغط ، ساءه أن العلاقة بينه وبين المقدم لم تعد على ما يرام، أصابها الجفاء، انعكس بحذر متبادل، لم يدر كيف يفسره. لاحظ أنه والمقدم يتجنب كل منهما الآخر. لكن الأقاويل تسارعت وتفاقمت، باتت شبهات خيانية عن عمالة لجهة ما في الخارج، راوحت بين محاولته الانشقاق، أو تدبير انقلاب. ولم يصدر أي تكذيب لها.

تعمد المقدم إعلامه بها، وكانت إنذارًا بأن الرجل الذي يحميه قد غادر الحياة جراء تصرف خياني. اعتبرها المفوض بمثابة بلاغ بفك الارتباط بينهما، لم يعد مرغوبًا به في الفرع، تفويضه انتهى، بات مشتبهًا فيه أيضًا.

لم ينتظر تعليمات الإيعاز بطرده. قدم استقالته، لئلا يظن أنه متشبث بمنصبه. لكن المقدم تصرف معه عكس ما توقع. قال له إنه إذا شاء البقاء، فلن يعترض. فأصرّ على الاستقالة، بررها بأنه لا يريد إحراجه. اعترف المقدم، قائلًا: لا تتركني، من دونك سأضيع. كذلك لم يخف مشاعره نحوه، وما ربط بينهما من أواصر ثقافية. أصبحا صديقين، بعدما قضيا معًا ردحًا من الزمن. لن يقبل استقالته، ورجاه مراجعة قراره.

أحسّ عارف بأنه بالغ بحذره، بدا المقدم صادقًا في رجائه، لكنه بصفته المفوض كان يعاني من فقدان الرجل الذي جاء به، وقصة الخيانة التي لا

يمكن تصديقها، باتت حقيقة، ولم تعد مجرد شكوك، مع أن أحدًا لم يتيقن منها.

وعده بأنه سيفكر، لكن قراره كان نهائيًّا.

بات بقاؤه في دمشق بلا مبرر. لا مفر من الرحيل، كان مخيرًا بين بيروت ومغربال، سيذهب إلى بيروت إن رافقته مايا، أو وحيدًا إلى مغربال. ما الذى ستقرره مايا؟ ارتباطها بعملها في المستشفي يمنعها من الذهاب معه. مع هذا، كان في انتظار قرارها. يعرف عبث إقناعها بالمغادرة معه.

حزم حقائبه، ولم تكن كثيرة. ومكث في البيت. كانت فرصة ليتأمل إحباطه الأكبر، انتهت الرحلة التي بدأت قبل ثلاثين عامًا، يعود خاسرًا إلى صديقيه أحمد وغالب، ويترك وراءه سليمان مدفونًا في قبر مجهول.

في لحظات الرحيل، أطال نظرات الوداع، يعرف أنه لن يكون محصنًا من الحنين. لم تجعله هذه الحرب التي امتدت إلى دمشق، يفكر في الدفاع عن المدينة التي أحبها. أحسّ بالأسف يطحنه، كان عاجزًا، همّه النجاة، لكنه حبذ فراقها، خشي أن تُدمر أمام عينيه، كان في خرابها خرابه، لم يكن أمينًا حيالها.

منذ سنوات، تصور أنه إذا سقط النظام، فساعة الانتقام حلّت. سيُطرد العلويون من بيوتهم، ويلاحقون في الشوارع، يصطادونهم واحدًا واحدًا، ويلقون بجثثهم على قارعة الطريق. لكن عندما حدثت الحرب، انقلبت الصورة رأسًا على عقب، النظام يطارد الناس بالجملة، لا يصطادهم فقط، بل ويسحقهم.

كاد أن يمضي أسبوع آخر على هذه الحالة، يتأمل ويندم، لولا أنه تلقى اتصالًا، لم يفصح المتكلم عن صفته.

ستأتي السيارة بعد قليل لتأخذك إلى الإدارة للاجتماع مع المدير.

لم يسأل مَن هو، أو عن الإدارة، أو ما إذا كانت الإدارة أحد الفروع. وربما إحدى تلك الجهات التي تتكاثر دونما هدف سوى الاعتقال إلى أجل غير مسمى، وإخفاء الأشخاص، وقتلهم على مهل، أو التحقيق مع المشتبه فيهم، وإدانتهم. هل أصبح مشتبهًا فيه؟! لم يستبعد، إذا كانوا قد فتحوا ملف المهندس، فالتحقيق معه قد حلّ وقته.

أقنعته الملامح المتجهمة للعناصر المسلحين، وهو يركب السيارة بأنه تسرّع بحزم حقائبه، الرحيل لم يعد إلى الضيعة، ولن تلزمه أمتعة. المكان الذي سيذهب إليه لا عودة منه.

٢. الإدارة

استغرب وصوله إلى الإدارة بسرعة، لم تكن بعيدة، كان البناء يقع في منطقة «المالكي» أرقى أحياء العاصمة. خلال الحرب تحولت الأبنية المهجورة التي كانت تحت الإكساء، ومعها الأبنية المستولى عليها، إلى مراكز عشوائية للموالين المسلحين، يعسر معرفة ما يدور في داخلها، وما ابتدعوه من وظائف لهم.

البناء حديث، خالٍ من المسلحين، وإن كان يغصّ بالذين أخفوا أسلحتهم... غرف وقاعات وموظفون، وموظفات سيدات وفتيات أنيقات!! أشبه بإدارة ذات طابع مدني، تُعنى بتسيير أمور الأهالي، أوحت به الكومبيوترات والأوراق والأقلام والمصنفات. التحديث لم يتوقف في الحرب، والإدارة تمارس عملها بمعزل عنها، كأنما لا قصف ولا قنابل... لمجرد أنّ الهدوء السابغ شمل الممرات. كان الضجيج في الخارج غير مسموع في الداخل.

لم يخدعه الصمت، إجراءات توقيفه ستتخذ في هذا السكون، ريثما يُرسَل إلى مركز حقيقي قاتم ضارب إلى السواد، تتردد بين جدرانه الكتيمة صرخات الألم والتوسلات والاستجارة بالله، يديره عناصر مفتولو العضلات، بذيئو اللسان، يتباهون بأن الله ممنوع من الدخول إليه، هناك لن يسمع صوته أحد.

لم تعذبه الظنون طويلًا. استقبلته سكرتيرة شقراء رصينة ولطيفة، طمأنته الشحنة الأنثوية في عينيها بأنه لن يتعرض للضرب بعد قليل، وإن لم يستبعد أن يرسل إلى قبو مظلم، يربض تحت قدمي السكرتيرة. اغتصب ابتسامة رسمها عنوة على وجهه، بادلته إياها بابتسامة عريضة وأسنان بيضاء. وعرف منها أن المدير سيقابله بعد قليل. لم ينتظر سوى دقائق معدودات، دخل بعدها إلى مدير الإدارة، أو المركز، أو الهيئة...

بدا المدير الذي استقبله باحترام، شابًا تجاوز الأربعين من العمر، اسمه خالد كما قدم نفسه، زعم أنه يعرف كاتبنا المشهور، فأبدى عارف دهشته من باب التواضع.

اطمأن، لن يرسلوه إلى التعذيب، قبل جولة مساومة راقية. كان على استعداد لتقديم أي تنازل يرغبون فيه. لا موانع لديه، عن ماذا سيدافع، ولماذا؟ سيستجيب لكل ما يطلبونه منه، ويبذل الوعود. إذا خرج سالمًا، وسمحت له الظروف بالاختفاء في الضيعة، سيتاح له الوقت للتفكير بطريقة ما يتنصل بها مما وعدهم به.

لم يكن المدير خالد مستعجلًا، وإن كان عمليًّا جدًا. بدأ الكلام بتؤدة ثم بتسارع. لم ينته حديثه، إلا وأدرك عارف نوعية هذا الرجل، شعلة من الذكاء،

حاضر الذهن، ذاكرة قوية، وإلمام عميق بأحوال البلد، وما يريده من الأشخاص الذين سيتعامل معهم، وهو ما ولّد لديه انطباعًا عن رجل يدير في الكواليس إدارة غامضة.

انقطع الحديث بضع دقائق، انصرف خالد عنه يتكلم بالهاتف، ما سمح له بإلقاء نظرة حوله. لم يهتم بصور الرئيس المحبوب، ولا بصور أبيه الخالد، ولا بباقي الصور، رآها آلاف المرات. لفتت انتباهه الخرائط المعلقة على الجدار، كانت هي نفسها التي رآها لدى صديقه المهندس مبعثرة في المكتب. حدّق فيها؛ خرائط بلدات وقرى، تتوضح فيها الطرق والمسالك المؤدية إليها، وما يحيط بها من مواقع عسكرية. كانت إشارات X الحمراء تشير إلى مجازر نفذت في السنوات الماضية؛ الغجرية، كرم الزيتون، تفتناز، الحولة، البويضة الشرقية، القبير، بستان القصر، جديدة الفضل، البيضا، داريا، معرة النعمان، عقرب... بدا له كأن العمليات العسكرية القادمة ستشمل الغوطة، وحلب... هناك بلدات وقرى وأحياء، وضعت على قائمة القصف، وربما المجازر، إن لم يكن الكيماوي.

تشبث به خاطر لم يفلته؛ الملفات المكلف بها المهندس، أصبحت بحوزة المدير ذي الشباب الدائم. لقد احتل مكانه. لم يطل الوقت عندما ورد ذكر المهندس، فدهمته قشعريرة، بينما كان المدير يشير إلى سلفه بنبرة ظافرة، فتخيل للحظات أنه قتله بطريقة ما.

لم يغفل المدير عمّا راوده، فابتسم ونظر إليه يسبر غوره.

«هل يهمك معرفة ما الذي جرى لصاحبك المهندس؟».

«لا، أبدًا».

كان جوابه السريع بالنفي في محله، ردًا على التهديد الذي انطوى عليه السؤال، يعني أنه يعرف، ولا يهمه التطرق إليه. لو أنه أبدى فضولًا لمعرفة المزيد، لتلقى تحذيرًا بليغًا، لا تحاول أن تخدعنا، وإلا كان مصيرك كمصيره.

«حسنًا، نستطيع التعامل بثقة».

أعجب المدير بنباهة عارف، عرف من نبرة صوته وحدها، التحذير المنطوي على سؤاله. فكافأه على سرعة بديهته؛ لن يأخذه بجريرة المهندس.

«لا أجهل صداقتكما، لكن لمعلوماتك، لم يكن للمهندس أصدقاء، وإن كنتَ الأقرب إليه. في منصبه لا أصدقاء، فقط معارف، وإذا كنت أنت أو غيرك على صلة وثيقة به، فلا يعني الكثير من الأمان، سيضحي بكم، ولو لم تكن هناك ضرورة قوية».

ما قصده هو أنك بالمقابل بوسعك التضحية بذكراه وصداقته.

لم يكن المدير بحاجة ليسمع منه تعليقًا، ما أعفاه من الاستفهام. آثر أن يصغي إليه، لن يسأله، أو يقاطعه. المدير يريد إبلاغه بأمر ما.

ليكن بعلمك، ملف الفرع ٦٥٠ أصبح تحت إشرافي. وصلتني استقالتك، ولم أوافق عليها، أسألك الرجوع عنها، ستبقى مفوضنا إلى الفرع. عدم ثقتي بالمقدم، ليس لأسباب أمنية. ألا تشاركني ملاحظتي؟ إنه رجل بسيط، ليس في وسعه إدارة الفرع. إن تركناه وحده، سيلتف حوله المخبرون، ويحولون الفرع إلى مجال للارتزاق. ألا توافقني؟

ومثلما لم ينتظر مشاركته، لم يأبه لموافقته.

الخطة الجديدة رفع سوية الفرع، ألّا يبقى صوريًا. نفكر بتأهيل المقدم ثقافيًّا بشكل فعال. طبعًا لا نريده أن يصبح كاتبًا ولا شاعرًا، بل أن يكون لديه إلمام جدي بالأدب والسينما والدراما، وإذا أمكن بالموسيقا والرسم والنحت، عمومًا بكل ما له علاقة بالثقافة. في الحقيقة، لا ينفع إلا لهذا النوع من العمل اللطيف، سذاجته لا تصلح للتحقيقات السياسية؛ مؤامرات واغتيالات وتفجيرات، وليس واردًا تكليفه بها. إذا أحسنا الظن به، سيكون مجديًا لنا في المرحلة القادمة، أي بعد الحرب، واستعادة الاستقرار، لا يجوز ترك الأدب للأدباء، ولا تنسَ أنّ للدراما جانبًا خطرًا، الناس يظنون أن لآراء الدراميين وزنًا، لا تتعجب، الدراميون أنفسهم يظنون ذلك، نحن نعرف أنها سخيفة، يريدون استرضاءنا بها، فظنوا أنفسهم شيئًا، نريد أن نعيدهم إلى ما كانوا عليه، مجرد فنانين يبحثون عن عمل، لئلا يعتقدوا أننا أصبحنا نعمل حسابًا لهم، سنخفف من فصاحتهم السياسية، قبل أن يتورطوا بأدوار بطولية تدق أعناقهم، الأموات وحدهم الأبطال، لا أبطال أحياء. طبعًا، يسعدهم التعاون معنا والانصياع لأوامرنا.

هزّ رأسه ووافقه.

المقدم خيار جيد، ولو بالمصادفة، لكن ما يتمتع به من مثالية رعناء، سيدفعه إلى التشدد مع جميع أنواع المثقفين دونما تمييز. لا بأس، نحن بالمقابل سندفعه قدمًا نحو احترام تخصصاتهم، الشعر للشعراء، الرواية للروائيين، القصة للقصّاصين، الدراما للدراميين... لا سياسة، الشطط وارد عندما يتناولونها، بصريح العبارة السياسة للسياسيين فقط. تعرف السياسيين تحت قبضتنا. أنت لا ريب تعرف، الرئيس أخذ على عاتقه الجانب السياسي للدولة، أي خطاب له عبارة عن منهاج ودرس ورؤية مستقبلية متكاملة. المسؤولون في الدولة لا يجهلونها، ويتقيدون بها. المحللون السياسيون يستمدون منها تحليلاتهم، ويرتزقون منها، وكسبوا الكثير. لا تظن أننا بحاجة إلى المثقفين

الذين وقفوا معنا، هم الذين بحاجة إلينا، يظنون أن الساحة خالية، عمومًا لم يخدعونا، لكنهم فقدوا مصداقيتهم. المشكلة أنهم من حثالة المثقفين، لقد دفعنا لهم ثمن خدماتهم، وإن ادعوا النزاهة، نريد وجوهًا نظيفة، لم تتلوث بعد.

ابتسم المدير باستهزاء.

اعتقد أن الوقت ملائم للبدء بعملك الجدي. لن يعرقل أحد مهمتك. ضع في اعتبارك أن يكون المقدم جاهزًا ثقافيًّا عند البدء بمرحلة إعادة الإعمار. لن أحدد موعدًا، لكنها آتية لا محالة، لا تسألني متى، لنكن واقعيين، ربما بعد عام أو أكثر. لن يلاقي المقدم صعوبة مع الأدباء، إنهم مصابون بصدمة، لقد عوملوا بخشونة، كما عاملنا بعضهم بقسوة،، تعرّض بعضهم للإعدام الميداني، ومنهم من مات تحت التعذيب، أو قتلوا خلال الملاحقات والمداهمات، وللأسف هناك من يتعفن في السجن، لكنها ظروف الحرب. الفائدة أنهم كانوا عبرة للآخرين. لا أعتقد ان أديبًا يتجرأ على المعارضة، فما بالك بحمل السلاح، أو المساهمة بالإغاثة؟ الذين عارضوا هربوا وتشردوا وندموا. صحيح أنهم مثلوا في الخارج مسرحيات ومسلسلات، لم تظفر بمتفرجين، وكتبوا قصصًا وروايات، لم تُقرأ. كن على ثقة، مهما كتبوا أو مثلوا، ففي المستقبل لن تكون هناك سوى رواية واحدة، روايتنا نحن. ألا توافقني؟

هزّ رأسه، وإن لم يوافقه في سرّه.

اسمع مني، نريد مثقفين يؤمنون بتطلعات الرئيس عن قناعة. ما رأيك؟

ووافقه ثانية.

إزاء هذا التوافق، لم يعد لدى المدير ما يقال، ولا لدى المفوض ما يعترض عليه. إذا كان المطلوب تثقيف المقدم، على أمل تشكيل طاقم من المثقفين الموالين، على مستوى جيد، أي إنه سيتابع المهمة نفسها، وإن من دون أمل كبير. فليكن...

انتهى الاجتماع على خير، قبل أن يخرج، كان لدى المدير طلب أخير.

هناك خدمة أرغب في تقديمها للمقدم. لقد أصرّ علينا ألّا نقبل استقالتك، فأبلغناه أن الأمر ليس بيدنا، وأننا لا نجبر أحدًا على شيء. وطلبنا منه المحاولة معك، لذلك سيتصل بك، وأرى أن تتظاهر بأنه أقنعك. سترتفع معنوياته لإحساسه بأنه فعل شيئًا، ما سيوثق الأواصر بينكما. ألا توافقني؟

هزّ رأسه ووافقه للمرة الثالثة.

مرت بضعة أيام، المقدم لم يأتِ.

كما لا جديد، جبهات القتال في توسع. كان هذا متوقعًا؛ والمتوقع أكثر أنّ النظام يريد إنهاء الحرب؛ المليشيات المذهبية تواصل تدفقها من إيران والعراق ولبنان، تقاتل في الخطوط الأمامية من طرف، ومن طرف آخر تحمي المقامات التي أصبحت مقدسة ومسلحة.

٣. وصفة الخلود والأبد

استلفت مدير الإدارة اهتمام عارف بشدة؛ باتت المجازر من تدبيره. لقد نجح في احتلال منصب المهندس، والاستحواذ على صلاحياته الواسعة، وضمّها إلى صلاحياته السابقة. سمع عنه من قبل، بشكل عابر. بدا من نوعية الأشخاص الذين تُسند إليهم إدارات تعمل في العلن على قضايا مدنية عامة، وفي السر على قضايا خصوصيتها تحبّذ إخفاءها. أحاطت به الشائعات، أقلّ ما سربته عنه، أنه لا يشبع من تجميع السلطات بين يديه، وما يستعصي على غيره، يهون عليه.

جاء الوقت ليسأل عنه، فعرف أن خالد، ولم يكن هذا اسمه، يستخدمه في نشاطاته العلنية مستأنسًا بالراحل الخالد، بينما الاسم الحقيقي للأمور الشخصية. لقبه الأكثر تداولًا؛ الشاب الذكي. كان على علاقة مباشرة بالرئاسة، وبالرئيس تحديدًا. كانا من جيل واحد، ربطته به صداقة طويلة، ويرجع إليه في الأمور الحساسة جدًا. السر في ثقة الرئيس به، أنهما عندما كانا طالبين في الجامعة، خاضا مغامراتهما العاطفية معًا، فكان يقوم بواجب الدعاية لابن الرئيس الخجول، كانت العملية نوعًا من الهزل الشبابي الحميمي الجامعي، تُدار بخبث بهدف توعيته بعالم يجب أن يبدو مترفعًا عنه، بينما هو متهالك عليه. توثقت العلاقة بينهما فيما بعد، خلال فترة غامضة. عندما أُهِّل الابن للرئاسة، أُهِّل أيضًا صديقه ليكون أحد المقربين إليه.

بعدما تسلّم الرئيس مناصبه، كلّف صديقه إنقاذ بعض المشاريع الخاسرة وإعادة تسييرها، ما حصل هو ارتفاع خسائرها، فقوَّضها وباعها. كان مكلَّفًا مهمات أخرى، وما حكاية المشاريع إلا لتمويل المصروفات السرية للإدارة التي أصبح مديرها.

اللافت، تعدد مواهبه، وإلا لم يكن ذكيًّا، يصلح لأي مهمة على أن تكون صعبة ومعقدة، وإذا كان قد أبلى نجاحًا، ففي ترشيحه ليصبح من رجال الحلقة الضيقة المحيطة بالرئيس، لكن اعترض أعضاؤها، فنقل إلى الحلقة الأوسع، ثم إلى حلقة خاصة جمعتهما معًا في فترات متباعدة.

منذ ذلك الوقت، تحيَّن خالد الفرص للقضاء على المهندس، دونما أمل كبير، لم يتمكن من إلغاء ماضيه المتخم بالنجاحات، كان عقبة أمام طموحاته، مع هذا أخذ يشق طريقه كما البلدوزر في كواليس القصر الجمهوري والمخابرات

والعمليات السرية. أخيرًا، عندما واتته الفرصة، قام بتصفية المهندس من دون أن يرفّ له جفن، مع أنّ الاقتراحات الأخرى المطروحة كانت إقالته، تجميده ثانية، وضعه تحت الإقامة الجبرية، اعتقاله، سجنه في زنزانة منفردة إلى أجل غير معلوم... لكنه رجّح التخلص منه على الرغم من حصانته الفريدة، كان يخشاه، ألم يعد إلى القصر بعدما أُبعد عنه عدة سنوات؟

حصانة المهندس كانت مستمدة من صناعته وصفة الخلود والأبد، وإذا كان قد أُقصي من قبل، مع بعض رجالات الحرس القديم، فبالخطأ، وكان استدعاؤه من التقاعد بحجة متابعة بعض الملفات السرية، لإدراك العائلة الرئاسية سحر الوصفة التي حُرِمَها ابنهم الرئيس الشاب، وضرورة استعادتها لحسابه؛ ما معنى أن يكون الأب الميت خالدًا، والابن الرئيس غير خالد؟ لا بد سيجد المهندس تخريجة ما.

إصرار العائلة الرئاسية، كان بناءً على إنجازات للمهندس لا يستهان بها تحققت في الداخل، بعد إطلاق حملة الخلود والأبد على مستوى الجمهورية، كانت النتائج مبهرة. خلال وقت قياسي، بلغ الإيمان بها الذروة، وأصبح اسم الرئيس الأب، حتى بعد وفاته، لا يُذكَر إلا مرفقًا بالخلود، مع أنه شبع موتًا. وكان من قوة تأثيرها، أنها منحته الحياة الأبدية، كأنه لم يمت، ما زال يمارس أعماله في القصر... ما منح العائلة لمسة من الأبدية، فتذوقوا لحسة من طعم الخلود.

حظيت عودة المهندس بالرضى في الحلقتين، الضيقة والأوسع، لكن في الحلقة الخاصة، لم تعجب خالد، بحجة أن مناصبه شُغلت، ولا يجوز انتزاعها من شاغليها، بينما كان السبب الحقيقي إدراكه أنّ المهندس تعمّد تخصيص وصفة الخلود والأبد بالراحل، وحجبها عن الوريث، وإن ادعى أنّ التوريث لا يمنعها عنه، لكن أحدًا في الدولة لم يتجرأ على أن يشمل الابن بها، فكان في إسنادها إلى المهندس اعترافًا به.

بعدما استعاد المهندس مناصبه، صارح صديقه عارف بأنّ بقاء الوصفة معلقة، ضمانة لاستمرارية موقعه في الدولة، وإذا كان قد أُعيد من أجل تفعيلها لحساب الابن، فتمهيدًا لتشمل العائلة، فوعد بالعمل على صيغة مرنة، لا تستثني الأم والأخ والأبناء. كانت الترتيبات واضحة في ذهنه، قد تتم بضربة واحدة، بإعلان العائلة المقدسة، لكنه استحسن تأجيلها في انتظار ظرف ملائم، تذرع بأنه لم يأتِ بعد، واقترح إعلانها على مراحل، ستأخذ زمنًا، لكنها مضمونة.

أصرّ المهندس على هذا الحل، كان متيقنًا أن وجوده بات مرتبطًا بإيجاد التخريجة المقدسة، بعدها قد يجمدونه إلى الحد الذى سيموت فيه من البرد.

توطئة لها على المدى البعيد، خلخل المهندس الحالة الحصرية لوصفة الخلود والأبد؛ إنها وإن حجزت للأب، ورثها الابن مع الرئاسة، ولا يجوز اللغو بها، لئلا يُظن أنّ الابن يغار من أبيه الراحل ويزاحمه عليها. وشدد على الآلية الأوتوماتيكية التي تجلت بها عملية التوريث برمتها، مؤكدًا من خلالها وجهة نظره؛ فمثلما ورث الابن الدولة والنظام والبلد والشعب، ورث معها أيضًا الخلود والأبد. الوراثة ليست انتقائية، ولا تتجزأ. وإذا كان قد شابها تقصير في انتقالها للابن، وتلكؤٌ في استخدامها، فالسبب أجهزة الإعلام التي أهملت التركيز عليها لاعتقاد خاطئ، أنّ ما يخصّ الأب لا يخصّ الابن، وفي استدراكها فجأة، بعدما بعد الزمن بها، قد يبدو مفتعلًا، في حين أنه مفروغ منها.

كان بذلك قد مهد لاستعادة الخلود والأبد لحساب الابن، وارتأى إسباغها عليه رسميًّا بعد انتصاره في الحرب الكونية، عندئذ لن يكون الخلود إلا عملية تنصيبه في الأبد. ما يمنحها معنى جليلًا، باستحواذه عليها بقدراته، ولم يرثها بلا جهد ولا تعب، ما يُكسب تجديدها صدى أقوى.

بعدها، يساومهم على إسباغ القداسة على العائلة الحاكمة، وكانوا متفقين على استبعادها عن باقي أفراد العائلة في الساحل، أغلبهم من الأوباش الأنذال، شبيحة، مهربو مخدرات، مجرمون، قتلة وزعران... وهي عملية ستطول، خاصة أنّ مجرمي العائلة سيزعمون أنّ إنقاذهم النظام ليس بلا مقابل، وما تكبدوه من تضحيات وخسائر وضياع سنوات من حياتهم. صحيح أنهم لم يطالبوا بتعويض مادي عنها، فقد تبرعوا به للعائلة الرئاسية دعمًا للاقتصاد المنهار، على أمل مشاركتهم بحصة في النصر وتوابعه، ولم يكن سوى النهب، أما توابعه فبالتدريج.

٤. مأثرة «منحبك»

عرف الشاب الذكي بالتخريجة المتقدمة التي يعمل عليها المهندس؛ العائلة المقدسة!! طار صوابه، لم يفته طول أمد الخطة، لمجرد الوعد بتسويقها عقب انتهاء الحرب، بينما الحرب باقية، لا يُعرف لها نهاية، ما يتيح للمهندس التشبث بمناصبه إلى زمن غير معلوم، يحشر خلاله الرئيس والعائلة في قائمة انتظار طويلة، قد يرحلون قبل الظفر بها. المهندس الخائن، يظن أن ملكية الحقوق الفكرية للوصفة، عائدة له وحده، يهبها أو يمنعها عمن يشاء، متعمدًا إغفال أنها كانت، وما زالت ملكية حصرية للنظام الأبدي.

عجز الشاب الذكي عن حل بديل، رغم لمحات العبقرية التي تعاوده حول إمكانية اختلاق تخريجة تنقل الخلود والأبد إلى الابن من خلال الوراثة، حتى إنه فكر في الجينات، لكنها استعصت عليه ومعها الحلول الأخرى. عجزه كان نابعًا من عدم ثقته بالأفكار العلمية والغيبية، فالعلمية قد تأتي نظرية تنقضها، أما

الغيبية، فالأبد مهما طال فهو مؤقت، والخلود فكرة شكلية، إن لم تكن غبية. مع هذا ليست العائلة مخطئة في طلبه، ولا تسعى وراء سراب، الخلود كالتاريخ يتسع للأوغاد أيضًا، ما دام يُصنَّع محليًّا.

كانت الأجواء التي نشأ فيها شبابية متحررة، وترتاب في العلم، كانت تجهله، أشبه بالطلاسم. بينما كان يؤمن بأفكار مثيرة لا على التعيين، وربما لم تكن أفكارًا، تتميز بالرعونة، لكنها واقعية، نقطة ضعفها أنها استهلاكية، بينما المطلوب أفكار تعيش عقودًا، إن لم يكن قرونًا، لا أيامًا معدودات.

بعدما استسلم لفكرة أنّ الوقت لم يحن بعد لإطاحة المهندس، واتته لمحة عبقرية، سينافسه على صعيد آخر، فكان الحل في الغرام، نعم الغرام!! تلك هي العبقرية، ابتداع فكرة، لا يمكن أن تخطر ببال أحد مهما بلغ من خيال وذكاء وعاطفة وجرأة.

منذ اكتشف الإنسان أنّ له قلبًا يخفق، لم يطرأ على الغرام تغيير، لا تقدم ولا تراجع، كان الحب هو العاطفة التي توافقت مع العصور كلها، من دون أن تستهلك، ربما لأنه لا وجود لها، مع هذا كانت نبعًا فوارًا لا ينضب، شملت العصر البدائي مع ما لحقه من عصور، من الإنسان الناطق وربما الصامت، إلى الإنسان الوديع، فالمحارب، أخيرًا حطّت على الإنسان الرأسمالي الجشع، دونما تناقض مع الاشتراكي الثرثار، وبالانسجام مع إنسان العالم الثالث الجائع أكثر منه العاشق، ويمكن مع بعض الانحراف أن تذهب إلى الإنسان الذي يحمل على عاتقه شعارات المقاومة والممانعة، فالحب مثلما يُقاوم، يتمنع ويُمانع أيضًا. عدا عن أنّ الحب انتهازي، يحتمل الخديعة والغدر والخيانة... وأيضًا الثبات على العهد، ما يضمن تضليلًا ساري المفعول، كما أن التلاعب به، يكفل توجيه العواطف نحو الحب حتى الموت.

طرح خالد فكرته، محذرًا من خطر بقاء الرئيس الشاب معلقًا في الفراغ، بلا أيديولوجية شبابية. فالسلطة المطلقة لن تكتسب الشرعية في أذهان الموالين، إلا بأن تكون على قياسهم؛ جاهلة سخيفة وحمقاء، أي عمياء.

وحده الحب قادر على أن يُعمي البصر والبصيرة، بالاعتماد على حجة كانت ملموسة:

لا يُفتقد مرض كالعمى، إنه الأكثر توافرًا بين الجماهير المُسيّرة.

هذه الفكرة العاطفية البسيطة، اجترحتها عبقرية الشاب الذكي في زمن صعب. بعدما تساقطت الأيديولوجيات المرموقة في القرن الماضي، وانهزمت شرّ هزيمة، وأمست سمعتها في الحضيض. فكان في إحيائها على نحو براق مختلف، إنجاز انقلابي على الأيديولوجيات المغلقة، بحيث يبدو

الحب غير مؤدلج رغم أدلجته، ولا مسيسًا رغم تسييسه. الضرورة التاريخية تدعو إليه، إذ لا جماهير بلا أيديولوجية، ماذا لو كانت نوعًا من الولع الأحمق؟

لم تأخذ الأيديولوجية التي بدأ يعمل عليها صيغتها تلقائيًّا، استرشد بعلاقته بالرئيس خلال الفترة الجامعية التي خاضا فصول غرامياتهما معًا، وكان تابعًا له، ومع أنه حينها لم يكن موعودًا بالرئاسة، لكن جماليات العائلة الرئاسية أسبغت عليه جاذبية استثنائية، وفتنة لا تقاوم، رغم بلادته، فوقع في غرامه فتيات وسيدات، انتابتهم أعراض الوله الكاذب، تحولن إلى بلهاوات، خدعهن وجيب قلوبهن وتمارضن تحت تأثيره، ولم يشفين إلا بعد صدمة التعرف إليه، مهما يكن، كان ابن الرئيس الخالد. بعدما تزوج وأصبح رئيسًا، تضاعف الإقبال عليه، وتضاعف الهبل، وتكاثرت المعتوهات، ربما ظفرن بلقب ما؛ معبودة الرئيس، حبيبة الرئيس، محظية الرئيس، عشيقة الرئيس... أي شيء، ولو كان شرموطة الرئيس، أو قحبة الرئيس.

لم يفته أنّ الشعب، أيَّ شعب، سواء كان تحت التخلف أو فوقه، يرى الرئيس وسيمًا ولو كان بشعًا، لطيفًا ولو كان غليظًا، ذكيًّا ولو كان أبله، لمّاحًا ولو كان غبيًّا... بالتالي سيكون محبوبًا ولو كان كريهًا.

أحرز الشاب الذكي سبقًا فريدًا، أيديولوجية مستحدثة لم يسبقه إليها أحد، كانت عاطفية، لا تنقصها الشاعرية، تضرب على أوتار القلب، ولا تغفل الجانب السياسي الواقعي، تنحو إلى تذويب الشعب بمختلف أطيافه وطوائفه وطبقاته واتجاهاته... في طائفة واحدة:

«عشاق الرئيس».

تمظهرت في شعار من كلمة واحدة، روعيت فيها اللغة العامية، التي تنطق بها الجماهير، حتى تلك التي لا تقرأ ولا تكتب: «منحبك». ما سمح لكل مواطن بأن يحظى بأيديولوجية ذات حدَّين: عامة يمارسها جماهيريًّا في المظاهرات والمسيرات، يتشارك فيها مع أقرانه. وخاصة، يمارسها إفراديًّا على حدة، شكلها الحميمي، يبيح للحب أن يكون بين اثنين، لا ثالث معهما ولا بينهما، ما يكسب الحب لمسة من التعبد.

غزا شعار «منحبك» البلاد، وانتشر في أرجائها، بموجبه اقتيد الشعب كله إلى الحب، بما فيه من ذكور وإناث، كبار وصغار، عجائز وعلى حافة القبر. وإذا كان خالد قد لاحظ أنه كان منقوصًا، من طرف واحد، فلأن الرئيس لا يستطيع مبادلتهم الحب بمثله، لا لأن وقته لا يتسع، بل لأنه لا يستطيع أن يحب، رئيس يرتكب كل هذه الجرائم، لا يعرف الحب. المهم شعورهم بأنه لا يمنعهم من محبته.

اقترح خالد حينها مبادرة من الرئيس، وحده أو برفقة زوجته اختلاس وقت تناول الطعام، والقيام بزيارات مفاجئة لأماكن عامة، يأكلان ويشربان ويتصرفان ببساطة، كأنهما من البشر... يا للتواضع الجم!! على أن تكون ضمن تحضيرات مسبقة، في أمكنة تغصّ بالزبائن، أكثرهم وأحيانًا جميعهم من رجال المخابرات بملابس مدنية، يبدون فيها مثل البشر العاديين الطيبين.

المواقف التلقائية المبرمجة، أثبتت نجاعتها في الحض على محبته، وأظهرت ما يتحليان به من وداعة، وهما يوزعان ابتساماتهما بلا مقابل، فالشعب لا يراهما إلا على شاشة التلفزيون، ستقع أبصاره عليهما بالعين المجردة. كان الاعتماد على قابلية الشعب للوقوع في الغرام، مع مراعاة توجيهها نحو الرئيس، أكثر من زوجته.

اعترف خالد بأنّ الشعب لم يحبه بالإجماع، هناك فئة ضئيلة جدًا، لا تزيد على نصف بالمائة، لم تحبه، مثلما في الانتخابات الرئاسية، لم تنتخبه، هذه المرة، لا لسبب سياسي، بل لبرودها العاطفي، لكن بلغ العشق بالموالين حدّ التدله به، فأطلق عليهم لقب: «المنحبكجية»، بعدما أصبحت لافتات «منحبك» تملأ الشوارع، واحتواء صور الرئيس على قلب باللون الأحمر مكتوب في داخله «منحبك»، وسهم يخترقه وينزف دماء المحبة. إضافة إلى ميداليات ذهبية وفضية ومعدنية وخشبية، محفور عليها «منحبك»، وأوشام على الصدر والقفا، والمعصم والساعد...

عُممت المحبة واستمرت، على أمل دوامها إلى زمن لا يمكن حسابه إلا على أنه الأبد، لكن لم يطل الوقت عندما لم تخف أيديولوجية الشاب الذكي ما اعتورها من مفارقة فجة، بعدما ظهر أن الشعب يحب الحرية ويكره الرئيس، كشفه زمن، كان زمن أحقاد وتعذيب ودماء وجثث. وإن بلغت محبة الموالين «المنحبكجية» للرئيس قدرًا هائلًا، مسلحة بالعته الغرامي، ما حثهم على قنص كل من يطالب بالحرية، وقتل كل من يقصر في محبته، أو تحيط بعواطفه الشكوك نحوه، وكانت الرغبة في التعجيل بالقضاء على الكارهين له، قد أتاح استخدام الكيماوي للقتل بالجملة، لم تستثن الأطفال ولا النساء في ما دُعي البيئة الحاضنة، كان لا بد من إبادتها. هذه الدعوات وجدت لها متسعًا على وسائل التواصل، بات الحب مخصصًا بـ«الأسد أو لا أحد».

يتذكر عارف أنه إذا كان هناك مسؤول يتحلى بالواقعية، فصديقه المهندس الذي لم يخفِ عنه رأيه في هذا الضجيج التافه، وإن باركه على نحو آخر:

في الحقيقة، أو الطبيعي، ألّا يحب الرئيسُ الشعبَ، ولا يثق به. من أين تأتينا المؤامرات، إن لم يكن منه؟ عندما تعالت الاحتجاجات في المدن والأرياف، لم يتردد الرئيس في إعلان الحرب عليه، حتى لو ادعى الشعب أنه يحمل

نحوه أسمى آيات الحب. الرئيس لم يصدق هذه الأكذوبة، لماذا؟ ليس لأن مسؤولياته تملي عليه الحذر، في الحقيقة، لم تسمح له غطرسته بتصديقهم، فلم يحابِهم. الرئيس أذكى من أن يعتقد أن الشعب واقع في غرامه، يعرف أنه حب مصطنع، وعشق زائف. الشعب غير صادق في إبداء مشاعره، مثلما هو كاذب في إظهار عواطفه نحوه. من حسن الحظ، أن الحب يحتمل التكاذب، فما بالك وأن هذا الغرام من صناعة وسائل الإعلام، ساعدت المخابرات على ترويجه، إن لم يكن على اختلاقه، وجُند عشاقه من الجماهير الموالية. عمومًا، كان مختلسًا من صرعة الخلود والأبد.

قرر المهندس سحب هذه الصرعة من التداول، لسبب قوي، لم يظفر الرئيس بمحبة الشعب، لقد ظفر بكراهيته دونما أي شعور بالذنب. تركزت حملته ضد الشعار على خفته وميوعته، واستبعاد من كانوا خلفه.

عندئذ، عاجلت المهندس الوشاية التي قضت عليه. كان الاتهام تافهًا، وكان أيضًا مرعبًا؛ كانت هناك أدلة على أن المهندس فكر في اغتيال الرئيس في زمن مضى، ولو كان مجرد التفكير لا غير، (وكأن هناك قارئي أفكار) من دون قبول أية حجة، وإن كانت حفاظًا على النظام. ومع أنّ هناك من ارتأى غضّ النظر عنه، تقديرًا لخدماته، لكن وصفة الخلود والأبد، لم تشفع له، فالقضية سُلِّمَت لخالد.

لن تخضع هذه التقليعة العاطفية لآليات التقليعات العابرة، ستستمر ما دام الرئيس رئيسًا، وربما تنتقل إلى الأولاد والأحفاد، من يدري؟ الزمن يطوي السنين ومعه هؤلاء الذين تحت الأرض، والملايين الذين فوق الأرض الفارون بأرواحهم من الجيش العقائدي ومليشيات القتل، ومعهم الصابرون في الوطن تحت الشعار البغيض: «منحبك»، يرفرف عاليًا مع العلم السوري.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الخامس عشر
الحب والقتل

١. روميو وجولييت

لم يقرع المقدم بابه، تأخر كثيرًا. فاعتقد عارف أنه لن يأتي، رغب في نسيانه مستغلًا زحمة الأحداث، لكنه لم يستطع، احتل مكانًا أثيرًا في داخله. ليت كلًا منهما لا يحتاج إلى الآخر، وإن أحسّ بالامتنان نحوه، حتى لو لم يعد بحاجة إليه، ما يوفر عليه تجربة محبطة، رغم أنه سيفتقده. وأحسّ أيضًا بالارتياح، سيصبح في حلٍّ من وعده لمدير الإدارة؛ أسبوع آخر ويغادر إلى الضيعة.

مساءً، بداية الأسبوع، وكان الجو عاصفًا وباردًا، سمع خبطًا على الباب، الكهرباء مقطوعة. فوجئ بالمقدم واقفًا عند عتبته، الريح القوية نكشت شعره، وكانت تدفعه، وعلى وشك الوقوع أرضًا، لولا أنه تيبس عند الوصيد، البرد يخرق عظامه، لم يكن يرتدي سوى قميص وسترة خفيفة، الوحل لطخ بنطاله وتجمع على حذائه، وشيء ما يسيل على وجنتيه؛ إذا كانت قطرات من الماء، فستتجمد لو تركه في مكانه. كان منظره مزريًا.

ابتعد عن الباب، مفسحًا له ليعبر إلى الداخل، لكنه رفض، لن يدخل إن لم يرجع عن استقالته. تريث لحظات يفكر، ألهذا جاء في هذا الجو الكئيب؟ أمعن النظر فيه. الضوء شحيح. هناك ما يلمع على خديه. خطر له، هل الدموع تسيل من عينيه؟! ربما كانت مرسومة بقلم مائي. خمن بسبب احمرار عينيه أنها كانت دموعًا، المقدم يحاول إخفاءها عنه بطرف كمه، متظاهرًا بأنه يحك أنفه.

كان بمنظره هذا، رغم أنه كان صامدًا في مهب الريح، يدعو للشفقة، يستجديه العودة رأفة بحاله. فلم يشأ إطالة تمثيلية تردده. بات راغبًا في العودة من أجله وحده. شده من يده وعانقه. أدخله رغمًا عنه. ناوله المنديل ليمسح دموعه، وخلع عنه سترته، وأجلسه إلى جوار مدفأة المازوت، وجلس بمواجهته على ضوء الشمعة. افترَّت ملامح المقدم عن ابتسامة خجولة. أراد أن يشكره، فأسكته بحركة من يده.

لم يسعَ المقدم إلى المفوض في تلك الليلة العاصفة، لأنه افتقد صداقته فقط، ثمة حدث في حياته زلزل كيانه وألهب مشاعره إلى حد لم يسيطر على نفسه من شدة ما تخبّط في التفكير تحت تأثيره، خلال أيام انخفض وزنه عدة كيلوغرامات.

أشفق المفوض على المقدم النحيل المبلل بالمطر من قمة رأسه إلى أخمص قدميه، وأرجع هزاله إلى سوء التغذية، إذ عافت نفسه الطعام،

وأبهظه الشعور بالوحدة، منظره البائس دلّ، بما لم يدع مجالاً للشك، على أنه كان في أمسّ الحاجة إلى صديق. لقد أساء إليه، عندما أسهم عن حسن نية في خلخلة نظرته المتزمتة إلى الحياة والبشر، ما أوقعه في مأزق لم يكن مستعدًا له، كان عاريًا بلا أخلاق، ففقد توازنه.

ما جعل المفوض يبالغ في افتراضاته، أن المقدم بالغ في مظهره المزري، فأحسّ نحوه بالذنب، لكن سرعان ما تهاوت توقعاته. اعترف المقدم بأن قصته في صميمها شخصية ذات طبيعة عاطفية بحتة، لم يمسّها أي خلل أخلاقي، وإذا كان يعاني، فمن فرط السعادة!! ما جعله يلجأ إليه، ثقته به، لا يستطيع البوح بمشاعره لشخص سواه.

ما الذي يريده منه المقدم السعيد؟

طلب منه بصراحة أن يكون دليله في قضايا القلب، مع أنه عانى سابقًا من قصص الغرام، لكنها كانت تخصّ الطرف الآخر أكثر مما كانت تخصه، فهو لم يحب، بل كان المحبوب. أما هذه القصة الرائعة، العويصة جدًا، رغم تعقيدها البالغ، فجعلت منه إنسانًا هانئًا وبائسًا، متحيرًا ومطمئنًا، لكن ملتاثًا. لقد وقع في الحب.

بدا المقدم من فرط ما كان سعيدًا، مضطربًا جراء وطأة فوضى ما احتدم في داخله من مشاعر جياشة، لم يستطع ضبطها، طفحت بعواطف اجتاحته، لم يجربها من قبل بهذا التأجج؛ كان هانئًا لأنه أحب فتاة رقيقة، وبائسًا لأنه يخشى أن يفقدها، وحائرًا في ما يفعل، وإن مطمئنًا، لأنها تحبه.

لم يجد عارف مشكلة في الحب، كانت خطوة في الاتجاه الصحيح، الظرف ملائم للغرام بعدما انطوت فكرة الانتحار الوطنية، باتت من تراث المقدم في هذه الحياة، لن تعوقه مشاغله في الفرع عن التواصل مع الحبيبة، كان أشبه بأنه يعمل، ولو كان لا يعمل. وليس من العسير ترتيب نهاية سعيدة لقصة الحب الجميلة بالزواج، بمعزل عن شبح الحرب والدمار والدماء والثقافة والسياسة والوشاية والمخبرين.

اقترح المفوض عدم تأجيل القفزة إلى الذروة، وتنتهي قصتهما في القفص الذهبي.

للأسف، ما كان أبعد المقدم عن الفصل الختامي، فالزواج مستحيل قبل حلحلة سلسلة عقبات كأداء، تتلخص بعقبة رئيسة، هي المشكلة الكبرى؛ المقدم العاشق علوي، والآنسة المحبوبة سُنّية. هذا الاختلاف الديني المذهبي، لم يكن قبل الحرب عائقًا قويًا، كانوا يتزاوجون بسهولة، وإذا ظهر مانع، يمكن حله بالتفاوض مع الأهل الممانعين من الطرفين، يقابله الإصرار

من العاشقين مع الحرد والبوزمة، فالإضراب عن الطعام. وإذا استدعى الأمر، الزواج رغم الممانعة والتهديد، فالتواطؤ على تدبير عملية خطف، فيخطف العاشق المعشوقة برضاها والتآمر معها. ثم بعد شهر أو شهرين، تتدخل أطراف من الجانبين لإصلاح الأمر. بعد محاولات مكوكية، وأمام الأمر الواقع، الفتاة حامل، الطفل القادم بحاجة إلى جد وجدة وأعمام وأخوال وخالات وعمات. فيتصالح الجميع مع الجميع.

بينما حاليًّا، قد يهدر دمها، أو يهدر دمه، أو تهدر دماؤهما.

كلاهما كانا واعيين ما يحول بينهما، العلويون يعتبرون الزواج بفتاة سُنية خيانة وطنية في هذه المرحلة التي يدعي العلويون أن الطائفة السُّنية الإرهابية تشنّ الحرب عليهم. والزواج بشاب علوي خيانة وطنية؛ الشبيحة العلويون لا يوفرون سُنيًّا من القتل.

الزواج، بشكل أدق، كان خيانة للثورة، مثلما كان خيانة للنظام، وهما التوصيفان المواربان، الأكثر استهلاكًا في التعبير عن الخيانة الطائفية، فالدم بلغ الركب، والعداوات على قدم وساق. وإذا كان النظام والمعارضة ينكران الطائفية، فالضغائن والأحقاد تكذبهما.

لو كانا يعرفان عواقب الحب الذي تورطا فيه، لكانا - ربما - تجنباه، لكنها الأقدار.

ما فعلته الأقدار، رغمًا عنهما، وخارجًا عن إرادتيهما، كان في ترتيب هذه القصة الرائعة التي بدأت وقائعها في طريق عودة المقدم من الفرع، وكان نادرًا ما يغادره. في ذلك اليوم، خطر له من دون سبب ظاهر التسكع قليلًا في الشوارع.

لاحظ أفرادًا من الشبيحة متجمعين أمام ميكرو باص، كانوا قد لاحقوه بسيارة دفع رباعي، وأوقفوه وأخذوا بتفتيش الركاب. الشبيح الذي بدا صنديدًا، وبغلًا حقيقيًّا، أنزل فتاة محجبة من الميكروباص، وأراد اقتيادها إلى السيارة رغمًا عنها، فعلا صراخها مرعوبة. ركن المقدم سيارته إلى جانب الرصيف، مع أنه عادة لا يتوقف أمام أي تجمّع للشبيحة، سماعه طلبها النجدة، استحثه، فنزل من السيارة وسارع إليهما، وكان مرتديًا ملابسه العسكرية، ومع أنّ الشبيحة لاحظوا رتبة النسر والنجمة على كتفيه، لم يأبهوا له، وطلبوا منه تحريك سيارته، فأبرز بطاقته الأمنية، عندما اطلعوا عليها، وقفوا باستعداد أمامه. كان رئيس فرع، وليس ضابطًا عاديًّا، استفسر منهم عن أسباب توقيف الفتاة، فقال الشبيح البغل، وكان قائدهم، إنها مشتبه فيها، ولديه تعليمات من المعلم بالقبض عليها.

بمجرد ما التفت نحوها، بدأ القدر ينسج خيوطه بأسلوب مغرق في الشاعرية، على الرغم من خلوّ الموقف من أية لمسة شاعرية؛ تسمّرت عيناه على وجهها الصبوح، كانت الدموع تسيل على وجنتيها، وتمنح لملامحها ألقًا مبهرًا وصفاءً كسيرًا، فبدت أجمل فتاة في العالم. يصعب وصف ما اختلط في رأسه، لكن في تلك اللحظة لم يعد في ذهنه سوى تصور واحد؛ الشبيحة الوحوش يريدون افتراس الفتاة البريئة الجميلة. كان مخيَّرًا بين أن يكون الفارس المنقذ، أو الجبان الرعديد، القدر لم يفلت هذه اللحظة؛ المقدم الشجاع أحبها من النظرة الأولى، وأصبح ما بعدها من نظرات تتتالى على وقع دقات قلبه، وتسارع أنفاسه، واحمرار وجنتيه، واصطكاك ركبتيه... كانت مجرد تمهيد لانتزاعها من أيديهم، ولو دفع حياته ثمنًا لها. كانت قد أصبحت حبيبته.

في تلك اللحظة، رأى الشبيح البغل يغافله، ويمسك بساعدها ويجرها نحو السيارة، فسارع القدر إلى العمل، وأهاب بالمقدم خلافًا لطبعه المتأني التصرف بمنتهى السرعة والعنف، فاندفع نحوه وصفعه على وجهه بكلتا يديه، ثم أمسك برقبته، وكاد أن يخنقه، لولا تدخل رفاقه، والتماسهم العفو عنه. ولم يتركه إلا بعدما توعدهم؛ إذا كرروا تصرفًا شبيهًا به، سيقتادهم إلى الفرع.

هدّأ المقدم من روعها، وأخذها إلى سيارته، وسألها بكل أدب، أن يوصلها إلى بيتها، خشية أن يلحق بها واحد من هؤلاء الأوغاد. هي أيضًا، لم يغفلها القدر من لمسته السحرية، وكما ستقول له فيما بعد، إنها أحبته من أول نظرة، في اللحظة التي التفتت نحوه ووقع بصرها عليه، رأته من خلال دموعها، أجمل شاب وقع بصرها عليه. كان المقدم شابًّا وسيمًا بالفعل.

تركهما القدر لتداعيات قصتهما الجميلة تأخذ مسارها، لن يتدخل بعدما حبك خيوطها، وكانت شائكة، ربما كان القدر نفسه، عاجزًا عن مواكبتها، أحيانًا يرتبك، يشبك البشر بعضهم ببعض، ثم يدعهم يفكرون في إيجاد حل لمشاكلهم، ولا يرغب في إدارة أمورهم بدلًا منهم. كان يختلق القصة والمشكلة معًا، ثم ينصرف إلى غيرهم.

ظنت الفتاة أن الشاب المنقذ ضابط سُني، لم تتصور أن ضابطًا علويًّا، ينقذ فتاة سُنية محجبة. مع أنه كان من أبسط الأمور، إدراك أنه يستحيل لرئيس فرع أمني أن يكون سُنيًا، فالغرام أعماها. أما هو، فلم يعبأ إن كانت علوية أو سُنية، مع أنها كانت محجبة، فالغرام أعماه أيضًا.

وما حدث بعدها، لم يكن سوى ترتيبات عاطفية روتينية، الغرام حافظ على جذوته، حتى بعد إدراكهما أن طائفتيهما تتكارهان إن لم تتقاتلا، وتزعمان أنهما لا تتكارهان ولا تتقاتلان حسب النظام الذي أشعل حرب الطوائف.

احتل الحب المكانة الكبرى في قلبيهما، بينما الواقع يتطلب العداوة، فكان لا بد من تقليص التناقضات بينهما، واعتماد التفاهم، فاقترحت خضوع كليهما لامتحان متبادل في الدِّين. كانا واثقين من أن اجتيازه سيحتاج إلى مجازفة من كليهما، وإن وثقا بمعجزة الحب. بالنسبة إليها، كان الامتحان مخيفًا؛ ماذا لو كان حبيبها المقدم كافرًا؟

ويا للعجب! كان الامتحان الصعب في منتهى السهولة، ولا حاجة إلى معجزة، مع أن الأسئلة كانت دينية بحتة، عدا عن حساسيتها الفائقة، فالفتاة تعتقد أن مذهبها هو الصحيح، تولت طرح الأسئلة، فأعمل عقله، ولو كان متيَّمًا بها. كان جوابه حول مسألة الله، أنه مؤمن بالواحد الأحد الفرد الصمد. ومؤمن أيضًا بكتبه ورسله واليوم الآخر، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله. لم يكن يكذب، هذا ما يؤمن به حقيقة. أما هي، وإن لم يمتحنها، تحب عليًّا رضي الله عنه، وكثيرًا ما كانت أمها تنذر النذور في مقام السيدة زينب. الخلاصة، اتفقا على أن لا مبرر لانقسام المسلمين إلى مذاهب وطوائف.

وجدا أنهما متفقان في الجوهر، ربما لأنهما لا يعرفان من الدين إلا جوهره، وإذا كانت تصلي، فهي لم تطالبه بالصلاة، أخوتها لا يصلون. وكانت تصوم، فوعدها بأن يصوم رمضان معها، إذ لا يعقل أن يأكل بينما هي ممتنعة عن الطعام. لم يفتهما أنّ الخلافات كانت في التفاصيل، حيث يكمن الشيطان، فلم يقرباها. خاصة أن الجزئيات كانت بالنسبة إليهما ضئيلة بالقياس إلى الله والنبي محمد وابن عمه عليّ والصلاة والصيام.

لا يعني هذا الامتحان شيئًا بالنسبة إلى الأهل، إن أعلنا غرامهما، إذ لن يشاطروهما قناعاتهما، فالتكفير متبادل، وزاد عليه القتل والذبح على الهوية. فلم يصارحا الأهل ما دام الجواب قيامة القيامة على رأسيهما. إذا أرادا استمرار الحب، فلا بد من الكتمان.

كان المقدم متطيرًا، يخشى عندما يتنزهان مساءً ألا يتخطى بالسيارة حدود دمشق، فيتجولان في أحياء المهاجرين والصالحية وأبي رمانة، ولا يتجاوزان دمر والربوة. ربما صادفهما حاجز مذهبي، أو تشبيحي، وربما فصيل داعشي... ما سيحصل، أن تقتل أمامه، أو يقتل أمامها. ولا ضمانة في أن يُقتَلا معًا، فالحواجز منحازة.

أثمر الغرام الحزين لقاءات حزينة تضجّ بالوله العفيف. أيديهما تتماسك، وعيونهما تذرف الدموع، تسند رأسها إلى كتفه، بينما رأسه يحنو على رأسها، يضمهما منظر حنون، يوحي بحواء انسلّت من آدم، كأنهما المثال المشخص للمرأة المخلوقة من ضلع الرجل. وإذا أغفلنا هذه التصورات عن العلاقة الأزلية بين الرجل والمرأة، فالرجل الأخلاقي عثر على الهوى الملائم لطبيعته،

في طبيعة أنثوية مماثلة. وكل ما حدث، أنّ العاشق الرومانسي وجد بغيته في العاشقة الرومانسية.

بالنسبة إلى المفوض، لم تكن القصة نادرة الوقوع، كانت القصة نفسها القديمة تلك التي رسم خيوطها روميو وجولييت، لا تختلف عنها سوى أنها ذات طابع سوري طائفي، أنتج روميو علوي، وجولييت سُنية. وبعد تعريب الأسماء، تصبح جميل العلوي ورفيف السُّنية.

من جانب آخر، المشكلة كبيرة لا يُستهان بها، لن يجمعهما القفص الذهبي، فالخلاف لا يقتصر على عائلتين، بل على مناطق محررة ومناطق موالية، وجيش ومليشيات مسلحة وفصائل مقاتلة... ما يجعل الزواج من سابع المستحيلات.

في الوقت نفسه، لا الطوائف ولا الأسلحة... تستطيع فصم عرى هذا الحب. كان أقوى من النظام والعسكر والإرهاب والمخابرات... كان الجموح الرومانسي يليق بقصتهما العاطفية الجميلة والجسورة.

المفوض نصح المقدم بالتحلي بالحكمة والصبر، أي ألّا يكونا ساذجين، لئلا تنتهي قصة غرامهما نهاية مأساوية، فالرومانسية مغرمة بالموت. حاليًّا الطريق مسدود إلى عش الزوجية، وبالتالي ألّا يفكر في التغلب على ممانعة أهل رفيف والهرب معًا إلى الضيعة، إذ لا أمان، أهالي الضيعة سينبذونها، وقد يقتلها شبيح معتوه، ويمثل بجثتها. وإذا تزوجها في دمشق، فلن يعسر على متمشيخ أبله أن يضربه بالسكين ويشق بطنه، فتندلق مصارينه، ويفرّ المعتدي هاربًا بلمح البرق. المفوض لم يخفف من بشاعة الصورة، لو صادفهما مجانين السُّنة والعلوية، فالمصير بهذه الوحشية.

للحفاظ على حبهما وصيانته، يجب عليهما التحايل على السُّنة والعلوية معًا، وإخفاء أمرهما عن المخابرات، لئلا تحسب مندسة على رئيس فرع. إن اتخذا هذه الاحتياطات، فسيقهر حبهما تقلبات الأيام وعوادي الزمن ومجانين الطوائف، ويدوم إلى ما بعد انتهاء الحرب. عندئذ، سيعيد الأطراف النظر في ما وصلت إليه البلاد من خراب، ويدركون أن الحرب كانت جريمة كبرى، ولا مبرر لاستمرار عداوتهم، وتعود الخلافات إلى منسوبها الطبيعي من التناحر، وإذا هداهم الله، فسيتصالحون. والأفضل القول إنّ لكل حادث حديثًا، لكن للعلم، لا حلّ، إن لم تنحلّ قصة الكارثة السورية، ما يمهد لإنهاء قصتهما معها، لأن سورية الأصل، وقصتهما الفرع.

والآن، ما دمنا في مجال الغرام، لنذهب مع المفوض، أي عارف، إلى لقائه مايا، حبيبته البرجوازية الدمشقية، مع أن الموقف لن يكون عاطفيًا.

٢. مطحنة الموت

لم يكن عارف راغبًا في رؤية مايا، كان مترددًا، توقع لقاءً ثقيلًا بعد جفوة طالت بينهما. انفصالهما في تقدم، ولا مبرر لجعله دراميًّا. وكان قد اتصل بها وأعلمها بأنه أقلع عن السفر؛ لم يستغنوا عنه في الفرع. إذا احتاجت شيئًا، فما زال في دمشق. في الحقيقة، رغم توجسه مما آل الحال بينهما، كان يريد أن تعود المياه بينهما إلى مجاريها.

عندما التقيا، اعتذر منها، قال لها إنه يمر بظروف صعبة. صمتت قليلًا، ثم قالت إنها افتقدته، وانفجرت في وجهه. لم يتوقع أن يبلغ الغضب بها مبلغًا فاجأه، كانت متأكدة أنه كان على وشك التخلي عنها، علاقتهما ليست عابرة ولا مؤقتة، يبقيان معًا، أو يغادران معًا، وما دامت ستواصل عملها طبيبة، فلا يجب أن يفكر في الرحيل.

تعرف أنها أخطأت بالعمل في المستشفى، لم تستمع لتحذيراته، لكن فات الأوان حتى على الاستقالة. ما يجري فيها لم يعد مجرد شكوك، إنها جرائم. أفضل ما تفعله، إنهاء عملها بالتدرّج، لئلا تثير هواجسهم الأمنية ضدها، قد يظنون أنها استغلت عملها في التجسس، وسربت ما يجرى في داخلها إلى الخارج. تريد العودة إلى حياتها العادية، بلا طبابة ولا جراحة.

مذ بدأت عملها طبيبة مسعفة بقسم الطوارئ، في المستشفى العسكري، تجنب عارف الاستفسار منها عن عملها. يعرف أنهما سيتشاجران. في الأسابيع الأولى، لم يفاجئه ما أثار استغرابها. حسب قولها، لو لم تعرف أنها في مستشفى، لظنت أنها في ثكنة عسكرية، دبابات ومدرعات، جنود بملابس الميدان، وقناصة على السطح، أكياس رمل وحواجز، وتفتيش الداخلين والخارجين، وتدقيق في الهويات، واستنفار دائم.

... والطريف أنّ رجال المخابرات المسؤولين عن الأمن، يرتدون مثل الأطباء المراييل البيضاء. هل البياض يمنحهم شعورًا بالعقامة، أم أنه تمويه على أيديهم الملوثة بالدماء؟

في ذلك الوقت، علّق بلا اهتمام، بأن المستشفى موقع عسكري، ومن الطبيعي في الحرب اتخاذ احتياطات إضافية وإجراءات متشددة.

اعتادت الاحتياطات والإجراءات ورجال المخابرات ذوي المراييل البيضاء. واعتادت أيضًا مشهدًا يوميًّا، تراه من النافذة المطلة على باحة المستشفى، يتكرر أحيانًا أكثر من مرة في اليوم. عربات الإسعاف العسكرية تأتي بلا موعد محدد، مطلقة أبواقها، تحمل قتلى الجيش وجرحاه، قادمة من الأرياف القريبة المحاصرة، أو بعد حدوث تفجير في العاصمة والضواحي. تفرغ

حمولتها في الداخل، ثم يقوم الجنود بتكفين الجثث، أو أشلائها، أو ما بقي منها، توضع في توابيت وتُغطى بالعلم السوري، ثم تُرحَّل إلى بلدات أهالي الشهداء وقراهم.

كان لافتًا ومؤلمًا منظر مواكب شهداء الجيش التي تخرج من المستشفى، الورد والعلم السوري لا يستران قصة الموت البائسة للجنود الشبان، منهم من لم يبلغ العشرين بعد، اقتيدوا إلى الخطوط الأمامية، قبل تدريبهم المدة الكافية على الحماية من القذائف والحذر من الألغام. تتخذ جنازاتهم مظهرًا رسميًّا أُسبغ عليه وقار وطنيّ، وإذا كانت تضفي على الشهادة شرفًا، لكنها عملٌ دعائيّ، يُبتغى منها الزج بالشبان في مطحنة الموت على أنه دفاع عن الوطن.

بعد فترة، لم تعد تأتي على ذكر المستشفى، كانت تخفي ما يشقّ عليها الحديث عنه. لم يفته أنها كانت تعاني، تريد أن تشكو له ما تشعر به من ضيق وغيظ وألم.

لم يسألها، لم يرغب في سماع شيء عن عملها؛ أفكارها عن الإنسانية خدعتها.

وها هو اليوم الذي لم يعد في وسعها الكتمان.

«إنها الفترة الأشد قسوة في حياتي».

٣. مسلخ الأرواب البيضاء

لو لم يتناقل العاملون في المستشفى أخبارعربات النقل المغلقة، ويترقبوا قدومها، لما عرفت بها. كان موعد وصولها سرًّا لا يطّلع عليه سوى ضابط الأمن.

تأتي العربات من السجون وأقبية أجهزة المخابرات، تحمل في داخلها معتقلون مرضى وجرحى في حالة يرثى لها. ينزلون بصعوبة من الخلف، أو يدفعهم الجنود بأقدامهم، فيتدحرجون على الأرض، بالكاد يتحاملون واقفين بصعوبة. المساكين يظنون أنهم من المحظوظين، لنجاتهم من التعذيب بين الجدران الكالحة لفروع الأمن، مع أن الإبقاء على حياتهم وإرسالهم للعلاج، كانا لضرورات استكمال التحقيق، ولفترة مؤقتة، يعودون بعدها إلى ما كانوا يعانون منه.

تهرع الممرضات ملائكة الرحمة، كأنما أصابتهن لوثة ليستقبلن المعتقلين المرضى المقيدين والمنكسي الرؤوس، يلاحقونهم على طول الممرات بالشتائم والسباب، ويشيعونهم بالبصاق والضرب بالأحذية، ريثما يُعزلون في قِاووش سجن المِستشفى، كل مريضين أو ثلاثة فوق سرير واحد، تُعصَب

أعينهم، وتربط أيديهم بقوائم الأسرّة. يُطل عليهم من وقت لآخر، لابسو الأرواب البيضاء من الممرضين والممرضات، يتفقدونهم واحدًا واحدًا، يسألونهم ساخرين السؤال الذي ليس هناك غيره، دونما كلل أو ملل مع الضرب والصفع:

«بدكن حرية؟».

يذكرونهم بمآثر العبودية، وجريمة المطالبة بالحرية.

«هذه المعاملة غير الإنسانية، هل تجوز في مستشفى؟».

«لا تظني أن ما بدأ في أقبية المخابرات سيتوقف في قاووش المحتجزين. المستشفى ليست للنقاهة ولا للعلاج».

«يمارسون التعذيب بأساليب مشابهة للمخابرات، الصعق بالكهرباء، الضرب بالعصي على جراحهم المفتوحة وأعضائهم المصابة. أحيانًا يؤدي إلى تكسير عظام القفص الصدري، أو الأيدي والأرجل، بل والرأس».

«قد تكون تصرفات غير مسؤولة من الممرضين، من دون علم الأطباء».

«بل يعرفون، وأحيانًا يشاركونهم؛ كأن لا علاقة لهم بالأمراض والتشخيص».

كانت المحاقن والمشارط وأكياس السيروم وجهاز قياس الضغط والمباول... وحتى الأدوية، لها استعمالات أخرى، تفيد في التعذيب أكثر منها في الشفاء. المعالجة لا تزيد على استعمال المعقمات والمراهم والشاش، هذا إن استُعملت، وبتقتير شديد. وإذا اضطروا إلى إجراء عملية جراحية، فمن دون تخدير، عقابًا للمعتقل على علاج لا يستحقه.

لم يكن عسيرًا إدراك أنّ المرضى يُرسَلون إلى المستشفى، لئلا يموتوا في الفروع، الهدف تأجيل موتهم، بعلاج مؤقت، المطلوب إبقاؤهم أحياءً، لا التخفيف من آلامهم. وإذا حدث خطأ، وكثيرًا ما يحدث، فلا مساءلة. ولو كان الخطأ مقصودًا.

مع الوقت، لاحظت ما روّعها، ثمة دافع ذاتي يحرض أصحاب المراييل البيضاء على التشفي بآلام المعتقلين، حتى إنّ الممرضين والممرضات يتمازحون خلال المناوبات بالعبث بهم، كانوا مادة للترفيه عنهم، والتسلي بهم، يبددون الملل بالتنكيت عليهم، والتشفي بهم، قد يروقهم، الإطباق بالمخدة على رؤوسهم، ورؤيتهم يبلعطون بأيديهم وأرجلهم، فيتعالى الضحك. يفلتونهم قبل أن يلفظوا أنفاسهم، بعضهم لفظها. ممرض تباهى بغزارة معارفه الطبية، وتراهن مع ممرض آخر على قتل مريض، ربط عضوه التناسلي ومنعه من التبول، فغاب المريض عن الوعي، ومات بالفشل الكلوي. ممرضة متيمة

بطبيب فرّجت عن غضبها وضيقها من عجرفته بقتل معتقل مصاب بإسهال حاد، أرهقها صراخه ليلًا. ممرضة حانقة من زوجها، أسكتت بمقص العمليات مريضًا، لم يكفّ عن طلب دواء مسكن لآلام المغص. أقدم طبيب وممرضة على خنق مريض نكاية به، وقع بصره عليهما وهما يمارسان الجنس على مقربة منه. المسكين انزاحت الطماشة عن عينيه... كيف تجرأ؟!

«لا شيء يُخفى، كانوا يختالون بما يفعلونه».

يشكو الأطباء ما يكابدونه في المناوبات الليلية. لم تكن مريحة. الليل طويل ومزعج، لا يُسمع في سكونه سوى أصوات الصراخ والأنين، فلا يغلبهم النوم. المرضى سادرون في كوابيس آلامهم، أحلامهم أيضًا كوابيس. أغلب حالات الموت تحدث ليلًا. لذلك، يمنع الطبيب المناوب أي ممرض أحمق من إيقاظه، ولو كان المريض في النزع الأخير. الطبيب يمر صباحًا يتأكد من موته، ويأمر بإخلاء السرير، هناك آخر في حاجة إلى الموت.

لا، ليس لابسو الأرواب البيضاء من الشبيحة. بالعكس تمامًا، إنهم أطباء حقيقيون وممرضون حقيقيون وممرضات حقيقيات، تخرجوا من كلية الطب ومدارس التمريض، أقسموا يمين أبقراط، لكن الحقد الأعمى أولى بمهاراتهم، يعذبون عن كراهية أشخاصًا لا يعرفونهم، ولم يقع عليهم بصرهم من قبل، يلوون أقدامهم بدراية ليسمعوا صوت تكسرها، يحرقون شعر لحاهم، يغلقون قساطر تصريف البول... لا أحد يستهجن إذا ما اقتحمت ممرضة القاووش، وانهالت كالمجنونة على أول من يصادفها من المرضى بالضرب. هذا المنظر إن كان يثير شيئًا، فالتندر من رفيقاتها الممرضات، إنه موعد دورتها الشهرية، معذورة، تقلصات فترة الحيض، لا يهدئ من توتراتها إلا سيل موازٍ يطفح بالدم.

الممرضات المتزوجات أغلبهن أمهات، لدى سماعهن أصوات تفجير، يهرعن هلعات إلى الاتصال بأزواجهن وأولادهن للاطمئنان عليهم. والفتيات العازبات لديهنّ مَن يتصلن به، يشرقن بدموعهنّ، ويشكرن الله على نجاة أحبائهنّ، يندر ألّا تكون إحداهن غير عاشقة. لكن لا الأمهات تلامس الرحمة مشاعرهنّ، ولا العاشقات يرقق الأنين قلوبهنّ.

لا الأمهات أمهات، ولا العاشقات عاشقات... أنا طبيبة في مسلخ.

لم تستعد صوابها، رغم أنه حاول إقناعها مرارًا بأنّ كل ما تراه من أمور واردة في أجواء مسممة بالطائفية. يعتقدون أن المعتقلين ليسوا بشرًا. إذا كان هناك ما يستدعي الرعب، فلأن التعذيب والقتل يتمان بكل بساطة.

«لن أؤمن بالإنسانية. ما دام ملائكة الرحمة لسنَ إلا شياطين الجحيم».

مايا لم تدرك أنّ المستشفى أصبح إحدى ساحات الصراع، وأن الطب والأطباء والممرضات، جنود في المعركة، يجري حقنهم بالضغائن، وتأهيلهم للقتل، لا للعلاج، فكيف يكون هناك متسع للشفقة؟

كان يجب ألّا تجهل أنه ليست هناك حروب نظيفة، وهذه لا تتميز عن غيرها. صحيح أنها ليست بين دولتين، لكنها أقرب إلى أن تكون حربًا أهلية، النظام والمعارضة طرفاها.

مايا لم تكن تدري أن الطائفية قد جُندت في الحرب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

الفصل السادس عشر
مأثرة حنان

١. أسرار المرآة

وصية اللواء لسامر بأن يتعهد الزواج بابنته، لم تقيده بحنان، كان مقيدًا بها من غير وصية. ورغم أنه كان متيمًا بها، لم تشجعه رغبة أبيها الأخيرة على مفاتحتها بالزواج، مع أنّ اللواء استدرّ عواطفه الوطنية، بمقارنة ابنته بالوطن الذي خسره.

الوصية هشّة، يمكن تفنيدها؛ أولًا، حنان ليست الوطن، ولن تكون بديلًا منه. ثانيًا، تناحة رأس حنان. كان بالنسبة إليها حجر عثرة، زواجها به يحطم مشاريعها التشبيحية.

لم يكذب على اللواء، عندما قال له إنها في عالم آخر، لو أطلعه على آخر أخبارها، لعجل بالقضاء عليه؛ صحته لن تتحمل. قبل أن يسافر إلى مغربال، اتصل بحنان كي ترافقه لتشارك بعزاء أخيها، وتواسي أبيها، فتعللت بأنّ المصيبة مصيبتها، لن يهدأ لها بال إلا بالقبض على قاتليه وإعدامهم. لم تُخفِ عليه أنها جادة في تشكيل كتيبة نسائية، عرف أنهنّ من رفيقاتها الجامعيات والنساء الأرامل والعانسات، والفتيات العاطلات من العمل والجمال، تحت اسم: «كتيبة المنتقمات»، نوع مختلف عن الشبيحات القناصات، وشبيحات اللجان الشعبية، والشبيحات الإعلاميات، والشبيحات الممثلات، والشبيحات الممرضات... سيقتحمن المواقع المشتبه فيها بمقتل أخيها، بصفتهنّ مقاتلات طالبات ثأر.

تلبية لطلب اللواء الطيب وأفضاله عليه، اضطر سامر، رغبةً في إرضائه، إلى أخذ الوصية على عاتقه. اضطر إليها عمليًّا لأسباب عاطفية أيضًا، لا يزال مولعًا بها، كانت مرضه المقيم. قد يعاود محاولاته القديمة معها، ويعرض عليها الزواج من جديد. سترفضه كالمعتاد، فييأس، ثم لا ييأس، ويعاود. اليأس لم يعد يحبطه.

٢. دوامة سيدور في داخلها

أما الدوامة التي سبقتها، وما زال يدور فيها، فقصته معها. بدأت وقائعها عندما كان أستاذًا درّسها مع أخيها مواد البكالوريا. تحرشت به، دسّت أصابعها في فتحة قميصه. ظنّ أنّ عبثها لا يزيد على تلامسات بريئة، أو عن غير قصد، بينما كانت مقصودة وغير بريئة. أصابعها لم تهدأ، خشي أن تتخذ طريقها نحو البنطال، وتكشف ما أحدثته فيه. غير أن تحرشاتها لم تتخط الأزرار العلوية، فتبادلا القبلات الخفرة، وكانت بداية علاقتهما الغرامية. وإذا كانت القبلات قد

أصبحت ملتهبة، فلأنها أمست خاطفة ومسترقة، إلى أن لم تعد تُضبط، ما مهّد لعلاقة أكثر تطورًا وبلا حدود؛ الرغبات المكبوتة نزاعة إلى عدم الاكتفاء بالقبلات، مهما كانت ممتعة، هناك ما هو أكثر إمتاعًا.

البداية لم يكن له يد فيها، كذلك النهايات؛ فالنهاية تكررت أكثر من مرة. وإن عاد بالذاكرة إلى الشرارة التي أشعلت غرامًا بدا متبادلًا، فلم يكن المسبِّب، فهو لم يخرج عن آداب التدريس، ولا عن منهاج البكالوريا. ورطته حنان بأسئلتها عن معاني بعض القصائد الغزلية، مما تتبادله الفتيات خلسة في المدرسة، اختارت الأبيات العاطفية شديدة الاتقاد، المشوبة بتصورات شهوانية. فتلكأ في التعبير، كان شارحًا خجولًا، جافّ الحلق، ناشف الريق، يجهد في تجنب الإفاضة في التعليل.

حولت حنان الشعر إلى مشهديات إثارة وإغواء، تحاكي خيالاتها، ما هيَّج خيالاته، كان من تأثيراتها اصطباغ وجهه الحنطي بالاصفرار، وجحوظ عينيه، فهي ابنة لواء، بينما هو ابن سائق باص، ودّع الحياة في منحدر جبلي.

تظاهر بأن الإيحاءات الجنسية ليست إلا تعبيرًا عن براعة الأدب في تجسيد احتدام العاطفة، يتيحه مجون الشعر وإيقاعاته الرهيفة الممسوسة بصعقة اللمسة الأنثوية. أما وقد كانا يرتديان ملابسهما بالكامل، فالصعقة كانت مؤجلة؛ ما زال الجو الشعري شاعريًّا.

لم يواصل الشرح، لا المفردات أسعفته ولا المترادفات. فتداعت تلميحاتها مبطنة، وإيماءاتها سافرة، وانمحت المسافة بين الرغبة والخيال، فانزلقا من أسر الكلمات الجميلة إلى رحابة الفعل المشتهى، ومن صفحات الكتب إلى الزوايا المظلمة؛ يتواريان بين الظلال، يتلمسان طريقهما بينها.

كان مترددًا وخائفًا، وإن اندفع معها إلى ما راوده في السر، لولا الظلام لما تجرأ على ما يجهله. لم يعد تخيلات ولا تخايلات، كان يتقراه، وإن كالأعمى. وهكذا، بعدما كان شارحًا خجولًا، أصبح مشاركًا رعديدًا.

في الظلام، كان احتضان واحدهما للآخر لذيذًا، وفي تماسكهما متعة قصوى، ولو كان وقوفًا، وعلى عجل، يسعفهما الظلام فينحشران في جحر ضيق. يتبادلان مشاعرهما العارمة بالسماع، تصغي إلى هدير أنفاسه، ويتنصت إلى تسارع تنهداتها. عندما تصاعد أنينها إلى شهقات عميقة وزفرات أعمق، أحس كأن روحها تخرج من حلقها، على شكل انفجارات. فدبّ فيه الرعب، حسِبها تموت بالتقسيط. فيما بعد سيعرف أنها لغة الجسد في التعبير عن النشوة.

غاظها التطور البطيء الذي اتخذته علاقتهما، كان أقرب إلى الساكن منه بالمتحرك. لم تَجدْ في لقاءات الظلام ما عوّلت عليه في تحليق الخيال. تحت

أجنحة الليل يجترئ العشاق على المحظور، وبالمقارنة بمرحلة القبلات ضعيفة المردود، لم تخلُ من التسخين المثير، لكنها مصابة بالعتمة.

ظن أنها، وقد أسلمته جسدها، أنها تحبه، فيما بعد أدرك أنه ليس الحب، كان جسده وسائل إيضاح، أحال تصوراتها إلى وقائع. في تحليلها لأحاسيسها، قالت إنها من دون أن ترى ما يجري بينهما، كأنها لا تفعل شيئًا، الفعل والتلذذ لا يكتملان إلا بالمشاهدة. أما لماذا لم ينتبه لهذا التفصيل، فلأنه كان خلال الفعل نفسه، كثيرًا ما يسهو، وكثيرًا ما يخاف، وقليلًا ما يصحو، وقليلًا ما ينتشي. ففاته التنعم بالنظر، وإن كانت المتعة تتحقق بالضم واللمس والشم، غير أنها متعة ناقصة، الظلام يحجب العاطفي، فينحدر إلى الآلي.

حنان لا تعبأ بهذه التوصيفات، أرادت الوصال بينهما أن يكون كاملًا، وفي وضعية الاضطجاع، لا يقلّ عمّا تسمع عنه، كان حافلًا بالأسرار. فقد ظفرت بشاب يكبرها ببضع سنوات، جميل الطلعة، ولو كان رقيبًا في الجيش، يأتمر بأوامرها، تتصرف معه كأنها برتبة لواء، ولو كان أستاذها.

أصدرت حنان أمرًا بإيقاف مواعيد الظلام، ونقلها إلى النور. الحب لا يتحقق إلا بأن يكون مرئيًّا تحت أضواء النهار، جماليته مرئية، والتسخين أكثر فعالية، مزيج من فيلم سينمائي، تتلون فيه الأجساد بالأسود الخفيف والأبيض الناصع. هل كان تحت تأثير الشِعر؟ ربما، فالشعر يُعنى بتصوير المشاعر، ووصف العيون والفم والخدود والنهود والحلمات... ولا يغفل ألوانها.

أما المكان الذي يصلح لها، فهو مسكن الرقيب، ستوافيه في غرفته المستأجرة، حيث الإضاءة متوافرة. ولقد بدا الفراش المتواضع وثيرًا، والتلاحم فوقه مريحًا، بعدما كان على الواقف مرهقًا.

أصبح للقاءاتهما نكهة عارمة بالتشويق، جراء شغفها بالتنويع، ذلك الذي يجهله. أما كيف خطر لها، فلم يكن من عندياتها، جاءت به من المدرسة، تحت تأثير الفتيات الشبيبيات ومعلوماتهنّ الوافرة عن المضاجعات المثيرة منسوخة مما أدعين معرفته عن خبرة، بينما كان مما صادفهنّ في سويعات الليل، وكان عراك الأشباح في غرفة مجاورة، يطرق أسماعهنّ، تجد أصداؤه تفسيراته المثيرة في اليوم التالي همسًا بين الصديقات، ثم أصبح مرئيًّا على شاشة الكومبيوتر.

سرعان ما أصبح حقلًا لتجاربها الجنسية.

وكان في تجديد الوصال على نحو مختلف، باستخدام المرآة؛ بوضعها مواجهتها. يستلقي على ظهره، وتعتليه فوق الفراش. بينما على المرآة، تظهر هي، ولا يظهر هو، وحدها سيدة الساحة، فلم يعد الجماع جماعًا، أو جمعًا بين

اثنين، بل جماعًا استفردت به، واستقلت عنه، بحجب جسده، تهيم بكليتها في جسدها، بينما جسده لا وجود له، وإذا بان منه شيء، فأصابع قدميه، وكانت تغطيها بالشرشف، لتظهر وحدها على صفحة المرآة، ليس هناك غيرها، تنكح نفسها، يظهر في ارتفاعها وانخفاضها، تسترق النظر إلى جسدها العرقان والنشوان، وعندما تسدل جفنيها، تصغي إلى ترنيمة تدور في رأسها، فتبلغ الذروة تلو الذروة. كان المشهد أمثولة للتوحد مع الجسد، ومحو الجسد المشارك، فلم يعد إلا أداة تمارس عملها خفية.

لم يفته أنّ التعتيم عليه، كان لإلغائه من تصوراتها، وانغماسها في تصورات رغباتها، تتفرد في عشق ذاتها وجسدها، كان راضيًا وإن غُبن، لم يكن سوى الشريك الطيّع لنزواتها، فليكن، نشوته لم تتأثر.

تلك كانت قصته بإيجاز مع حنان والحب. لم تكن سيئة تمامًا. بدا أنه ستستمر على هذا المنوال. لم يكن على صواب، في المرحلة التالية اكتشف أنها لا تحبه، بينما كان واقعًا في هواها. حتى الجنس لم يعد توافقًا على تبادل أحاسيس اللذة والنشوة. ما تبلغه يتأخر عنه، وما يبلغه تقصر عنه. لم تعد تجديداتها الجنسية سوى أنشطة مزاج متقلب.

فقد حماسته، كان ما يشعر به نحوها هو الحب، وكان بلا مقابل عاطفي من طرفها. يراها من وقت لآخر تبعًا لإرادتها، لا إرادته. تتصل به وتطلب منه الاستعداد للقائها في غرفته المستأجرة. كانت تُهيئه لاستقبالها برسالة متفق عليها، تبلغه إياها بالهاتف، وكانت مشفرة، دعوة إلى فنجان قهوة، فأصبح للقهوة طعم الجنس، خاليًا من الحب.

كمحاولة أخيرة، في سبيل إنقاذها من الغرق في المرآة، حلّل أسباب التشوش الذي انتاب علاقتهما. عندما أراد للعلاقة أن تترسخ بالغرام، تركزت رغبتها في الجنس، وأغفلت الحب. فالخطر لا يتأتى إلا من رجحان أحدهما على الآخر، بينما لا يدوم إلا بتوازنهما.

لم يبيّن لها عيوب ما انتاب علاقتهما، ويصلحها بإسداء النصائح. وهل يُنصح بالحب؟ لو فاتحها بما راوده لسخرت منه، حنان لا تلتفت إلى هذه الترهات البليدة، كانت قد تجاوزتها بأشواط. لم يعد له من خيار سوى استمرار العلاقة على حالتها الحاضرة، لا يدري، ولا تدري، إلى أين هما منقادان.

ذلك أصبح من الماضي، وإن ما زال مستمرًا.

٣. في سبيل سورية نظيفة

لدى عودته إلى دمشق من مغربال، فوجئ سامر بانفراط كتيبة المنتقمات، قبل أن تلتئم بشكلها النهائي. كانت المخابرات قد اعتقلت أعضاءها، قبل أن

تبدأ حنان حملتها الثأرية الأولى، تحللت قبل أن تنطلق على نطاق واسع حسبما خططت، بعدما اتخذت النهج التشبيحي المرغوب فيه هجوميًّا ودفاعيًّا برنامجًا لها. لكن حسب الجهات المختصة، كانت انشقاقًا عن نظام التشبيح الموحد الذي سعت الدولة لتقنينه، ولم يتقنّن، ما عطل باكورة رحلاتها إلى مغربال.

لم تكن الجهات المختصة على علم بالكتيبة، لولا أنّ الأستاذ الجامعي «ض» رفع شكوى ضدها اتهمها بتشويه سمعته والاعتداء عليه. بالمناسبة، لا يمكن الإفصاح عن اسمه بالكامل، لئلا يعتبر تشهيرًا بمكانته الأكاديمية القومية الرفيعة؛ فالشكوى لم يُفصل فيها، وكانت بناءً على تشنيعات تمسّ سلوكه الأخلاقي في الجامعة، تدهورت على أثرها سمعته الموقرة، مع أنه لا يستبعد ارتفاعها أكثر من السابق.

للعلم، اكتُفيَ بالحرف الأول من لقبه المتداول، لا بالذي يبدأ به اسمه «ض»، اختصارًا لكلمة «ضُرَيطة»، تصغيرًا للضرطة، بحسب الإجماع الطلابي الذي استخسر فيه الضرطة، فكان ضريطة بكل معنى الكلمة. أما سبب انتشار هذا اللقب داخل جدران الحرم الجامعي، فترجمة لما يشاع عنه: لا تقترب منه لئلا تزكم أنفك رائحته النجسة، والأغلب خسته، كذلك فإنّ الضريطة كالضرطة تفسد الوضوء.

الإشكال الذي أحاط بالقضية، كان آخذًا بالتضخم من يوم لآخر، مع أنها حادثة صغيرة، تافهة جدًا في مقاييس مجتمع كان منتهكًا، عدا عن أن مشروع «كتيبة المنتقمات» كان تدريبًا على رفع الحيف عن الفتيات الجامعيات، بواسطة التشبيح الاجتماعي المنفتح على معالجة قضايا إنسانية محلية. وربما لانكشاف دناءة «ض» لم تأخذ حنان الاحتياطات الواجبة، مع أنّ من المعروف لدى التصدي لأي شخص صاحب منصب أو مكانة، السؤال عمن يدعمه. هذا السؤال كان جديرًا بأن يُسأل: ما الذي جاء به إلى الصرح الجامعي؟

لو أنها حصلت على الجواب، لتوقعت ما سيُقدم عليه، ولا يحجم عنه، فربما كان مدعومًا بحيث لا ينفع معه إلا دعم مضاد أكبر. فالمحظّر مسموح، أو ممنوع، حسب ثقل الداعمين، لا المدعومين.

استخفت حنان بالعملية الافتتاحية للكتيبة النسائية، ولم تقدّر حجمها ولا عقابيلها. كانت، حسب اعتقادها، على حق واضح لا جدال فيه، فالأستاذ «ض»، مدرس مادة «الثقافة القومية»، ارتكب تجاوزات فاضحة، فلم يخطر لها ذاك السؤال الجوهري، وربما المصيري، فأقدمت على عمليتها، كما لو أنها تدوس صرصورًا.

وكان من الطبيعى أن تأخذ تلقائيًّا جانب الفتاة التي انضمت إلى الكتيبة بهدف الانتقام من الأستاذ الذي ساومها على شرفها لقاء بضع علامات، يتوقف عليها تخرجها من الكلية. استحوذت على حنان قصة الشرف المهدد بالعار، وبدت فرصة لا تعوض لكسب قضية عاجلة حقيقية ذات تأثير في الوسط الطلابي الجامعي، تحت عنوان «الشهامة النسائية تتصدى للتحرش الذكوري»، وفي هذا مأثرة أنثوية ضد جبروت أستاذ حقير. فإذا كان الغرب يشهّر بالمتحرش ويسوقه إلى القضاء، فنحن سنلقنه درسًا من دون محاكمة، وإلا فلماذا كان التشبيح، أليس لتجاوز هذه التعقيدات؟

المعروف عن «ض» أنه كان يستغل أستاذيته في مادة «القومية» التي لا تلقى إقبالًا من الطلبة، فأعلى من شأنها بجعلها من الأسرار المستعصية على الأفهام، رغم أنها لا تقدم ولا تؤخر في التحصيل الجامعي، لكنها تُرسّب، أي لا تُنجّح، فكان ضنينًا بالعلامات، استغلها ليتقرب إلى الطالبات، سواء بالتهديد بالرسوب، أو الترغيب بالنجاح.

أتاحت مادة «القومية» للأستاذ «ض» التحرش بالفتيات، سواء قصّرن أو لم يقصّرن في الامتحان. يستدعي الفتاة إلى مكتبه، ويلومها على عدم الاهتمام بالقضايا القومية، طبعًا يعذرها، وطنيتها لا يُشَك فيها، ويعرض عليها علامة النجاح، بأسلوب متحذلق، ويتباسط معها في الحديث بلطف، يرمي ببعض النكات، يُضحكها بتهريجه، ثم في حمأة القهقهة والصهصلة، يتلمس نعومة أصابعها، أو يضغط على زنودها المربربة، وقد يقترب بوجهه إلى وجهها، ليخصّها بسرّ، فيمسّ خده خدها، أو مِرفقه ثدييها، ويكاد أن يدسّ وجهه بينهما، وإذا لم يكن الوجه، فالأنف، ففي الشم ما يروي الغليل، وإن كان لا يُشبع نهمه، وإذا لاحظ تهاونًا، أو خوفًا، يختطف قبلة من خدها.

عادة، ملاطفاته كلها تذهب أدراج الرياح، فمنظره القميء يُنفّر الفتاة منه، ولا سيما عندما يقترب منها، فتتجمد من الرعب، وتشلّ حركتها رائحة العطر الذي يسفحه على ملابسه، لكنها لا تفلح في تخديرها. رائحة فمه المقززة (ما عزّز لقبه الضريطي) تنجدها بمسّ كهربائي ينفض مخّها، فتنشدّ أعصابها وتدافع عن نفسها في اللحظة التي يكون على وشك اقتناص لمسة أو قبلة، ولا يسمح لها بالخروج من مكتبه قبل أن تعده بلقاء خارج الكلية، فيمنحها علامة النجاح، برهانًا على حسن نيته، على أمل ضمان الوفاء بوعدها طواعية. فالأستاذ كان رغم حقارته غبيًّا؛ الفتاة لا تأتي إلى الموعد، فيفشل في تحقيق مأربه. بينما الفتاة بعدما خدعته وحققت مأربها بلا خسائر، تتسلى برواية الحادثة، فتفوح روائح دونجوانية الأستاذ المحبطة. فيحصد شهرة عريضة، ولو كانت قميئة. السر الكامن وراء إخفاقاته، ليس سوى أنه سافل.

الحادثة السابقة ليست هي المعيار ولا الدارج، هذه المعاملة خصّ بها الفتيات اللواتي كانت عائلاتهنّ تخلو من أب أو أخ في الجيش، أو متنفذ في الدولة. لم يكن لدى حنان شيء ضده سوى أنه وغد رخيص، وكان يتجنبها لأنها ابنة لواء. أما اللواتي بلا ثقل عسكري أو مسؤول ما، فيتحرش بهنّ بلا محاذير، ويختصر تلك المقدمات إلى الحد الأدنى، ويظفر أحيانًا رغمًا عن الفتاة بقبلات وعصوصات، قبل أن تفرّ الفتاة هاربة، ولا تتجرأ على ذكر ما أصابها خشية الفضيحة، فهي بلا دعم.

تشجعت حنان على الإيقاع به، بإعداد كمين، بطلته الفتاة الجميلة المهددة في شرفها. كانت قضيتها جدية والخطر جديًّا؛ الأستاذ «ض» من فرط ما استهوته، وعدها بالزواج كي يفلح باصطيادها. أقسم أنّ غرضه شريف، والعربون تطليق زوجته. كانت خطواته المتسارعة نحوها قد ضمنت لها العلامة التامة، وإذا خدعته، فالعقاب رهيب.

في اليوم الموعود، استقبل «ض» الفتاة في مكتبه بحفاوة، بينما كان كمين المنتقمات جاهزًا. الفتاة الجميلة هذه المرة كانت أجمل من المعتاد، فقد تمكيجت وتطيّبت وفردت شعرها، فكان للكحل نداء، ولحمرة الشفاه إغراء، وفي العينين دعوة. لم يملك أعصابه، توفزت غرائزه، وأطلق مزحة كانت للمزاح فقط، ريثما ينقضّ عليها. في اللحظة التي كاد يكبس على أنفاسها بقبلاته ورائحة فمه، أطلقت صرخة استنجاد، دخلت حنان على وقعها مع ثلة من المنتقمات، وانهلن عليه بالعصيّ بلا شفقة. نُقل على أثرها إلى المستشفى، ليس بين الحياة والموت، كان جريحًا (الفتاة الجميلة خدشته بأظفارها الطويلة) ومحطم الأعضاء (كسر في الساعد، والتواء في المعصم، وشعر في الجمجمة)، ومشوَّه الوجه (الأسنان الإمامية مهشمة إبان محاولة الفتيات إيقاف زخم رائحة فمه).

بعد هذا الانتصار، كان الاعتقاد أن هذه العملية ستشكل إعلانًا مدويًّا لظهور «كتيبة المنتقمات»، ومن بعدها الانطلاق إلى مغربال، ثم العودة إلى دمشق، يعقبها الاندفاع نحو تطهير المناطق الواقعة تحت سلطة النظام، فإذا كان الجيش في الشمال والجنوب والوسط ينظف سورية من الإرهابيين، فالكتيبة ستنظفها من الأنجاس المدسوسين في أجهزة الدولة. أوجزت حنان الهدف من جولاتها المقبلة بشعار مدوٍّ كان شديد الوقع والتأثير:

«في سبيل سورية نظيفة».

لن تتابع الكتيبة مهماتها، المخابرات أطبقت عليهنّ، واقتدن إلى الفرع، ليس من أجل «ض» بالضرورة، بل حسبما شاع عن وجود كتيبة غامضة، لم تعرف بها أجهزة الأمن، وإن جرى بداية التركيز على قضية الأستاذ على أنها عمل

طائفي مشبوه، جرى تداركه، لئلا يضعف نفسية الأمة، مع أنه لا حاجة إلى هذا النعت، لأن المنتقمات والمنتقم منه من الطائفة نفسها، ما نفى الصبغة الطائفية عنها.

كانت العملية خطأً ارتكبته حنان عن غشمنة، لو أنها سألتْ عن الأستاذ «ض»، أي عمّن وراءه، لما تورطت بتدبير الكمين، ولولا تدخل اللواء حسين صديق أبيها، وتحريك قضيتها، لاختفت من الوجود، أو على الأقل رزحت مع كتيبتها في الأغلال، بعد مسلسل من الأحداث الجسام.

بمجرد ما عرف اللواء حسين بغزوة المنتقمات، بذل جهده لتخرج حنان من القضية سالمة، قبل أن تصل القصة إلى مسامع أبيها، وتكون السبب في الإجهاز عليه. وكان لتدخله أبلغ الأثر في منع توقيفها في الفرع مع زميلاتها إلى زمن يمتد إلى سنوات، والاكتفاء ببضعة أيام أو ما يزيد قليلًا على أسبوع، أي سيخرجن قريبًا من الاحتجاز.

بالرغم من رهط الوساطات الملحّة على إطلاق سراحهنّ، فلم يكنّ مقطوعات من شجرة، طال استجوابهن، ليس في الأقبية، بل في الغرف المكيفة مع القهوة والشاي، وأحيانًا مع الغداء والعشاء. ضباط الفروع لا يظفرون بساعة نوم هانئ، ولا راحة بال، فماذا لو تهيّأ لهم بعض الترويح عن النفس، ولو بطق الحنك؟ عادة، لا يكتفون بطق الحنك، الكاس والطاس يتطلب أكثر.

أوصى اللواء حسين بمعاملة ابنة اللواء معاملة حسنة، فوُعد خيرًا. توقيفها سيأخذ بضعة أيام لزوم تحقيق شكليّ، لكن لا بد منه، ولو كان سيُطوى؛ غير أنه، كما تعلم، القضية حساسة بسبب المزيج التشبيحي الجنسي، رافقها العنف. اطمئن، لا ضير منهما، فهما متلاصقان عادة، لكن الكتيبة شكلت اختراقًا لا تُحمد عُقباه، أشبه بالسوس، قد ينخر أنثويًّا في التضحيات الذكورية، ربما أفسدها.

أما الحقيقة، فلن تنجو الكتيبة إلا بنجاة الأستاذ «ض».

٤. الممول المجهول

تلخصت الجهات المتدخلة فعليًّا لصالح الأستاذ «ض»، بشخص واحد يعادل جحفلًا من الوساطات، سنضطر لضرورات أمنية، وحفاظًا على خصوصيته، إضافة إلى ثقله الاستثنائي، إلى إغفال اسمه وتجاراته كرجل أعمال مرموق وندعوه «الممول»، الذي جمعته مع الأستاذ الأكاديمي قصة مشتركة، كانت عابرة، قبل أن تصبح مستمرة. عندها لم يكن «ض» قد أصبح أستاذًا جامعيًّا،

ولا كان «ض» بعد. توثقت بعدما كدس الممول أموالًا، يعسر -بلا مبالغة- على النيران التهامها.

استرعى «ض» أنظار الممول عندما كان شابًّا يافعًا، فقد كان من أقربائه، ليس بذكائه، فقد كان مدمنًا الفشل، ففشل في الدراسة، لكن النجاح كان أتوماتيكيًّا لشبيبة البعث. في الشهادة الثانوية كان أبعد ما يكون عنها، فركبه الدأب والعند، صمّم على الحصول عليها. كان اجتهاده من النوع الحرون، على علاقة بالتتيّس، فلم يكلّ عن طلبها. عامًا بعد عام. وجد الممول في قريبه مثالًا على الإصرار على النجاح من دون أمل، فضمن له البكالوريا بوسائله الخاصة، حتى إنّ «ض» لم يذهب إلى الفحص، وبالمقابل، أصبح تابعًا مخلصًا للممول.

في ذلك الوقت، كان المموّل يفكر في إجراء تغييرات في إدارة أعماله. كان شركاؤه من رجالات الدولة قد طلبوا منه ألّا يكون في الواجهة لئلا يكشفهم، ويضرّ بعملياته السرية، فبدأ مجهوليته، وكلّف «ض» نيابة عنه، لكن تحت إشرافه الكامل، القيام ببعض الأعمال المشبوهة على أنها غير مشبوهة، وأسبغ عليه حمايته.

كان «ض»، على غبائه، شاطرًا في الكلام المعسول، فالغباء يزجي الوعود، ولا يلتفت إلى الوفاء بها. فأحرز نجاحات غير متوقعة، فاستحسن الممول البقاء مجهولًا، ولم يرغب في ظهور عملياته المالية المشبوهة في المحافل المخابراتية والتشبيحية، لئلا يطمعون به، مع أن صلته بهما التي لم تنقطع، أصبحت أشدّ وأمتن. الجميع كانوا يفضلون العلاقات الخفية، كانت مثمرة، مصدر قوتها أنها تدور في الكواليس.

مع الوقت، توسع العمل، أثمر أكثر من المتوقع، وترقى بالتعامل مع جهات من الطبقة حديثة الرقي والترقي، فتطلب الكثير من القذارة وبعض الكفاءة والمظهر الحسن، ما يُلزم «ض» بمظهر لائق، ماذا يكون غير الثقافة؟ كانت توحي بالاحترام والتقدير معًا، فالزعبرة الثقافية أقدر على الاحتيال، كما أن الشهادات تساعد.

اقترح «ض» أن يكون خريج جامعة، فاشترى له الممول شهادة جامعية، من بوركينا فاسو، وربما موزامبيق، أو من بلد لا وجود له على الخريطة. كانت أرخص من المحلية؛ الأسعار في البلد كانت في ارتفاع، والشهادة بلا ثقل. المهم أنه اشترى له شهادة أجنبية، فأحرز قدرًا أكبر من النجاح. شجعه ضغط العمل وما طرأ من تطورات اقتصادية على رفع سويته الثقافية، فاشترى له الممول شهادة دكتوراه في العلوم السياسية من جامعة لبلد كان اشتراكيًّا، لديه فائض من الشهادات الأيديولوجية التي بطل استعمالها.

دخل «ض» مجتمع حملة درجة الدكتوراه من النوعين الغامض والاشتراكي، وكانت قد شهدت انتشارًا منذ عقود، بفعل الحسد والغيرة. زبائنها من الضباط والمسؤولين الكبار. وبما أن شطارته كانت اختصاصًا في الثرثرة عن ثورة ٨ آذار والحركة التصحيحية، وسورية الحديثة، والتوجهات الوطنية والقومية والاشتراكية، وكلها من المحفوظات الحزبية موثقةً بأقوال الرئيس الخالد، ولا تقول شيئًا ذا بال، كان مخزونه الدعائي أيضًا ذا رصيد مرتفع من الجعجعات التي يتبادلها المذيعون وضيوفهم من المحللين السياسيين المستأجرين لجلاء مدى قوة تأثير النظام في القضايا الدولية، لا يملون عن تردادها، وكانت تجد صدى طيبًا لدى الموالين النجباء، بشرط ترصيعها بقول خالد للرئيس الراحل.

كان رصيد «ض» من هذه الحذلقات وافرًا وفي ازدياد، يستعمله في مخاطبة محدثيه من دون مناسبة. كان الأنجع في إقناعهم، وإذا ناقشوه، فإخراسهم. هذا النجاح في التعامل القمعي الأيديولوجي حفزه على عدم الاستهانة بقدراته التي تراكمت خلال سنوات، وآتت ثمارها. فطلب من الممول المجهول ترشيحه أستاذًا جامعيًّا لمادة «الثقافة القومية»، فلم يخيّبه.

تحمّس الممول لهذه الخطوة، كانت تتيح بعض الترفيه لرجله المرهق بالمهام، بإلقاء الدروس في أوقات الفراغ على الجنس اللطيف من الشابات في زهرة العمر. كانت نوعًا من المكافأة، وإن كان تعللًا بالفراغ، مع أنه لا فراغ، فالحرب مندلعة، والأعمال في توسع على نحو مطّرد، وكان قد بدأ يكلفه مهمات شائكة، لارتباطها بشبكات مافياوية محلية وإقليمية. أصرّ «ض» على منصبه الجامعي، لا يمكنه التحرك من دون لقب وأستاذية، باتا يمنحانه أهمية، أسبغ عليها الحزب القائد موثوقية نضالية.

اعتبر الممولُ المنصبَ تعويضًا عن الأخطار الداهمة التي يتعرض لها «ض» الذي جهل أنه كان معرضًا للذبح عمدًا أو بالخطأ من جماعات كان يتعامل معها، لا يشفي غليلها إلا الساطور، فكانت منحة كريمة من الممول.

احتاط الممول المجهول بالمزيد من المجهولية بحكم علاقاته المتشعبة والمتعددة. كانت صفقاته على صلة بجهات مسلحة بعتاد ثقيل. منها جماعات ملثمة، مع دعم دول غربية وإقليمية، تشرف على مساحات تشكل عقدة مواصلات برية بحرية جوية في الجمهورية الممزقة الآخذة بالتحول إلى جزر مستقلة، محررة وغير محررة، وإمارات متعادية، وإقطاعات يتربص بعضها ببعض، من سلطات الأمر الواقع، ما جعل تمرير البضائع إلى وسط البلاد وشمالها وجنوبها، كذلك من وإلى تركيا ولبنان والأردن والعراق وإيران، ومن ثم إلى الخليج... يرتدّ بالفائدة على الوسطاء. كان جزء منها يذهب إلى الممول. ومهما كان متواضعًا، فهو مبلغ كبير جدًا، وكان بإخراج خطوط الإمداد

من تحت النار، بالاتفاق على مرونة خطوط التماس. لم تكن المكاسب هائلة، إلا لأن الصفقات كانت هائلة الحجم، وما سيُمرّر هو النفط والأسلحة والمخدرات والكبتاغون، ولا يهمّ لمن ستذهب داخل الحدود أو خارجها. أخيرًا، إن لم تستهلك في الداخل، فخلف الحدود. في النهاية، كانت الاستراتيجية الموعودة، عبورها البحار لضرب الإمبريالية في عقر دارها، بقصد تحشيشها.

كان الأستاذ الجامعي الموثوق به «ض»، المؤتمن من جميع الأطراف، الأصدقاء والأعداء، لا يدري أنها صفقات تتلاءم مع تكتيكات الدول، وإن كانت تخترق حدودها وتعبث بها. فالمال عصب الحروب. وعلى الضد من مادة القومية التي يدرّسها، كان كل ما بات يعرفه ويصرّ عليه، ألّا مبرر لإيقاف الحرب. كان استمرارها من ضرورات المقاومة والممانعة، ولا تقلّ عن الصمود والتصدي. ما أمكنه بكل بساطة إقناع كل طرف على حدة بأنه المستفيد منها في حربه ضد خصومه، سواء كانوا من الأمريكيين البشعين، أو الروس الأجلاف، أو الإيرانيين الكفرة، والأتراك الجشعين، والإنكليز الخبثاء، والفرنسيين الأنذال، والأكراد الخاسرين والرابحين، والعصابات الإسلامية التكفييرية الإرهابية، ولم يوفر النظام المجرم... كانت الصفقات والأطراف تتطلب هذه اللغة السائبة والنعوت المتحولة، فيما كانت الحرب على علاقة طيبة مع البشعين والأجلاف والكفرة والجشعين والخبثاء والأنذال، والخاسرين والرابحين، والتكفيريين، ولصيقة بالإجرام... فطرق الإمداد لا تعترف بالأعداء والعداوات، هناك فقط بائعون ومشترون، يديرها رجال أعمال من شدة ما يشبحون، يحللون بالدولار كل شيء.

ظن «ض» أنه بحنكته وقوة حجته نجح في مهماته، بوصفه داعية حرب وسلام معًا، وإمداد إلى الجبهات كافة، مع أنه لم يكن سوى صلة وصل بينهم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السابع عشر
تحولات قضية التشبيح الأنثوي

١. الجنس والقومية

انتاب التعقيد قضية «ض» والتشبيح النسائي. لم يعرف المحققون جانب من يأخذون. فجأة، حالفها التبسيط، وثبت لهم، حسبما وردهم من مصادر موثوقة، أنّ عمل «ض» في الجامعة، كان خدمة وطنية للبلد، بدلالة ممارسة أكاديميته تحت ظروف تتدهور فيها الليرة السورية كل يوم، عمل لا يدرّ مالًا، ويكاد يكون بلا مقابل، لو لم يكن وطنيًّا حقًا لما كان أستاذًا قوميًا. أما ما زُعم عن محاولاته التغرير بالجامعيات الجميلات ببضع علامات، أو محاولات التحرش بهنّ باللمس والتقبيل ووعود الزواج، فلا صحة له؛ الأكاديمي لا يفكر في جسد المرأة، اهتماماته منصبّة على عقلها. كما لا شبهة في استدراج الفتيات إلى مواعيد احتساء الكابوتشينو والأمريكان كوفي والإسبريسو خارج الجامعة بعد انتهاء الدوام، كانت لتزويدهنّ بنصائحه على الطريقة الغربية في أجواء شبابية أوقع تأثيرًا.

أنصف التحقيق «ض» بعدما ثبت لهم أن دروس «الثقافة القومية» مجال متعثر لاصطياد الفتيات، إذ لا علاقة للجنس بالقومية، وعلى عداء مع الثقافة، لخصوصية الجنس، وعمومية الثقافة. كذلك بُرّئت «كتيبة المنتقمات» من الاعتداء على الأستاذ الجامعي، وما أصابه من تكسير وجراح وكدمات، كان جراء تزحلقه على الدرج، وأبلغ ببراءته وهو في مستشفى المواساة مجبصنًا على سرير الأوجاع.

هكذا انتهت قضية كادت تشغل الفرع، بعدما تبارى رجال مخلصون في الدولة إلى تلافي صدع كاد يشق الجامعة إلى أساتذة مهووسين بالجنس والقومية، وعلى الطرف المقابل، فتيات جميلات عفيفات متحرش بهنّ، والأسوأ طلاب متناحرون، والأخطر انقسام الشريحة الطلابية مع «ض» الممانع، أو الشبيحات المقاومات، مع أن كلاهما من الصنف نفسه.

... لكن لم يطلق سراح «كتيبة المنتقمات».

٢. جمعية النضال الخيري الاجتماعي الغراء

القضية التي انتهت، لم تنتهِ، إن لم تكن قد بدأت.

صحيح أنه جرى التكتم عليها، واتُّفق على لفلفتها، لكن تبين أن تبرئة «كتيبة المنتقمات» كانت مرحلية، أكثر منها نهائية؛ هناك من كفّ يد المخابرات عنها،

وانتقلت إلى مرحلة تالية، بدعوى أنها ليست من اختصاصهم. ولا يمكن المضي فيها إلى أبعد، أو إنهائها، إلا بعد تصحيح مسارها.

مَن الذي انتزع القضية؟ طبعًا، جهة مسؤولة عن شؤون التشبيح في البلاد، إذ لا يعقل ترك التشبيح سائبًا لجماعات غير مأذون لها تعبث في أمنها، تتوالد كل يوم في مناطق متباعدة، وتتكاثر في المدن والبلدات والقرى. حتى إن هناك قرى صغيرة حظيت بمجموعات تفوق طاقتها من الشبيحة، متعاضدة ومتكارهة، تتقاتل في لحظة ما حتى النفس الأخير، لا يلزم لتشكيلها معاملات رسمية، أو بيانات وبلاغات. فما دام العدو هو الإرهاب، يكفي إشهار أسلحتها والاستعانة بشهيد أو أكثر، ينتحلونهم من ضحايا حوادث السير والمشاجرات والقتلى بالخطأ، ثم يحتفلون بولادتهم الشرعية بحفلة دبكة على إيقاع الرصاص، ونشر نعي لشهداء يختلسونهم من مواقع التواصل الاجتماعي، يلصقون صورهم على الجدران، ويتوعدون الإرهابيين بالموت.

الجهة المسؤولة، جمعية «النضال الخيري الاجتماعي الغراء». كانت شؤون التشبيح قد أُسندت إليها، وباتت من اختصاصها في العاصمة. وللعلم، أصبحت القضية معلقة في سجلاتهم منذ اليوم الأول لاعتقال الكتيبة في المخابرات، بانتظار وصول المتهمات إليها، للبحث في نيّاتهن، ولا سيما أنّ هناك جهات في الدولة أطلقت نفير الإنذار بشكوى أحرجت القصر الجمهوري: من فرط التشبيح لم يعد هناك ما يُنهب، الشبيحة خلعوا البلاط من الأرضيات، وانتزعوا التمديدات الكهربائية من الجدران، رغم عدم توافر الكهرباء، واقتلعوا التمديدات الصحية، مع أنها لم تعد صحية.

المعروف عن الجمعية أنها جمعية خيرية إسلامية أنشئت منتصف القرن الماضي، قبل قدوم العسكر، من قبل وجهاء أفاضل بعد الاستقلال، تُعنى بتوزيع الإعانات على العائلات الفقيرة، ومساعدة المحتاجين، أضافت النضال إلى عمل الخير، بعدما تعرضت لحملة اشتراكية تستنكر الكرم البرجوازي المشبوه، فأعيد النظر في تأسيسها، مع إدخال بعض التعديلات الطفيفة الهادفة. فالزمن كان زمن نضال، وللنضال حظوة، فتبنت شعاره لئلا يثير فعل الخير شبهة رجعية.، فالخير لم يعد تطوعًا، بل إلزاميًّا، والأصح أنه كان ثوريًّا، نسبةً إلى ثورة التصحيح المباركة. أما الخير الرئاسي، وهو المعتمد، فكان تكرمًا، ومكرمة من الرئيس بالذات، للشعب بالذات، ولو أصاب الموظفين فقط عند رفع الرواتب.

مع الحرب الأخيرة، وكانت حربًا على الإرهابيين المتأسلمين، صودرت الجمعية لشبهات إسلامية، بحجة إفلاسها، ليس لأسباب مالية، بل لئلا يصبح فعل الخير مقتصرًا على الإسلام السُّني، هذا الموقف كان علمانيًّا عالميًّا، استثمر محليًّا، فالخير مثل الجهاد، ما دام في سبيل الله، عزز الخشية منه،

أن جمع التبرعات ليس إلا لدعم الإرهاب، ولو أنه لم يعد هناك متبرعون في زمن الحرب بأكثر من ربطات الخبز على النازحين، وبسلال غذائية في شهر رمضان، لكن التبرع نفسه بات محظرًا دوليًّا لئلا يذهب إلى عائلات الانتحاريين، ما يشكل معونة لأولادهم كي ينتحروا عندما يبلغون سنّ الرشد، وأحيانًا قبله. فسارعت المخابرات إلى اجراء تحقيق محلي يثبت أن الجائعين كانوا شبعانين، وباعوا ربطات الخبز والسلال الغذائية، وتبرعوا بثمنها للإرهابيين، مع أنهم - حسب التحقيق- أكلوا الخبز مع السلال، ولم تسدّ جوعهم.

٣. الجاسوس الحسود

استُولي على الجمعية لصالح تنظيم المقاومة التشبيحية، وللتمويه فحسب، بقيت المكاتب على حالها، ومعها اسم الجمعية، وكانت ملائمة لمصداقية العمل التشبيحي، فهو تبرع، ولو اعتمد النهب، فنُهبت الجمعية من بابها لمحرابها، باعتباره نضالًا مضادًا خيريًّا ضد المعارضين الإرهابيين. على هذا الأساس، كانت مبادرات التجار الجدد الموالين للنظام بالتبرع بمبالغ ضخمة لإعانة الشبيحة على التشبيح، على أنه إسهام في الخير العام، وتبرئة لذمتهم تجاه الشعب والله، وإن كان تجاه النظام.

الذي حدث، أنّ الجمعية بعد طول تشبيح، بوغتت بظهور فصيل تشبيحي نسائي، أعلن رغبته في الانتقام من الذكور. ماذا لو كان الذكور من الشبيحة؟ هؤلاء لا يجوز الانتقام منهم؛ صفتهم التشبيحية تمنع مسّهم بسوء. عدا عن أنّ الانتقام كان من المهمات الحصرية بالتشبيح الرسمي، ويقع على عاتق النساء والرجال معًا، دونما تمييز بينهما، ليس فرديًّا ولا محددًا بشخص، كما كان جماعيًّا، ضد مناطق بحالها، لكن أن تتطفل مليشيا نسائية مجهولة الهوية، وتتنطع لهذه المسؤولية، فلا يستبعد أنهم مدسوسون، أي مدسوسات.

الجانب الآخر، الأولى بالحذر، تعريض أموال التبرعات للسرقة، لمجرد الادعاء أنّ لجماعة ما نصيبًا فيها، بينما القرار ألّا تشاركهم أيّ جهة بالمخصصات، ولو بذريعة الممانعة والمقاومة. لذلك، أخذت الجمعية على عاتقها التحقق من أيّ جماعة أو فصيل أو مليشيا تُظهر التشبيح، وتُبطن مقاسمتهم العائدات، وكان من صلاحياتها إيقافها عن العمل من دون قيد أو شرط.

سارع مدير الجمعية إلى انتزاع القضية من المخابرات؛ بحكم الاختصاص، وأصبحت القضية بشأنها مفتوحة، لا يمكن إغلاقها إلا بعد الحصول على إجابات شافية عمّن وراء الكتيبة. فأُخرِج الأستاذ «ض» من المستشفى، و«كتيبة المنتقمات» من الفرع، وإرسالهم مخفورين إلى الجمعية، واستؤنف العمل على القضية، وكان قد بدأ في غيابهم.

بمجرد ما سمع الممول بالقبض مجددًا على «ض» المجبصن عقب خروجه من المستشفى، باشر اتصالاته، فعرف أنه اعتقل لحساب الجمعية، بعدما ثبتت براءته. فاتصل بمدير الجمعية وتوعده بعدم السكوت عن الإساءة إلى سمعة أستاذ جامعي مكسور الخاطر واليد، ومُلويّ المعصم، يعاني من ارتجاج في الدماغ، تكسرت أسنانه وتخلعت أضراسه، لم يبرأ من الضرب بعد، عدا عن الأذى المعنوي الناجم عن زعزعة مكانته المرموقة. وهدد الجمعية بوقف دعمه المالي، مع رفع شكوى إلى القصر الجمهوري.

استجاب المدير لتهديداته. كانت تبرعات الممول الدورية قد أنعشت الجمعية منذ تولت إدارة الشؤون التشبيحية في العاصمة. وأخذ بالاعتبار طلبه عدم التعرض للأستاذ الجامعي، فالواضح أنه لن يتحمل المزيد من الضرب. والأرجح أنه كان للمبالغ المجزية المهدد بإلغائها فعل السحر، مع أنّ الجمعية كانت ستطلق سراح الأستاذ في جميع الأحوال، سواء أكان مذنبًا أم بريئًا. لم يكن اهتمامهم به إلا لأنه طرف في القضية، وليس لديهم شيء ضده. فالأستاذ كان شبيحًا أكاديميًّا، لم يطلب إعانة، كان يمول تشبيحه بجهوده القومية.

استعان المدير بالتحقيق السابق، لإغلاق القضية، تمهيدًا لتخلي الجمعية عنه وإخراجه من حيازتها. وأوكل إلى المحاسب في الجمعية التخلص منه بطريقة قانونية، لأنه كان جاسوسًا عليه من الرقابة المالية، فلم يشأ التصرف فيها على مسؤوليته، لئلا يشتبه في قبضه رشوة من الممول.

اعتقد «ض» لدى تعرضه للاستجواب من جديد، أن إجاباته السابقة لم تكن كافية، فبكى وشكا أنه لم يصل إلى بغيته مع أية فتاة، أستاذيته الأكاديمية لا غبار عليها. لكن قصته كانت قد تجددت بعدما أوقعه حظه التعيس بين يدي المحاسب الجاسوس، الذي لم يخف حقده عليه؛ النذل يكذب بجسارة، يزعم أن علاقته معهنّ كانت بريئة، مع أنه ظفر بتشكيلة متنوعة من الفتيات والنساء، تجبر أي أستاذ في العالم مهما كانت درجة علمه، على أن يكون ذئبًا.

ما الذي ذهب بالمحاسب إلى هذا التصور؟ كان الأستاذ ملفوفًا بالشاش، فبدا مثل الوحش الكاسر، إن لم يكن الأسد الهصور، جاحظ العينين، فاتحًا شدقيه على نابين صامدين من أسنانه الأمامية.

رفض المحاسب تبرئته، على الرغم من توصية المدير، فالجاسوس شكاك، هكذا الأساليب التجسسية. تخيل أنّ الأستاذ الكاسر والهصور، قد بطح الفتيات أرضًا، الواحدة تلو الأخرى، نال وطره منهن، لم تفلت واحدة من براثنه. لم تقنعه أنفاسه الضريطية الفواحة، إلا بأنّ استسلامهن كان ناجمًا عن

الرعب، أما الضراط الفموي، فكان لتخديرهن. فلم تعد المثابرة على اضطهاد الأستاذ ترويحًا عن النفس فقط، بل انتقامًا من نجاحه في إغوائهن، ولو كان بالقسر.

لم يدرِ الممول أنه سيكون للأستاذ «ض» التأثير الأكبر في عرقلة الإفراج عنه، كذلك لم يدرِ مدير الجمعية الذي طالب بإنهاء قضيته، أن الجاسوس يتعمد تأخير البتّ في أمر الأستاذ الذي جهد في استدرار شفقته دونما جدوى. لمجرد طغيان إحساسه نحوه بالغيرة، أستاذ جامعي قميء وحقير، توافر له العبث ما طاب له مع مَن يشاء من فتيات كأزهار الربيع، ومطلقات ناضجات، وأرامل ريانات، وعوانس محرومات... هل يعقل ألّا يحاول معهنّ؟ مدير الجمعية اعترض، ربما كان بريئًا.

يا إلهي! كم تهيأت لهذا الخنزير من فرص جنسية. هل هو قديس؟

لم تقنعه دموعه بالكفّ عنه؛ تُرى مَن يكون الأكاديمي «ض»؟ إذا كان رجعيًّا عفيف النفس، من فصيلة الدعاة إلى مكارم الأخلاق، فلا شيء يمنع أن يكون أستاذًا إرهابيًّا في السر، لكنه لم يستطع تجاهل الملف المرافق الذي احتوى على شهادات طلبة جامعيين، تؤكد استكلاب الأستاذ عفيف النفس على التحرش بفتيات بريئات وشريفات، ما أسقط عنه الهالة الأكاديمية، وحلّت محلها هالة زير نساء مقيت. حسنًا، لو لم يتغالظ عليهن، لما شكلن كتيبة لتكسير أعضائه.

ازداد إلحاح المدير على تبرئة «ض»، فأبلغه الجاسوس الذي استأثر به الحسد والعمى، بأنه لا يستطيع إطلاق سراحه على مسؤوليته، لقد ظهرت حقائق جديدة، لا بد من التحقق منها، لا مفرّ من التمهل، القضية قد تتسع، قريبًا ستأخذ مجراها الصحيح.

ولم يكن سوى أنه في الوقت متسع ليشفي غليله منه.

لم يكن لدى الممول الوقت، كان في إضاعته ما يرفع خسائر صفقاته المؤجلة إلى عدة ملايين. وما جعل غضبه يتفاقم مع مرور كل دقيقة، هو «ض» نفسه. ورّطه بقصة تافهة لمطلقات مكيودات ونساء يدعين ترملهنّ الاستشهادي، وعوانس هيستيريات، والأسوأ فتيات عذراوات، لم يفلح بفضّ بكارة واحدة منهن، وقد يذهب ضحية اختلاس لمسة أو قبلة. بعدما ادخره لمهامّ مميتة، ها هو قد يُقضى عليه مقابل تفاهات، ويخسر ما كلفه من أموال ليصبح أستاذًا جامعيًّا. كإنذار أخير، توعد مدير الجمعية بأنه سيخرأ عليه وعلى جماعته شبيحًا شبيحًا.

خاف المدير أن يتسرع الممول الجبار وينفذ وعيده، خاصة أنه لن يضيف الخراء فقط، بل سيطعمهم إياه. كان يعرف ألّا فائدة من المماطلة، مهما تعنّت الجاسوس، فسيظفر الأستاذ بالبراءة حتى لو ثبت أنه اغتصب الكتيبة كلها.

سارع المدير إلى إبلاغ الجاسوس بظهور حقائق جديدة في قضية الأستاذ مضادة لحقائقه، إنّ إنكارها، لا محالة، سيشكل عبئًا خرائيًّا على الجمعية، ولا حلّ إلا بإفلات الأستاذ في التو واللحظة. لم يدرِ المدير أنّ هذه الحقائق قد أبلغ بها المحاسب الجاسوس من مشغليه بإيجاز، إذا فطس الأستاذ، فستعلق مشنقتك، لكن ليس قبل تغطيسك بالخراء.

كان الإبلاغ حاسمًا، في اللحظة التي خالجته نفسه الأمّارة بالتشبيح بفلقة أو فلقتين عقوبة للأستاذ الملفوف بالشاش على براءته، يفرغ ما اعتمل في داخله من حسد. فأوقف التحقيق، وأرسل الأستاذ «ض» بالطريقة نفسها التي جاء بها، على محفة إلى بيته مباشرة.

ما وضع حدًا لهذه الدراما الخرائية.

٤. التشبيح الجنسي

باتت «كتيبة المنتقمات»، لبّ القصيد، والشاغل الأول لمدير الجمعية؛ التسامح معهنّ يعني تمييع التشبيح لكل من هبّتْ ودبّتْ، بعدما تسيّب لكل من هبّ ودبّ. وإذا كان قرار الشبيحات نابعًا من رؤوسهنّ، فسيتفوقن على الذكور، ويمارسن التشبيح على الشبيحة، بدلالة الأستاذ الجامعي الشبيح الذكر وما أصابه من جراح وكسور. وإنْ تُرك الحبل لهنّ على الغارب، ولم يضبطن، فسيزرعن الانقسامات بين صفوف الشبيحة، تحصد حربًا داخلية، الانتصار فيها معقود لهنّ لما يمتلكنه من جاذبية وإغراء يفلّان مفعول الأسلحة الخفيفة والثقيلة.

بالاستناد إلى تحقيق فرع المخابرات الذي برّأ الأستاذ، فنّدت الجمعية نضال الكتيبة، وبرهنت على أنّ الآنسات لسنَ طالبات علم، ونشدانهنّ الانتقام، كان دافعه الملل من الدراسة، يطمحن إلى حياة كسولة مرفهة، بينما كانت نيّات المطلقات النسويات العالقة قضاياهن في المحاكم، التحرر من عقد النكاح المهين، والثأر من الأزواج والحموات وجحيم الحياة الزوجية. أما ادعاءات الأرامل أنهنّ زوجات شهداء، فلا شيء يفسر سقوط أسماء أزواجهنّ من سجلات الشرف. كذلك العوانس اللواتي جهرن برغبتهنّ في القضاء على الرجال الأوغاد، فلا ريب أنهنّ سيتراجعن عن أحقادهنّ، ويكنّ طوع أوامر شبان يافعين تحت تهديد السلاح، أو بلا سلاح.

كان من باب العدالة والأمانة، وتوخيًا لعدم إهدار فرصة يجود بها الجنس اللطيف كمثال للتشبيح الراقي، الفصل بين الفتيات الجامعيات والنساء اللواتي هجرن عملهنّ كربات بيوت، من باب مراعاة تنوع الخصوصية الأنثوية للمنتقمات، ما استدعى الشفقة على المغرر بهنّ من المتقدمات في السن، اللواتي تجاوزن الأربعين، وربما الخمسين، فالنساء لا يفصحن عن أعمارهنّ، ولا سيما أن نيّاتهن لم تكن تشبيحية، بقدر ما كانت جنسية، ولا وسيلة للتحري عن صدقهنّ، وإن ادعين أنهنّ تعاطفن مع قضية عادلة، وجمعتهنّ مع الجامعيات وحدة الهدف والغرض، لكن ما أوردنه من معلومات عن أحوالهنّ لم يكن صحيحًا، فالمطلقات، ظهر أن رجالهنّ يتسللون تحت جنح الظلام إلى فراش الزوجية، وينسحبون بعد قضاء وطرهم، وأزواج الأرامل، ليسوا شهداء، بل جرحى حرب يعاندون الشفاء منذ سنوات، يمضونها بتدخين الأركيلة وشرب المتة. والعوانس اليائسات، لسن يائسات، بل مسترجلات، لديهن دوافع حرمان حقيقية، لن تفرغ إلا بتمريغ كرامة الذكور بالوحل، لمجرد أنهنّ أصبحن مشبوهات بهذا الجنس الحقير.

لم يزد مجموعهنّ على دزينة من النساء، ثبت ألّا علاقة لهنّ بأهداف الكتيبة، فإذا أزحنا العوامل الجنسية جانبًا، لم يجذبهنّ التشبيح، إلا لوفرة النهب، وهو أمر لا يمكن محاسبتهنّ عليه، فالنهب أصبح حلالًا زلالًا، ما دام من الشعب إلى الشعب، وإن تذرعن بأنهنّ مستشارات لفتيات صغيرات بلا خبرة ولا تجربة، لكنّ مدير الجمعية أصرّ على طردهنّ من قضية الكتيبة الجامعية، لعدم انتسابهنّ إلى أية كلية.

بعدما خلت قضية «كتيبة المنتقمات» من منغصات الترمل والطلاق والعنوسة والاسترجال، جرى التركيز على دزينة من فتيات العشرينيات، فعلِقت العذارى الطائشات شرّ علقة، بين شبيحة تعجّ بهم الجمعية، فأثيرت الغرائز الذكورية، وشحنت بالبغضاء من شدة ما احسوا تجاههن بالصغار جراء تفوقهن؛ وكانت جامعية، معرفية، اجتماعية، نفسية، جسدية.

كان الرد التشبيحي عليها: مهما كان ما يمتزن به، سيُطاح بهنّ، بإخضاعهنّ جنسيًّا، جسداً لجسد، النكاح يكسر التفوق، هل تتجرأ بعده منكوحة على رفع رأسها أمام ناكحها؟

قبل أن تبدأ الجولة الأولى، أوقف مدير الجمعية التحقيق، أي الاغتصاب قبل أن يبدأ. كانت حجته أن اللواتي سيغتصبن من جماعتنا، الشبيحة أخوة لا فرق بين ذكر وأنثى، هل يجوز؟ لم يظفر بجواب، الشبيحة من حوله هائجون، كل واحد منهم أجحش من الآخر. تُرى، ما العاقبة؟ إذا كانت قائدة الشبيحات ابنة لواء، ولو كان متقاعدًا، فالأمور لن تمرّ على خير، عدا أنهن آنسات لطيفات استهوتهن المغامرة. هل نعاقبهن؟ القصة جامعية وعلى علاقة بالعلم والتعلم.

لن يأخذ قضية الشبيحات على عاتقه، لا بد من مرجعية، تعفيه من المسؤولية، لن يستعين بالمحاسب، كانت الحقائق الجديدة قد انتزعت منه مهماته التجسسية. فاستعان بالمركز الرئيسي للشبيحة في عموم الجمهورية، هل يعقل أن يخلو من مفكر شبيح؟

٥. المفكر الشبيح

طبعًا، لا يخلو المركز الرئيسي من مفكرين يُستهدى بآرائهم، وإذا احتاج الأمر بالمتناول شعراء وروائيين وصحافيين وفنانين، وربما فلاسفة، فالتشبيح كان ساريًا، لم يقتصر على صغار القوم، اجتاح كبارهم، ما دام يدرّ المال والرخاء. اختير مفكر من الوزن الثقيل، كان مرشحًا لتشكيل حزب بديل من البعث، لكن بعدما رُمِّم، بات البديل احتياطًا إن مسّت الحاجة في المستقبل إلى حزب معارض، لا على التعيين، حسب المناخ السياسي، قوميًّا كان أو اشتراكيًّا، ليبراليًّا أو ديمقراطيًّا، وربما يساريًّا ماركسيًّا، إن استعادت الشيوعية سمعتها، ما دامت الصين لا تزال ماويّة سياسيًّا.

لحظة وصول المفكر، أصدر أوامره، بمباشرة التحقيق، ومنع التجاوزات. وأطلق تحذيرًا صارمًا: النكاح شيء، والتحقيق شيء آخر.

فأرجأ التحقيق ريثما يبتّ بالنكاح.

أخذ المدير جانب الشبيحة الغاضبين، لا يستطيع إلا تبني وجهة نظرهم، عدا أنه شبيح مثلهم، لا يستطيع أن يكون ضدهم، ما دام القرار النهائي على مسؤولية المفكر، فتعلل بأنّ النكاح إحدى الوسائل الناجعة في التحقيق، لا حدود تفصله ولا تميزه عن الوسائل الأخرى، ما دام يؤدي إلى الهدف نفسه: الاعتراف.

«ما دمنَ لم ينكرن، فبماذا يعترفن؟».

«التحقيق يفصل في صحة اعترافاتهن».

فتحجج المفكر بأن المشكلة قانونية، فضرب المدير عن الاعتراف صفحًا، وكان السؤال قانونيًا:

«هل التحقيق والنكاح لا يجتمعان؟».

تردد المفكر، كان اجتماعهما مثل عدم اجتماعهما، مفروغًا منه، لكن حسب الظروف والنيّات والهدف و... عدا أن النكاح يعني المتعة.

استغل المدير حَيرة المفكر، ودافع عنهما معًا؛ الاغتصاب يعني التعذيب. وإذا حصلت المتعة، فعرض جانبي.

كان المفكر على مستوى الموقف، أوقف النقاش، لسبب جوهري، المدير يستحمره. «الاغتصاب ليس نكاحًا رضائيًا، إنه اغتصاب، حتى لو أصاب أحدهما أو كلاهما المتعة».

حسم الأمر، لن يسمح باستخدامه كأداة تعذيب، ولو جاز للشبيح ما لا يجوز لغيره.

بعدما كبّل الشبيحة، أضاف إلى ما سبق، تحذيرات أخرى بخصوص اجتناب التلميحات الجنسية؛ الفتيات من الطائفة، ونيّاتهن الانتقامية المستقبلية، إذا نحّينا قضية الأستاذ جانبًا، لا غبار عليها، ما دام المقصود بها الطائفة العدوة الوهابية العميلة.

عندئذ رمى المدير بآخر سهم لديه:

«ماذا لو لم يكن هناك دافع وطني، ألا تجوز محاسبتهنّ؟».

«إنّ غزوتهنّ الموعودة في مغربال، تثبت وطنيتهن. إذا أخطأن، لا مفرّ من العقاب. وفي حال كان التشبيح لأغراض شخصية بحتة، فالعقاب مضاعف، والاغتصاب حلال».

أدرك المدير أنه لن يفلح، لم يجد منفذًا إلا بالاعتراف بالمشكلة الفعلية، كما لمسها، دونما مواربة:

لا تحسب الشبيحة بلا إحساس، في الحقيقة، النيّات المسكوت عنها نحوهنّ عاطفية، وهو ما حاذروا الإيماء إليه، لئلا يخدش صلفهم الذكوري، ويُضعف موقفهم الخشن، يعززه مانع شاهق، الحاجز الثقافي لا يستهان به، بين فتيات جامعيات وشبّان لا يقرأون، وإذا قرأوا لا يفهمون. ما أصابهم بالدونية، مقارنةً بالأستاذ الدونجوان، وكانت ظروفه أفضل بما لا يقاس، هل يحق له الاغتصاب لمجرد أنه يحمل شهادات عالية؟ في هذا ظلم، لولا أن جحشنته أوقعت به، لأفلح معهنّ.

بجلاء كان المدير يطلب المساعدة من المفكر على حلّ مشكلة عاطفية، ولو بدت جنسية، على أن يضع بحسبانه أنّ الاغتصاب يُسهّل الأمور، وإذا أصاب الجامعيات بضرر، فبقدر من الأذى لا غنى عنه، ومهما يكن، فهو تجربة، قد تكون مفيدة، تُطلِعهن على ما في التشبيح من مخاطر، الإرهابيون يغتصبون النساء أيضًا.

إذا كان المفكر قد أحسّ بالحرج، فلأن مهنته إذا لم تكن التفكير، فلماذا جاء؟ كان الحل امتحانًا للفكر، ما يتطلب تخريجة جريئة على مستوى هذا الموقف الشائك، ولن يكون إلا بزجّ الجامعيات في أتون التشبيح، ألم يخترنه؟ وإذا أخذ

التحقيق مجراه، فالاتهام بالإرهاب، سيثمر ويجيز اغتصابهن، لكن ليس قبل انتزاعهن من طوائفهن، وإثبات خروجهن منها، ما يربطهن بالإرهاب.

هذه العملية، ليست عسيرة، توفرها ثقافة متحررة، انعكست على الآنسات بالمروق، ما فصم صلتهن بالدين، ماذا أصبحن؟ كارهات طوائفهن والطوائف كلها دونما تمييز، كافرات بلا طائفة، وإذا آمنَّ بدين، فدين اللاشيء، ما يُرسلهن إلى الإرهاب الإلحادي دفعة واحدة.

... تحت وطأة هذا الاتهام الرهيب، لا مندوحة لهنّ عن الاستسلام للغزل بأنواعه العاطفي والغرامي والدرامي، بعده يغدو الطريق سالكًا إلى قلوبهن، ويرتضين بكل ممنونية بشبيحة حملة شهادات ابتدائية، أو بلا شهادات.

بدت تهمة «الإرهاب الإلحادي»، اكتشافًا حصيفًا للمفكر، تضع الإناث مقابل الذكور من دون طوائف، ما يفيد بتسهيل الاغتصاب، لا تعقيده.

غير أنه سرعان ما استدرك اكتشافه:

«لكن الإلحاد ينفي الإرهاب، ويضع الفتيات في خانة العلمانية».

أي لا اغتصاب.

فأصيب المدير بالإحباط.

سرعان ما استدرك المفكر؛ ليست هذه هي القضية. في الحقيقة، كان يستعرض قدراته في التفكير. لم يخفها عن المدير، هذه الأفكار نفسها بوسعنا تشكيلها كما نشاء في التحليل والتحريم، هذه نعمة أنعمتها الثقافة على المثقفين. المهم أنّ الاغتصاب التشبيحي: علماني.

«إنه اغتصاب نظيف».

سارع المدير بدوره، بعدما بتّ به، لم يعد هناك سوى إحراز تقدم جنسي سريع بحت، وقال قبل أن يختلق المفكر عائقًا:

«إنها مسألة وقت، يجب تقصيره للحد الأدنى».

لكنه تعرقل، العائق الذي لا يمكن تجاهله، كان تردد الذكور وكأن هناك ما لجمهم عن الإناث. ما الذي منعهم؟

سيفسره المدير بعد تفكير:

«ردعهم حضور الطائفة في ملامح الفتيات».

«لكن ملامحهنّ لا تتميز عن غيرهن من باقي الطوائف».

في تلك اللحظات المحبطة، لن يخذل المفكر إحساسه، وإن لبرهة، كانت كافية ليلخص ما استجد، وخيم على الموقف وعطل الاغتصاب:

«نسيم الجبل وصفاء الساحل، وتلك اللهجة الأنثوية التي تسكر الأسماع، وإن كانت في منتهى السماجة والغلظة، عندما يتمنطق بها شبيحتك».

وتابع بامتعاض:

«يا ربي، لماذا لم تخصصها بالإناث، وتقطع ألسنة هؤلاء البغال عنها؟».

قبل أن يغادر، لن يدع المدير يغوص في حيرته.

«حالما تنزاح عنهم غمامة رومانسية القمم الخضراء، وأمواج البحر، تصبح الآنسات الرقيقات لقمة سائغة لهم».

«رومانسية؟! لا تنسَ بؤس الأهالي وشظف العيش».

«ولا تنسَ أيضاً، إذا كان رجالك شبيحة، فالفتيات شبيحات».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

الفصل الثامن عشر
في عرين الإدارة

١. محاولة مخفقة

بينما كانت الآمال في الجمعية ترتفع تارة، وتنخفض تارة، كانت مخاوف المحقق سامر قد تسارعت؛ مسؤوليته أمام اللواء تتعاظم، لقد خذله، لم يكن جديرًا بوصيته، عند أول بادرة ترك حنان لمصيرها الأسود.

سارع لإعلام العميد حسين الذي لم يحرك ساكنًا، ليس لأنه لا يعلم. فقد أُبلِغ بإطلاق سراح الفتيات من المخابرات، فلم يتابع ما حلّ بـ«كتيبة المنتقمات»، ولم يخطر له احتجازهنّ. وعندما سأل عنها ثانية، كانت أخبارها قد ضاعت في الطريق بين الفرع والبيت. استفهم من الفرع، قيل له إنها خرجت، لكن إلى اين؟! لا نعرف. وكانوا يعرفون، لكن السرية مطلوبة. بعد قليل، اتصل به ضابط صديق من الفرع، وأعلمه عن مكانها، على أن يبقى طيّ الكتمان؛ اعتقالها تجدد في «جمعية النضال الخيري الاجتماعي الغراء».

اتصل اللواء حسين بالجمعية، سألهم عن الكتيبة، فأغلقوا الهاتف في وجهه. لم يستغرب، الشبيحة الأنذال لا يعبأون بضابط في الجيش مهما كانت رتبته، خصوصًا أنه ليس قائد فرقة ولا لواء أو فوج مدرع، مجرد ضابط إداري في الأركان، ما يسألهم إياه، ليسوا ملزمين بالإجابة عنه.

العميد حسين صارحه، لا وسيلة للضغط على الشبيحة، إلا بتدخل من القصر الجمهوري؛ هذا يفوق طاقته. سامر لم يلحّ، يعرف جرائم التشبيح من الموضوعات المسكوت عنها، وتتجاهلها الرئاسة. الشبيحة يدافعون عن النظام، ولو كان بالمجازر. البلد بحاجة إليهم، إنهم في الصفوف الأمامية، يردعون كل من تسوّل له نفسه المطالبة بالحرية. لولا قسوتهم ووحشيتهم، لما قُضي على الثورة. بقاء النظام مدين لهم؛ هذا ما يزعمونه، حتى إنهم أنكروا على الإيرانيين والروس أفضالهم.

لا وسيلة لإيقاف التحقيق مع الكتيبة، وحده قانون التشبيح سيفصل فيها.

الوقت يمر. وكان ثمينًا، مجرد وصم الفتيات بأيّ اتهام، يعني أن يستبيحهم الشبيحة. إذا لم يجرِ التوصل إلى حل سريع يؤدي إلى إطلاق سراحهنّ، فربما اغتصبن، خلال ساعات، أو دقائق.

حبه استيقظ، مع أنه لم يغفُ. خشي أن يفقد حنان التي يعرفها. كان في اغتصابها تحطيم لكل ما طمحت إليه؛ احتلال موقع على القمة، التسلط، الثأر، الانتقام، حرية الاعتداء على الآخرين، التشبيح... كل النزوات والحماقات التي

صنعت شخصيتها حتى الآن، ستتهاوى إلى الحضيض، إن لم تفقدها دفعة واحدة. لن يبقى منها شيء، حنان لن تعود حنان. ستصبح أخرى مشوهة بلهاء معاقة... أو معافاة.

مهما كانت هذه التجربة ستكون درسًا لها، في حال خروجها سالمة.

٢. قضية حياة أو موت

كانت مجرد مصادفة، هذا ما اعتقده للوهلة الأولى، بينما كان يمشي في شارع الفردوس غارقًا يندب مصير حبيبته، وقادحًا زناد فكره، باحثًا عن حل ينتزع به حنان من مخالب «جمعية النضال الخيري الاجتماعي الغراء». وإذا كان قد عثر على الوسيلة، فلأنه ليس هناك غيرها، سيارة مفخخة يقودها انتحاري يندفع بسرعة قصوى إلى الجمعية، يخترق البوابة، ويحدث ثغرة فيها، مفجرًا جسده في البناء. كانت مجرد خاطر، مع أنّ العملية الانتحارية لن تنجح لأسباب عاطفية، من دون جهاد.

إذا به لحظة انعطف في شارع بورسعيد،على مقربة من سينما الاهرام، يرى ف.خ يسير على الرصيف المقابل. فتابعه بعينيه، وكاد أكثر من مرة أن يناديه بأعلى صوته،، لكنه خشي لفت أنظار المارة إليه. في تلك اللحظة التفت ف.خ نحوه، فوقعت عين هذا على عين ذاك، خطر له على الفور اللقب الأخير لفاعل الخير، الجدير به بكفاءة؛ الرجل الذى يعرف الكثير.

لوّح له بيده، وهرول يقطع الشارع، بينما وقف ف.خ بانتظاره.

من دون سلام، شكا له قصة شقائه وقلة حيلته، مع لمحة عن غرامه المرهق بالتعقيدات، ناشدًا مساعدته، فالله لم يرسله ليتمشى على الرصيف المقابل عبثًا.

ف.خ كان مستعجلًا، مع هذا أصغى إليه، لم يسأله عن التفاصيل، فهو يعرف قصته مع اللواء، والآن عرف الجانب الحساس منها، عن علاقته مع ابنة اللواء وما يكنّه لها من حب، مع أنها - كما يبدو- لا تبادله إياه بالمقابل، غير أنّ وصية اللواء تتجاوز هذه الفوارق، المهم يجب إنقاذها. سأله:

هل ما زال المفوض في الفرع؟

نعم، تركته قبل قليل هناك، هل تعرفه؟!

ليس هذا سؤالًا يُسأل، عُد حالًا، حاول أن تراه، واشرح له قصتك. سيساعدك.

أدار ظهره له، وتابع السير مسرعًا. فأدار المحقق سامر ظهره وحثّ الخطا إلى الفرع.

كان المفوض على وشك المغادرة، فاستوقفه وروى له قصته. استمع إليه المفوض، ما سمعه لم يرُقهُ، كذلك استنكر مسألة إنقاذ الفتيات. وعبّر عن رأيه بفظاظة؛ فليغتصب الشبيحة الشبيحات؛ هذا الوخم لا يستحق الحياة.

بعدما نفّس عن غضبه، عطف على الشاب الكسير القلب والجناح، حظه البائس أوقعه في عشق شبيحة ابنة لواء سابق في الجيش، له أيادٍ بيضاء عليه. المحقق الشاب تعلّق بها، وأحبها على نحو كلبوني، وهو نوع من الأمراض العاطفية المستعصية؛ يدبق الرجال بالنساء، فيتلاعب الغرام بهم، ومثلما يسعدهم، يذلهم وقد يحطمهم، هذا الولد في محنة، لا يقدّر عواقبها، مهما يكن، يجب مساعدته.

تضامن المفوض معه، وآزره في محنته، فهما زميلان في العمل، يديران الفرع بانسجام من دون تنسيق بينهما، كانت درجة توافقهما عالية بحيث إنهما لم يتشاورا في الأمور الجوهرية. كان الشاب مثله ضد ممارسة الفرع لأي إجبار ضد الأدباء، ورفض التعذيب بأنواعه، وسانده في اقتراحه تنظيف الفرع من المخبرين، واستبعادهم من برنامج العمل الجاري تحضيره.

ليس غير خالد مدير الإدارة بإمكانه انتزاع الشبيحات من براثن الشبيحة.

اتصل المفوض بالإدارة، وطلب موعدًا عاجلًا للمحقق سامر. السكرتيرة لم تعده بشيء. أصرّ، قضية حياة أو موت. لم تستجب، لم تعد الحياة أو الموت قضية استثنائية. لكنه ألحّ. فقالت: أرسله، سأرى ما يمكن عمله بشأنه. بعدما أنهى المخابرة، أعطاه عنوان الإدارة.

اذهب حالًا... ستقابل السكرتيرة، أقنعها بضرورة مقابلتك لمدير الإدارة، وإذا احتاج الأمر، ابكِ أمامها، سيرقّ قلبها. تعرف، عواطف النساء تستجيب لهذه القصص. اشرح مشكلتك لها بقلب مفطور من الوجع، لا تظن أن ما تطلبه سهل. ابذل جهدك، وحده مدير الإدارة قادر على مساعدتك.

أمام السكرتيرة الشقراء، قبل أن يلحّ على طلبه، اغرورقت عيناه بالدموع، فوعدته بأنها ستحدد له موعدًا خلال بضعة أيام. لم يجد سندًا لدموعه سوى اختصار مشكلته بأنّ خطيبته مهددة بالاغتصاب، كان مع كل كلمة يتفوه بها تسقط دمعتين من عينيه.

هونت عليه، الشبيحة لا يغتصبون الفتيات الشبيحات فورًا، إلا بعد الكثير من المقدمات، فهما من الصنف نفسه. إذا كانت خطيبتك عفيفة، ستتمكن من مقاومتهم ثلاثة أو أربعة أيام. فأجهش بالبكاء؛ لم يقل لها، حنان لن تقاوم، ربما أغراها الاغتصاب، واستفزتها تجربة الجماع بالقوة. قال ودموعه تنهمر:

الأمر لا يحتمل تأجيلًا، خطيبتي رقيقة وضعيفة الإرادة. ارجوكِ، صدقيني، ليست قضية حياة أو موت، بل أخطر، أودعها أبوها أمانة في عنقي.

انحنى، وكان على وشك الركوع، يريد تقبيل الأرض بين قدميها. حاولت منعه. لكنه كان قد ركع. فاحتضنته وأنهضته؛ لا تبتئس.

قصته أثارت شجون السكرتيرة الشقراء، وجدت في الشاب الولهان مثالًا رائعًا للحب الحقيقي، تمنت لو يستطيع إنقاذ حبيبته في اللحظة الأخيرة، لتكتمل عناصر الإثارة في قصة لا تحدث إلا في فيلم درامي من الزمن الجميل، زمن أفلام الأسود والأبيض، ستدبر له موعدًا فوريًّا، لتشهد بداية الفيلم.

٣. الاغتصاب كمسألة وطنية

ما أقنعها، لم يقنع خالد مدير الإدارة، لم يجد في ما سمعه منها أنها قضية أخطر من الحياة أو الموت، أصلًا لم يكن هذا التعبير مفهومًا، لو فكرت السكرتيرة المهبولة، لما حملت القصة على عاتقها، ودافعت عنها بحماسة، وزكّتها فيلمًا عاطفيًّا سينمائيًّا. هذه عواقب وجود سكرتيرة شقراء، قد لا تكون شقراء، ما دامت النسوة وضعن نصب أعينهنّ أنهنّ لسن إناثًا مثيرات، إن لم يصبغن شعورهنّ، ويتمكيجن بالمراهم. لِمَ لا؟ الرجال مصابون بعقدة تخصيص الجمال بالنساء الشقراوات البيضاوات.

سألها: مَن واسطته؟

قالت: المفوض.

لدى المفوض وجهة نظر قوية، الفرع محسوب عليه، يريد إعلامه بشيء ما، لكن ليست هذه القصة، مهما كانت، فهي سخيفة.

سألها عابثًا: برأيك، ما المغزى منها؟

قالت: صراع الحب ضد الاغتصاب.

السكرتيرة ترغب في انتصار الحب!! يا للغباء! لهذا تصورتها أخطر من الحياة والموت. لا ريب، فاتتها قصص كثيرة، من يبالي بالحب في حرب شعواء لا تعبأ بآلاف القتلى، كانوا قضايا حياة، وأصبحوا قضايا موت، ما الفارق؟ لا شيء. من لم يمت اليوم سيموت غدًا، ما الذي يزيد أو ينقص في الإفراج عن فتيات حمقاوات. حسنًا، قد يشفع للمحقق أن تكون قصته النسائية غير مملة، وأن تنال من كثيرين. ربما كان وراءها ما وراءها، ما دام المفوض أرسله.

دعيه يدخل.

بدا المحقق الشاب مثل غيره، موظفًا خائفًا، فلم يطلب منه الجلوس، تركه واقفًا يتكلم. وانتظر ما يختبئ وراء قصته، على الأقل فضيحة جنسية مجلجلة، بهاراتها الموت والحياة. إذا كان العكس، فلن يدعه يطيل، سيطرده.

سرد المحقق القصة من أولها إلى ما قبل النهاية. لم يطرده أو يقاطعه، كانت لافتة بوجود الأستاذ «ض» والنيّات الطيبة لكتيبة المنتقمات، والجمعية، والشبيحة، ثم عذرية الفتيات.

أين الفضيحة؟! تساءل متحيرًا؛ في حال هناك فضيحة، مهما عظمت، فلن تضير الشبيحة، ما داموا بحد ذاتهم فضيحة؛ زعرانًا أنذالًا، ولصوصًا سفلة.

ختم المحقق ظلامته:

النهاية لم تتحدد، باتت بين يديك.

ألحق بها مخاوفه، حاثًّا المدير؛ التأخير قد يذهب بعذريتهنّ، هناك أمل بإنقاذهنّ.

امتعض خالد، الخلطة لم تكن جيدة، كانت ضعيفة جنسيًّا. إذا كانت الفتيات عذراوات، فأين الجنس؟ هل هن عذراوات حقًا؟ ما الضمانة؟ ما يدريه ما كنّ يفعلنه في الجامعة؟ العذرية مجرد افتراض، لا ينبغي التهويل فيها. ثم إنّ الاغتصاب يقع على العذارى والمتزوجات، ليس من تمييز، حسب المتوافر. لماذا تحديده بفتيات جامعيات؟ المحقق ساقها لإثارة نخوته، بينما الهدف إنقاذ حبيبته العذراء، كأنه لا يدري أنّ التلويح بالعذرية، يعزز الشائعات ويختلق فضيحة، تسيء إلى سمعة الشبيحة، فوق ما هي سيئة.

القصة ليست من اختصاصاته السياسية ولا المخابراتية، كان واقعيًّا في هذه الأمور. الموضوعات الاجتماعية لا تعنيه، إنها مسائل مدنية. إذا نقلها إلى دائرة اهتماماته، فلدواعٍ تتطلب وضع نهاية لها، لكنها غير مستعجلة، ثم ما المبرر للمنافحة عنها؟ العذرية نقيض العلمانية، مع أنه ليس ضدها، لم يتزوج إلا عذراء، مع ما كان في العثور عليها من مشقة. لم يصادف حوله عذارى، كنّ نادرات، بينما لدى الرجعيين متوافرات بكثرة.

تنبه إلى أن نظرته إلى النساء كانت واقعية، كان متوازنًا، يتكلم مثل التقدميين، وفي الواقع كان رجعيًّا، فعل حسنًا، لم يغفل التمييز بين الخاص والعام، إذا أصرّ على عفة امرأته، فالأمر شخصي، لأنها رفيقة حياته. في الوقت نفسه، كان رجل دولة منفتحًا، لا يتجاهل أن العذرية عائق للتقدم، بالنسبة إلى الكثرة الكاثرة من الشعب، عدا أنّ الدولة علمانية، وانسجامًا مع توجهات النظام الليبرالية، لا مكان للعذرية في مسيرة التحضر.

التفت إلى المحقق الشاب وطمأنه:

ستعود الفتيات إلى أهاليهنّ أحياءً. لكن بالنسبة إلى العذرية، هل تظنها مهمة؟

كان الموقف المتراخي للمدير يستوجب الإصرار عليها والإعلاء من شأنها.

الحفاظ على العرض، لا يضاهيه إلا الحفاظ على الوطن.

ابتسم خالد من سذاجته، إذا كان يعتقد بالتماثل بين عذرية الفتاة والوطن، فالحدود انتهكت مئات المرات. المسكين، لا يعرف أنه لولا الاغتصاب، لما كان هناك رئاسة، ولا توريث، ولا جيش يقاتل على مئات الجبهات، ولا شبيحة من الغباء عدم توفير محفزات لهم، ولا أجهزة أمنية تغتصب كل ما هو قابل للاغتصاب سواء كان رجلًا أو امرأة أو طفلًا... ولما عبث من شاء بالوطن. لخصها للشاب مع التبسيط:

لولا الاغتصاب، لما كنت أنا وأنت نتبادل الحديث الآن بأمان.

بهذه القفلة انتهى الحديث، وغادر الشاب الإدارة بعد أن وُعِد خيرًا.

٤. لا تنازل عن العذرية

التفت خالد إلى المشكلة، كانت الشبيحة، لا العذارى.

منذ بدء الاحتجاجات، ضاق ذرعًا بهم، لكن لا يُستغنى عنهم. ما أصابهم من تنفج في استعراضات القوة، لم يعد يطاق، أصبحوا دولة ضمن الدولة، ربما كانوا الدولة العميقة التي تتحكم بالرئاسة نفسها.

لم يستطرد، التفكير خطر أحيانًا. حسبما يعرف، مليشيات الشبيحة على اختلاف مسمياتها وأنواعها، تطمح سرًا إلى مليشيا موحدة تحل محل جيش تشقق وتصدع، يعاني من نقص العتاد وتعثر إمدادات الطعام. لديه معلومات تقول إنهم استولوا على الجمعية الخيرية بغية تركيز سلطة القرار التشبيحي في العاصمة، بالتفاهم مع مليشيات المناطق الأخرى، وخصوصًا الساحل. ولا يستبعد على الإطلاق، أن تراودهم الخيلاء ويفكروا في الاستيلاء على السلطة، النهب لا يعوض السياسة. ما أكثر الدول التي ترغب في شرائهم! ثمنهم بخس.

حان الوقت، إذا كان يترصد فرصة لتأديبهم من دون القضاء عليهم، فقد جاءت. لن يعلّق مشانقهم، النظام ما زال بحاجة إليهم.

طلب قائد فوج العمليات الخاصة الملحق بالإدارة، العميد رتبة شرف، وكان أهلًا لهذه المهمة. كان العميد تواقًا لإثبات أن استدعاءه من التقاعد القسري لن يخيّب ظنّ أولئك الذين توسطوا له بالعودة. كانت فرصة ليبرهن أنه رجل عسكري، ولو أنه ألحق بإدارة؛ لا هي عسكرية ولا مدنية.

أمره خالد بمداهمة الجمعية وتحرير المختطفات. كان واثقًا من أنّ العميد شرف على استعداد للإساءة إلى الشرف نفسه لإثبات وحشيته. كان سافلاً أكثر منهم، يريد استعادة أقدميته من دون شرف. لم يتعجب منه عندما سأله عن إمكانية مفاوضتهم. لم يعنِ بسؤاله سوى، هل يبيدهم؟

هؤلاء لا يفهمون بالتفاوض، حتى لو أرادوا. إذا كان قائدهم شبيحًا جحشًا، فسيأمر جماعته بالقتال حتى الرمق الأخير. إذا لم يستسلموا، فلا أقل من سحقهم.

والفتيات؟

كانت الابتسامة التي لاحت على وجه العميد، لم تعنِ سوى السماح له بالتصرف فيهنّ غنائم حرب. حدّق إليه عابسًا، وقال بتؤدة:

إذا لم يذهبن خسائر جانبية، فأريدهنّ عذارى.

لم يقل هذا إلا ترضيةً للمحقق الشاب، لا يجوز أن يخرج من القصة خالي الوفاض.

فهم العميد ما أراده بالضبط منه مدير الإدارة، عليه أن يسلمه الفتيات أحياءً، وفي حال الضرورة أمواتًا، أما العذرية، فلا تنازل عنها.

انطلق العميد مع كتيبة من الجنود المشاة مدعومة بسرية مدرعات، ضربوا حول بناء الجمعية نطاقًا، مع حاجزين، أمامي وخلفي، مجهزين بمدافع رشاشة، لا دخول ولا خروج، وقطع عنهم الاتصال بالخارج، سواء بالهواتف المحمولة أو باللاسلكي أو بالإنترنت، منعًا للنجدات... وأيضًا لا كهرباء ولا ماء، لم يبق إلا الهواء. لو كان أمره عائدًا إليه، لسمّمه بالكيماوي.

أطلّ مدير الجمعية من الشرفة، فرأى الموقف على الطبيعة: حواجز ومسلحين وأسلحة خفيفة وثقيلة، السكون يلفّ الأرض والفضاء، ومن بعيد، وصلت ثلاث شاحنات تمتلئ بالجنود، نزلوا منها يحملون المعاول والرفوش، وبدأوا بالحفر. لماذا؟!

بهذا المشهد بدأ الاتصال بين وفد الجمعية والعميد شرف.

أبلغ العميد موفد الشبيحة، أنه لا تفاوض، خلال الليل سينجز الجنود حفر نفق يمتد إلى أسفل بناء الجمعية، يضعون طنًا من المتفجرات، صباحًا يداهمون الجمعية ويحررون الفتيات، لن يسمحوا لغيرهنّ بالخروج. ثم يفجرون المبنى، لا أحياء، سيُدفنون في النفق، وتردم أجسادهم بالركام المتخلف.

تحمّس الشبيحة للدفاع عن الفتيات لا المبنى، فزجرهم المدير، إن سلاحهم لا يزيد على بنادق ومسدسات وخناجر وسكاكين وهراوات وقضبان حديد، تنفع

في التشبيح، لا مقاومة جيش مدجج بالأسلحة، وطنٌ من المتفجرات... وقبر من ركام بانتظارهم.

قبل أن تغيب الشمس، خرجت «كتيبة المنتقمات» من الاحتجاز الثاني.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون E-BOOK

الفصل التاسع عشر
القدر

١. صالة اللقاءات المصيرية

حظي فاعل الخير بالنصيب الأكبر من امتنان سامر، ما جدد تساؤلاته عنه وإعجابه به، غير أن ما حيّره، معرفة ف.خ أنّ المفوض يستطيع مساعدته، وعلى ثقة بأنه سيدله على خالد رجل الإدارة، المتنفذ القادر وحده على إنقاذ المنتقمات من الشبيحة. فاعل الخير ليس أنه يعرف خريطة الدولة وتركيبة النظام، المحيّر أنه يعرف حجم قدرات كل مسؤول وصلاحياته، وكيف يفكرون، وما يستطيعون وما لا يستطيعون فعله، وإلا لم تخرج حنان سالمة لم تمسّ بسوء. إنه فعلًا الرجل الذي يعرف الكثير، وهذا الكثير كأنه كل شيء.

لكن سرعان ما دهمت الشكوك، تساؤلاته وإعجابه وحيرته.

عاد بذاكرته إلى شارع الفردوس؛ ومن ثم شارع بورسعيد، فسينما الأهرام، عندما كان يمشي على الرصيف؛ ثم لحظة مدّ نظره إلى الرصيف المقابل، ورأى ف.خ!! لماذا هو بالذات؟ إذا شاء تفسيرًا واقعيًّا، وحسبما يتذكر بقوة، كان لحظتها يقدح زناد فكره باحثًا عن حل، الأرجح أن ف.خ انقدح من ذهنه على الأرض، وظهر في اللحظة ذاتها على الرصيف المقابل. ما الغرابة في الأمر؟ لقد اعتاد اختلاقه على هذا النحو أو ما يشبهه، يتشكل من تداعي أفكاره، فيظن أنه تجسد، فيتبادل الحديث معه، في حين ما يدور بينهما، يدور في ذهنه؛ أثمر في تلك اللحظة حلًّا هو المفوض، لِمَ المفوض؟ كان موفد القصر الجمهوري إلى الفرع، والأقرب بحكم كثرة معارفه لنجدته، فهرع إليه... فكرة نضجت في اللاوعي، نتجت منها سلسلة استجرّ الخيال حلقاتها.

لن يأخذه الخيال، وجود ف.خ مدين لأفكاره، ما دام مختبئًا في داخله، ولو اعتقد أنه خارجه. وما حدث أنه نسب إليه فعل الخير ووفرة المعلومات، وإذا كانت المصادفات خدمته، فلا يجوز إهمال الواقع، وتحميل الوهم فوق طاقته.

وهكذا انطوى ف.خ في تلافيف أوهامه.

لحظاته الأشد سعادة، كانت مع حنان بعد إطلاق سراحها. كانت جميلة وغير مبالية، محتفظة برباطة جأشها، وعلوّ همتها، ومضاء عزيمتها. وكانت محبطة قليلًا، لن تتابع طريقها إلى مغربال، ستعيد النظر بقصة الثأر، لكنها لن تتخلى عنها.

سرد لها قصة لقائه بالسكرتيرة، ولم يهمل التفاصيل، وكانت عن مخاوفه وعواطفه ودموعه... حتى كاد أن يقبّل الأرض بين قدميها، ليشعرها بعظم

مصيبة على وشك الوقوع، ثم كيف رفع من شأنها خلال مقابلته لمدير الإدارة، واعتبر ما يمسّها يمسّ الوطن، ما أقنع المدير بخطورة التأخر بالإفراج عنها. لم يخرج من الإدارة إلا بعدما انتزع منه وعدًا بتدخله الفوري.

بعدما أفصح عن الدور الذي أداه كرمى لها، لا بد أدركت أن دافعه الوحيد كان حبه لها. بعد ذلك أخبرها بوصية أبيها اللواء، متوقعًا موافقتها، وبذلك تتكلل قصتهما بالزواج، ما رأيكِ؟

قالت إنها متعبة.

ستتصل به قريبًا، ريثما تحظى بقسط من الراحة، فما لاقته في الأيام السابقة أرهقها.

تيقن، خلال يوم أو يومين على الأكثر، ستتصل به، لحاجتها الماسة إلى فنجان قهوة، تطفئ به أشواقها الجنسية، مثلما هو بحاجة للقهوة جسديًّا وعاطفيًّا.

بعد يومين، اتصلت به، لم يرد ذكر للقهوة، تركز حديثها على زيارتها لخالد مدير الإدارة، لتشكره باسم «كتيبة المنتقمات» على ما بذله من جهد، كم كان هذا الرجل لطيفًا!! وبالمناسبة، لم يعترضها أيّ عائق مع السكرتيرة.

تلقى اتصالها، وكان يمشي - يا للمصادفة؟!- على رصيف شارع الفردوس، فشارع بورسعيد، من حيث لا يدري دهمته الظنون، وكانت لا على التعيين، وإن دارت حولها.

وكما حدث في المرة السابقة، عند سينما الأهرام، نظر تلقائيًّا إلى الرصيف المقابل، هذه المرة أحسّ باختناق، لم يره، فأدركه الذعر، بوغت بعدم ظهور ف.خ. رغم أنه قدح ذهنه وحملق طويلًا وانتظر، كان بحاجة إليه، نفسه حدثته بأشياء لم يدركها، بعثت الغم في صدره.

عبثًا، لم يظهر ف.خ، لم يخرج من داخله، ويمشي مقابله على الرصيف. فاستدار وعاد إلى مقهى «الهافانا»، المصادفات الخيالية انتهت. مهما يكن، كانت عزاءً له. انتحى مكانًا إلى جوار الواجهة العريضة الزجاجية، وأخذ يحملق في الشارع ذاهلًا، يقدح زناد فكره ثانية، لكن في فراغ.

في ذهوله، لم يرَ المارّة المتعبين يشحطون أقدامهم إلى مواقف الباصات، ونحو سوق الهال والصالحية، وسوق ساروجة والبحصة. لم يسترعِ نظره الشبيحة يمخرون بسياراتهم المسرعة الشارع مطلقين الزمامير، ولا الشبيحات الراجلات يلوِّحن لهم بأيديهنّ. وفتيات محجبات خفضن رؤوسهنّ وعجلن بخطواتهنّ. لكنه أحسّ برجل يزيح كرسيًّا مقابله، ويجلس بمواجهته، ويطلب فنجان قهوة، سمع صوته، كان ف.خ!!

اعتذر ف.خ عن تأخره، كأنهما كانا على موعد.

لم يرد الإتيان على ظنونه ولا شكوكه لئلا يختفي. الجو كان مناسبًا، فالمقهى شبه خالٍ. خشي أن يقول له إنه لا يدري إذا كان بجواره يشرب القهوة، أو أنه في داخله لا يشرب القهوة... قد يتلاشى، وجوده ليس مفروغًا منه. ولو كان يراه بعينيه ممسكًا بأصابعه الفنجان يرشف القهوة بصوت غير مسموع، شفة إثر شفة، ينظر من خلال الزجاج إلى المارة الذين فاتته رؤيتهم قبل قليل.

لم يأت ف.خ مصادفة، بل عن عمد. جاء ليطلعه على ما استجد بشأن مصير صديقه اللواء، والد حبيبته. وكان متوقعًا حسب رأيه، فاللواء الذي لم يقبل بالمنصب الاستشاري، اقتيد البارحة من الضيعة إلى الأركان معززًا مكرمًا، بمرافقة ضابط وجنديين، لكنه اختفى عند أول حاجز عسكري في مدخل دمشق، مصيره سيبقى مجهولًا حتى نهاية الحرب، لا أعتقد أنه سيكون محظوظًا، لن يشهد أكثر من نهايته.

لم يحَر سامر بكلمة، توقع شيئًا من هذا القبيل. سيُعلم العميد حسين ليتدخل من أجل صديق عمره، ربما تسنى له إقناعهم بعدم رغبة اللواء حتى في العيش، ليعيدوه من حيث جاؤوا به، يُمضي في عزلته الأيام الأخيرة من حياته.

لبثا صامتين. بعد حين، على الرغم من حزنه، لم يرد سامر أن يمضي الوقت بالصمت ورشف القهوة، هناك ما يؤرقه، ما الذي جرى في الإدارة؟ أليس هو الرجل الذي يعرف الكثير؟

أنا محبط. قال سامر مع زفرة حرّى.

ظننت أن مشاكلك انتهت. قال ف.خ.

بل بدأت، استهانت حنان بما بذلته من أجلها. تصور، لم تشكرني، بل ذهبت إلى الإدارة وشكرت خالد. ترى ما الذي جرى هناك؟

ضحك ف.خ. لا تسأل ولا تتساءل، تعرف حنان حق المعرفة. بما أنها تعرفت إلى خالد، وأدركت من يكون، والإدارة التي هو على رأسها، فأنت الأقدر على توقع ما جرى.

سامر لم يرغب في تشغيل عقله، يؤلمه الربط بينهما، يخشى التنبؤ بما حدث، أو ما قد تفعله، ما دام بوسعها فعل أي شيء. سأله يحرضه على البوح بما يعرفه. فقال ف.خ:

تستطيع أن تعرف، لكنك غير راغب، لكنني سأقوله لك.

ذهبت حنان إلى الإدارة بصفتها ابنة اللواء محسن درواد، بعدما استعانت بالعميد حسين من أجل الموعد. استقبلتها السكرتيرة الشقراء، عندما عرفتها، رحبت أجمل ترحيب بالعذراء التي كانت مختطفة، وعلى وشك أن تغتصب. وكانت شاهدًا على الخاتمة الموفقة لقصتها، فتصورت النهاية السعيدة القادمة. سألتها عن خطيبها الذي شكا وبكى خوفًا عليها.

صححت حنان معلوماتها، ليس خطيبها، كان رقيبًا في الجيش، يخدم لدى أبيها، وما زال يخدمهم بعدما أصبح محققًا. أدركت السكرتيرة من استخفافها بالشاب الذي لم يعد خطيبها، أنّ الفيلم السينمائي العاطفي أصابه خلل، أفلام الزمن الجميل، لم تكن كلها جميلة، بعضها لم يلامسه البياض، كانت سوادًا فاحمًا. تراءى لها بحسّها الدرامي، ما دام انها ستدخل بعد قليل إلى المدير، فالفيلم التالي سيدور في الداخل وبالألوان.

فوجئ المدير بها، فالسكرتيرة كانت حريصة على عنصر المباغتة، فلم تعلم مدير الإدارة بها. فبادرت حنان وعرّفته بنفسها، بصفتها قائدة «كتيبة المنتقمات»، فتذكر الموضوع كله، وعلّق بما يدل على أنه عرفها تمام المعرفة:

أنت العذراء؟

أنا العذراء. أجابت.

وشكرته على إنقاذه الكتيبة، فابتسم مستفسرًا:

لماذا كتيبة، حسب علمي، أعدادكن لا تبلغ ملاك سرية، إن لم تكن فصيلة.

صحيح، لكن المهمات التي اضطلعنا بها على عجل، اضطرتنا إلى عدم انتظار الانتهاء من تشكيل الكتيبة.

تأملها بإعجاب، استرعاه عنفوانها، فلم يصرفها، أراد للحديث أن يطول، فانتقل إلى الأمور العملية، وقال ساخرًا:

ستساعدك إدارتنا في الأمور اللوجستية.

حددت قائلة: على أساس كتيبة، وليس سرية.

فابتسم وأومأ موافقًا.

لاحظت حنان من مبادرته أنها راقتهُ، فالكتيبة أصبحت على أجندة الإدارة. كما راقها المدير؛ رجل ذو مركز حساس، تحت تصرفه إدارة ذات صلاحيات غير محدودة، لو لم يكن مسؤولًا خطيرًا لما تغلب على بؤرة للشبيحة لا يستهان بها.

لن تضيّع الوقت سدى، الموقف الحالي لن يتطور إلى موقف بنّاء، إلا بمبادرة منها.

هل أنت متزوج؟ سألته.

نعم. أجاب.

وازداد إعجابه بعنفوان جرأتها.

هل تزوجتها عن حب؟ سألته.

نعم. أجاب.

للمرة الثالثة، تضاعف إعجابه بتسارع أسئلتها. كانت واثقة بنفسها. صفن قليلًا، خشي ألّا يجاري جرأتها. فقال لها:

تعلمين أنّ الحب ينتهي مع الزواج، تستطيعين القول إنني حر.

هذا ما حدثتني نفسي به. قالت.

خالد ليس من النوع الذي يقع في الحب. إنه رجل واقعي جدًا، مع هذا استولت عليه فكرة، أنّ الفتاة التي تتحرش به عذراء، تنظر إليه على أنه فتى أحلامها، كان هذا نوعًا من التغزل بشبوبيته. تحرشٌ صادفه من سيدات، لا من فتيات عذراوات. لم يؤخذ بعد بها، لكنه لم يشأ أن يبدو كأنما هو العذراء. أراد توضيح العلاقة التي ستبدأ، حتى لا تشطّ بأحلامها بعيدًا عن الفراش، الفتاة عملية ولا ينبغي أن يكون أقلّ منها عملية، وهذا يستدعي دونما مواربة اطلاعها على التالي توفيرًا للوقت، الفتاة مستعجلة، ولا يجوز أن يكون أقلّ منها استعجالًا.

بكل لطف، أمسك بيدها، ليريها محتويات محرابه، المكتب لا يعطي فكرة وافية عنه، كان للرسميات، يحتوي على العلم السوري وخريطة الجمهورية، وتلك التشكيلة المتعارف عليها من صورة الأب القائد الراحل، وصورة ابنه المحبوب الرئيس الحالي، والأخ العقيد الشجاع. بينما الغرفة المجاورة أكثر تعبيرًا عنه، احتوت إضافة إلى الرموز والصور السابقة، صور أم الرئيس وجده وجدته، وصور العائلة الرئاسية المصغرة، ثم الموسعة من الأقارب والقريبات وأولادهم وبناتهم، وكانوا قد توالدوا بكثرة خلال أربعة عقود، وعلى لوحة جانبية اسم كل واحد منهم، والمنصب الذي يحتله. كانوا ممسكين بزمام البلد والجيش والمخابرات والمليشيات والشبيحة والتهريب والاختطاف والمخدرات.

لمحت صورته بينهم، كان من أطراف العائلة الرئاسية، دلت بإصبعها عليه.

هذا أنت.

التفتت إلى اللوحة لتبحث عن اسمه، فقال ليوفر عليها البحث: خالد ليس اسمي، إنه للعمل فحسب. حاول أن يوحي لها بأنه وضع صورته معهم للتمويه. لكنها غمزت قائلة:

أنت من الورثة.

لم يجب، فأطلقت ضحكة.

ثم إلى قاعة الاجتماعات السرية، وكانت متصلة بغرفة المكتبة، تحتوي على أضابير ومصنفات، وكتب مجلدة. وكما في مكتبات القصور الإنكليزية، لمسة من مكان ما، فانفرج الحائط على صالة اللقاءات المصيرية، اتسعت لكل ما يخطر وما لا يخطر على بال؛ إلى الجانب بار، الرفوف تمتلئ بأنواع من الويسكي والنبيذ والفودكا، كراسيّ عالية، كنبات عريضة وضيقة، متكآت، خزائن تحتوي على تحف ومنمنمات لنساء ورجال عراة يحتفون بالحياة والحب في أحضان الطبيعة بين الأشجار والخمائل على شط جدول جارٍ... ثم سرير وثير جدًا، وضخم جدًا، من النوع العملاق، وحمام ببانيو من النوع العملاق، وعلى الجدران شاشات عملاقة، مخصصة للقنوات الترفيهية، الصالة للاستجمام. هذا ما قاله، فهو لا يخلط بين العام والخاص.

ما رأته فاق توقعاتها، مع هذا كان لديها سؤال؛ فالفراش، إذا كان عمليًّا، لا يكتمل إلّا بالمرايا. فما بال المرايا المتوزعة في المكان صغيرة؟ فأشار خالد إلى السقف، كانت المرآة في العالي عملاقة.

برر خالد اطلاعها على خصوصياته، بأن الوقت في الحرب ثمين، لا يهدر على رسميات التعارف ومقدمات تمهيدية. وافقته، ما عرفته عنه في هذه الجولة مبدئيًّا أكثر من كافٍ. مسعاها تكلل بالنجاح، بل وأكثر، لقد وجدت لها مكانًا في محرابه الخاص، لا مضيعة للوقت على الهاتف والخلوات الجانبية، أو مواعيد على عجل.

لماذا أطلقت عليها صالة اللقاءات المصيرية؟ أدركت عن يقين، هنا سيتحدد مصيرها.

ما دار في رأسها الصغير، تبرمج بسرعة البرق، لن تبدأ معركة مبكرة مع زوجته، بل مع الأخريات. مهما كان الآتي، فتجربة على أعلى المستويات، لا تقارن مع رقيب أو محقق، ولا مع شبيح قائد فصيل تعفيش، أو مسؤول يرتعد خوفًا من مسؤول أكبر منه. بل مغامرة في عقر مواقع العائلة الرئاسية، تضمن لها التحرك في جميع الاتجاهات دونما محاذير. الزوجة لن تكون عائقًا،

ليست حالة مستعجلة ولا راهنة، ستنهي أمرها. فيما بعد سيكون لديها من الوقت، متسع لها.

لم يتوقف ف.خ عن الكلام، إلّا ليحدد لسامر الخطة التي تبلورت في رأس حنان:

الهدف النهائي هو الزواج، والعربون عذريتها.

هبّ سامر من كرسيه صارخًا:

لكنها ليست عذراء.

ستقنعه بأنها عذراء، لديها وسائلها.

لن ينتهي لقاء حنان بخالد بموقف مبتذل، اللقاءات الجنسية لا تجري اعتباطًا، هناك أصول، حنان ليست مراهقة، ولا يستهويها الجنس السريع، ولا الشهوات الآنية.

خرجت ببطء من الصالة إلى المكتبة.

أعتقد أنني سأعود.

لا تطيلي الوقت، قد أنساك.

لن تنساني.

قالت بثقة، بينما خالد يودعها عند الباب.

لم يفت السكرتيرة الخلل الدرامي في التطور الفجائي الحاصل، الفيلم السينمائي الملون، سيصبح مسلسلًا تلفزيونيًّا.

استمع سامر إلى ف.خ منشغلًا عمّا حوله، وعاوده الذهول، ومضى خارج المقهى ساهيًا عن حركة الشارع. كانت تتماوت، فالليل أسدل عتمته وغبشه وروائحه، والمارة أشبه بظلال متحركة، الأضواء متناثرة، وانية ومتباعدة، وأصوات قصف، ربما كان قريبًا أو بعيدًا.

لم يدرِ، هل كانت الأرض تهتز تحت قدميه، أم وجيب قلبه يصرع أذنيه؟

٢. فنجان قهوة صباحي

لن يطول ذهوله أكثر من ليلة قضاها بطولها وعرضها مؤرقًا، لم يفارقه القلق خلالها. ذهبت به التصورات حول حنان إلى استرجاع لقاءاتهما الحارة، استعادها بتفاصيلها المثيرة، وكل تفصيل لا يقلّ إمتاعًا ولا إغاظة عن آخر، لم يكن المشارك فيها، كان مدير الإدارة الطرف الآخر بديلًا منه. أما هو،

فالمتلصص البائس على حبيبته تطارح شخصًا غيره الغرام، والتقلب على الفراش، واختلاس النظر إلى مرآة كانت عملاقة.

ذهب إلى الفرع مشتَّت الخواطر، لم يهنأ له بال، الصور التي تعاوده تهاجمه بلا رحمة، وتؤلمه بأفعال كانت تخصه بها، وأصبحت تخصّ الآخر. ما هذا العذاب؟

لن يطول عذابه، زلزله صوتها على الهاتف، وانتزعه من نكد تهيؤاته، كانت تدعوه إلى فنجان قهوة. فتبخرت شكوكه وتصوراته كلها، لم تعد إلا سخافات تحت تأثير تهاويل ف.خ، لو كان شيء قد حدث أو سيحدث بينها وبين مدير الإدارة، لما كان بعد قليل سيشرب معها فنجان القهوة، مع ذلك انتابته الهواجس طوال الطريق، إذا لم يكن فنجان القهوة المتفق عليه، فماذا يكون؟

كان فنجان القهوة نفسه، وكان عاصفًا رائعًا وجميلًا، نقلة إلى عوالم من نشوة، كانت على سويتها المعتادة من الجنون المنفلت، بعد غياب ما يزيد على شهر على فراق القهوة اللذيذة. اعتقد من فرط ما كان اللقاء ساحرًا أنها كانت تطيل عمدًا الفراق بين الفنجان والفنجان للإثارة، وابتكار ملذات تكسر قسوة البعاد، وإلّا فلن يكون محتقنًا باللهاث والتنهدات والآهات والتأوهات والتشنجات.

حنان لم تتغير، علاقتهما استعادت زخمها المسعور، وأطالت النظر هذه المرة كالمعتاد إلى المرآة، وكانت التنويعات غزيرة ومتلاحقة. لم يتجرأ على استعادة شكوكه الحمقاء من مدير الإدارة اللطيف، كانت باطلة. في الحقيقة، الأيام عادت بينهما إلى سابق عهدها بين شد وإرخاء، ريثما تثوب إلى رشدها، وتقنع بالحياة معه، وتقتنع بأن ليس له غيرها، وليس لها غيره.

لم يخطر له أن يُعلمها بما وصل إلى علمه حول اعتقال أبيها، ماذا بوسعها أن تفعل؟ كان عكر مزاجها دونما فائدة. لا لم يكن هذا هو السبب، خشي أن تلجأ إلى مدير الإدارة، وتواصل ما انتهى بلا ذيول.

هل تقصَّد، أم بحكم الاعتياد، كان ذهابه إلى مقهى الهافانا؟ على الأغلب، تصرف عن عمد، وليس مُسيَّرًا، تحديًا للمدعو ف.خ، ومبرهنًا لنفسه أن لقاءه معه، ولو أنه لم يحدث، قد انهار من أساسه، حنان دحضت حكايته الزائفة عنها.

لن يصادف ف.خ في الشارع، ولن يراه، ربما في أي مكان، علاقته المتخيلة به بهتت، إن لم تكن قد تلاشت. لن يسمح له بمغافلته بعد اليوم، خياله سيستنكف عن اختلاقه، ليس بحاجة إليه، كان دخيلًا على تخيلاته، لن يتجرأ

ثانية على إتحافه بجديد، إذ لا جديد. بات كل مكان وأي زمان لا يناسبان ظهوره. بمجرد ما أنهى علاقته بالخيال، تلامح ف.خ من فوره على الزجاج. يرمقه بنظرة ساخرة ويمضي بخطوات سريعة. وأثبت وجوده على نحو سريع في الزمان والمكان غير المناسبين، عقب طرده منهما قبل قليل، ظهر مبرهنًا على أنه يحضر كما يشاء، وعندما يشاء، وكيفما يشاء.

قفز من مكانه، ولحق به. خطر له بالنكاية اطلاعه على حقيقته الهشة. أدركه بعد خطوات عند سينما الأهرام، ومشى إلى جواره، بداية، سيعلمه أن حديثه عن حنان لا أساس له من الصحة، لكن ف.خ لم يعطه الفرصة للكلام. كان يسابق الريح، فهرول لاهثًا وراءه نحو ساحة المرجة. توقف لحظة يسترد أنفاسه، وفكر في العودة إلى الهافانا، ربما لم يكن يلاحق أحدًا. فالتفت ف.خ إليه وبنظراته الشامتة هذه المرة، استحثه على الجري وراءه.

تابع ف.خ طريقه في طلعة السنجقدار، وقبل أن يقطع الشارع نحو سوق الحميدية، عرَّج إلى بناء عتيق، كتب على واجهته في العالي «مقهى القلعة». صعد معه الدرج الضيق. دفع ف.خ الباب، ودخلا معًا.

طالعتهما النراجيل وروائح التنباك العجمي والمعسل. الطاولات مشغولة بفتيان من طلبة المدارس يلعبون الورق وتتعالى أصواتهم ضاحكين، الزبائن من الرجال لم يأتوا بعد، المساء ما زال في أوله. انتقى ف.خ طاولة بعيدة عنهم إلى جوار الشرفة المطلة على بناء القلعة الأثري والنصب التذكاري. قبل أن يقترب النادل منهما أشار له، اثنان شاي.

لم يفتح سامر فمه بكلمة، كان مجيء ف.خ إلى المقهى غير المطروق والمحشور في بناء قديم، يقصد منه اختيار مكان بعيد عن العيون، تدفعه الرغبة في تدخين نارجيلة والتحليق بأفكاره، ثم يتحفه بقصة ما.

٣. الحب والخيانة

لم يطلب ف.خ نارجيلة، وإن حلّق بأفكاره، كان يبحث عن القصة. أفصح سامر عمّا دار في ذهنه من دون إخفاء انزعاجه:

لماذا هذا المكان؟

لا أخفي عنك، ثمة دافع شخصي من وراء قدومنا، قد تدهش عندما ستسمعه. جئتُ إلى هذا المقهى مدفوعًا برغبتي في استعادة ذكريات جرت قبل بضع سنوات. انظر إلى هذه الطاولة المقابلة لنا، هنا بدأت قصة بين رجل وفتاة، كانا في حالة انسجام، كان الرجل مفتونًا بها وخجولًا، لم يعرف بعد إن كانت الفتاة تحبه أو لا، تحدثا طويلًا، ولم يأتيا على لواعج القلب. في اليوم نفسه، كتبت الفتاة قصيدة، أسمعته إياها ليلًا على الهاتف، صورت ما دار بينهما خفية

في المقهى، وعبرت عنها بشعر نثري، أو نثر شعري، كما الشائع حينها في الكتابة، فوصفت ما لم تقله له عندما كانا معًا؛ أمنياتها وقد تسلقت الجدران، وعرشت في العالي، ثم حطت على الطاولات، وأشياء أخرى عن السكينة الناعسة، وجمال الليل المنسكب من الشرفة. بثته مشاعرها وطوقته بها، اعترافًا بحبها له. ليلتها، امتد حديثهما إلى الفجر. كان الرجل سعيدًا، بعدما كان خائفًا ألا تبادله المشاعر نفسها، فقد كان أكبر منها في العمر. فلنقل إنها كانت فتاة جامعية، بينما الرجل أستاذها. الحب لا يعبأ بفارق العمر.

كان الرجل يعاني من الحرمان، يحمل في داخله طاقة عاطفية كبيرة، لا تجد منفذًا لها، كان بأشد الحاجة إلى أن يحب. تولّه بها، ومن فرط ما عشقها، لو أنها طلبت روحه، لما تأخر عن التضحية بها من أجلها، بعدها لم يعد يفكر إلا فيها، ما سيهبه لها، يستحيل على إنسان تقديمه إليها. كانت تبدو سعيدة معه، ربما لأن قصتهما عاشت سنوات طويلة، كانت مثالية، هذا ما بدا له.

توقف ف.خ عن الكلام وأخذ شفة من كأس الشاي، ثم تابع:

قبل أشهر، علمتُ أنها تركته، ربما بدافع الملل، أو الرغبة في التغيير، أو كما قالت، بأنها لا تريد قضاء عمرها مع رجل يكبرها سنًّا، وترغب في علاقة أطول عمرًا. قالت له إن زواجها قريب، فلم يصدق، كان متأكدًا أنها سترجع عن قرارها، لحظة ستواجه حقيقة ما هي مقدمة عليه، والحب الذي ستفقده، ما منحه لها يستحيل تعويضه، لكن السنوات التي جمعت بينهما، لم تعنِ لها شيئًا.

تزوجت شخصًا ربما كان أكثر شبابًا، أو أجمل، أو أغنى، أو أفهم، أو أذكى، أو ألطف، أو أغلظ... ما أدرانا بما تصبو إليه النساء؟ المهم ظفرت بما كانت تسعى إليه، وتخلت عنه بكل فظاظة. وكم كان ألمه كبيرًا، عندما اكتشف أنه كان يعيش أكذوبة عمّرت طويلًا، صحيح أنها خدعته، لكنه خدع نفسه أيضًا. كان يجب أن يعرف أن علاقته بها انتهت، عندما لم تعد تريد منه شيئًا.

مهما يكن، صعب عليه فهم ما فعلته أو تبريره، بعد غرام بدا حقيقيًّا، دام سنوات عدة، لا أقل من عشر سنوات، لم يعكره شيء، هل كانت تكذب عليه؟ أنا لا أريد معرفة السبب، ولن أبرره لها، إذ لا ينبغي الاستهانة بالوفاء بين البشر، ومهما كان ما فعلته، فهو تافه بالقياس إلى حب كان عظيمًا. في الواقع، لم يكن عظيمًا، كان من طرف واحد. وليس من الغريب أنها تخلت عنه.

بالعودة إلى قصتك الغرامية، عندما اطلعتُ عليها، بدت لي ضعيفة، ليس فيها سوى أنك تحبها، لم تكن متوازنة، الثغرة واضحة جدًا، فتمنيت ألّا تتعرض للخديعة نفسها، الحب لا يكون إلا متبادلًا، فلا تُلهِكَ عواطفك عن عواطفها.

حسب ظني، لن تفلتك، ستستغلك طالما هي بحاجة إليك، وتحتفظ بك، لتكون بمتناول يديها وتحت أمرها، ولا أستبعد أنها ستتخلى عنك، ولن تتورع عن أن تدوسك بقدميها، لو حاولتَ منعها أو التشبث بها.

أعتقد أنك تشبه الرجل الذي حدثتك عنه، قصته حقيقية، أتذكره تماماً، رأيته جالسًا هنا وإلى جواره الفتاة، كان يذوب عشقًا فيها. وكي يستقيم فهمنا لما جرى، فاعلم أنّ الفتاة ليست غبية، وكي نحسن فهمها، كانت انتهازية، لا يمكن تفسير تصرفها إلا بالأنانية، ومهما كانت، فقد ارتكبت جريمة عاطفية، لكن من يهتم بهكذا جريمة بلا دماء، ما دام الإنسان حرًا في انتهاز الفرص؟ أما هو، فأمره لا يقل سوءًا. الحب يُعمي العيون عن الخيانة، اعتقد أنها خانته قبل أن تنفصل عنه، عرف وكذب نفسه. يجب أن تدرك أنك بمجرد ما تقع في الحب، تضع نفسك في الجانب الضعيف. الحب شيء مروّع، لا يؤمَّن له.

أدرك سامر، بصفته محققًا، أن ف.خ اعترف بشكل موارب أنه العاشق الذي لفظته حبيبته. لم يكن تعرضه لقصة غرامه، ليقارن بينهما فقط، بل ليشكو له المرأة التي غدرت به. لكنه أتاح له معرفة شيء لم يكن بحسبانه؛ هذا الرجل عاشق منبوذ، وما يعرفه أقل من القليل، فقد خدعته امرأة زمنًا طويلًا، وكان غافلًا عنها.

وكأن ف.خ قرأ ما يجول في رأسه، فقال له:

لئلا يشطّ بك الخيال، لست طرفًا في القصة التي رويتها لك، إنها لصديق لي، كاد أن ينتحر من جراء ما عاناه من خيانتها، لكنني أقنعته بأن انتحاره حماقة، لن تحسّ الخائنة بالذنب، بقدر ما ستحس بالغرور، لأن رجلًا مات من أجلها.

توقف لحظة، ثم قال:

ليس أنني لم أحب، لكنني بعد تجربة واحدة، أدركت أن الحب وهم، فلم أعوِّل عليه كثيرًا، وإن بات هذا الوهم عونًا لي أحيانًا في الحياة. ولا أخفيك، رغم رأيي هذا، لا تفقد الأمل، ربما عثرت على حب حقيقي، على أن يكون متبادلًا. أحذرك، إياك أن تغرق في الحب إن لم تشعر أنها تحبك. المشكلة أنّ الذكاء كما الغباء، كلاهما لا يمنعان الوقوع في الغرام، ولا النجاة منه.

لم يشأ سامر أن يجادله، تجربته قاصرة. أما الآن، فسيروي له ما استجد في قصته، ليعلم ف.خ أنه لا يعلم الكثير، بل أقلّ من القليل:

يا عزيزي... اسمح لي أن أطمئنك عن أحوالي، لقد قضيت مع حبيبتي هذا الصباح، نتجرع لذائذ الغرام، ليس الغرام السطحي، لن أخفي عنك خلطته المثيرة، كانت مزيجًا مثاليًّا من الحب والجنس، رغم أنّ عيار الجنس كان فائضًا عن الحد، من شدة ما اشتاق كل منا إلى الآخر. فانتفض ف.خ قائلًا:

أيها المحقق الطيب القلب، يبدو لي أنك أحمق أيضًا، حبيبتك تمارس الجنس معك لدواعي السرية القصوى، لا تريد الانحطاط إلى مستوى شبيحة أنذال متوافرين حولها. خاصة بعدما بات هدفها مدير الإدارة، استخدمتك اليوم لتستهلك نزواتها، حاجتها إلى الجنس، لا إلى الحب. أتعرف لماذا؟ لتكتسب قدرًا من المناعة الجنسية، كيلا تستجيب لمدير الإدارة من اللقاءات الأولى، فيجدها سهلة المنال.

لا، لا أوافقك.

سأصارحك، لقاؤكما اليوم صباحًا، سيعزز تمتّعها الجنسي مساءً، لو حاول معها، لن تسقط في إغراء الجنس السريع ولا البطيء.

إنك تحولها إلى شيطانة.

فليكن، اذهب إلى مطعم «جنة الياسمين» في دمشق القديمة، اصعد إلى الطابق العلوي، ستجدها معه في إحدى المقصورات.

خاف سامر. هتف ف.خ: ما الذي تنتظره؟ اذهب.

ماذا أقول لها، لو رأيتها هناك؟

ادعِ أنك جئت مضطرًا لتعلمها بما جرى مع أبيها. ربما بوسعها فعل شيء ما له.

٤. دراما الحب والتعاسة

انسحب سامر من المقهى مستغربًا، ما الذي سيفعله؟ استوقف سيارة أجرة، وانطلق إلى دمشق القديمة، نزل عند مطعم «جنة الياسمين». لم يتوقف عند الباحة الممتلئة بالرجال والنساء والطاولات العامرة بصحاف الطعام والمشروبات. صعد الدرج إلى الطابق العلوي.

الليل هبط، وما زال يوالي هبوطه، الظلام كان دامسًا. في المقصورة القصية، المنارة بأضواء خافتة، لا يفصل بينهما سوى الزجاج، رآها مع مدير الإدارة، لم تكن تضمّ سواهما. كانت أصابعه تداعب خدها وتنحرف إلى شفتيها، وقدمه تحتكّ بقدميها. بينما نظراتها الهائمة ترشق محدثها بابتسامة كانت خنجرًا مزق قلبه.

لم يتجرأ على الدخول. ارتدّ برأسه عن الزجاج، مع أنه كان في الظلام يرى ولا يُرى. أخرج من جيبه هاتفه الجوال واتصل بها، لم يقل سوى بضع كلمات، أنه في الممشى إلى جانب المقصورة، إن لم تخرج، فسيقتحم المقصورة، ويملأ المطعم صراخًا.

استأذنت حنان مدير الإدارة، وخرجت إليه. كان وجهها مكفهرًا. لكن رغم الشرر المتطاير من عينيها، صعقه جمالها، كان وحشيًّا.

حاول أن يمسك يدها ليهدئها، فنهرته.

ما الذي جئت تفعله هنا؟

فتذكر أن لديه حجة لقدومه؛ أبوها اختُطف من على الحاجز، مع أنّ ضابطًا كان برفقته. إن لم نسارع ونفعل شيئًا، فربما...

لم يكمل، كانت قد قاطعته؛ لقد عرفت من مصدر موثوق أنّ الرئاسة استضافته في أحد مراكز الاستجمام الخاصة على مقربة من دمشق، المخصصة للمستشارين العسكريين الكبار.

دونما عناء، أدرك أن المصدر الموثوق في داخل المقصورة.

بعدها، ما الذي قاله لها؟ يتذكر أنه حدثها لاهثًا عن حبه، وأنه لا أحدًا في العالم يمكنه أن يحبها مثله، إنه على استعداد ليضحي بنفسه من أجلها، من دونها سيموت... قاطعته ثانية بغضب:

لا تقلبها دراما حب وغرام، وتعاسة وشقاء.

قبل أن يردّ عليها، تابعت غاضبة:

إياك والبكاء، لا تستعطفني... لن تكون كابوسًا في حياتي.

حاول ثانية أن يقول شيئًا، لم يدرِ ما هو. فأسكتته:

إذا شئت الانتحار، فانتحر. لن أمنعك.

كأنها أدركت أنه سيهددها بالانتحار، ما الذي يقوله لها؟ لا شيء. وفّرت عليه البكاء والانتحار والاستعطاف. فلم يعد يرغب في قول شيء. أما هي فما زال لديها ما تقوله:

إن لم تنقلع فورًا، فسأطلب من عناصر المرافقة أن يشحطوك من شعرك، ويرموا بك في أقرب حاوية.

لم يخشَ التهديد. كانت النظرة المندلعة من عينيها أكثر إقناعًا، كانت تطلب منه أن يغيب عن نظرها، ولا يحاول اعتراضها، هذه فرصتها، كما أنها فرصته إن لم ينتهزها ويغادر، فستذله، قبل أن تقضي عليه.

رآها، لن تتورع عن ذبحه، بعدما داسته.

أدار ظهره ونزل الدرج صامتًا، عند باب المطعم كان ف.خ ينتظره، مشفقًا عليه، عرف ما الذي سيحصل معه، فلحق به. قال لنفسه:

يا إلهي! عرف بمصيبتي قبل حدوثها. وها هو يواسيني.

أيها المحقق الطيب القلب، إذا كان الذكاء يخدعنا، فالغباء لا يستعصي على الفهم، هذا لئلا تخطئ في تفسير ما حدث صباحًا، ويمكنك الآن توقع ما سيحدث؛ حبيبتك تخوض معركة مع رجل مجرب، تتميز عنه بأنه لا يعرف أنها فتاة مجربة، ستتفوق عليه. حسب مخططها، لن تستطيع إيقاعه في حبائلها، إن لم يولع بها. لا تبتئس، قد تحتاجك لتنشيط مهاراتها الجنسية. أقول لك، دورك مؤقت وصغير. إذا شئت أن تكون انتهازيًّا، تمتع بها بلا حب.

كان المحقق الكسير القلب في غنى ليس عنها فقط، بل عن كل شيء. لقد فقد ما كان يعتقد أنه حب قد يكون عظيمًا، فإذا به حقيرًا، فكر بالانتحار لدوافع تخصه. لم يفت ف.خ هذا الخاطر الأحمق. فحذره قبل أن يختفي في منعطف حالك الظلام، مثلما حذر ذلك الرجل الذي روى له قصته في المقهى:

يا بُنيّ، هذه المرأة لا تستحق أن تجرح أصبعك من أجلها.

أنا يائس.

في البيت لم يصبه الأرق. كان متعبًا؛ قلق الليلة الماضية، والألعاب الحارة لقهوة الصباح، وقصة ف.خ الدرامية، ومغامرته التجسسية، وطرده غير مأسوف عليه، ويأسه من اليأس، كانت قد استنفدت قواه، فنام من فوره.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل العشرون
عالم الثقافة والسياسة

١. الضابط المثقف

صباح يوم عودته إلى الفرع، لاحظ المفوض ازدياد اهتمام المقدم بالأحداث السياسية في المحافل الدولية. كانت أخبار الأزمة السورية تضجّ في جنيف، بينما هي عالقة في موسكو وأستانا وسوتشي، الفيتوات الروسية في مجلس الأمن تعرقل أي تقدم في حلّها، تدخلات الأوروبيين خجولة، الروس والإيرانيون يشجعون النظام على المضي في الدمار، ما دام سيُعاد إعمار البلد بعد تنظيفه من الإرهابيين.

أبدى المقدم شجاعة في طرح آرائه؛ الروس والإيرانيون والأمريكان والأتراك بدأوا بتقاسم سورية، والخلاف على الحصص. بينما الجيش النظامي والمليشيات المذهبية انصرفوا إلى القضاء على الجيش الحر، والفصائل الإسلامية المعارضة، آخذين في انتزاع الموقع تلو الموقع منهم، وكأنما بمشاركة إرهابيي «داعش»، هل هناك اتفاق بينهم؟ واللافت أيضًا، ما تحلى به من جرأة عندما خلص إلى أن «داعش» مخترقة من مخابرات النظام والدول الغربية والعربية، ويدفعونهم إلى الجنون أكثر مما كانوا مجانين.

أثبت المقدم متابعته ما يحدث على الجبهات، بما أبداه من آراء حصيفة تنمّ عن اطلاع جيد، تجاوز بعضها المتوقع منه، وإن لم تبلغ به الجرأة ذكر الحقيقة كاملة، ربما كان يجهلها. ما استغربه المفوض، أنّ المقدم أبرز جانبًا أمنيًّا لا يعرفه عنه؛ ما أورده، شابته لمسة مخابراتية.

بعد قليل تنبه المفوض، اهتمام المقدم بما يجري في البلد، كان تمهيدا لزواجه بحبيبته رفيف، فوقف إطلاق النار، يعجل بالسلام، لكن لا طرف يريد إنهاءها. النظام لا يكف عن إلقاء البراميل المتفجرة... هل هذا هو الحل؟ المتحاربون لن يتصالحوا طالما الاشتباكات لا تتوقف، أي أنّ الطوائف لن تتصالح إلا بعد انتهاء الحرب.

«لا حلّ مرتقبًا» ختم، وبدا حزينًا.

«حسنًا، لقد سمعت ما سمعته منك، سأحاول نسيانه، لكن إياك وأن تتلفظ بما قلته لي خارج هذه الغرفة، سيساء تفسيره، والأرجح ستعتبر عميلًا. لن تكون العاقبة أقل من إرسالك إلى السجن، لا تظن أن عائلتك الشهيدة تنقذك».

بعدها، لم يعد هناك ما يتكلمان فيه بهذا الصدد.

عندئذ، أعلن المفوض بدء مرحلة ثقافية جديدة من تعاونهما. وأعطى موجزًا عنها؛ المرحلة القادمة ذات آفاق مفتوحة على الأدب والتاريخ والفلسفة. المقدم لم يكتم مخاوفه، ربما كان غير جدير بها. فطمأنه، الثقافة ليست لغزًا ولا حكرًا على طبقة، أو جماعة مهما بلغ أفرادها من الذكاء والموهبة، حتى إنّ الثقافة لن تكون جديرة بسمعتها، إن لم تكن مبذولة للجميع، فهي لأجلهم، إن لم يبذلوا جهدًا في الحصول عليها، فلن يدركوا قيمتها وفائدتها.

أحسّ المقدم بالرهبة من الثقافة، بدا وهو على عتبتها صغير الشأن أمام عظمتها، ولقد كان متواضعًا شديد الفضول لامتلاكها، كانت تعجّ بالأسرار.

حركت المرحلة القادمة لدى المفوض إحساسًا بعدم الارتياح، لم يكن متحمسًا لعوالم الثقافة، مع أنها كانت في صلب حياته وعمله ومسؤولياته. كان يستخف بكل ما يمتّ بصلة إليها، ما دامت الدولة مسيطرة عليها، لا تبذل أي جهد لتنشيطها، بقدر ما تجهد لشلّ المثقفين عن التفكير وإيجاد الحلول. تسارعت في ذهنه التساؤلات:

إذا كانت الدولة تستهين بالثقافة، فلماذا تهتم بها؟ وما علاقة رئيس فرع أمني بالفكر والأدب؟ لا أكثر من وجاهة غير ضرورية لضابط لا يعتقد أن الكلمة سلاح. بصرف النظر عن المقدم ونيّاته، سيعمل الفرع على تقييد الثقافة ودحضها، إن لم يكن خنقها. عندئذ ماذا سيكون حال المثقفين؟

كان في تأهيله أدبيًّا مشقة، المشوار طويل، الأدب لا يختط طريقًا مستقيمًا ولا واضحًا، ما يظهر اليوم يغيب غدًا، وما يحصد عواصف من الإعجاب، سرعان ما تهدأ، إن لم تتبخر، وقد يُشيّع بأعاصير من السخرية، أو يربض في زوايا الظلام، ينتظر النسيان، أو فرصة ليعاود الظهور. الثقافة بمجملها تقتفي أثر الصرعات في أوروبا وأمريكا، لم يعد المثقفون يعرفون ماذا يأخذون أو يلفظون.

ما دام المقدم تحمّس لها، سينجز هذه المهمة بأمانة، ويساعده على أن تكون معرفته عميقة بالمثقفين، وأنّ لكل منهم مقامًا، فلا يخلط بين المجتهدين والمحتالين، وهذا لا يتمّ كيفما اتفق، بل بتزكية نزيهة. هل يستطيع المقدم أن يستوعب جديدها وصرعاتها ومتغيراتها وتقلباتها وصراعاتها؟ عقل المقدم خام، وطيبته فطرية.

إنها مخاطرة غير مضمونة العواقب.

كي يقوم بالمهمة خير قيام، اضطر المفوض إلى تنشيط معارفه، واستعادة سنوات تخزينها في رأسه. في ذلك الوقت، انصبّ جهده على تحصيلها من مصادرها المتنوعة. وكانت مما أفردت له الملاحق الأدبية ملفاتها الأسبوعية

داخل سورية، وخارجها اللبنانية والمصرية، وما يكتب من مراجعات نقدية، والتعريف بالمدارس الأدبية، والأنساق الفكرية. في ذلك الزمن الذي مضى، لم يوفر وقتًا، ولو كان محدودًا، في التعرف إليها بالمطالعة الجادة الغزيرة، شكلت ذخيرته الثقافية، وكانت مادة صالحة لمخالطة المثقفين على قدم المساواة؛ الند للند، وتفوق على مثقفي المكاتب والمقاهي، الذين اكتفوا بما قرأوه أيام الشباب، وتنطعوا لقضايا الأدب بلا زاد، للتظاهر فحسب.

اجتاحه الحنين إلى ذلك الزمن، عندما كان يختلس الوقت، لينهل من الأدب والفلسفة والسياسة والفن، وكل ما كان يقع تحت يده، فتقلب بين التيارات الأدبية وبما عصف بها. كانت الثقافة رغم الضنك سعادته الحقة. بعدها نادرًا ما عاودته.

وشد ما أعجبه المقدم، كان على مستوى الدروس، استقبل بكل قواه العقلية والروحية ما أتحفه به دونما كلل، التهمه بشغف، مندفعا بجموح وملامح محمومة وذهن متوقد. كان في فضوله الشره إلى المعرفة، يستدرك عالمًا لم يعلم بوجوده بهذه الوفرة والتنوع والاتساع والعمق. بدا من فرط ما أصبح مفتونًا به، يعاصر مراحله ووجوهه المتعددة، وتدرج على إيقاع اطلاعاته، فأصبح ماديًّا، وميتافيزيقيًّا، ووجوديًّا، وعلمانيًّا، وماركسيًّا، وظاهراتيًّا، وفرويديًّا، وبنيويًّا، وعلى وشك أن يصبح تفكيكيًّا، وحداثيًّا على أحدث طراز، وإذا استمر على هذا المنوال، فسرعان ما سيتجاوز الحداثة إلى ما بعد بعدها.

في دروبه المشوقة والآسرة، اتخذ المقدم مواقف في المعارك الثقافية والأدبية، وكان بعضها قد فات وقته، فكان إلى جانب الأصالة، وإن دافع عن المعاصرة، ولم يغمط التراث حقه، وتحمس للجديد، أي جديد. وأعاد النظر في الجنس، لم يعد فوبيا، ولا وسيلة إنجاب. أصبح مادة للتنظير في علاقته بالحب والمتعة والعقد النفسية، بينما كانت علاقته مع رفيف خاصة، خاصة جدًا، لا تخضع لكشوفات علم النفس.

كان واثقًا من أن كفة المقدم سترجح على المثقفين في الجدل، لن يؤخذ بمعادلة الند للند، فالمثقفون بمواجهته لن يكونوا اندادًا، سيتفوق عليهم بمنصبه الذي يخوله إفحامهم، ولا يسمح لهم حتى بمناقشته. فالحجة ليست بالحجة، الفرع يسدّ النقص.

بيد أن الطريق إلى الثقافة، بات فجأة مشبوهًا أمنيًّا، فالفكر كان يحيله على الموضوعات الشائكة، والأفكار لم تعد تمتح جمالياتها وعظمتها من ألعاب العقل، ورياضات الأذهان الحرة. كانت معرضة للجدل والنقد، فلم يُخفِ المقدم إيمانه بالحرية، والتنوير، والعقلانية، وتحبيذه الديمقراطية والعلمانية،

وفصل السلطات، وهلل لسيادة القانون. كان قد تعرف إليها من قبل على أنها شعارات تستوعبها الاشتراكية، ومادة للهتافات أكثر منها للمناقشة. أما الآن، فأخذت ترسم عالمًا جميلًا في رأسه، أصبح حقيقة، ولو كانت بريئة من الواقع الحالي.

الخطر بدأ يلوح. كانت الثقافة في أمان قبل أن تمسّها سياسات تُستنشق مع الهواء، تفوح منها رائحة البارود والكلور والسارزين، بينما الباصات الخضر تنتزع الأهالي من الغوطة وترسل بهم إلى مخيمات النزوح. لم تتعدّ أخطارها وهو في حضن الأدب والأفكار المجردة، أن يكون اليوم وجوديًّا ملحدًا، وفي الغد وجوديًّا مؤمنًا، أو ينحاز إلى العولمة صباحًا، ويناصبها العداء مساء، مع الحفاظ على حداثة تستوعب الاتجاهات كلها معًا في آن واحد مع قليل، أو كثير من المبالغة أو التحريف، لكنها رغمًا عنه ستعرّج على المجازر، وتلتبس بالسواطير. فالحداثة رغم تعقيداتها كانت تنبش في المقابر الجماعية، وأفران حرق الجثث، والإبادة العشوائية، ولا تستثني المجازر.

سيعيد المفوض توجيهه نحو الأدب، ساعده أن فضول المقدم نحوها لم يفتر بعد، وتابع دونما وهن رحلة الاطلاع على المدارس الأدبية، وما طرأ عليها من متغيرات، فرَطَنَ بها، على قدر تنوعها. لم يعد المسرح لعبة ممثلين يصدحون بأصوات زاعقة وأجشّة، وممثلات يلبسن ثيابًا منتفخة من الأسفل وضيقة من الأعلى. ولا السينما شاشة ونساء فاتنات وسيارات سريعة وأبطال خارقون، غدت بشرًا يتألمون ويفرحون ويشرقون بالدمع. وبشر ينعمون بالحياة، لا يعيشون مثلنا، ولا يموتون مثلنا، يشاطرهم حماقات لم تكن مقتصرة عليهم، وحوارات تنطق بالحكمة والحنكة، ذهبت به إلى حوارات في داخله، قادته إلى الموسيقى والفنون التشكيلية، حرة بلا قيود، في همسات البيانو وضربات الصنوج، كانت أكثر تحررًا في جماليات العري.

طوال زمن تتسارع فيه الأيام والأسابيع والشهور، لم يخشَ على المقدم، ما دام يتنقل بمرونة بين هذه التشكيلة المختارة من الثقافة الإنسانية الراقية. كان في الوقت نفسه يقترب مرغمًا أكثر مما يبتعد عن هذا الواقع الرثّ والمرعب، الملوث ببحر من الدماء، والمزحوم بالجثث والأشلاء، المكتظ بالمواكب اللاهثة لمواكب اللاجئين على طرقات البرد والموت، وراكبي زوارق المهربين في البحار المدلهمة، والغرقى المشلوحة أجسادهم على الشواطئ، والناجين من قصف الطيران الروسي، يلفظون أنفاسهم على الحدود التركية واليونانية ويدفنون بين الأسلاك الشائكة.

بيد أن عيارات الثقافة التي بات يتخمه بها، شكلت سدًا. كانت نداءاتهم عندما تصك أذنيه، ويحجب دخان الحرائق نور الشمس، يحاول ألا يرى ولا يسمع. لا يدري أنه يقف فوق أرض كانت تنسحب من تحت قدميه. ولو كان يحلّق عاليًا

في سماوات المعرفة، لو أنه فتح عينيه على ما يجري، فسوف يسقط ويدق عنقه.

اطمأن المقدم إلى مرشده، كان شاكرًا له، لم يبخل عليه بخدمات ثقافية، تتنوع من جلسة لأخرى، فتطول ساعات النقاش إلى ساعة متأخرة من الليل. خلالها ينهمك بكليته في الإصغاء إليه، ثم يلخّص ما سمعه منه، ويسجله رؤوس أقلام، أو ملخصًا على دفتر صغير، يوفر عليه العودة إلى مجلدات.

كان، وقد استكان إلى حصيلته الراقية، بات تزويده بما يتوارد من تقليعات أدبية ومنعطفات فكرية، وترجمات تأتي متأخرة، وتنضم إلى القديم، ومتابعات يومية، لم تخل من تدفق جديد بحلة قشيبة، كان قديمًا بحلة بالية. كانت كلها أداة لبسط جاذبيتها عليه. كان كلما تعرّف إلى فلسفة أو مدرسة في الأدب أو السينما والرسم، أو كتاب لافت، قفز فرحًا، وما أكثر ما كان يقفز.

وكم كان آسفًا على ما أضاعه من حياته بلا أدب وفن.

أصبح تلميذًا له، من دون أن يستوعب تمامًا ما اختزنه من معارف جمة، وما زال يطلب المزيد، لكنها لم تحرز مفعولًا، وإن راقته، واستمتع بها. كان الأدب ينحرف أحيانًا ويذهب به إلى السياسة، وإن بقدر ضئيل، كان محسوسًا ومؤلمًا، من غير كبير تأثير، كان منيعًا عليها، في دائرة مغلقة، محتضنًا حبيبته رفيف، أخفاها في قلبه، كانت شيئًا منه، وكان شيئًا منها. يحوّم آمنًا فوق الواقع بلا أضرار، بينما الأرواح حوله مضرجة بالدموع، تصعد إلى السماء مكلومة، تتفجر أسًى. كان مزهوًّا بما أحرزه من معرفة على نمط أولئك الذين انقرضوا من المفكرين الذين استطابوا سكنى الأبراج العاجية.

خشي المفوض من شهية المقدم المفتوحة، قد يصبح نسخة من قارضي الكتب، ما يتلقفه منها، يُقرض، ويذهب هباءً. لم يستهوه، ما تمتع به من سلطة إضافية، ترى كيف سيستعملها؟ لكنه حبذ ما تبادلاه من مشاعر طافحة بالمودة والعرفان بالجميل، كان ميالًا إلى صداقتهما الحميمة، كانت تتعمق باطراد مع الوقت، بعدما أسلمه المقدم أسراره العاطفية، كان لا يخفي شيئًا عن رفيف، البريئة الطاهرة، ينهي إليها معارفه مع مسحة لا يغيب عنها الحياء الجميل. كان برغم ما أمسى عليه من ثقافة منفتحة، عفيفًا في زمن كانت العفة تعتبر مرضًا تعالج بالأدوية المنشطة جنسيًّا. وكان حريصًا على إبعادها عمّا يتلقفه من أدب إباحي وعري مستهجن.

صداقته مع المفوض في ازدهار، ومع هذا كان مشكوكًا فيها. ما دامت علاقة بين رئيس فرع متخصص، وموظف مثقف مهمته كشف العالم الجواني والبراني للثقافة والمثقفين. في هذا الموقف، ترى هل كان مخبرًا؟

تجلت ثقافة المقدم في الاجتماعات الدورية مع ضباط الفروع العقائديين، وكانت في معاناته حالة انفصام، وإن كان يتقارب معهم ويتباعد عنهم، حسب إيقاع الأمن لا الأمان، وكان لا أكثر من مراقب، يتبادلون فيها أخبار اللغو الدائر في المؤتمرات الدولية حول حل سياسي، وعملهم المخابراتي المنصرف إلى تخريبه، وحتى عندما كان يتكلم مثلهم، كانت لغته العقائدية محملة بالأفكار السياسية غير المُطَمئِنة، لكن من يصغي، ومن يفهم؟ لم يلقوا إليه بالًا، أصلًا كان الفرع طفيليًّا على السلك الأمني، قد يكون له شأن في المستقبل. أما الآن، فلا جدوى منه؛ خطابات الرئيس تزودهم بالثقافة. ثم هل هذا زمن ثقافة ومثقفين؟ مع هذا، حاز المقدم لقب الضابط المثقف، وعُدّ الاستثناء الفريد في أجهزة المخابرات، ولا غرابة، كان تخصصه نوعيًّا، فإذا كانوا ضليعين بالتحقيق الأسرع مفعولًا، والتعذيب الأكثر مردودًا، فالمقدم الضليع بالثقافة كان مؤمنًا بأنه الأبعد نظرًا، وسائله مختلفة؛ الجدل، ولو كان الأبطأ.

غير أنّ الخطر لم يتأخر طويلًا.

٢. وقت التساؤلات

بدأت علامات التعب بالظهور على المقدم. كانت الأعراض مقلقة، رأسه ثقل، وشردت نظراته، ما تكبده من مشقة في هضم شتى ضروب المعرفة، ظهرت آثارها على محيّاه، حمولاتها أرهقت كاهله، حجمها ضخم، الثقافة ثقيلة، ليست خفيفة ولا سهلة، باتت تضغط عليه، تكاد جمجمته تنفلق من فرط ما امتلأت به من معلومات تاريخية وأفكار فلسفية وسير العظماء، وما حفظه من شعر، وأقوال العقلاء ونوادر الظرفاء... نال السقم منه؛ حالة تَعِدُ بعلل متداخلة لا تفصل العضوي عن النفسي، تداعياتها خطيرة، أمراض الثقافة لا تبشر بخير.

يأتي صباحًا مقرَّح العينين، يشكو من أوجاع في الرأس، والأرق، مع فقدان الشهية، وكثرة التبوال. طوال ليل تقلب فيه بين الكوابيس، غالبًا المعرفة لا تريح بقدر ما تنغص الحياة. مؤثراتها فعلت فيه فعلها، تراكماتها الكيفية أدت إلى متغيرات نوعية، لا تخلو من شبهة مرض غامض!!

عذابات المعرفة ترافقت مع عذابات الحب العفيف، لو لم تكن رفيف تشاركه آلامه، لربما لاقى حتفه من فرط ما التهم من أفكار لم تهضم، أصابته بصداع في رأسه، وصدع في روحه، جهد في التغلب عليهما، ولم يفلح في ترميم ما أحدثته من خروقات في حياته. بلغت الثقافة حدًا من التضخم، شكلت ورمًا، ناء به من دون تصريف، أخذت تلوب في داخله، حتى عثرت على قناة تسللت من خلال مسامات عقله إلى ما حوله، وامتدت إلى أبعد، حيث يجب ألّا تذهب. لم يكن سواه منفذ، فحقنته بشحنات متوالية من القلق، دبت الذعر فيه من

كثرة ما طرحته من تساؤلات، من دون العثور على إجابات عنها إلا بالانغماس في واقع، لا يزيد على مستنقع.

مهما حاول تجاهل تساؤلات تُطرح بقسوة مرعبة، فلا جدوى؛ السياسة عادت تطل برأسها من الخراب والرماد، الإعدامات في سجن صيدنايا، آلاف صور القتلى تحت التعذيب، مرورًا بالموت في الأقبية، والمغيبين قسرًا، ومعتقلين لا أخبار عنهم، إلى بشر خرجوا منذ سنوات من بيوتهم، ولم يعودوا حتى الآن، هل هم أحياء؟ كانت أصداؤها تدهمه ليلًا، وتكوبسه في الظلام. لم تكن شكواه من قلة النوم، إلّا لأنّ مخاوفه تستيقظ في الساعة التي يهبط عليه النعاس، فلا يهبط.

رفيف أنقذته مرارًا. بالمقابل، خاف عليها. خشي إذا سقط ألّا تستطيع العيش من بعده، فكيف ينقذها، أو ماذا لو نقل إليها عدوى ما يقاسي منه؟ حسب تصوراته، كان قلقه مرضًا، بلا حل. دهمه اليأس من فرط حيرته، ما اضطرها إلى الوقوف إلى جواره رغمًا عنه وبثبات. أدركت أنّ علّة حبيبها كانت الهشاشة. هذا ما كانت واثقة منه، فهو عندما أحبها، كاد أن يموت من فرط تولهه بها.

المشكلة، أنّ المعرفة تفتقر إلى واقع واعد وصلب، ليستند إليه، وكان عصيًّا عليه، من فرط ما أقصاه عن حياته، وإن لم يغب عنه في ما يتلقاه من أخبار باتت مبذولة في الإعلام، لكنه كان ينظر إلى الحرب من بعيد، فبدت المسافة التي تفصله عنها، وما يجري فيها، خيالات قد تكون محض تخيلات.

في زحمة المعارف، كان الواقع يعانده، حاول الولوج فيه، فلم يتخطّ عتباته. كان على النقيض مما تراءى له في تهويماته الثقافية، لم يحقق انسجامًا معه، كان يقاومه. وإذا بحث عن مجال يمارس تأثيره فيه، لا يعثر عليه. كانت الثقافة قد شكلت حاجزًا لا يرى ما خلفه، لم تعد إلا كلمات وورق. بينما الواقع فوضى، ومدلهمٌ بالخطوب. كان ممتنعًا عنه وممنوعًا عليه، فانقلب عمل المعرفة الحبيسة إلى عكسه، تخريب دماغ المقدم، ولم يكن سوى الجنون.

هذا ما خطر للمفوض. فأعاد النظر في المسيرة الثقافية التي لم تعرف راحة لها ولا خاتمة، ما دامت انفردت بعزلتها، تغرّد وحدها، ربما استدركها، بزجّها في الواقع، لكنه لم يحسب حسابًا، لما يدعى لمسة الثقافة، سواء كانت أدبًا أو فكرًا، شعرًا أو رواية، كانت لا تخطئ النفوس المرهفة. في الحقيقة، فاته ما أحدثته من انقلاب بطيء، أجرى تحولاته بلا ضجيج، فأمثولات الحرية والعدالة والحق والقانون والثورات الفرنسية والروسية والكوميونة والمقاومة الفلسطينية، وما أعقبها من ثورات، أو ما يشبهها، بالتوازي مع مواكب العلماء والمفكرين على مرّ التاريخ، هؤلاء الذين لم يتراجعوا عن أديانهم ومبادئهم

ومعتقداتهم، وأزهقت أرواحهم في المحرقة، وعلى المشانق، وأمام فصيل الإعدام... حفرت من خلال الثقافة في روح المقدم علامات كبرى. هذا الخزان الهائل، كان من دون استعمال، فغدا مرضه المعرفي، الدموي والدوري.

لم يخطئ المقدم تفسير مفاعيلها؛ اعترف في لحظة انسجام وقلق وبوح بأنه من فصيلة المثقفين، لا العسكر ورجال المخابرات، ولو كان رئيس فرع استخباراتي. ما يفصله عن هذه الأصناف بات من الاتساع بحيث يستحيل ردمه. بل تشدد في تكهن ما يحيط حوله، واكتشف انفصالًا في الجهة التي يقف فيها، فميّز بين المثقفين أنفسهم، وشنّ هجومًا على من دعاهم المثقفين الخونة.

شطح المقدم بعيدًا، إلى حدّ خربط فيها حسابات المفوض؛ إن لم يكف عن هذا الهراء، وتوزيع الاتهامات، فالمثقفون الخونة لن يدعوه في حاله، إذا تحرش بهم، سيستعينون عليه بالأجهزة، ولو كان رئيس فرع، ولن يكون مصيره أفضل من أعداء النظام.

لم يكن هراءً، ولا زلة لسان، كان يخطو في الواقع.

انتحل المقدم طروحات الثورة السلمية في بداياتها؛ الحرية والكرامة، رددها على أنها من بنات أفكاره، لم يعترف بالتطابق بينهما، مع أنه كان لافتًا، وربما لو أنه اطلع على برامج المعارضة، لأصبح معارضًا يتجاوز المعارضة الحالية بمراحل من دون أن يدري. يستحيل أن يكون توارد خواطر، لكنه كان بالفعل كذلك. كانت تظهر في ساعات سرحانه التنظيري، مطلقًا رؤاه الفضفاضة، محددًا ما يجب تغييره، وما ينبغي نسفه، واقتلاعه من جذوره، كأنه يخطط لحركة تغيير شامل تنطلق من الفرع، لو سمعه أحدهم، لاعتقد أنه يعمل على إنشاء خليّة تعمل سرًا في جهاز تابع للمخابرات، ستقود فصائل من الثوار تخرج من تحت الأرض، وتعمل على تغيير ما فوق الأرض.

أحسّ بالذنب، كان السبب في تشوش المقدم المعرفي، لقد تأخر طويلًا في التقاط ما تمخض من تفاعلات في رأسه. فات الوقت على إعادته إلى قواعده القديمة، نظيفًا من المعرفة والعدالة والحرية. بعدما أصبح أسير حتمية التاريخ، والثورات والتنوير والعقل والعلمانية والمساواة... إذا ركب رأسه، فلن يطول الوقت، إن لم يمسِ نزيل السجون أو مطاردًا، فإلى النهاية المحتومة؛ شهيدًا مجهولًا.

ليس من باب التنصل من مسؤوليته، توقعه أنّ المقدم كان يتثقف بمعزل عنه، لكن الأكثر يقينًا، أن للثقافة مساربها الخفية، قادته إلى الحقيقة، فإلى الثورة التي لا بديل منها. وما زالت تقوده، حتى إن مسيرته الاستشهادية

القديمة عاودته بعد مراجعتها، كانت في ما مضى ضيقة تقتصر على أبيه وأشقائه. هذه المرة توسعت، واتخذت مجالها الأرحب؛ إذا كان من موت وتضحية، فلن يكون إلا من أجل الشعب. بذلك، اختار أن يكون معارضًا جسورًا، واستشهاديًّا خفيًّا.

هل كانت حالته في تدهور، أم في ارتقاء؟ لا يمكن معرفة أيهما، كانت رفيف كالمعتاد، المانع الأكبر في وضع أفكاره الجامحة موضع التنفيذ. مهما كانت حالته، فقد طرحت على المفوض السؤال الأصعب: هل يجب على المثقف أن يكون مثاليًّا وبريئًا وساذجًا لينحاز إلى شعبه؟

لم يخطر له هذا السؤال إلا لأن الكثير من المثقفين التقدميين واليساريين والشيوعيين والليبراليين، الذين تعيّشوا على عرق الجماهير، وركبوا على أكتافها، أحزابًا، ومحللين سياسيين، وكتاب مقالات انتقادية، وبيانات إدانة، وتنبؤات وتوقعات استشرفت المستقبل، شعرًا، ورواية، وأفلامًا سينمائية، ومسرحيات، ومسلسلات تلفزيونية... عندما حلت ساعة الحقيقة، كانوا من الذكاء المنحط والانتهازية البشعة أنهم تخلوا عن الشعب، واتهموه بالإرهاب والعمالة والرجعية والطائفية والإرهاب.

لم يخطئ المقدم عندما وصفهم بالخونة، بل أورد السبب أيضًا؛ لم يكن ماضيهم التقدمي إلا متاجرة بالنضال واليسار، إن لم يدرّ عليهم المال فالشهرة. وكان تحليله لانحيازهم ضد الثورة، ليس إلا الأنانية، لن يقفوا معها، إلا إذا اندلعت بتحريض منهم، وقادوها من بُعد آمن، واستأثروا بظفرها. فوصموا بداياتها بالإسلام الرجعي، وما وقوعها في الأيدي الخطأ، إلا لتخليهم عنها وخوفهم منها، إلى أن اغتصبها الإرهابيون.

ومع ما في تحليل المقدم لتخاذل المثقفين من قصور، فالنقلة كما حاول شرحها ببلاغة، من التقدمية إلى كونهم أذناب السلطة، لا يحيط بها أي تفسير، لكنها تجلب النظر إلى افتقاد معتبر للضمير، لولاه لا ثقافة ولا مثقفين، ولا إنسان ولا إنسانية.

ومن سخريات القدر، لو لم يكن المقدم يحمل قدرًا منيعًا من الأخلاق، صقلته الثقافة، لما وقف ضد انحرافات النظام، واستنكر وحشيته، كما اعترف، واتخذ موقفًا كان بالمحصلة أخلاقيًّا، وما أثارت حميته قضية الثورة، فهي لم تأتِ من فراغ.

ترى إلى متى تدوم؟

٣. الإصلاح من الداخل

لم يجد المفوض مبررًا لتشجيع المقدم على المضي في اجتهاداته وكشوفاته، لن يستطيع حسب طموحاته الانضمام إلى ثورة لن تقبل به، كما أنها تغيرت، لم تعد هي نفسها، جاء متأخرًا جدًا. بكل بساطة، سيذهب ضحية لاشيء، ما دام قدْرٌ من قصر النظر يخالط تطلعاته. لم يعمل على الأقل حسابًا للمخابرات الذي هو بالرغم منه، جزء منها.

ودائمًا لولا رفيف لأقدم على حماقة ما، هذه المرة ارتجال ثورة في جحر خاوٍ، من حسن حظه رفيف تخاف من الأسلحة بأنواعها كلها. إلى متى يمكن الاعتماد عليها في كبح جماحه؟ قد يغافلها، ولا يستبعد أن يقنعها بعمل إنساني بطولي، ليس غيرهما ضحاياه.

كان من الخطأ انتظار إلى متى ستدوم هذه الصرعة، فالثورة الأصل، تيتمت وهزمت بعدما غُدر بها، الجيش الحر انفرط، والفصائل الإسلامية أصبحت مأجورة لحسابات الدول الكبرى والإقليمية، بينما وسم إرهاب «داعش» الجهاد بشرائع تكفيرية لا تتورع عن ارتكاب أفظع الجرائم وحشية. أما ناشطو الثورة الشبان، فنزحوا وتلاشوا في بلدان الاغتراب والمنافي والمخيمات.

إذا كان من عمل يدرأ أضرار الثورة عن المقدم، فإعادة تأهيل مادة الثقافة في رأسه وتوجيهها نحو السلام مع ما في هذه المحاولة من مشقة في تغييب واقع بات الشهداء فيه يعدون بمئات الآلاف، وزادت أعدادهم على شهداء التاريخ الخالدين. كانت أشبه بأنها مستحيلة، لكن لا بد من المحاولة.

لم يحتج المفوض لعلاج المقدم الكثير من النبش في الماضي، تذكر أن تجربة النظام مع المعارضة أفلحت في تطويعها مرارًا طوال العقود السابقة، وأحرزت نجاحًا بإفراغ المعارضة من المعارضة، اشترتها بالمكاتب والمناصب والسيارات. كانت حجة المعارضين إصلاح النظام من الداخل، ما يغني عن الثورة، ويؤدي الغرض نفسه، بما يحقق الحرية والاشتراكية والوحدة، وربما العدالة وحرية الرأي، أو إصلاحات لا بد منها. فلم يحققوا شيئًا أو يصلحوا شيئًا، بل أصلحهم النظام وباتوا على منواله، ولبث الأمل بالتغيير في عهدته، فلم يتغير شيء، رغم ما انصرم من زمن.

كانت الفكرة آمنة تمامًا، ستخفف من غلواء المقدم، سيبدو كأنه يساهم بالتغيير، وعندما يكتشف أن شيئًا لم يتغير إلا نحو الأسوأ، يكون التغيير قد أصبح من الماضي، وأمسى هو النظام. هل يدله على هذا الطريق؟ لم لا، سينقذه من جنونه السياسي، ولا سيما أن نضاله الانتحاري لن يشكل فارقًا، كما لن يشعل وحده ثورة، مثلما المعرفة وحدها لا تكفي، سيخذلها الواقع.

يا للحظ، حالفه التوفيق.... فكرة إصلاح النظام من الداخل، أعجبت المقدم. كانت حلًّا عمليًّا، لم يتنبه إلى أنها خدعة فات وقتها منذ زمن بعيد مع ظهورها

بالضبط، ولا أفق لها حاليًّا في هذا الجحيم الذي يحرق كل من يود إطفاءه، لكنها لا تتعارض مع ما يدعيه النظام من رغبة في الإصلاح، على أن تكون مؤجلة دومًا.

حسنًا، على الأقل، ستشغل المقدم بجدل بيزنطي ومناقشات مطولة لا مجدية، لن يكون لها على الأرض فائدة، وإذا كانت تنشد السلام، فلا سلام، قبل انتهاء حرب، كانت خاتمتها في علم الغيب.

بعد حين قضاه المقدم يخطط، أو يجتر أفكاره، استقر على رأي، وبدا على وشك إجراء انعطافة في توجهاته، تبدت بنزعة عارمة نحو الكتابة، القلم لا يفارقه، الخواطر تنهال عليه، يخطها على الورق، الكثير من الورق، سرعان ما يمزقها، ثم يكتب غيرها، ظهر أنها مقالات سياسية!!

بدت لا أكثر من تمرينات، ما دام المقدم يتعامل مع السياسة من منطلق الكتابة، والأغلب أخلاقي، لن ينتج منها سوى خربشات، على أمل إجراء متغيرات. السياسة تحتاج إلى انتهازية ووصولية، هل يستطيع ابتكار منهج يسمح له بالمساومة والتنازل وانتهاز الفرص في هذا الظرف المعقد، بينما حالة البلد لم تغادر شفير الهاوية، وفي الحقيقة من هاوية إلى هاوية، كان المشهد رهيبًا:

القواعد الروسية، المليشيات الإيرانية، الفرقة الرابعة، حزب الله، مئات الفصائل الإسلامية، الجيش النظامي، الحرس الجمهوري، الجيش الحر، الشبيحة، داعش، النصرة، الحرس الثوري، الزينبيون، المهدويون، الفاطميون، كتائب أبي الفضل العباس، الشيشانيون، التركستانيون، وأكثر من ثلاثين حزبًا كرديًّا... وهذا الفطر السام الذي يتوالد يوميًّا من الشبيحة: «صقور الصحراء»، «مغاوير البحر»، «فوج مغاوير البادية»، «أسود القائد الخالد»، «أسود الفرات»، «لواء خيبر»، «لواء أسد الحق»، «قوات درع القلمون»، «قوات الدفاع الوطني»، «كتائب الجبلاوي»، «فهود حمص»، «درع الوطن»... وغرف عمليات أمريكية في الشمال والجنوب، بينما البريطانيون والفرنسيون موجودون بشكل ما... لن يتمكن عقل المقدم من الإحاطة بهذا الخليط المتداخل من فوضى عارمة، لهذا كان يمزق ما يكتبه.

نزوة عابرة، لن تستمر.

ومع أنه مزّق مئات الصفحات، لم ييأس، ولم يخف نيّاته. أدان مثقفي النظام بشرائع تكفيرية لا تتورع عن ارتكاب أفظع الجرائم وحشية. أما ناشطو الثورة الشبان، فنزحوا وتلاشوا في بلدان الاغتراب والمنافي والمخيمات.

إذا كان من عمل يدرأ أضرار الثورة عن المقدم، فإعادة تأهيل مادة الثقافة في رأسه وتوجيهها نحو السلام مع ما في هذه المحاولة من مشقة في تغييب واقع بات الشهداء فيه يعدون بمئات الآلاف، وزادت أعدادهم على شهداء التاريخ الخالدين. كانت أشبه بأنها مستحيلة، لكن لا بد من المحاولة. يا للحظ، حالفه التوفيق.... فكرة إصلاح النظام من الداخل، أعجبت المقدم. كانت حلًّا عمليًّا، لم يتنبه إلى أنها خدعة فات وقتها منذ زمن بعيد مع ظهورها بالضبط، ولا أفق لها حاليًّا في هذا الجحيم الذي يحرق كل من يود إطفاءه، لكنها لا تتعارض مع ما يدعيه النظام من رغبة في الإصلاح، على أن تكون مؤجلة دومًا. بدت لا أكثر من تمرينات، ما دام المقدم يتعامل مع السياسة من منطلق الكتابة، والأغلب أخلاقي، لن ينتج منها سوى خربشات، على أمل إجراء متغيرات. السياسة تحتاج إلى انتهازية ووصولية، هل يستطيع ابتكار منهج يسمح له بالمساومة والتنازل وانتهاز الفرص في هذا الظرف المعقد، بينما حالة البلد لم تغادر شفير الهاوية، وفي الحقيقة من هاوية إلى هاوية، كان المشهد رهيبًا: ومع أنه مزّق مئات الصفحات، لم ييأس، ولم يخف نيّاته. أدان مثقفي النظام والمعارضة وسفّههم، وازدرى لغو المحللين السياسيين في القنوات الفضائية. ترسّخ لديه اعتقاد بأنه ما دام قادرًا على قراءة كل شيء، فلن يعدم القدرة على الكتابة عن أي شيء.

حاجة المقدم إلى التأمل والورق وبُعد النظر، لم تخمد أو تتضاءل، تميز عن غيره من المحللين بمقالاته الجامعة بين الشعر والسياسة، الفلسفة والتراث، التاريخ والجغرافيا... من وجهة نظر معارض وطني مستقل في الداخل، متحرر من أيّ ارتباطات سياسية، مع خبرات أمنية، ولو كانت زهيدة، منحته مهارات أحسن استخدامها في التقيد عن دراية بالخطوط الحمراء، متيقنًا من ثقة الرئاسة بنياته، مع دعم مخابراتي غير مرئي. إحساس لم يأته اعتباطًا؛ المسموح له، ممنوع على غيره.

لم يأخذ المفوض ما يكتبه المقدم بجدية، إلا عندما بدأ ينشر مقالاته باسم مستعار في الصحف اللبنانية، شجعته عليها رفيف، كان يُطلعها عليها قبل إرسالها. بعد النشر يتناقش مع المفوض حولها. لم تكن سيئة، وإن لم تكن جيدة، على نمط تلك الأنواع التي بلا لون ولا طعم. باتت من فرط الحذر لا تقول شيئًا، لا تسيء إلى النظام ولا تدين المعارضة، مستواها كان مقبولًا لمعارض لا يعارض... كانت رفيف خير رقيب؛ الأمان قبل كل شيء.

اعترف للمفوض بحاجته إلى مزيد من التدريب، بعدما أدرك علة مقالاته، الكتابة عندما تُعمل العقل كثيرًا تصبح جبانة، لا بد من التهور لتكون شجاعة. رفيف الخائفة عليه، كانت تلجمه، قالها بصراحة، ولم يكن آسفًا؛ لن أعصي نصائحها.

لا حاجة للتدريب، هذا الخط لا يجوز تجاوزه.

برهنت مغامرته الكتابية، أن المثقفين ليسوا أكثر ثقافة منه، ولا أفضل؛ كان كما قال، مضطرًا إلى الكتابة، ليس لإثبات تفوقه، بل لضرورة تشذيب ثقافة تنافق عن غباء، بتحويلها إلى ثقافة تعارض عن ذكاء. كان مصرًا على أن المثقفين يفتقدون الحسّ السليم، ورؤية الأمور بشكل واضح. لقد أخفقوا في استعادة صوابهم. لم تكن هذه هي العلة، بل في لا جدوى تقويم انحرافهم.

المفاجأة غير المتوقعة، أنْ لم يعد اسمه المستعار سرًا، تسرب إلى أروقة النظام، وتناهى إليه إعجابهم بالمقدم المثقف، ذي الذهن الوقاد والعقل الراجح المتخفي في بدلة عسكرية. مقالاته لفتت أنظارهم من شدة ما فيها من إخلاص. في المحصلة، كانت مخلصة بسبب سذاجتها، ولا تؤذي السلطة. بعدها لم يتخفَّ على توجهاته.

لم يدرِ المفوض أنّ هذه المرحلة من علاقته مع المقدم ستكون الأكثر صعوبة وخطرًا، ما دامت الكتابة أصبحت وسواسه الدائم، الإعجاب الذي حظي به أفسده، ولم يكن إلا تملقًا له، ما دام حسب ظنهم تحت رعاية القصر. أما إشارات الاستحسان الصادرة عن سكرتارية الرئيس، فمن قبيل التشجيع، بهدف دفع المقدم ربما إلى نسيان فرعه العاطل من العمل، منذ ما يزيد على عامين، حتى إنه تحول إلى مركز ثقافي بلا زبائن ولا جمهور.

تضخمت آماله في الإصلاح من داخل النظام. توقع أنهم سيعرضون عليه منصبًا كبيرًا،

خاف المفوض من تداعيات طموح المقدم إلى لعب دور سياسي في المرحلة المقبلة، خاصة أنه أفشى له عن الخيارات المتعددة التي ستعرض عليه؛ لن يأخذ بواحد منها قبل أن يستقيل من المخابرات، أحد توقعاته أنه عند تشكيل الوزارة الجديدة، سيعهد إليه بوزارة الإعلام، الوزارة تستدعي وجود ضابط ذي خبرة عسكرية ومخابراتية تؤهله لخوض حملات إعلامية ضد الحروب كافة. بعد فترة تهيأ له أنه سيصبح المستشار السياسي للرئيس للمرحلة القادمة.

حاول المفوض لئلا يشتطّ المقدم في توقع هذا المنصب، خفض توقعاته الخيالية، بإفهامه أن الرئيس ليس بحاجة لمن يستشيره، لديه حلقة استشارية، بالأحرى عدة حلقات تتدرج في الضيق، لا يستفيد منها، أو لم يعد يستفيد منها، كانت الإملاءات الإيرانية والروسية تسبق نصائحهم. فليكن، ثمة موقع في الحلقة المفكرة، لن ينازعه عليه أحد. سيأخذ على عاتقه تولي عملية إعادة بناء اللحمة المعنوية للأمة، بتشكيل ثقافة البلد على نحو متسامح

ومتصالح، وأيضًا ممانع ومقاوم، طبقًا لسياسات الرئاسة... بدأ يكتب خطوطها العريضة.

المقلق أنّ المقدم لم يعد تحت السيطرة. أفكاره التي أصبح بفضلها مناضلًا نموذجيًّا بالقلم، ذهبت به إلى أحلام اليقظة. بات هدفه الأسمى إنهاء الحرب، أخذ يفكر في إقناع النظام والمعارضة بهذه الخطوة. طبعًا، لن يستمع أحد له، كانوا بغنى عنه، على الأصح لم تتخطّ تطلعاته بوابة الفرع. لم يُصَب المقدم بالجنون، الوضع كله كان جنونيًّا، أن يفكر على هذا النحو، كان واردًا. ما دام غضّ النظر عن مقتل الآلاف واعتقال الآلاف، وتدمير المدن وحرق الأرياف... لا شيء محظر، ما دامت العصابة تتظاهر بأنها دولة، والعصابات تنتحل المعارضة.

توقع المفوض أكثر من مرة أن يأتي ضابط، أو خالد بالذات، ويشحط المقدم من الفرع إلى التقاعد. هذا اليوم لم يأتِ، النظام راضٍ عنه، أو لا يعلم شيئًا عن مشاريعه.

لم تفتر خطط المقدم عن التوالد، لكن إزاء انسدادها، سيصيبه قدر لا بأس به من التعقل، وسيصارح المفوض بها؛ لن يهدأ له بال، إلا بالحصول على منصب حساس، هناك يمارس دورًا فعالًا، وينقذ الرئاسة من الوراثة؛ إنها منبع الشر، لكن البلد بحاجة إليها مؤقتًا. ووصف دوره الحميد بالطابور الخامس، عسى يوقف هذا الخراب. حاول المفوض إقناعه؛ ما بلغته البلاد من دمار لن تستطيع التغلب عليه مواكب من الطوابير الخماسية الحميدة، ولو بلغت المئات ليس بوسعها إنقاذ شيء. طابور الاحتلال ابتلع الطوابير كلها.

ما سيفاجئ المقدم، أنّ المناصب التي وعد نفسه بها، لم يتحقق واحد منها. ما دار في كواليس النظام حوله تبدد، لماذا؟ لأنّ شيئًا لم يدر حوله.

تلك كانت عاقبة إقناع المقدم بالإصلاح من الداخل، وسيطول الوقت ريثما يقتنع بأنه لا إصلاح تحت ظل نظام مضاد للإصلاح. وسيدرك المفوض أن عمله الذي تحدد، يتلخص بإجهاض أية فكرة قد تدفع المقدم إلى عمل أخرق. بات في الفرع قنبلة موقوتة، قد تنفجر في أية لحظة.

القنبلة مهما تأجلت، لن تتأخر يومًا ما عن الانفجار.

٤. خطابات الرئيس

انتهز المفوض الفرصة، عزم على إبلاغ خالد باستقالته. ليس من المحبذ بقاؤه إلى جانب المقدم، يُستحسن الانسحاب قبل أن يفاجئه بقصة أخرى، لا أمان من نزواته السياسية؛ كل هذا بات مرهقًا لأعصابه.

في مقابلته مع خالد، صارحه برغبته في الاستقالة، وبيّن أسبابها؛ نوازع المقدم الأخلاقية انضبطت تمامًا، ولم يعد يُخشى منها. فضلًا عن أن توقيت تقاعده يأتي في وقته، بعد عمر أمضاه في خدمة الصحافة. يرغب في تحقيق حلم حياته؛ قضاء سنواته الأخيرة في الضيعة.

«لكنك ما زلت شابًا».

«لقد تعبت».

خطر للمفوض أن يقدم خدمة للنظام، بينما هي للمقدم:

اسمح لي أن أُسدي لكم نصيحة، أعتقد أنه لا جدوى من الفرع، لن يقدم للنظام شيئًا. مهما بذل المقدم من جهد. تعلم أنّ المعارضين غادروا البلد، ولا مبرر لإفراد فرع لأدباء اختاروا الصمت.

ابتسم خالد، كان قد أصاب لديه الفكرة نفسها:

«أفكاري تتجه نحو هذا المنحى، لكن ليس بإغلاق الفرع. على كل حال، هل تعلم بأنّ المقدم يكتب مقالات سياسية باسم مستعار؟».

«راودتني الشكوك في هذا الأمر».

«ليتك ساعدته، كان أفضل».

«لو أنه سألني، لطلبت منه ألّا يكتبها».

«أعتقد أنه فعلها بحسن نية، لو انكشف أمره في الخارج، لأوقعنا في ورطة. سيقال إنّ المقالات تعبّر عن توجهات النظام، قد تحسبها بعض الجهات رسائل ندرس من خلالها ردود أفعالهم. تُرى هل يبيّت شيئًا ما، صارحني؟».

«لا».

«إنْ فكرنا في توجيه رسائل، فلن نعتمده».

«لكن...».

«أعرف، لا يمكن السيطرة عليه».

نظر إليه، وعلى وجهه ابتسامة ساخرة، لم تخلُ من ملامة. كان عليه أن يُعلمه بشكوكه حول نشاط المقدم السياسي في كتابة المقالات.

«طبعًا، علمنا بمقالاته في وقت مبكر، لكن الأخطر، الذي لا تعرفه، أنه لم يُخف نيّاته، يطمح إلى كتابة خطابات الرئيس، يعتقد أنها غير مقنعة. تصور أنه

يشكك بسياسات الرئيس، والأدهى بأهليته الخطابية، ويطمح إلى التأثير في قراراته. إذا خطر له يومًا التقدم بهكذا اقتراح، فالعاقبة أكثر من سيئة».

لم يعلّق، كانت صدمته أكبر من أن تتيح له الكلام. تابع خالد قائلًا:

ستبقى في عملك إلى حين لن يطول. أعتقد أنك ستضع له حدًّا لا يتجاوزه. بعدها نطلق سراحك. بشأن الفرع ستتبلغون جديدًا خلال أيام.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

الفصل الواحد والعشرون
مايا والتاريخ

١. ليلة العمر

يسترد المفوض اسمه، عندما يلتقي مايا، يستعيد طبيعته، ويصبح عارف المهموم بأحواله ومصيره، وعلاقته بها، وتوقه إلى البدء بحياة أخرى معًا. كانت العودة شاقة أحيانًا، كان لا يجد نفسه، وما محاولاته في استعادتها، إلا لأنها كانت السبيل الأسرع والأسلم لاستعادة أناه، قبل لقاء مايا، لئلا يحسّ بالغربة معها.

تنهى مايا دوامها في المستشفى، في الطريق إلى البيت تجهد في استعادة طبيعتها، أنثى مجرد أنثى، وامرأة لديها أم وابنة. قد لا تفلح، لم تعد هي تمامًا، كانت الغريبة، القادمة من مكان قصيّ ومظلم، تعشّش فيه روائح المعقمات وزنخ القيح، وتتردد في أرجائه أنّات الألم، وزفرات الموت... والشتائم. حولها المراييل البيضاء تنشر السواد. تبحث عن نفسها، تجدها أو تخفق، ما الجدوى؟ كانت روحها، رغم البياض، تغوص في العتمة.

الاستعادة التي يمارسها كل منهما على حدة، لم تحقق تلاقيًا عميقًا. كانت تلاعبًا صامتًا لرأب الصدع في داخلهما. الحرب سكنتهما، لم تنفع في إبقائها بعيدًا عنهما، كانا في صميمها نهارًا وليلًا؛ يتابعانها رغمًا عنهما على مدار الساعة، هدير الدبابات يضجّ في الخارج، وكأنها على وشك اقتحام الفرع والمستشفى، الصيحات الظافرة للجنود الذاهبين إلى الأرياف المحاصرة والجائعة تلعلع في الفضاء، ما زال هناك بيوت لم تهدم، وأشجار لم تحرق، وبشر لم يقتلوا، وأطفال لا يجدون ما يأكلونه.

يحاول تلمّس باب الخروج من الفرع. بينما مايا الغارقة في المستشفى، تنسل بين الجثث، أصابعها تغوص في الجراح المفتوحة والكسور والدماء، من حولها الجنود نصف أحياء، ونصف أموات، عالم لا أكثر من حطام.

تلك هي الحرب، تغلبت عليهما ولازمتهما. كانت على الأرض التي يمشيان عليها، وفي كل ما تقع عليه أبصارهما، الدمار في داخلهما، وفي الهواء الذي يتنفسانه... تحتل آفاقًا ساحاتها الوحل والمقابر.

الموت عادي؛ قتلى وجرحى، مشوَّهون ومعوَّقون، تزهو الحرب اللعينة بأعدادهم، وتطلب المزيد. تلك طبيعتها، الإبادة والإفناء، ستنتهي يومًا ما، مهما بعد، فهو آتٍ، كان يتقدم ويتراجع، بينما الحرب تترسخ.

باتت لقاءاتهما تعارفًا بين غرباء، كأن أحدهما لم يعرف الآخر من قبل. الفرع استولى عليه، مثلما المستشفى استهلكتها. الانفصال جارٍ بينهما، بمعزل عنهما، وداعٌ يجري من تلقائه، وفي منتهى الغرابة، بلا أسىً، ولا رجاء، بلا تمنيات، ولا أمنيات، ولا دموع. كان اكتشافهما له متأخرًا، بعدما أصبح كل منهما الآخر، حتى بالنسبة إلى نفسه. بات الفراق، نجاةً منها ونجاةً منه، مبررًا لعزلة يجتران فيها كارثة لم يقترفاها، كل منهما يتمنى اختفاء الآخر من تلقائه.

كان وجوده على قيد الحياة اتهامًا له بالجبن، وكأن الحفاظ على كرامته، لا يتيحها له سوى الموت، ولو مصادفة. كان في خلاصها منه، براءة من سمعة الحب السيئة في زمن الكراهية، بات الهجران حاجة ماسة.

لم يحصّنهما الغرام من حرب لم يفعلا شيئًا حيالها، تلتهم الرجال والنساء والأطفال، وشبابًا في عمر الزهور، ورُضَّعًا في القماط. لم يدريا أنهما كانا واقعَين في المأزق نفسه، إلا عندما قال لها إنّ يوم رحيله إلى مغربال لن يكون بعيدًا، ويأسف لأنه لن يراها قبل السفر. كان تمهيدًا لفراق بلا وداع، عجّل به، لم ينتظر تسريحه من الفرع، بعد أسابيع أو أشهر. لم تقل له شيئًا، كان الفراق متوقعًا على نحو ما، كانت تبحث عن ذريعة، وفرها لها.

عندما أغلق الباب خلفه، أمست وجهًا لوجه مع الحرب، كأنها لا تواجهها كل يوم، كل ساعة، كل دقيقة. كانت ضعيفة، مقعدة، ذليلة، مهانة... غير قادرة على الوقوف ولا التنفس، لمجرد رجل تركها وحيدة، وهذا الرجل كان وحيدًا مثلها، كلاهما ارتضيا أن يكونا شاهدَين على جرائم لم يرتكباها، أو يشاركا فيها، كان صمتهما جريمة، يدركان أنها لا تُغتفَر، وهل كان بوسعهما الكلام؟

تجهد في استجماع ضعفها لئلا تنهار، واستجماع قوتها كي تتصل به، وتقول له: لا تفكر بالفراق، لن أكون امرأة تعيسة، ولا أنتَ رجلًا تعيسًا.

لم تلحق أن تتصل به. كان قد عاد، لم يتخطّ رصيف البيت، وقف هناك دقائق أو أكثر، وربما ساعة أو ساعات. كان يفكر، وكان بردان إلى حدّ أنه اعتقد أنه سيموت متجمدًا، ولا شيء يدفئه، لقد بات وحيدًا. وإذا كان قد أحسّ بالرعب، فلأنه تصورها وحيدة مثله. فأراد أن يعيش، أو يموت معها.

عانقته، وأجهشت على صدره بالبكاء. فأحسّ بالدفء، وأراد أن يجهش مثلها بالبكاء، لكن بصوت عالٍ، يريد البكاء على نفسه. منذ متى لم يحسّ بهذه المشاعر؟ منذ غادر الضيعة.

تذكر العاشق الرومانسي الذي كانه، وأحسّ نحوه بالعرفان بالجميل، هذه اللمسة الرومانسية لا تصادف سوى الذين تنكسر أرواحهم، كأنما الإحباط

يصنعها. ما دام يفتقر إليها، فالحاجة تصنعها، لا حبّ حقيقيًّا من دونها، وكان ممتلئًا بها بكل روحه، وكانت تحسّ به بكل روحها، كانا روحًا واحدة.

قضيا الليلة معًا، ليلة العمر.

قالت له: لقد عشتُ.

قال لها: لقد عشنا.

لن يستعيد نفسه إلا معها، ولن تستعيد نفسها إلا معه.

وعدها: بعد اليوم لن تكوني وحيدة.

وأنتَ لن تكون وحيدًا.

٢. عودة التاريخ

منذ الأيام الأولى لمباشرتها العمل في المستشفى، ألقت مايا بتحذيرات عارف وراء ظهرها، لم ترغب في سماع نصائحه. كانت تريد العمل مهما كانت النتائج، وبلا أفكار مسبقة، وحتى عندما استدعاها الضابط المسؤول عن الأمن وأبلغها بأن الدخول إلى مهجع المساجين والاتصال بالمعتقلين، ممنوع على الجميع، وليس وحدها، لا يُستثنى منه سوى بعض الأطباء والممرضين. فليكن... انصاعت للتعليمات. بعد أيام، لم يُخفَ عليها أن الشفقة ممنوعة أيضًا. فالأطباء المسموح لهم بمعالجة السجناء محظر عليهم إعطاؤهم ما يسكن آلامهم. هذه الاحتياطات سارية المفعول منذ بدء الحرب، ولم يكن تذكير العاملين بها في المستشفى دوريًّا، إلا لإعلام الأطباء والممرضات الجدد.

انصرفت إلى عملها بين جناح الطوارئ والإسعافات الأولية، وقسم التحاليل والأشعة... يفصلها عن مهاجع المعتقلين أدراج ودهاليز، وأحيانًا بضع خطوات. كانت مصممة على عدم إثارة الشكوك حولها، فلم تعنِها المهاجع وما تحويه من معتقلين. تجاهلت ما يجري وراء أبوابها المغلقة، وتخيلت لئلا تشعر بالذنب، أنّ هؤلاء المقيدين في العتمة، اعتادوا ظلام أقبية فروع المخابرات والموت بالتقسيط، ما الذي تغير عليهم؟ لا شيء. إذا كانوا قد أجبروا على التبرّز والتبوّل في الزنازين، فسيعتادون الغوص في بولهم ودمهم وقيئهم في الأسرّة، قد تتقيح جراحهم ويصيبها التعفن، ريثما تقتلهم مضاعفاتها، ويتماوتون في غيبوبة الألم والكمد. الموت هنا أو هناك... ما الفارق؟

كان في تقسية قلبها، دافع للقيام بواجباتها تجاه الجنود الجرحى، غالبيتهم شبان في العشرينيات سيقوا إلى الخدمة العسكرية على خطوط النار للقتال حتى النفس الأخير، إنْ حاولوا الانشقاق، أو التراجع، فالإعدام الميداني.

بعد فترة، مع توافد أعداد كبيرة من القتلى والجرحى، وتناقص الأطباء تحت التمرين من المتخرجين الجدد، بعضهم سافر للتخصص في الخارج، وبعضهم الآخر التحق بمشافي المناطق المحررة، نشأت الحاجة إليها وإلى غيرها، فأُلغي قرار تخصيص الممنوعين من دخول مهاجع المعتقلين، كما كانوا قد بدأوا يثقون بها.

تحمست للفرصة التي تهيّأت من تلقائها، ستساعد المرضى الجرحى جميعًا، لا على التعيين. مع أنّ التعليمات أكدت عدم الاكتراث بعلاجهم، أمراضهم مشكوك فيها، وشفاؤهم غير ضروري، يتمارضون ويدّعون الألم، هربًا من صمتهما جريمة، يدركان أنها لا تُغتفَر، وهل كان بوسعهما الكلام؟

تجهد في استجماع ضعفها لئلا تنهار، واستجماع قوتها كي تتصل به، وتقول له: لا تفكر بالفراق، لن أكون امرأة تعيسة، ولا أنتَ رجلًا تعيسًا. تذكر العاشق الرومانسي الذي كانه، وأحسّ نحوه بالعرفان بالجميل، هذه اللمسة الرومانسية لا تصادف سوى الذين تنكسر أرواحهم، كأنما الإحباط يصنعها. ما دام يفتقر إليها، فالحاجة تصنعها، لا حبّ حقيقيًّا من دونها، وكان ممتلئًا بها بكل روحه، وكانت تحسّ به بكل روحها، كانا روحًا واحدة. قال لها: لقد عشنا. وأنتَ لن تكون وحيدًا. انصرفت إلى عملها بين جناح الطوارئ والإسعافات الأولية، وقسم التحاليل والأشعة... يفصلها عن مهاجع المعتقلين أدراج ودهاليز، وأحيانًا بضع خطوات. كانت مصممة على عدم إثارة الشكوك حولها، فلم تعنِها المهاجع وما تحويه من معتقلين. تجاهلت ما يجري وراء أبوابها المغلقة، وتخيلت لئلا تشعر بالذنب، أنّ هؤلاء المقيدين في العتمة، اعتادوا ظلام أقبية فروع المخابرات والموت بالتقسيط، ما الذي تغير عليهم؟ لا شيء. إذا كانوا قد أجبروا على التبرّز والتبوّل في الزنازين، فسيعتادون الغوص في بولهم ودمهم وقيئهم في الأسرّة، قد تتقيح جراحهم ويصيبها التعفن، ريثما تقتلهم مضاعفاتها، ويتماوتون في غيبوبة الألم والكمد. الموت هنا أو هناك... ما الفارق؟ تحمست للفرصة التي تهيّأت من تلقائها، ستساعد المرضى الجرحى جميعًا، لا على التعيين. مع أنّ التعليمات أكدت عدم الاكتراث بعلاجهم، أمراضهم مشكوك فيها، وشفاؤهم غير ضروري، يتمارضون ويدّعون الألم، هربًا من صمتهما جريمة، يدركان أنها لا تُغتفَر، وهل كان بوسعهما الكلام؟ عانقته، وأجهشت على صدره بالبكاء. فأحسّ بالدفء، وأراد أن يجهش مثلها بالبكاء، لكن بصوت عالٍ، يريد البكاء على نفسه. منذ متى لم يحسّ بهذه المشاعر؟ منذ غادر الضيعة. قالت له: لقد عشتُ. وعدها: بعد اليوم لن تكوني وحيدة. منذ الأيام الأولى لمباشرتها العمل في المستشفى، ألقت مايا بتحذيرات عارف وراء ظهرها، لم ترغب في سماع نصائحه. كانت تريد العمل مهما كانت النتائج، وبلا أفكار مسبقة، وحتى عندما استدعاها الضابط المسؤول عن الأمن وأبلغها بأن الدخول إلى مهجع

المساجين والاتصال بالمعتقلين، ممنوع على الجميع، وليس وحدها، لا يُستثنى منه سوى بعض الأطباء والممرضين. فليكن... انصاعت للتعليمات. بعد أيام، لم يُخفَ عليها أن الشفقة ممنوعة أيضًا. فالأطباء المسموح لهم بمعالجة السجناء محظر عليهم إعطاؤهم ما يسكن آلامهم. هذه الاحتياطات سارية المفعول منذ بدء الحرب، ولم يكن تذكير العاملين بها في المستشفى دوريًّا، إلا لإعلام الأطباء والممرضات الجدد. بعد فترة، مع توافد أعداد كبيرة من القتلى والجرحى، وتناقص الأطباء تحت التمرين من المتخرجين الجدد، بعضهم سافر للتخصص في الخارج، وبعضهم الآخر التحق بمشافي المناطق المحررة، نشأت الحاجة إليها وإلى غيرها، فأُلغي قرار تخصيص الممنوعين من دخول مهاجع المعتقلين، كما كانوا قد بدأوا يثقون بها. لم تلحق أن تتصل به. كان قد عاد، لم يتخطّ رصيف البيت، وقف هناك دقائق أو أكثر، وربما ساعة أو ساعات. كان يفكر، وكان بردان إلى حدّ أنه اعتقد أنه سيموت متجمدًا، ولا شيء يدفئه، لقد بات وحيدًا. وإذا كان قد أحسّ بالرعب، فلأنه تصورها وحيدة مثله. فأراد أن يعيش، أو يموت معها. قضيا الليلة معًا، ليلة العمر. لن يستعيد نفسه إلا معها، ولن تستعيد نفسها إلا معه. ٢. عودة التاريخ كان في تقسية قلبها، دافع للقيام بواجباتها تجاه الجنود الجرحى، غالبيتهم شبان في العشرينيات سيقوا إلى الخدمة العسكرية على خطوط النار للقتال حتى النفس الأخير، إنْ حاولوا الانشقاق، أو التراجع، فالإعدام الميداني.

بعد فترة، مع توافد أعداد كبيرة من القتلى والجرحى، وتناقص الأطباء تحت التمرين من المتخرجين الجدد، بعضهم سافر للتخصص في الخارج، وبعضهم الآخر التحق بمشافي المناطق المحررة، نشأت الحاجة إليها وإلى غيرها، فأُلغي قرار تخصيص الممنوعين من دخول مهاجع المعتقلين، كما كانوا قد بدأوا يثقون بها.

تحمست للفرصة التي تهيّأت من تلقائها، ستساعد المرضى الجرحى جميعًا، لا على التعيين. مع أنّ التعليمات أكدت عدم الاكتراث بعلاجهم، أمراضهم مشكوك فيها، وشفاؤهم غير ضروري، يتمارضون ويدّعون الألم، هربًا من التحقيق، لئلا يفضوا بما يعرفونه من معلومات عن أمثالهم من المجرمين.

في ذلك الوقت، نبهها عارف، قائلاً: لن يأمنوا لك، ولو كنت موالية، يعتقدون أن انحيازك إلى النظام عن خوف، وقد تغدرين بهم، حتى لو تشدقت بأنك معهم. إذا أردت أن تحوزي ثقتهم، هناك ثمن، هو أكثر من تعهد؛ أظهري القسوة مع المعتقلين المرضى، وتأففي من العناية بهم، فيأمنوا منك مؤقتًا. بعدها عليكِ أن تبرهني على ولائك الكامل، بإهمال معالجتهم، ولا بأس بقتل مريض عمدًا أو بداعي الخطأ. هذا ما يرغبون فيه، عندئذ يصدقونك، أصبحتِ شريكة في الجريمة.

هل تستطيعين؟ أو لا مكان لكِ.

في مهجع المعتقلين، أغلب الحالات التي طالعتها لا رجاء من شفائها، حالاتهم ساءت في المستشفى، يقع على عاتق أجسادهم مقاومة المرض والالتهابات والجراثيم والفيروسات... والموت نفسه. وحتى عندما فكرت بمساعدتهم على تخطي عتبة الخطر، لا فائدة، لماذا؟ سيعودون إلى المعتقلات، هناك يتفننون بقتلهم.

الأجدى، أن تدعهم لأمراضهم تستفحل، وتقتلهم على مهل.

كانوا من شدة آلامهم يتوسلون إليها أن تسعفهم بحقنة مميتة. ولقد خالجها الظن، وأكثر منه الشفقة؛ وكادت تقدم على ما رجونه منها، شفاؤهم لن ينقذهم. وتمنت لو أنها لا تلتزم قسم أبقراط، وتنهي حياتهم بموت رحيم، وتوفر عليهم موتًا بشعًا.

لم يفتها، رغم الرعب المخيم والرقابة المشددة، ملاحظة أطباء وممرضين، يعملون خلسة وبمنتهى التكتم، على إعطاء المساجين مسكنات للألم، ويتواطأون على رعايتهم بتبادل إشارات خفية، ما منحها شيئًا من الأمل، شدّ عزيمتها، فتجرأت على مجاراتهم.

فجأة برزت قضية ضدها غير متوقعة، ربما لغرابتها ولا معقوليتها. لا يمكنها تخيل أنّ حادثة بسيطة ستضعها بمواجهة مفرزة الأمن في المستشفى العسكري، والشهود ممرضات غبيات، حاقدات وموتورات.

وإذا كان لها أن تتوقع إخبارية تُرفع إلى الأمن حول نشاطاتها، فلن تكون إلا بخصوص تسريبها لجرعات الأدوية المسكنة للمرضى، مع أنها نجحت في ألا تستثير شكوكهم. كانت محتاطة من الممرضات الواشيات، لا تثق بهنّ، مثلما لا يثقن بها؛ تنتهز أوقات حضورهن الاجتماعات الحزبية، أو تبلغ أوامر إدارية، وخلال أوقات الطعام والاستراحة، لزيارة مهجع المساجين. لم تتصور، رغم حذرها، أنها إذا نجت من الحاضر، لن تنجو من الماضي.

لا، لم يخطر لها التاريخ، كيف يخطر لها؟!

كانت علاقتها مع التاريخ واهية، لم تعبأ به من قبل، فلم تتصور أن يزجّ بها في قلب زمن مضطرب، يقيدها إلى معضلة تاريخية، استعصت على أئمة وفقهاء، كانت سببًا لانشقاق المسلمين والكثير من الحروب والمحن. كانت تعتقد أنّ ما جرى في الماضي انطوى فيه، لا مكان له سواه، ولا يعقل أن يخرج التاريخ من مكمنه، ليحشر أنفه في مهجع المعتقلين الجرحى، وينحو إلى الاقتصاص منها، بسبب جريح شاب كان يلفظ أنفاسه الأخيرة.

وثقت مايا بطبيب شاب، ضبطها مثلما ضبطته، يساعدان المرضى سرًا. وبلغ الحذر بهما أنهما تجنّبا عقد أية صلة بينهما. فلم يتبادلا الكلام إلا نادرًا، أحدها عندما نبهها إلى أن تكون أكثر حرصًا، عندما لحق بها بعد انتهاء الدوام. أما المرة الثانية، فكانت عندما ركب معها الباص من المستشفى، نزل وراءها في الشارع القريب من بيتها، وأدركها ليخبرها أنه حضر اجتماعًا اليوم، ضمّ عناصر أمن المستشفى مع حزبيين. جرى النقاش فيه حول تقرير رُفع ضدها يتهمها بالتعاطف مع المعتقلين، الدلائل تشير بما لا يقبل الشك إلى أنها مدسوسة في كادر الأطباء.

التحقيق سيبدأ قريبًا جدًا. هناك شاهدة عيان موثوقة طائفيًّا، راقبتكِ طوال الأسابيع الماضية، كتبت تقريرًا في تصرفاتكِ، بناءً على ملاحظتها سيوجه إليكِ الاتهام، ريثما يجمعون المزيد من الممرضات شهود العيان. الواضح أنّ التحقيق، لئلا يفضوا بما يعرفونه من معلومات عن أمثالهم من المجرمين.

في ذلك الوقت، نبهها عارف، قائلاً: لن يأمنوا لك، ولو كنت موالية، يعتقدون أن انحيازك إلى النظام عن خوف، وقد تغدرين بهم، حتى لو تشدقت بأنك معهم. إذا أردت أن تحوزي ثقتهم، هناك ثمن، هو أكثر من تعهد؛ أظهري القسوة مع المعتقلين المرضى، وتأففي من العناية بهم، فيأمنوا منك مؤقتًا. بعدها عليكِ أن تبرهني على ولائك الكامل، بإهمال معالجتهم، ولا بأس بقتل مريض عمدًا أو بداعي الخطأ. هذا ما يرغبون فيه، عندئذ يصدقونك، أصبحتِ شريكة في الجريمة. الأجدى، أن تدعهم لأمراضهم تستفحل، وتقتلهم على مهل. فجأة برزت قضية ضدها غير متوقعة، ربما لغرابتها ولا معقوليتها. لا يمكنها تخيل أنّ حادثة بسيطة ستضعها بمواجهة مفرزة الأمن في المستشفى العسكري، والشهود ممرضات غبيات، حاقدات وموتورات. كانت علاقتها مع التاريخ واهية، لم تعبأ به من قبل، فلم تتصور أن يزجّ بها في قلب زمن مضطرب، يقيدها إلى معضلة تاريخية، استعصت على أئمة وفقهاء، كانت سببًا لانشقاق المسلمين والكثير من الحروب والمحن. كانت تعتقد أنّ ما جرى في الماضي انطوى فيه، لا مكان له سواه، ولا يعقل أن يخرج التاريخ من مكمنه، ليحشر أنفه في مهجع المعتقلين الجرحى، وينحو إلى الاقتصاص منها، بسبب جريح شاب كان يلفظ أنفاسه الأخيرة.

وثقت مايا بطبيب شاب، ضبطها مثلما ضبطته، يساعدان المرضى سرًا. وبلغ الحذر بهما أنهما تجنّبا عقد أية صلة بينهما. فلم يتبادلا الكلام إلا نادرًا، أحدها عندما نبهها إلى أن تكون أكثر حرصًا، عندما لحق بها بعد انتهاء الدوام. أما المرة الثانية، فكانت عندما ركب معها الباص من المستشفى، نزل وراءها في الشارع القريب من بيتها، وأدركها ليخبرها أنه حضر اجتماعًا اليوم، ضمّ عناصر أمن المستشفى مع حزبيين. جرى النقاش فيه حول تقرير رُفع ضدها يتهمها

بالتعاطف مع المعتقلين، الدلائل تشير بما لا يقبل الشك إلى أنها مدسوسة في كادر الأطباء.

التحقيق سيبدأ قريبًا جدًا. هناك شاهدة عيان موثوقة طائفيًّا، راقبتكِ طوال الأسابيع الماضية، كتبت تقريرًا في تصرفاتكِ، بناءً على ملاحظتها سيوجه إليكِ الاتهام، ريثما يجمعون المزيد من الممرضات شهود العيان. الواضح أنّ الشهادات القادمة لن تقلّ عنها تجسسًا، الشبهات قوية جدًا، بعدما ضُبطتِ أخيرًا بالجرم المشهود.

لم يستطع الطبيب الشاب تفسير ما يعنيه بالجرم المشهود، إلا من خلال قصة كانت أشبه بحكاية، جرت قبل ألف وأربعمئة عام. قصة تعرفها، لكنها لا تعرف تفاصيلها، وهي مقتل الحسين سيد الشهداء.

«لا أعتقد أنهم يظنون أن لي علاقة بمقتله!».

«الجنون ليس له حدود، بلغت الشبهة من السوء أنها قد تتساوى معها».

القصة حسبما ترويها المأثورات الدينية الشعبية: كان الحسين رضي الله عنه حفيد رسول الله، قد خرج طلبًا للخلافة، ومعه أهل بيته وأقرباؤه وصحبه، عددهم نحو سبعين نفسًا. حاصرهم الجيش الأموي الذي بلغ تعداده أربعة آلاف مقاتل. ودارت المعارك بينهم في كربلاء.

شهد الحسين حبيب رسول الله مقتل ابنه علي الذي قاتل قتال الأبطال دفاعًا عن أهله طوال اليوم، ولم يتوقف إلا ليقول لأبيه: يا أبتِ العطش قتلني. فهل إلى شربة ماء أتقوى بها على الأعداء؟ فبكى الإمام الحسين، وعزّ عليه حال ابنه. ففي الحصار، منع الجيش الأموي عنهم الماء. فقال له أبوه، متنبئًا بمقتله وانفكاك العطش عنه: إنك لن تمسي حتى يسقيك جدك رسول الله بكأسه الأوفى شربة لا تظمأ بعدها أبدًا. فعاد ابنه إلى القتال حتى قتل.

كما كان للعباس أخو الحسين مأثرة لا تقلّ عن مأثرة ابن أخيه. إذ أبى أن يذوق الماء، وكان واقفًا في لجته، وكبده تتلظى من العطش، لأن أخاه الحسين وأولاده الصغار عطاشى، لم يذوقوا قطرة ماء منذ أيام. يسمع بكاءهم، ويتفتت قلبه. لم يستطع صبرًا، ذهب إلى الأعداء، فوعظهم وحذرهم من غضب الجبار، فلم يستجيبوا، فأخذ القربة وتوجه يطلب الماء من الفرات، ولما اقترب منه انهالت عليه النبال، فلم يتأثر. ولما اغترف الماء ليشرب تذكر عطش الحسين والأطفال، فرماه من يده مواساة لأخيه. ثم ملأ القربة وركب جواده وتوجه نحو المخيم، فقطعوا عليه الطريق، فقاتلهم وأكثر القتل فيهم، إلى أن غدر به أحدهم، وضربه بالسيف وقطع يده اليمنى، فلم يعبأ بها، فغدر به آخر، وقطع شماله. ثم تكاثرت عليه السهام كالمطر، حتى جاء رجل

وضرب رأسه بالعمود ففلق هامته، وسقط على الأرض مناديًا أخاه، فأتاه الحسين وقال: الأن انكسر ظهري، وقلّت حيلتي.

اشتد القتال بعدها، في الساحة رجل واحد هو الحسين ابن بنت رسول الله، وقد اشتد به العطش يواجه الجيش الأموي، اخترق صفوفهم، وعندما وصل إلى الماء، ابتعد عنه ليشرب فرسه قائلًا له: أنت عطشان وأنا عطشان، فلا أشرب حتى تشرب أنت. فأبى الفرس، وعندما مدّ الحسين يده ليشرب، تذكر أهل بيته، فرمى الماء من يده. وقاتل حتى سقط قتيلًا. عندئذ قطعوا رأسه الشريف، وأرسلوه إلى الخليفة.

كان من جراء ما وقع في كربلاء، انشقاق المسلمين إلى سُنّة وشيعة.

روى الطبيب الشاب القصة، وشهق بالبكاء من فرط تأثره بها. قال لها إنه لا يملك نفسه، كلما سمعها يبكي، وهذه أول مرة يرويها. لو لم يكن شيعيًّا، لربما لم يبكِ.

شاركته مايا تأثره، لكنها لم تجد في استدعائها أن تكون على صلة بالتحقيق معها. وإذا كان الطبيب الرقيق والحزين قد بكى، فلا بد أنّ هناك ما حرّك أشجانه حتى تذكرها، فالمأساة تستجرّ المأساة. على الضد مما اعتقدته، كانت القصة وثيقة الصلة بالاتهام الموجه إليها، أكده الطبيب، فقد حضر الجلسة بصفته عضوًا في الحزب، ولم يتمكن من الدفاع عنها، كان خائفًا، والأدلة ضدها كانت قوية. فقد شوهدت تسقي الماء لمقاتل معتقل جريح!!

مايا لم تنكر. كانوا قد جاؤوا بشاب جريح قبل أيام، بعدما ضربوه وجلدوه، وأصابه ما أصاب غيره من الإهمال، جراحه تقيّحت، وشارف على الموت. عندما رأته كان في النزع الأخير، حلقه جفّ، طلب شربة ماء، فلم تمنعها عنه. بعدها فاضت روحه.

«الشاب أخذ شفة ماء لا أكثر. لكن كيف عرفوا؟ لم يكن هناك غيري».

دخلت ممرضة إلى المهجع بعد خروجها منه، أمعنت النظر إلى الميت، لاحظت شفتيه المشققتين مبللتين بالماء، وقطرة عالقة على طرف فمه، فتحته، كان لسانه رطبًا.

«يجب أن تعرفي، إنّ منع الماء عن المعتقلين ليس للتسلي، بل للتشفي، عقوبة على مقتل الحسين وأهل بيته عطاشى، وهي جريمة لا يُعَدّ بالنسبة إليها إعطاء الدواء شيئًا يذكر».

جريمتها أنها لم تعرف أنّ للتاريخ أحقاده.

«لن تدركي عظمة جريمتك، إلا عندما تعرفين أن المقصود من تعذيبهم ليس قتلهم فقط، موتهم غير كافٍ، المراد أيضًا وبالدرجة الأولى، موتهم عطاشى».

عندئذ، عرفتْ لماذا كانت الممرضات والأطباء يتسلون بمنع الماء عن المعتقلين.

«جرائم الماضي، هل تحلل جرائم الحاضر؟».

جريمة الماء لا يمكن التسامح معها، تفوق تسكين الآلام. جريمة لا تغتفر، ولو أنها وقعت قبل ألف وأربعمئة عام، وأصبح حسابها لدى الخالق.

«ولماذا تساعدني؟»، تساءلت مايا، فقد كان الطبيب شيعيًّا حسبما قال، ودل عليه بكاؤه.

سؤال كان يجب ألا تسأله إياه، ما دام يخاطر بنفسه، ويعالج مثلها المعتقلين خفية، فلا شك في أنه يعرف دينه أكثر مما يعرفه أولئك الذي يحرضون على قتلهم.

«لقد اخترت العدالة، مثلما اختارها الإمام علي رضي الله عنه. واقتديت بالشهيد الحسين، أن أكون المظلوم لا الظالم، والقتيل لا القاتل».

نعم، ثمة إجحاف كبير في سطو الماضي على الحاضر، يعتقدون أنه عقاب إلهي، وحتى إذا كان حقدًا، فهو حقد البشر، لا الله. ورجاها أن تسارع في مغادرة البلد، إن لم يكن اليوم، فغدًا.

هل تذهب ضحية التاريخ؟

خشي عارف ألّا تأخذ هذا الاتهام على محمل الجد؛ الحميّة المذهبية التي جندتهم وجاءت بمليشياتهم من لبنان والعراق وإيران، بدعوى حماية المراقد المقدسة، لن تدعها بلا عقاب، لو ترك لهم الأمر لأحرقوا دمشق وتركوها رمادًا. دمشق كانت عاصمة الأمويين. لذلك يتنافسون ويتبارون للثأر منها، وفي اعتقادهم أنهم ينفذون وعدًا إلهيًّا، طمعًا في الانتقام والثواب. يقودهم نداء: يا لثارات الحسين. وزجوا أيضًا بالسيدة زينب التي يقال إنها سُبيت في ذلك الزمن، رافعين شعار: قسمًا بدمائك يا حسين لن تُسبى زينب بالشام مرتين. واستعانوا أيضًا بمقتل أخيه العباس: وحق مقطوع اليدين لن تُسبى زينب بالشام مرتين.

في اليوم نفسه، غادرت مايا مع ابنتها وأمها إلى بيروت.

لم يعد لدى عارف سوى إنهاء مهمته الأخيرة في الفرع، واللحاق بها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

الفصل الثاني والعشرون
تطورات في الفرع ٦٥٠

١. أشباح هالكة

مهمته العاجلة، كانت إقناع المقدم بالكفّ عن الكتابة. لم يوفر وقتًا، صارحه بانكشاف أمره في الإدارة، خالد منزعج من مقالاته السياسية، الأفكار التي تراوده تسيء إلى منصبه الحساس. حان الوقت لإنهاء رياضاته الذهنية الطائشة. ثم مَن قال لك إن للسياسة علاقة بالأخلاق؟ في الحقيقة، إما سياسة وإما أخلاق.

حاول المقدم أن يجيب، فأسكته.

ماذا تكون كتاباتك سوى توقعات وتخمينات وإسداء نصائح؟ الوقائع يصعب ملاحقتها، لا يكفي اللهاث وراءها، لن تدركها مهما حاولت. أما تحليلاتك، فتكهنات بناءً على أحداث عابرة، سرعان ما تتلوها أحداث تتجاوزها، من كثرة المتغيرات يفقد التنظير جدواه بعد ساعات. ألم تلاحظ أن النظام كثيرًا ما التزم الصمت حيال أمور تعتبر شائكة؟ لماذا؟ لأنه لا يستطيع اتخاذ موقف سريع وصريح منها، فيراوغ ويماطل، ثم يدعها لحدث آخر يطويها معه.

أشاح المقدم بوجهه عنه. لن يتخلى عن مقالاته، لديه أفكار كثيرة، تتدفق بغزارة لا يستطيع التحكم فيها، لن يدعها حبيسة رأسه، قد ينفجر، بينما إطلاقها قد ينقذ البلد، هذا ما كان على يقين منه.

طوال أيام ثلاثة، دارت بينهما نقاشات مطولة، لم تُفضِ إلى شيء. أنهاها المقدم بإرسال مقال إلى صحيفة لبنانية، لم يُنشر، جاءه الرد بالرفض، فثارت ثائرته، هناك مؤامرة عليه. كادت أن تعود المناقشات بينهما حامية الوطيس، لولا تدخل خالد، وردته أخبار من جواسيسه في الفرع عن تصلب المقدم، فاتصل به وهدده.

«لا تمسك قلمًا بيدك. بالأحرى، إياك وأن تفكر حتى إشعار آخر».

لم يغفل خالد عن إبداء الأسباب، كانت وجيهة ومقنعة؛ من المبكر الكتابة، ينقصك المزيد من الثقافة السياسية، أنت بحاجة إلى تأسيس قاعدة فكرية صلبة، تشكل ركيزة للانطلاق بثقة إلى جدل القضايا المطروحة، لن تكون فعالة إلا بذخيرة متينة منهجيًّا. ولمساعدته، أكد للمفوض إعداد برنامج خصيصًا له، للاطلاع على السياسات المحلية والدولية، بالإضافة إلى استكمال برنامج أدبي إضافي على مستوى رفيع يليق بالحوار مع الأدباء. وختم كلامه:

«العمل لن يتوقف في الفرع».

بذلك طرح خالد معضلة، كيف أن العمل لن يتوقف، مع أنه لم يبدأ بعد؟!

سارع خالد إلى شرح ما يقصده.

«ريثما تكتمل جاهزيتك، سيُكلَّف الفرع مهمة أخرى».

كانت المهمة عن توافر أعداد من المشبوهين الإرهابيين قد فاضت عن السجون والمعتقلات. سيستفاد مؤقتًا من الأقبية الفارغة في الفرع بتحويلها إلى مستودع يحشرون فيه، تمهيدًا لإرسالهم إلى المحاكم، أو الفروع الأخرى للتحقيق معهم.

لم يُظهر المقدم أي ردة فعل، وإن غاظته المهمة، الإدارة اعتبرت الإرهابيين وديعة في الفرع، ولم يعد أكثر من أمين مستودع يدير عملية تخزينهم توطئة لتسليمهم للجهات المختصة.

تلك أول مهمة يُكلَّفها، فارتأى مرغمًا أن يُحسنها، ولا سيما أن التعليمات اللاحقة كانت محدودة ومحددة. اقتصرت مسؤوليته على تأمين إقامتهم فقط، بينما أوكل إلى سرية العناصر المسلحة المرافقة للمعتقلين برئاسة نقيب، مهمة حراستهم في الأقبية، واتخاذ الاحتياطات اللازمة الكفيلة بمنعهم من الفرار، وتأديبهم بإخضاعهم بسبب وبلا سبب لعقوبات ليلية ونهارية، كنوع من العمل لملء الفراغ، إذ ليس لديهم ما يشغلهم، لئلا يفكروا في العصيان، خاصة أن الأجواء موبوءة بالتمرد.

أعطى المقدم أوامره باستقبالهم وتسهيل عملية تخزينهم، وطلب من النقيب مراعاة عدم تكديسهم كيفما اتفق، باستخدام القاعات والغرف الفارغة، إضافة إلى الأقبية. لم يلحظ شيئًا غير عادي، وربما لم يكن ليعلم بقدومهم لولا شحط أقدامهم عند الوصول، وكاد ألّا يسمعها لولا صراخ النقيب عليهم بخفض رؤوسهم، والتزام السير رتلًا واحدًا.

اكتفى بإلقاء نظرة عابرة عليهم، كان بعضهم يجرجر بعضهم الآخر، انحناء وقرفصة، زحفًا وانبطاحًا. لم يلحظ واحدًا منهم يمشي منتصب القامة، ارتدّ بعدها على أعقابه إلى مكتبه، كانت تقديراته، لن يحتاج النقيب إلى تأديبهم، سينشغل المعتقلون في الأيام القادمة بالتعلم على المشي بقامة منتصبة.

ليلًا، وكان نائمًا في الفرع، أيقظته أصوات خليط من جعير ونحيب، عويل وبكاء، تتخللها رجاءات وتوسلات غير مفهومة... تميزها بين النوم والصحو؛ كانت صرخات ألم تُصمّ الآذان. سارع حافي القدمين يتجول في ممرات الفرع، الأبواب مفتوحة على الأقبية، بينما العناصر بقيادة النقيب يحملون السياط والهراوات والخيزرانات، يضربون المعتقلين، ويهددون بالمزيد، الأجساد مبعثرة على الأرض يزحفون على أكواعهم وركبهم. أما المبطوحون،

فملطخون بالدم والقيح، وثمة أجساد تتدلى من السقف، معلقة من الأقدام... أصوات اللسع على اللحم العاري، تتردد في فضاء مخنوق.

اعتقد المقدم أنّ النقيب ضبطهم بالجرم المشهود يُعدون لعملية هرب جماعية، بيد أنه - كما قال له النقيب- مجرد برنامج يومي، يستحسن تنفيذه في الأيام الأولى نهارًا وليلًا، ثم تخفيضه مع الأيام، ومعاودته كل حين، ودائمًا بلا سبب.

أجال المقدم بصره، ما الذي رآه؟

عالم من أشباح هالكة، أعلنت وجودَها بالعذاب.

كان الظلام، غارقًا في الدموع، الكثير من الدموع، بحر من الدموع، لولا الدماء لكانت بلا لون، اصطبغت بالسواد الفاحم. كان واعيًا لما يراه بعينيه ويدركه بعقله. كانوا أشلاء بشر. لم يكن يتخيلهم، ولا كانوا كابوسًا. ما الذي جعلهم بلا كرامة، وعلى هذا القدر الهائل من الحقارة، يتسوّلون جلاديهم القليلَ من الشفقة، أو نزرًا من الرحمة، يصرخون بأصوات تقطع نياط القلب:

الرحمة، دخيل الله.

بينما النقيب الجبار، منتصب الرأس، يصدر أوامره، وقد أسند قبضتيه إلى خاصرته، وأفرج عن ساقيه... أشبه بضابط نازي.

روى صباحًا للمفوض ما رآه ليلًا، واستنكر ما أظهره المعتقلون من جبن ويأس. ثم علّق مستهجنًا:

«بلغت بهم الحقارة، أنهم كلما تلقوا المزيد من الضرب، رجوا النقيب القليل من الشفقة. بدل الانقضاض عليه وعلى جنوده وتمزيقهم إربًا إربًا».

«ليسوا حقيرين، لقد جعلوهم هكذا. لو أنك ذقت ما ذاقوه، لأصبحت حقيرًا مثلهم».

خرس المقدم، عقد حاجبيه، فكر ثم نبس بصوت خافت:

«يبدو أنني حقير».

وصمت، كأنه أصيب بالبكم، بينما ملامح وجهه تغلي من الغضب.

ستلاحقه عذابات المعتقلين وتضنيه، لن يغفر لنفسه تخاذله عن فعل شيء ما، ولو كان غير قادر على إتيانه. صمته حوّله إلى واحد من صانعي هذه المأساة التي تدور يوميًّا في الفرع تحت أنظاره.

طوال أيام، كان صافنًا، يتساءل ويتساءل، ولا جواب ولا جواب.

إذا استمر على هذه الحالة، يفكر دونما جدوى، فالنهاية؛ انهيار منظومته الأخلاقية العتيدة، وبهذا تطوى صفحتها، لا ذرائع بعدما انهزم أمام أول امتحان حقيقي.

إثر صفنة كانت أطول من المعتاد، حسم أمره، لم يستطع غضّ النظر عن الأخلاق، ولا التنصل منها، ولا التنازل عنها، ولا المساومة عليها.

«هذا لا طاقة لدي عليه، ويفوق قدراتي».

انتفض من مكانه، ونزل إلى النقيب، وطلب منه المغادرة مع سريته دونما إبطاء. حاول النقيب الاعتراض، فهدده بإحالته على محكمة ميدانية ستعقد فورًا دونما إمهال، لعدم تنفيذه الأوامر.

بعدما طردهم من الفرع، اتصل بالإدارة، وأخبر خالد بأنه أخذ على عاتقه مسؤولية المعتقلين بالكامل؛ إقامةً وإطعامًا وتأديبًا، مع تأمين الحراسة الكاملة. وتعهد بتسليمهم للجهات المختصة، حين الطلب وحسب الأصول، حسب اللوائح، أحياءً أو أمواتًا.

لم يُعقب خالد على خطوة المقدم، إلا بعدما تأكد أن هذا الإجراء حصل بموافقة المفوض، وعلى أن تنفذ المهمة تحت إشرافه. كان لديه تحذير، ألّا يلجأ المعتقلون إلى استعمال سلاحهم الوحيد، الإضراب عن الطعام، ليس لئلا يموتوا، بل المحبذ أن يموتوا، على ألّا يتسرب الخبر إلى الخارج. أي ألا ينجحوا في القيام باستعراض لا يزيد على لفت انتباه اهتمام هؤلاء الذين يثرثرون، ستنتقل إلى منظمات إنسانية، ولا ندري مَن أيضًا.

كان لا يريد أن تعلم بوجودهم أية جهة في الداخل أو الخارج.

لم يخشَ المفوض من إضراب المعتقلين عن الطعام، كانوا يتضورون جوعًا، وإذا حاولوا فمؤجل إلى ما بعد الشبع، وفي حال حصوله، لن تتجرأ المنظمات الإنسانية المحلية على الإتيان على ذكره، إذ لا علاقة لها بالإنسانية، إن أضربوا وماتوا، فأسوة بعشرات الآلاف من القتلى.

لم يتقيد المقدم بالتعليمات، فلم يجد أي مبرر في تأديب الزاحفين، والذين يعرجون، والمكرسحين، وغيرهم من المرضى والجرحى. إذا كانوا سيهربون، أو يتمردون، أو يضربون عن الطعام، فليس قبل استرداد نزر، ولو يسيرًا، من قواهم يعينهم على الوقوف.

بعد أيام قليلة، كانت أخبار الفرع على ما يرام، أحرز المقدم تقدمًا معتبرًا، كان مُكلِفًا ماديًّا، أعلم الإدارة لتداركه؛ المعتقلون التهموا وشربوا كل ما قدم

لهم من فرط ما كانوا جوعى وعطشى، وإذا كانوا سيأكلون ويشربون على هذا المنوال، فلن تصمد مخصصات الفرع من الأموال جراء شراهتهم إلا إلى آخر الشهر، ها هو قارب على الانتهاء.

طالب المقدم بتخصيص مبالغ مالية لإنشاء مطبخ وشراء خضار وخبز، لم يطالب بفواكه، افترض أنها من الكماليات. فالمعتقلات ليست للترفيه، ولا لتناول حصة غذائية متكاملة، لئلا يعانوا من الوزن الزائد، فهم لا يتحركون. الجواب لم يتأخر، لا مخصصات.

راعت الإدارة الموقف المستجد، وأرسلت مبلغًا من المال كمساعدة، أضيف إلى ميزانية الفرع مؤقتًا، ولمرة واحدة، جرى التبرع بها كمقابل أجرة استعمال أقبية الفرع كمستودع لصالح الإدارة، لكن لن يدوم، ولن يطعم هذا الجيش من المعتقلين أكثر من أسبوع، أو أسبوعين مع التقنين.

من الآن فصاعدًا، تقيد بالميزانية، عدا ذلك، دبّر رأسك.

٢. الوليمة

إذا كان المعتقلون سيشبعون ضمن مدة باتت محددة بالأيام، وبعدها، سيحل الجوع، فهل تجويعهم هو المطلوب؟

هذا ما دار في رأس المقدم. لا ضير، حتى المواطنون الأبرياء يعانون من شظف العيش، سياسة الأرض المحروقة، أفقرت حقولهم وبساتينهم من المحاصيل الزراعية. ونازحو المخيمات يعيشون على التبرعات الأهلية والإعانات الإنسانية الدولية، ولم تكن تكفي. أحوال الناس المادية في الداخل في تدهور مستمر، لا تسمح بشراء الكثير مما يحتاجونه، الأسعار في ارتفاع جنوني، الشعب يعيش على كفاف الكفاف.

هل يجوز أن يتمتع المعتقلون بما حُرِمَه المواطنون؟ طبعًا، لا.

كان على حق. أوضاع المساجين المعيشية لا ينبغي أن تزيد على أوضاع المواطنين الأحرار. قاده التفكير إلى الأسلوب الناجع في مكافحة الجوع، فكان الحرمان، الحل النهائي المضمون. فاعتمد التجويع المتعمد عن قناعة، مستقويًا بما أثارته خيانتهم البشعة للوطن من استنكار واشمئزاز. وكانت موثقة بإضبارات التحقيقات الأولية الصادرة عن فرع في منطقة نائية، وكانت بالجملة، كأن هذا الجمع الغفير اشترك في مؤامرة واحدة.

تجوّل بينهم صباحًا ليرى تأثير خطته التجويعية التي بدأت، فقد حرمهم البارحة طعامَ الغداء، لا لهدف إلا ليتشفى بهم، جزاءً وفاقًا على ما ارتكبوه من جرائم. وكان يعلم أنّ من المبكر جدًا الحصول على نتائج ملموسة.

هاله أن النتائج كانت ملموسة جدًا.

تحاملوا بصعوبة، وقفوا وقفة رجل واحد مصاب بالهزال، وفقر دم شديد، يتمايلون يمنة ويسرة، أصابهم الدوار، أجسادهم تختلج، وأقدامهم ترتجف. خشي أن يتساقطوا سقطة رجل واحد، لا يتماثل للوقوف، إلا ليشارف على الانهيار. ثم كأنهم تمالكوا أنفسهم، وتوكأوا على لا شيء. كل منهم لم يزد على عجوز أعجف، حتى الشباب، كان كل واحد منهم من شدة نحولهم أشبه بخيط ممصوص. التجاعيد خطّت أخاديد على الوجوه،. العظام مجرد نتوءات وبروزات؛ القفص الصدري، الترقوة، الورك، الركبة، الكاحل... متراكب بعضها فوق بعض بشكل اعتباطي، وعلى وشك أن تتكسر، وتتساقط العظام من الهياكل دفعة واحدة، وتتشكل أكوامًا على مدّ النظر.

هل ما يراه حقيقي؟ إذا لم يكن يحلم، فقد أخطأ طريقه إلى متحف العظام. وإذا كان يتخيل، فقد بالغ بتخيلاته، وتجاوز بتصوراته الحدود القصوى للتجويع المتعمد. تذكر أنه لم يتنازل منذ جاؤوا، ويتفقدهم وجهًا لوجه. أما وقد أتيح له إلقاء نظرات متفحصة عليهم، فقد استسخف اعتقاده أن منظرهم المأساوي هذا، كان من تأثير حرمانهم غداء البارحة، كان تجويعهم مزمنًا، لن يتعافوا إلا بأن يأكلوا.

العائق الوحيد، ماذا عن اعترافاتهم بأنهم قتلوا وفجروا وانشقوا وذبحوا وسرقوا وتجسسوا واغتصبوا وحرقوا...؟ سأل المفوض، فأجابه:

«لو أنني كنت مكانهم لاعترفت بهذا وأكثر... ألا تراهم، إنهم أكثر براءة مني ومنك».

«أليسوا أعداء النظام؟».

«بل النظام عدوهم».

عندئذ، استعاد المقدم طباعه الغريبة التي تتعدى المنطق المألوف، أزاح جانبًا الأسباب الإرهابية، والتقارير الملفقة للمحققين، ولم يعبأ بالخلاف الفكري المفترض. كان أمام بشر حقيقيين، صادفهم من قبل، أينما ذهب، وأينما حلّ، في القرى والأحياء، ولم يكونوا هكذا جلدًا على عظام، أو عظامًا تعلوها مسحة شفافة من اللحم، أو عظماً على عظم، لن تبذل المنية جهدًا في اقتناصهم؛ كانوا بؤساء تعساء منكوبين يائسين، ومغلوبين على أمرهم... وعلى شفا الموت.

تدخلت صلابته الأخلاقية، وأبت عليه الإسهام في قتلهم، أو أذيتهم. مهما فعلوا، فقد نالوا من العذاب أكثر من طاقتهم، لتذهب التحقيقات إلى الجحيم.

لن يدعهم طعمًا لأي نوع من الجوع، سواء العرضي، أو الهادف، أو الناجم عن قلة الموارد.

دعمًا للميزانية الفقيرة التي لن تتحمل إطعامهم، استولى المقدم على الأراضي المجاورة، وضمها إلى الفرع مؤقتًا، وكان أهاليها قد هُجروا منها، وأمر بزراعتها بالخضار، وشنّ عناصر الفرع حملة على المناطق القريبة المهدمة بيوتها التي نزح سكانها، وصادروا ما صادفوه من دواب وماشية وزواحف تسرح في اليابسة، وأسماك تسبح في الأنهار، وطيور تحلّق في الجو. هذا السماح اصطدم، في الأيام الأولى، بما خلّفه الشبيحة وراءهم، عندما مشطوا هذه المناطق، وأخلوها من أهاليها، لم يوفروا البقر والدجاج من القتل. عثروا عليهم جيفًا وعظامًا، وسيصادفهم الحظ ويعثرون على أعداد منها ناجية وشاردة.

بعد مشقة أيام، لم تكن الحصيلة قليلة؛ قبضوا أيضًا على عدد من الكلاب والقطط الشاردة، وبعض الحمير والبغال وعدة خراف هزيلة، وسطوا على بقرة هائمة على وجهها، وجمعوا ما صادفوه من زواحف وقوارض وجراد، وأسماك وحيات وضفادع طافية... وما زال البحث جاريًا.

الحل البديل الذي دار في رأس المقدم، وضعه قبل التنفيذ رغمًا عنه إزاء بالجملة، كأن هذا الجمع الغفير اشترك في مؤامرة واحدة.

تجوّل بينهم صباحًا ليرى تأثير خطته التجويعية التي بدأت، فقد حرمهم البارحة طعامَ الغداء، لا لهدف إلا ليتشفى بهم، جزاءً وفاقًا على ما ارتكبوه من جرائم. وكان يعلم أنّ من المبكر جدًا الحصول على نتائج ملموسة. هل ما يراه حقيقي؟ إذا لم يكن يحلم، فقد أخطأ طريقه إلى متحف العظام. وإذا كان يتخيل، فقد بالغ بتخيلاته، وتجاوز بتصوراته الحدود القصوى للتجويع المتعمد. تذكر أنه لم يتنازل منذ جاؤوا، ويتفقدهم وجهًا لوجه. أما وقد أتيح له إلقاء نظرات متفحصة عليهم، فقد استسخف اعتقاده أن منظرهم المأساوي هذا، كان من تأثير حرمانهم غداء البارحة، كان تجويعهم مزمنًا، لن يتعافوا إلا بأن يأكلوا. «أليسوا أعداء النظام؟». تدخلت صلابته الأخلاقية، وأبت عليه الإسهام في قتلهم، أو أذيتهم. مهما فعلوا، فقد نالوا من العذاب أكثر من طاقتهم، لتذهب التحقيقات إلى الجحيم. لن يدعهم طعمًا لأي نوع من الجوع، سواء العرضي، أو الهادف، أو الناجم عن قلة الموارد. الحل البديل الذي دار في رأس المقدم، وضعه قبل التنفيذ رغمًا عنه إزاء مأزق حيواني، لا يعدم جوهرًا أخلاقيًّا، يتعلق بالحياة المشتركة بين الكائنات التي تعيش على سطح البسيطة، فالحيوانات حتى لو لم تكن من البشر، لا تفتقر إلى الروح، وتتعذب مثلهم، وربما كانت في حياة سابقة بشرًا. كما أن الكلاب والقطط، كانت هي الأخرى جائعة، ومثلها الحمير والبغال، نجَت من القتل بمحض المصادفة، ليس

لِيُضحى بها في حرب ليست طرفًا فيها. بينما المعتقلون، شاؤوا أو أبوا، أطراف في ما يجري، والحرب حربهم، إن لم يموتوا من الجوع، فسيموتون تحت التعذيب. كان من العبث ذبح الحيوانات لإنقاذ ما لا جدوى من إنقاذهم.

فاختار سلامة الحيوانات، لكن خلفت لديه أزمة إنسانية.

قرر زيارة مستودع الحطام الإنساني النازف، ليودع المعتقلين الجوعى إلى مصير كانوا سببه. من جديد، لم يستطع تجاهل الهياكل العظمية، المكسوة بثياب رثة، لا تستر عاهاتهم وجراحهم وأحوالهم. تماثلوا بأقدام مكسورة، وأيادٍ مطعوجة، أصابع مسحوقة، وأظفار مقلوعة، حروق سوداء، كدمات زرقاء، جراح متقرحة، دمامل متقيحة، وأمراض معدية، لا يخلون من مصابين بالجرب والقمل، وربما السل والسحايا...

يا إلهي! الإنسانية مستباحة، هل يستبيحها هو الآخر؟ إذا كانت الشفقة على الحيوانات مطلوبة، فالشفقة على البشر لا تقلّ عنها.

اختار البشر، لا مفر من العيش، ولو كانوا سيدفعون كلفته من أجسادهم فيما بعد. هذا ما أرادوه، لا يستطيع حمايتهم منه، مصيرهم مجهول، ولو كان أسود.

تنفيذًا لخياره، أعلن عن حفلة شواء، وكان يوم جمعة. أمر على مضض، بذبح حمارين، وأجّل البغل والجحش، وما توافر من كلاب وقطط وطيور. فرم الحماران وتُبلت لحومهما بالبهارات، شُكت بالأسياخ، وأشعلت النار، وفاحت رائحة الكباب الشهية.

اقتعد المعتقلون الأرض، في انتظار ما اعتقدوا أنه عقوبة تأخرت، حلّ وقتها، وإن كانت حاسة الشم قد نبهتهم إلى أن عقابهم الحقيقي هبط عليهم من غمامة روائح الكباب حاملة معها ذكريات سيارين الغوطة، والنراجيل على ضفة بردى، وتبريد البطيخ في النهر، وتراشش الأولاد بالماء... عقوبة مصفاة بالحنين المرّ.

بغتة، اندفع العناصر بصواني الكباب المشوي والخبز المسقسق بالدهن مع زبادي السلطة المتبلة بحمض الرمان. لم تمتد يد إليها، ولم ينفتح فم. عطل هول المأدبة المروعة عقولهم، ولولا أن صوت المقدم علا مُصدرًا أوامره بالبدء بتناول الطعام، لمكثوا من شدة ذهولهم، صامدين رغم الإغراء، يعانون من ذكريات سيارين يوم الجمعة، عندما كانوا بشرًا.

تجول المقدم بين الأقبية والقاعات والغرف، يحمل سيخ اللحوم الحيوانية، يزدرد اللقمة إثر اللقمة بشهية وهمّة عاليتين، يشاطرهم الطعام نفسه،

ليكونوا على ثقة بأن الكباب غير مسموم. وأشد ما كان سروره، عندما ظهر البِشر والشبع على وجوههم، فوعدهم بأكلة كباب أسبوعية.

لن يخلف وعده، لن يكلفه الكباب سوى البحث عن الحيوانات المتخفية في دخان الحرائق، والهاربة من القصف، قبل أن تصيبها قذيفة أو تصبح أهدافًا للقناصة... وما ينقصهم يعفشونه من الموالين. لا رجعة عن الولائم، ستسهم في بث الحياة في أجساد هزيلة، وأرواح بائسة.

٣. العلاج

بعد ارتداد الروح إلى المعتقلين بحفلات الشواء، لاحظ بنظرة ثاقبة أن شهيتهم آخذة بالتعطل على وجه السرعة. كان التراجع في الإقبال على الطبيخ خلال الأسبوع واضحًا، ومثله على الكباب في يوم الجمعة التالي، كأنهم شبعوا رغم هزالهم، بينما كان طامحًا إلى تسمينهم.

لم يعسر عليه إدراك أن شبعهم المبكر، أسبابه الأضراس المكسرة والأسنان المخلوعة، كانوا يبلعون ولا يمضغون، فيعانون من سوء الهضم، والغثيان، عدا عن الشعور بالذنب، جراء أنهم ينعمون بما يأكلون، بينما تركوا عائلاتهم بلا طعام، ربما كانوا مشغولي البال عليهم، إضافة إلى ما أثاره الكباب الشهي من ذكريات في حياة كانوا فيها مطلقي السراح.

تلكؤ ظهور نتائج المرحلة الأولى، هددت النجاح الذي أحرزه بالفشل، ما حفزه على التفكير بولوج مرحلة يستدرك فيها ما سبقها. لا يمكن تحقيق تقدم نوعي فيها، إلا بعلاج موانع المضغ والهضم، عندئذ تستعيد مهمته الإنسانية مسيرتها الصاعدة، ما ينعكس على الفرع، بالقدرة على القيام بأي مهمة تسند إليه، تعود عليه بسمعة طيبة، وإن أحسّ بأن الإدارة غير مهتمة بتطبيبهم، مثلما كانت غير معنية بإطعامهم، باعتبارهم عابرين في الفرع، لا مقيمين فيه.

فكر بالاحتجاج لدى الإدارة بأن إنجاز ما أوكل إليه على أحسن وجه، يتطلب معالجتهم. لكنه عندما أعمل الفكر، لم يعسرعليه إدراك أنهم لن يوافقوا، وإلا ما أرسلوهم بحالة يرثى لها؛ مع أنّ ما تعرضوا له يفوق التنكيل إلى التمويت، وفي استعادتهم الصحة، ما يعني أنهم عادوا كما كانوا، وربما أصبحوا أقوياء، ما سيستثير غضب الإدارة.

فكر في ابتكار سبب يستدعي معالجتهم، فاستشار المفوض:

من الناحية الواقعية، ظروف الاعتقال الشكلية لن تتغير، سيكون تطبيبهم لحساب مغادرتهم إلى الفروع الأخرى، حيث سيواجهون تحقيقًا قاسيًا، سواء

كانوا مذنبين أو أبرياء، يفوق ما واجهوه من قبل، لماذا لا نعمل على تحضيرهم له... ما رأيك؟

المفوض رغم إعجابه بالفكرة، أراد تبصيره بعواقبها؛ نعم، خطوة الإطعام نجحت، والمعالجة إن لم تنجح، فقد تخفف آلامهم، ويصبحون أكثر تحملًا لجلسات الاستنطاق التي ستطول أيامًا، ليلًا ونهارًا، بعضهم سيلاقون حتفهم مبكرًا، فمن يشكو من ضعف في القلب، مات بالجلطة، والمصاب بطلقة أو شظية، جراحه تتقيح وتتعفن، ومن ينزف ستنشف شرايينه، ومن كان عقله مختلًا، يفقده نهائيًّا. أما الذين يعاندون ولا يموتون، فلا أبالغ إذا قلت إنّ حظوظهم سترتفع بالبقاء على قيد الحياة بضعة أيام أخرى، قبل مفارقتهم الحياة اختناقًا من شدة الزحام في المهاجع، أو كمدًا ويأسًا. إذًا لا فائدة، مجرد أنك تُعِدّهم للأسوأ... في النهاية، لن يكون البقاء إلا للأقوى، طبعًا أدركت مَن الأقوى، إنه النظام.

من سوء حظهم، أقول لا جواب نهائيّاً عندي، لماذا؟ الجواب ليس محيّرًا، بقدر ما هو مؤلم.

أصرّ المقدم على العلاج، لاحظ أن المعتقلين ليسوا من الأنواع الشريرة، فلاحون من قرى الشمال، عمال مياومون، شبان جامعيون، طلاب مدارس، مصلحو تمديدات صحية، بائعو خردوات، أصحاب بسطات، موزعو أدوية، وهناك من قدم من المناطق النائية، إلى محافظة أو مدينة قريبة ليتفقد ما حلّ بأب أو أخ معتقل، فقُبض عليه.

كانوا آباءً، مجرد آباء، وشبانًا، مجرد شبان، وأولادًا، مجرد أولاد... مساكين، أضناهم البعاد عن الأهل، وافتقاد الأب والأم والحبيبة، والزوجة والأبناء. فقدوا الأمل والرجاء، وملأت الحسرة نفوسهم، وانعكست عليهم بالقنوط من العيش.

لم يعنِ له المشهد العام الذي جمع بينهم سوى أنه يتسارع مبتعدًا بهم عن الحياة، ما دامت بواعث اليأس متوافرة، لا يمكن تجاوزها، خاصة بعدما اطلع على ما جاء بهم؛ لم تكن سوى المصادفات اللعينة، والحظوظ التعيسة، والوجود في المكان الخطأ والزمان الخطأ... جاء بهم إلى المعتقل. وسواء جلبوا هذا البلاء على أنفسهم، أو لم يكن لهم يد فيه، ينبغي تقويتهم بما يشد أعصابهم، ويحفزهم على عدم الاستسلام للموت، وتحمّل جلسات التحقيق، ربما اجتازوها بسلامة، مع بعض الكسور والجروح والتقيحات.

«ما أدراك؟ لماذا لا نثق بالمصادفات المحايدة، وربما السعيدة، قد تعطف عليهم، ولا تبخل عليهم بالحياة؟ وقد تنتهي الحرب ويحل السلام».

رفع المقدم إلى الإدارة تقريرًا يتضمن واقع حال المعتقلين الصحي المتدهور، مع التماس معالجتهم بالسرعة القصوى، ولا سيما أنّ وجودهم لديه في الفرع، بانتظار توزيعهم إلى الجهات المختصة، يُلزمه بتسليمهم بحالة جيدة، مع التمتع بقدر من الوعي، يساعد على تنشيط ذاكراتهم لاستخلاص أكبر كمية من المعلومات. وختم تقريره بطلب تزويد الفرع بأطباء وممرضين.

جواب الإدارة كان أسرع من السريع؛ لا ميزانية مستقلة للطبابة، وليست مهمة أي فرع، كما لا يحق للفرع ٦٥٠ الحلول محل المستشفيات والمستوصفات في معالجتهم. أما إذا كان لا بد من العلاج، فأرسل الحالات الخطرة إلى المستشفى العسكري.

قبل أن يُعدّ المقدم قائمة بالحالات الخطرة، اعترض المفوض؛ مسموعيات المستشفيات العسكرية في منتهى السوء؛ العلاج عقوبات مميتة، والعناية تعذيب مزاجي. وأصرّ على إبقائهم في الفرع، على أن يكون الأمر سرًا بينهما.

«الذين سترسلهم إلى المعالجة، لن يستثنوا أسوة بغيرهم من هذه المعاملة. دعهم يموتون هنا، على الأقل سيغادرون الحياة مرتاحي البال».

واقترح أيضًا على خالد بادرة مشابهة لعوز الطعام، بالاستعانة بأطباء من المتخرجين حديثًا تحت التمرين للحالات العادية، وأطباء مختصين متطوعين للحالات النوعية. وأن يُعلم الإدارة بالأسباب؛ الحالات الخطرة ميؤوس منها، وضعها المتردي لا يساعد على وصولها إلى المستشفى سالمة. وكان جواب الإدارة السريع نفسه، أضيف إليه:

... وتشمل تعليماتنا عدم محاولة انتزاع صلاحيات المستشفيات لصالح الفروع، مهما كان السبب، ولو كان بواسطة أطباء مختصين. عمومًا، الأطباء الجدد غير موثوقين، سيتمرنون بمعتقلينا، لن يكونوا أكثر من حقل تجارب لهم.

خلال هذا الأخذ والرد، يستحسن الإشارة إلى مواقف المحقق سامر، لئلا يُظن أنها مذبذبة، فقد أخذ جانب المقدم في بادرة الإطعام والطبابة، وأخذ جانب المفوض في عدم إرسال المرضى إلى المستشفى. لم تكن مواقفه لإرضائهما معًا، كانت مبدئية وواقعية، فهو ضد التجويع، ومع التخفيف من آلام المرضى، لكن المستشفى العسكري مكان غير صالح للعلاج. رغم إصغاء المقدم لمخاوف المفوض، لم يأخذ بتحذيراته، لا يعقل أن يقدم أطباء وممرضون على معاقبة مريض جريح أو التشفي منه، بدلًا من العناية به، ولا سيما ممرضات من الجنس اللطيف. لم يملك نفسه من الاحتجاج:

«يا عزيزي المفوض، إنهم ملائكة اختصاصهم الرحمة».

لم يعترض المفوض على الملائكة، بل على الاختصاص:

«ملائكة المستشفى، لا يسترشدون بملائكة السماء، بل بشياطين الحقد».

لم يستمع المقدم لنصائح المفوض، كانت مساعيه الخيرية منقادة أيضًا، لتعليمات رفيف، نقل إليها تقريرًا كاملًا عن كل خطوة سيخطوها، ما وفّر لها فكرة وافية عن أوضاع السجناء الصحية، فحثته على تنفيذ أفكاره العلاجية، وعدم التراجع عنها.

٤. عيّنة للاختبار

ارتأى المقدم تجميع المرضى وإرسالهم إلى المستشفى في عدة شاحنات. بينما اقترح المفوض، كمحاولة لتقليص الخسائر، عدم التفريط بهم؛ لا مكان يتسع لهذا العدد الغفير في المستشفى، مع أن مهاجع الموت كثيرة، لكن طاقتها على الاستيعاب تكاد تكون معدومة، قد يجدون لهم متسعًا في المستودعات، وما يزيد يرمونهم في الخلاء، ويضربون حولهم سياجًا من الأسلاك الشائكة.

أخيرًا، لم يجد بدًا من مصارحة المقدم بالحقائق القاسية، دونما مواربة. انتحى به في مكان بلا جدران، فللحيطان آذان، ولا سقف سوى سماء مدلهمة بالغيوم، ولا هدير طائرات أو قصف مدافع، كانت فترة استراحة بين وجبتين ناريتين. في ذلك الفضاء المشبع بالسكينة والسلام، وإن بلا أمان. همس في أذنه عما يرتكب في المستشفيات من فظائع يندى لها جبين الإنسانية خجلًا.

لم يربط تلك الأهوال بالإنسانية، ولو كان سلبًا، إلا لمعرفته بالمعايير ذات السوية العالية التي يتمسك بها المقدم.

... حسب شاهد عيان موثوق، تفتقد المستشفى الأولويات الضرورية من وسائل الإسعاف، مع تدني العقامة في غرف العمليات، وعدم توافر شروط العناية المشددة. كما لا رعاية حتى بالحدود الدنيا، بينما وسائل القتل متوافرة بحدودها القصوى.

لا ضمانة للعلاج، ضمانة الموت أكبر. إذا أردت قتلهم، فأرسلهم.

اقتنع المقدم، أفلحت ثقته بالمفوض في التغلب ببساطة على خطته؛ لن يلقي بالمعتقلين إلى التهلكة، أو ما يشبهها، وإن لم يأخذ بقصة تحول الأطباء والممرضات إلى مجرمين؛ هذا مستحيل، ربما هناك بعض المنحرفين، هؤلاء لا تخلو منهم مستشفى، ولا جامع أو كنيسة، أو حتى رياض أطفال.

لن يضحي بهم، سيعالجهم محليًّا ضمن الفرع، بالاستعانة بالمواقع الطبية على الإنترنت، يزودهم بأعراض الأمراض، ويسألهم عن الأدوية اللازمة، لن يبخلوا

عليه بالجواب. من جانبه، سيتقيد بإرشاداتهم.

هذا الحل كان من بنات أفكار رفيف، بعدما شاورها في أمرهم، وكانت تثق بالمفوض عن بعد، من دون أن تراه. وكان الاتفاق على أن يبقى الأمر سرًا بين ثلاثتهم، وإن لم يجهلوا أنّ المحقق مطلع على التطورات والتراجعات الحاصلة.

قبل أن يبدأ المقدم محاولاته الإلكترونية، فوجئ باتصال من الإدارة. كان خالد على الطرف الآخر، يتساءل عن التأخير في إرسال المرضى إلى المستشفى العسكري، إنّ التغاضي عن معالجتهم يحَمّل الفرع مسؤولية جزائية، وهي علامة سيئة تنال من تقييمه، إنّ منصبه كرئيس فرع يحتّم عليه تقدير خطورة تلكؤه عن اتخاذ إجراء سريع يضع حدًا لآلام المعتقلين.

«أنا على يقين من أن ضميرك لن يطاوعك على التخلي عن مسؤولياتك».

أصاب خالد الوتر الحساس؛ الضمير، نقطة ضعف المقدم، مدركًا أنّ ضميره المتشدد لن يكتفي بتأنيبه أو تعنيفه، سيرزح فوق صدره، ليلًا ونهارًا، يكبس على أنفاسه، وقد يقضي عليه.

«حياة البشر لا يمكن التساهل فيها بأي حال من الأحوال»، أردف خالد.

بالمقابل، سيأبى ضمير المقدم الصمت، فصارح خالد بأن التعامل في المستشفى يتجاوز الإهمال والشذوذ من الطاقم الطبي، إلى تعمد إيذاء المعتقلين المرضى بدعوى الخيانة، واقتصار عنايتهم على جرحى الجيش فقط، لا يلومهم على حماستهم الوطنية، لكن أن ترتد عكسيًّا على المعتقلين، أمر غير محمود. نعم، أخطأوا وتورطوا بأعمال ضد النظام، لكنهم أبناء هذا البلد، ربما كانوا أبرياء، المحاكم ستفصل في أمرهم.

«ما أريد قوله، إذا كان لا بد من المستشفى، فللعلاج لا المعاقبة». ختم المقدم مرافعته.

علا صوت خالد غاضبًا:

«اعلم أيها المقدم، لا سلطة في المستشفيات العسكرية إلا سلطة الطب. هذا ما يجب أن تفهمه. لقد أقسم الأطباء يمين أبقراط، كما أنّ الممرضين والممرضات أيضًا أقسموا قبل التخرج يمينًا من هذا القبيل، لا أظنهم يحنثون بها».

امتثل المقدم، ونفى شكوكه، وكاد أن يرسل الشاحنات بالمرضى، لكن المفوض كان بالمرصاد، لن يدع الأمور للإدارة، الحرب الخفية بدأت بينه وبين

خالد، كلاهما يستغلان النوازع الأخلاقية لدى المقدم، ولو كانت نيّات خالد لم تنكشف تمامًا، لكن بدا من إصراره، أنها ليست سليمة.

نصح المقدم بألّا يغامر بأكثر من عشرة معتقلين؛ عيّنة اختبار، وانتظار نتيجة العلاج، إن كانت إيجابية، ستبدأ الشحنات طريقها بانتظام إلى المستشفى، على أساس استلام شحنة أصحاء، مقابل تسليمهم شحنة مرضى.

راقت الفكرة المقدم، ووقع اختياره على ثلاثة مرضى بالجرب لئلا ينقلوا العدوى إلى رفاقهم، كانوا بحاجة إلى علاج، انكشط الجلد واللحم وبان العظم، من كثرة ما يحكّون. ومعهم المصابون بإسهالات حادة، عروقهم بدأت تجفّ، وأجسادهم على وشك أن تفرغ من السوائل، كذلك الذين ظهرت على أعضائهم تقرحات تفرز مادة صفراء، امتدت إلى الفم ومنعتهم من تناول الطعام. كان تعداد الشحنة الأولى عشرة مرضى.

النتيجة لم تكن إيجابية ولا سلبية، بعد ما يزيد على أسبوعين لم يعد أحد منهم.

بحدودها القصوى.

لا ضمانة للعلاج، ضمانة الموت أكبر. إذا أردت قتلهم، فأرسلهم. هذا الحل كان من بنات أفكار رفيف، بعدما شاورها في أمرهم، وكانت تثق بالمفوض عن بعد، من دون أن تراه. وكان الاتفاق على أن يبقى الأمر سرًا بين ثلاثتهم، وإن لم يجهلوا أنّ المحقق مطلع على التطورات والتراجعات الحاصلة. أصاب خالد الوتر الحساس؛ الضمير، نقطة ضعف المقدم، مدركًا أنّ ضميره المتشدد لن يكتفي بتأنيبه أو تعنيفه، سيرزح فوق صدره، ليلًا ونهارًا، يكبس على أنفاسه، وقد يقضي عليه. «ما أريد قوله، إذا كان لا بد من المستشفى، فللعلاج لا المعاقبة». ختم المقدم مرافعته. امتثل المقدم، ونفى شكوكه، وكاد أن يرسل الشاحنات بالمرضى، لكن المفوض كان بالمرصاد، لن يدع الأمور للإدارة، الحرب الخفية بدأت بينه وبين خالد، كلاهما يستغلان النوازع الأخلاقية لدى المقدم، ولو كانت نيّات خالد لم تنكشف تمامًا، لكن بدا من إصراره، أنها ليست سليمة. النتيجة لم تكن إيجابية ولا سلبية، بعد ما يزيد على أسبوعين لم يعد أحد منهم.

اعتقد المقدم أن حالات المرضى المتفاقمة أخّرت عودتهم، العلاج يلزمه المزيد من الوقت. لكن المفوض، حسب معلوماته، أنه من فرط تدفق جرحى الجيش والشبيحة على المستشفيات، كان الأطباء يستعجلون تخريجهم، ولو أنهم لم يشفوا تمامًا، لإخلاء الأسرّة للحالات المستعجلة.

بعد مضيّ شهر، استبطأ المقدم عودة الدفعة الأولى، اتصل بالمستشفى، وكان الرد مقتضبًا، التشخيص ما زال في مرحلة التخمين، فلم يطمئن، لا

يعقل أن التشخيص ما زال عالقًا في التخمين. في الاتصال الثاني، الفحوصات لم تنتهِ بعد، في انتظار النتائج. فاستغرب، أليس التشخيص يعقب الفحوصات؟ في الاتصال الثالث؛ إجراءات الدخول لم تستكمل، فطار صوابه، هل ما زالوا ملطوعين أمام أبواب المستشفى ينتظرون السماح لهم بالدخول؟ في الاتصال الرابع، إجراءات ترحيلهم ستنجز قريبًا، فاختلط على المقدم، وإن اعتقد أن الفحوص والتشخيص والمعالجة أوشكت على الانتهاء، وحان وقت عودتهم من المستشفى إلى الفرع.

ولئلا ينتظر طويلًا أو يتفاءل كثيرًا، نبّهه المفوض، إلى أنه لم يسألهم؛ إلى أين سيُرحّلون؟ فاتصل بالمستشفى وسأله إلى أين سيرحلون؟ فأُغلق الهاتف في وجهه.

المقدم اتصل بخالد وأعلمه بالفوضى الحاصلة في المستشفى، حتى إن إجراءات تطبيب المعتقلين تلخبطت بين التشخيص وإجراءات الدخول، كما لم يحظَ بجواب عن وجهة ترحيلهم!! هدّأ خالد من روعه:

الفوضى في المستشفيات واردة في الحروب، مثلها مثل أي وزارة أو مؤسسة في الدولة، ولا يشترط أنّ مَن كان يتكلم معك يعرف عن ماذا يُسأل، فالهاتف يرنّ، وبالمصادفة ممرضة أو ممرض وربما طبيب عابر، يستوقفه الرنين ويجيب بأي كلام.

وحثّه على عدم الانتظار، وإرسال أكبر عدد من المرضى إلى المستشفى.

لم يشجعه المفوض على الاصطدام بالإدارة، ما يجري في المستشفيات قد لا يعلم به خالد. عمومًا، ينبغي الامتناع عن إرسال أي شحنة مريضة قبل استلام شحنة معافاة مقابلها. غير أنّ شكوك المقدم كانت في تصاعد وغليان، فتجرأ وعبّر جهرًا عن عدم ثقته بالإدارة، وقرر إرسال المحقق لتفقد أوضاع مرضى الشحنة الأولى في المستشفى، والاستفهام عما حلّ بهم؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

الفصل الثالث والعشرون
الجحيم الأرضي

١. جولة في كواليس الموت

لدى وصول المحقق سامر إلى المستشفى، استقبله ضابط الأمن.

شاب تجاوز الثلاثين ببضع سنوات، وجه طفح، متورد ومتجهم، كتفان عريضتان وبنية متينة، اعتاد الصدامات والصدمات، المشاهد التي تطالعه يوميًّا في المستشفى علمته احتقار بعض أنواع الجنس البشري الموجودة في البلاد، الخونة طبعًا، وأتاحت صلابته البطش بهم، بما يستحقونه من قسوة، بينما المعاملة الطيبة، للشرفاء حماة الوطن، مع أنه لا يهتم لهؤلاء أو لهؤلاء، لكن منصبه الأمني يملي عليه التعاطف المبالغ به مع جرحى الجيش. أما الاعتناء بمظهره، فاستعدادًا لمواجهة عدسات التلفزيون، إن فاجأته على حين غرة، فسيجدونه بكامل لياقته الوطنية اللائقة، على استعداد للإطناب في الحديث عن بطولات حُماة الديار، وتضحياتهم العظيمة. عادة لا يضع الرتب العسكرية على كتفيه، يرتدي الروب الأبيض فوق ملابسه المبرقعة، الكثير من الأطباء العسكريين، رتبهم تعلو رتبته المتواضعة، مع هذا يخشونه ويجهدون في إرضائه، ولولا أنه يُلمّح بمناسبة وبلا مناسبة إلى أنه ضابط أمن المستشفى، لذهب الظن إلى أنه طبيب بلا اختصاص، مغرور ووقح.

بعدما تأكد من صفة المحقق سامر، اطلع على التكليف الصادر عن الفرع ٦٥٠ بالاستعلام عن معتقليهم، والعودة بهم في حال انتهاء معالجتهم. استغرب قدومه، فالفروع لا تستعجل على استلام مرضاها، غالبًا لا يهتمون بهم، ولا يرغبون في عودتهم، لديهم ما يفوق طاقتهم منهم.

عزز المحقق مطالبته بهم بضرورات التحقيق. لا مشكلة لدى ضابط أمن المستشفى من تسليمهم للموفد، صلاحياته واسعة، ولا موانع تعترض الطلب. اعتذر بأنه لا يعرف معتقلي الفرع، بمجرد أن يصبحوا في الداخل تصبح أسماؤهم أرقامًا، ترافقهم أين حلوا، في غرفة أو مهجع، أو قبر. عند تخريجهم من المستشفى، يُرجع إلى السجلات منعًا لحدوث خلط، فتستعاد أسماؤهم، لئلا يُرسلوا إلى فرع غير الذي جاؤوا منه.

هل تستطيع التعرف إليهم؟ سأله ليوفر على نفسه العودة إلى السجلات.

هزّ المحقق رأسه، كان يعرفهم. وادعى أنه كان يحقق معهم.

بدأت جولتهم في غرف المساجين، كانت أشبه بمهجع يضمّ زنزانات وأسرّة، كل اثنين، أو ثلاثة على سرير واحد، أيديهم وأرجلهم مقيدة، ومعصوبو الأعين.

الغرف بلا نوافذ، قذرة، لطخات سوداء على الجدران، قاذورات على الأرض، بصاق، دم، بلغم، بول، مفرزات سائلة، هواء راكد، ثقيل وخانق، ناموس وذباب، وصراصير تتسلق الجدران، وفئران تهرب إلى جحورها، وهوام يمخر فضاء الغرفة.

لم يتعدّ بحث المحقق عنهم سوى تأمل ملامح المرضى المعتقلين. ثمة عائق منعه من التحديق إلى وجوههم، لم يتغلب على ضيق في التنفس، إلا بعدما زُود بكمامة، مع هذا اخترقتها الروائح الواخزة. أحسّ بالغثيان، تخمرات الغائط والبول والقيح، تطفح من الأسرّة والجدران والأرض والسقف، وتطفو في الفراغ، كانت هي الهواء.

بات مروره بين المرضى ليس أكثر من أن يشملهم بنظرة سريعة، ثم المسارعة نحو الباب ليخرج قبل أن يتقيأ. وإذا كان قد توقف في إحدى الغرف للحظات، فلأنه رأى ممرضة تعنف مريضًا يرجوها مسكنًا للألم، هددته بالضرب، فتوسل إليها ثانية. مدت يدها إلى خرطوم بلاستيكي على مقربة من الحائط، أمسكته ورفعت يدها لتهوى به عليه. فصرخ عليها غاضبًا، فارتدت نحوه ترمقه بازدراء وتدمدم حانقة: لا تتدخل في ما لا يعنيك. وانتترت خارجة من الغرفة.

قهقه ضابط الأمن مفسرًا الموقف:

«تأكد تمامًا، لا ضرب بلا سبب».

«لكنهم مرضى».

«الممرضات جنس حساس، سريعات التأثر».

استنكر المحقق، ألا يهيب بها جنسها الحساس الشفقةَ على الموجوعين، بدلًا من الشتائم والضرب؟ فانزعج ضابط الأمن، لم يكن مضطرًا إلى الشرح، لكنه كتم غيظه، المحقق زميل له في السلك نفسه، ربما احتاجه يومًا ما. قال مبررًا:

نادرًا ما تصادف واحدة منهن لم تفقد عزيزًا. وكما ترى، نحن هنا على خطوط التماس، ماذا تكون الدماء والأيدي المقطوعة والرؤوس المتفحمة سوى أنها أسلاك شائكة؟ كأن القنابل تتفجر بيننا. أغلبهن لا يعدمن زوجًا أو حبيبًا أو قريبًا، عسكريًّا متطوعًا في المخابرات أو الجيش. تصور حالهنّ عندما يسمعن عن كمين للإرهابيين أوقع قتلى من الجيش، يتخيلن أحبائهنّ جثثًا مشلوحة في الوحل، تنخلع قلوبهن من الرعب، ولا يملكن انفسهن، فيضربن المعتقلين كيفما اتفق، حتى لو كانوا في النزع، فلا أكثر من أنهنّ يعجلن بموتهم.

كانا قد خرجا من غرفة ودخلا إلى غرفة مجاورة:

انظر، ما الذي تراه؟ خونة غاطسون في الخراء، لذلك تحاذر الممرضات لمسهنّ بأيديهنّ، يستعملن أحذيتهنّ، ثم امتنعن لئلا تتلوث بالجراثيم. وإذا انهلن عليهم بالضرب، فعن بعد، بأيّ شيء يطاولنه، عصا، خرطوم، أنبوب معدني.

ضبط المحقق أعصابه ولم يعلّق، لا يريد سوى لملمة معتقليه، ولو كانوا مغطسين بالخراء، والمغادرة معهم على وجه السرعة، مهما كانت روائحهم، لكن انتهت الجولة، ولم يعثر عليهم.

«إذا كانوا في المستشفى مقيدين وتحت الحراسة المشددة، فأين ذهبوا؟».

«هل يمكنك تحديد زمن إرسالهم إلى المستشفى؟».

«قبل شهر، هل حدث مرة، وسلمتم معتقلين لفرع آخر؟».

«هذه الأخطاء لا تحدث».

«ربما أطلق سراحهم».

«الأموات وحدهم يطلق سراحهم».

كانت النبرة التي يتحدث بها ضابط الأمن جازمة، تمنع أي تأويل، فأراد أن يكون مثله جازمًا، لئلا يظن أن كلمته نهائية.

«إنهم على قيود الفرع، نحن مسؤولون عنهم، لديّ تعليمات، عدم مغادرة المستشفى إلا بعد تسلمهم، أو معرفة مصيرهم».

«اطمئن، إن لم نجدهم، سنجد جثثهم».

«هل يعقل أن يموتوا جميعًا؟».

«يستحيل موتهم دفعة واحدة، وإذا ماتوا بالتقسيط، فجثثهم إن لم تكن في المستودع، فمُرحّلة إلى مكان ما».

وكي يبرهن للمحقق ألّا مجال لأي خطأ، لا بأس في إطلاعه على النظام الأمني الساري، المحكم جدًا. لا ريب سيقدره المحقق، فهو مثله يعتبر الأمن أهم من البشر، مثلما الوقاية خير من العلاج، وأهم من المرضى والأمراض. وإن بدا أشبه بالمزاح عن الاحتياطات الصارمة المتخذة.

«لدينا نظام يمتنع حتى على الفيروسات اختراقه».

«إذاً، سنعثر عليهم».

لم يرق للضابط يقين المحقق بالعثور عليهم، فهو لا يعرف أنّ المستشفى يعاني من مشكلات لا علاقة لها بالدواء والعلاج، ربما في إعطائه فكرة عنها، ما يجعله يراعي أنّ المستشفى ليس بالضرورة مستشفى.

... سواء عثرنا أو لم نعثر عليهم. أقول لك، لا يأتينا من الفروع سوى المشرفين على الموت، لا علاج ينفع مع غالبيتهم، فنسدي إليهم معروفًا، وندعهم يموتون. أحيانًا يرسلون إلينا جثثًا هامدة، لماذا؟ يريدون التخلص منها. ما الذي نفعله بها؟ تواجهنا المشكلة نفسها، فنودعهم في البراد، وما يزيد يتكوم في الممرات بلا تبريد، أو في المستودع، مع عدم توافر مانع تخمر، من أين نأتي ببرادات وممرات ومستودعات وتهوية؟ توارد الجثث لا ينقطع، وإمكاناتنا محدودة، إن لم نسارع إلى نقلها تتعفن؛ تأخرُها لدينا ناجم عن انتظارنا لجهات تطالب بها.

فحوى الحديث، إذا كانوا في المستشفى، سيجدونهم حتى لو كانوا متعفنين.

كانوا في طريقهم إلى حيث تتكوم الجثث، لا بد أنهم هناك.

في المشرحة، كان الطبيب الشرعي واقفًا على مقربة من الجثث المكدسة فوق بعضها، منحنيًا فوق جثة على النقالة، كلما انتهى من واحدة يزيحها عسكريان، ويمددون غيرها، يُشخّص أسباب الوفاة من دون إلقاء نظرة عليها، يقرأ الرقم المكتوب على صدر الميت، يتأكد أنه مسجل على القوائم، ثم يكتب: جلطة دماغية، احتشاء، سكتة قلبية، خنّاق، نزف حاد... لا ذكر للكدمات والسحجات والحروق والكسور والجراح على الوجه والأيدي والأرجل والصدر والبطن والظهر... بينما لا جسد يخلو منها. كما لا أثر للمعتقلين بين الأموات. عرّجا إلى برادات المستشفى، النتيجة نفسها، كانت طافحة بالجثث، وعمال التنظيفات يحملون ما فاض منها ويرمونها في المراحيض. تساءل المحقق مستنكراً:

«إذا كانت المراحيض تحولت إلى مخازن للجثث، فأين يقضي السجناء حاجتهم... في الفراش؟».

«المراحيض قيد الاستعمال، لا يجوز حرمان المعتقلين التغوط والتبوال».

«ألا يتعثرون بالجثث؟».

«طبعًا، أحيانًا، المصادفة، لا تخلو من طرافة، يتعثر أحدهم بجثة سجين، كان ينام البارحة إلى جانبه في السرير».

يا إلهي! هتف المحقق مذعورًا.

نظر إليه ضابط الأمن شزرًا. أثار انزعاجه تعاطفه مع موتى المراحيض، عَذَره، هؤلاء الذين يعملون محققين في المكاتب لديهم عناصر يتولون عنهم التعذيب والقتل.

كانت فرصة ليرفع من مناعة المحقق المذعور، باغتنام هذه الفرصة بالحصول على تدريب بلا مقابل، يتميز بوفرة الموت والأموات. سارع نازلًا الدرج إلى قسم المستودعات، لحق به المحقق. دفع الضابط بقبضته الباب، فانفتح ودخلا.

بدا المكان الفسيح ضيقًا، يغصّ بالأموات، الجثث عارية، مبعثرة على الأرض، تسترها مزق من أسمال بالية؛ رجال كبار، شبان، أطفال، طُبعت أجسادهم بكدمات زرقاء وحروق سوداء، حول المعاصم آثار سلاسل معدنية، علامات خنق على الأعناق، منزوعو الأظفار، بلا أعضاء تناسلية، أو متقلصة، أو متفحمة. بعضهم إن لم تقطع يده أو قدمه، فالأنف أو الأذن، أو قلعت عينه. هياكل عظمية، لا تخفي ما تكسر، وسحق أو تحطم منها، وجوه لا تزيد على تجويفين، وعيون جاحظة وكابية تنطق بالألم والرعب والخوف والرجاء تحدّق في ذلك الشر المطلق. جنود بإمرة ضابط، يتنقلون ببطء بين الجثث، كل اثنين أو ثلاثة يتولون عملًا، مشغولون بتصويرها، أو بكتابة أرقام على جبين المتوفى أو صدره، أو تغليفها بأكياس من النايلون، تنقل إلى الخارج لترمى في الشاحنات.

تجاهل ضابط الأمن الصدمة على ملامح المحقق المشدوه، ولم يُعنَ بتبديد ما راوده حولها، التدريب يعني أن يكون عمليًّا، ما دامت الإجراءات روتينية، فلا غبار عليها، كانت ضمانة للأموات بأنهم ماتوا.

شرح له الجانب العملي؛ توثيق الوفيات في السجلات، وإرفاق صورة عن تشخيص الطبيب الشرعي، ليكون أهل المتوفى، عند تسلم جثته، على بيّنة بسبب الوفاة، فلا تخالطهم الوساوس في أنه قتل تحت التعذيب، إلا إذا كان إرهابيًّا، عندئذ من سيأبه لكيفية موته؟ بينما مجهولو الهوية ترسل جثثهم إلى المقبرة. أما الحالات الخاصة، فتحرق، تلك التي يحبذ فيها معاقبة الأهالي، بحرمان أقربائهم الدفن.

هذه الإجراءات تمنع احتجاز الجثث والتخفي عليها، ولا تسمح لذوي النفوس الضعيفة من بيعها لأقارب المتوفى، أحيانًا يُغضّ النظر عن هذه التجاوزات، إذا كان ذوو النفوس الضعيفة من العاملين في المستشفى فقيري الحال، ندعهم ينتفعون من الاتجار بها.

بدا البحث عبثيًّا، بعدما طلعوا أدراجًا، ونزلوا أدراجًا، وفتحوا سجلات الأموات والأحياء وأغلقوها، لم يعثروا على أسماء المعتقلين العشرة، حتى في قوائم

الجثث التي أحرقت، أو دفنت في مقابر جماعية مجهولة الموقع. المحيّر أنهم كانوا على قوائم الاستلام، لا على قوائم الترحيل.

عبّر المحقق عن شكوكه: «لا بد جرى بيع جثثهم خفية، من دون علمكم».

الضابط لم ينكر؛ لا شيء مستبعد.

طلب المحقق من الضابط إعطاءه تصريحًا موقّعًا من إدارة المستشفى، يدل على أن المعتقلين العشرة فُقدوا داخل المستشفى، ولم يعودوا بحوزتهم. رفض الضابط، قد يُظن أنهم هربوا. تعلم، يستحيل هرب عشرة أشخاص في حالة احتضار، لا أحد هنا يسترد عافيته. كان يتكلم بصوت عالٍ، فجأة التفت نحو المحقق، وتساءل متعجبًا:

«هل أنتم في الفرع تهتمون بحياتهم فعلًا؟».

كان في السؤال تذكرة بأنهم في الفروع يقتلون عن عمد.

«التحقيق معهم ما زال جاريًا».

تردد الضابط، صحيح الفروع تقتل، لكن بعد التحقيق لا قبله.

ما زال هناك مكان، لكن يُعتبر سرًا، هل يحجبه عنه؟

٢. الغرفة السوداء

لا بأس، ما دام هذا الذي يتحرى عن مرضاه محققًا في الفرع ٦٥٠، هذا المكان ضمن الحدود المجهولة للمستشفى، قد يصادف ما يبحث عنه في داخله، مع أنه يستحيل احتجازهم فيه، لكنه بهذا يقطع الشك باليقين، ولا يشاع أنهم انتفعوا بجثثهم. ومن جانب احترافي، يطلعه على نمط آخر للموت والأموات.

«الغرفة السوداء». امتياز، لم يحظ به إلا القلة.

اعتقد المحقق أنها غرفة طُليت جدرانها باللون الأسود، لكن الضابط سينفي الطلاء والجدران، ولن ينكر السواد، ليس بسبب اللون، بل لظلامها الدامس الذي لا يشوبه نزر، ولو ضئيلًا، من الضوء. غرفة واسعة عبارة عن مهجع صغير، لكنه يتسع للعشرات، لم تظفر به أي مستشفى، فالأسرّة على طبقات، يربط إليها معتقلون، زجّ بهم بناءً على توصية من بعض الجهات المسؤولة، يحتوي على حالات خاصة لأشخاص يراد التشفي منهم، ولو عن بعد، تنفيذًا لوعود أزجيت إليهم بتمويتهم خلال أطول فترة ممكنة، عُهد إلى المستشفى بتأمين الزمن والأسلوب.

... أحيانًا، تكون طلبات الأجهزة الأمنية وغيرها، مصحوبة بإملاءات مشوشة، علينا التقيد بها رغم غموضها، حتى لو كانت تعجيزية، الموت مفهوم، كما أن إطالته مفهومة، لكن ماذا عن تجديده؟ لن يخطر لك، يراعى فيه، تحديد بدء بالعقاب، وعندما يقارب على الانتهاء، المسارعة فورًا إلى إيقافه، قبل النفس الأخير للمعتقل، ثم معاودته بعد التقاطه أنفاسه... وهكذا دواليك. نعم، شيء ما من هذا القبيل، ليس من السهل تنفيذه.

يتطلب تمديد فترات ما بين نزعات الموت، مراقبة متواصلة ودقيقة، قد نفقد المعتقل بين نَفَسٍ ونَفَسْ. أصارحك، نحن نضيق بهذه الطلبات، لدينا مسؤولياتنا ومتاعبناً، الكادر متواضع وغير كفء لأداء مهمة معقدة، تحتاج لتنفذ على أحسن وجه إلى جهد ومثابرة، بينما نحن مستنزفون، ولا أسرّة كافية.

انصرفنا إلى إيجاد حلول، ابتكرها الطب، لا يكفي الذكاء لا بد من الحقد أيضًا، وأن يكون نوعيًّا، الحقد الوطني، يقال إنه الطائفي نفسه ربما، كلها سيّان. لتنجز بأمانة. فكّر الأطباء، بعد الأخذ بالاعتبار، ضآلة إمكانات المستشفى، ما يساعد على مطمطة التعذيب لأطول وقت ممكن، فتوصلوا إلى عملية تستوعب الحالات جميعها، تسمح بالتركيز على التقدم المتمهل للألم وتصاعده، تخلف شعورًا لدى المعتقلين بالتسلل الوئيد للموت، مع انسحاب الروح المتمهل من الجسد، أي الإحساس بأن الروح وصلت إلى الرمق الأخير، دون أن تبلغه، وأنهم في حضرة قابض الأرواح، يمارس عمله بصبر ودأب؛ يفرمهم ويسحقهم ويخنقهم، كل هذا بتؤدة، يأخذهم إلى حافة الموت، ويدعهم في وضع احتضار مثالي، يستمر دونما هوادة لساعات وربما لأيام، أو...؟ ريثما يفلت من أيدينا، عندئذ، يحل النهائي، إن لم تطل رغم جهودنا.

نطلق عليها: الموت بالتقسيط، وإذا طالت إلى الحدود القصوى، نطلق عليها: الموت بالتنقيط.

لو لم تكن مسلية، لكانت مرهقة، بسبب دقتها، ولقد نجحنا في تحقيق المطلوب بمنتهى البساطة، في ابتكار الغرفة السوداء، عتمة شاملة، لا ضوء. عملية تحتاج إلى وقت ومزاج، مع توفير تعذيب غير مرئي، وتمويت بطيء، من دون جهد، أو أقل جهد ممكن؛ بمنع الطعام والدواء عنهم، ليس غير الهواء النتن يقتاتون منه، وتركهم للزمن وللأوهام، فيتخمرون مع الوقت، ويلفظون أنفاسهم على المدى الطويل، تُجهز عليهم وحشة الظلام، ورهبة السواد، وأهوال مخاوفهم، وضراوة آلامهم. تشارك فيها الجدران الكتيمة والباب المغلق، ما يوحي إليهم أنهم في قبر، يتردد فيه صراخهم المتقطع، يخفت مع تلاشي أصواتهم، إن لم تتقطع حبالهم الصوتية، يرتد صراخهم خريرًا مبحوحًا.

هذا كله يحدث تحت الرقابة.

هذه العملية، رغم إحكامها، لا يمكن ضبطها تمامًا، لتصل بهم بسلاسة إلى الهلاك، انسلال أنفاسهم الأخيرة لا يحصل بيسر، الموت يستوجب استسلامهم الكامل، لكنهم يتعلقون بالحياة، ولو أنهم في قبر، وإن كانوا ينشدون الموت أكثر، لكن يتعذر عليهم ملاقاة حتفهم، فيطول النزع من جديد، إلى أن يربض الموت فوق صدورهم، لا محالة، ويخنق أنفاسهم، نفسًا وراء نفسٍ، إلى ازهاق آخر نفس.

ثمة حالات عجائبية؛ معتقل هو أصلًا مريض بمرض مميت، يعاند الطب، لا تصرعه المنية، ويطول احتضاره، عالق بين الحياة والموت. المتوقع حسب حالته وعلى أبعد تقدير، وفاته خلال أسبوع أو أسبوعين، لكنه سادر في غيبوبته، يستطيب سكرات الموت، بلا موت، كأنما بلا نهاية! ما العمل؟ عندئذ إن لم يتدخل طبيب، وينتزع روحه الملتصقة بحلقه، والمتشبثة ببلعومه، بحقنة كالسيوم مميتة، فقد لا يموت أبدًا.

استعمال حقن الكالسيوم ليس عشوائيًّا، لا بد من سبب، ليس الشفقة أبدًا. أحيانًا يضيق الطبيب بهذيان المريض وفحيحه، فيحقنه بها مدعيًا أنه لم يموت، وقد تكون حجة مدعاة للشك، لا يُستبعد أنه يريد أن يفعل شيئًا لوجه الله، هل نعاقبه؟ ما أدرانا بنيّاته؟ أنين النزع الأخير لا ينبغي أن يثير الرحمة، الجميع يئنون حتى من دون اقتراب الموت. حقن الكالسيوم للمحظوظين فقط، من التبذير هدرها. فهي غير متوافرة إلا بأعداد محدودة جدًا، يُحتفظ بها احتياطًا، لحالات طارئة ترسل إلينا على أنها مستعجلة، لا يُتطلَّب إنهاؤها بالسرعة القصوى، بل في التوّ واللحظة، علينا أن نكون مستعدين للأوامر وعكسها. عمومًا، تتساوى الحالات البطيئة والمستعجلة، جميعها مآلها المقابر الجماعية، ثمة استثناءات؛ جهات تصرّ على إحراق الجثة، لا دفنها. لماذا؟ إنها أمزجة.

لم يخطر للمحقق سوى الاستفسار عن هؤلاء الأشخاص الخطرين جدًا المقصودين بهذه الترتيبات:

«تُرى ماذا فعلوا؟».

«شتموا الرئيس، ولم يتراجعوا».

«هل تجرأوا؟».

«إنها ذريعة، ربما كانت كيدية، مَن يدري؟ ليس بوسعنا فعل شيء إزاءها، هذا يحتاج إلى تحقيق، أنا غير مخول به، ما دام هناك اتهام فُصل به، سواء كان صحيحًا أو غير صحيح. إذا كانت لديكم حالات في الفرع تريدون التخلص منها

بهذا الاسلوب، يمكنكم التذرع بهذا السبب، حتى لو علمنا بأنكم تكذبون. طالما يُظن أن هناك ما يمسّ الرئيس، ولو بكلمة، لا تعدو سوى اشتباه».

المحقق لم يستغرب، العقوبة تجاري الأوضاع، ما دامت الهتافات تنادي بـ«الأسد أو نحرق البلد»، فليس من المبالغة قتل المئات والآلاف من المشكوك فيهم، مهما كانت درجة هذا الشك، إزاء حرق بلد مع أهاليه.

أنت الآن تقف على عتبة الغرفة السوداء، هل تدخل؟

خطر له ألّا يدخل، المعتقلون العشرة أشخاص مساكين لا يشكلون أية خطورة على النظام، وأبعد شيء عن أذهانهم شتم الرئيس، أصلًا لم ترافقهم أية توصية، ثم إن ضابط الأمن لم يبخل عليه بفكرة وافية عن الغرفة السوداء. فلماذا يدخل؟ لكنه الفضول.

لم يفصله عنها أكثر من خطوة، فخطاها.

لم يكن السواد سوى الظلام المحتقن في المهجع المزحوم بجثث بدت بلا حراك، لا بد أنها مقيدة اليدين والقدمين، عتمة شاملة، لا بصيص ضوء، كتل فاحمة السواد، لا يظهر منها رأس أو ساعد، لا جذع أو مؤخرة، وإذا لمع شيء، فربما كان انطفاء عينين، أو وميض دمعة، أو خمود لمعة سنّ ذهبية. تتردد الأنفاس مضطربة، يسمع حشرجة، وربما شهيقًا أو زفيرًا، غمغمة أو جمجمة، همهمة أو هسهسة، وربما شهيق لاهث أو زفير مخنوق... أو طلوع روح. ثم يخيّم الصمت. كان السكون نجاة من الحياة، وإن مؤقتًا.

فجأة دوّت صرخة مجنونة بالألم، ارتعدت من هولها فرائص المحقق، وانفطر قلبه من شدتها، تداعت على أثرها صرخات أيقظت الأوجاع من غفواتها، ضجّت بها الجدران. تمنى في تلك اللحظات، وهو يتخبط في الظلام، الاختفاء فيه، لقاء ألا يسمع شيئًا، لم تكن آلامهم سوى صدى أحزانهم الغائرة في بهيم ماضٍ، كان عذبًا وعذابًا.

لهب عود الكبريت الذي أشعله الضابط، أضاء نزرًا من عتمة المكان، وأنار ملامح لوجوه من فرط نحولها كانت متشابهة؛ خدود ضامرة، جباه بارزة، عظام ناتئة، عيون جاحظة، تجمدت حدقاتها على صخب اللاشيء، فلا اللهب الآفل، ولا البصيص المتماوت، حرك فيهم رغبة للعيش، ولو لبرهة.

سيفلح عود الكبريت الثالث، بعدما أخفق الأول والثاني، في عثور المحقق -ويا للعجب!- على ثلاثة من المعتقلين، لم تهمد أنفاسهم بعد. وسيتذكر ضابط الأمن أنّ رفاقهم السبعة أسلموا الروح خلال الأسبوعين السابقين، لم يعد لهم من أثر، فكأنهم لا دخلوا ولا خرجوا.

قال المحقق أنه سيراجع الطبيب المسؤول، ربما استطاع إنقاذ الثلاثة في لحظاتهم الأخيرة. فقال ضابط الأمن، لا تحاول لا يستطيع الطبيب تخريجهم، ما زال فيهم عرق ينبض. التعليمات تقضي بأنّ من يدخل الغرفة السوداء لا يخرج حيًّا. عندما يموتون فعلًا، يخرجون من الغرفة إلى مثواهم في التراب، أو نيران المحرقة... إنها التعليمات. أما الجهة صاحبة التعليمات، فغير مصرَّح بالبوح بها.

وباءت جهود المحقق بالفشل الذريع.

٣. من الذي يدير الظلام؟

عاد المحقق إلى الفرع بلا معتقلين ولا مرضى ولا أموات، وإن كان منتفخ الوفاض بما صادفه في المستشفى، كان شاهد عيان، على ما يفوق الوصف ولا يمكن تصديقه. حتى إنّ المقدم كاد أن يُغمى عليه من هول ما سمع، وأعتقد أنّ المستشفى كانت خارج حدود الجمهورية، لا سلطة للدولة عليه.

هذا، ولا يزال يروي له مقتطفات من جولته في زنزانات المعتقلين والمشرحة، فماذا لو تابع؟ لا بد من بعض المبررات، ليتهيأ المقدم للأدهى.

... في الواقع، يُشك في أنه مستشفى، ما دامت تتحكم فيه شبكة معادية للمرضى؛ ضباط حاقدون، وأطباء مهووسون، وممرضون سفلة، وممرضات مجنونات. لذلك، لا يُستبعد أن يحدث فيه أي شيء، ربما جرائم. تخيل مثلًا...

رأفة بالمقدم، سيمتنع عن ذكر بعض التفاصيل، فلم يأتِ على ذكر الروائح الكريهة، والمراحيض القذرة، والجثث المتعفنة... مع هذا، حاول التهوين بإيراد بعض الأعذار حول اللبس الحاصل في ما إذا كان المستشفى، مستشفى فعلًا.

لكن لا مفر من تسريب أجزاء من الحقيقة.

... مهما قلت، فالطاقم الطبي يتألف من أطباء وممرضين سليمي العقل تمامًا، مثلي ومثلك، ولو كانوا أوغادًا، يعملون حسب قدراتهم وإمكاناتهم، مع نقص حاد في الدواء، والمواد الإسعافية. بالمقابل، المرضى مكدسون، والأموات مكدسون، لا تمييز بينهم، جميعهم سواسية!! ما يضطرهم إزاء عشرات، وربما مئات الحالات القابلة وغير القابلة للشفاء، المعقدة، والميؤوس منها، إلى علاجهم بالتخلص منهم، ربما استعملوا القرعة، فوقعت على معتقلينا العشرة.

كل هذا اللف والدوران، وما زال في الدائرة نفسها، فلم يستطع إغفال «الغرفة السوداء»، المقدم لم يفتر عن التساؤل، ماذا بعد وقوع القرعة على معتقلينا العشرة؟

«بقي منهم ثلاثة».

«لماذا لم تأتِ بهم؟».

تابع المحقق، ولو أنه سيغفل الحقيقة كاملة من مشاهداته، ليمنع المقدم من إثارة قضية، قبل التفكير بعواقبها.

«فقدناهم أسوة بالسبعة الذين سبقوهم في الغرفة السوداء. يستحسن عدم إرسال دفعة أخرى».

وكي يثبّط من عزيمته، لم يُخفِ عليه انطباعه:

«إنهم في المستشفى لا يتصرفون منفردين، بل بموجب تعليمات من جهات مجهولة، صنفت الحالات وآلية التعامل معها».

استنكر المقدم ما يسمعه، لا ريب أن المحقق أخطأ التقدير، عادة التجاوزات فردية لا جماعية، وإذا كانت جسيمة، فلا يسكت عنها. وفي حال كان وراءها جهات مجهولة، فسيلجأ إلى جهات معلومة؛ لا أقل من إعلام الجهات العليا. عقّب المحقق:

«ربما كانت الجهات المعلومة هي المجهولة نفسها».

لن يخفي مشاهداته، لئلا يتورط المقدم بالاتصال بأية جهة، قبل أن يعمل حسابه لما سيواجهه، خاصة إذا كانت الجهات العليا مقصودة بالذات:

«هذه الجهات لا تجهل ما يجري، بل وتشجع عليه، وتحثّ العاملين في المستشفى، إن تماهلوا، على تدارك التقصير، برفع معدلات الوفاة».

من فرط خطورة ما يسمعه، لم يأخذ المقدم به، يستحيل تصديقه، لكنه لم يهمله، مشاعره أوذيت في العمق، وأججت غضبه. كانت دموعه تسيل وحدها؛ مهما كانت أسباب المستشفى، لا يحق لهم قتل معتقلين مرضى، أنهكهم العذاب، ومستسلمين تمامًا، عُزَّل لا قدرة لهم على الدفاع عن أنفسهم، ليس لهم إلا آلامهم والأنين.

حاول المحقق تهدئته، لكن المقدم لم يتروَّ، ولو كانت جريمة محلية، لكنها تضارع الجرائم الإنسانية الكبرى، تمسّ الوطن في الصميم، ينطبق عليها وصف الإرهاب الطبي، ولم يكن حذرًا باتهام الإدارة، وخالد بالذات، الذي خدعه وطلب منه إرسال أكبر عدد من المعتقلين، لم يكن إلا بقصد القضاء عليهم، باحتجازهم في «الغرفة السوداء» اعتباطيًّا، بلا مصادفة ولا قرعة، بل متعمدًا. لن يسكت عن هذه الجريمة.

سكت المحقق، ما دام المقدم قرر ألّا يسكت، فيستحيل تفادي مصيبة لا ريب واقعة، فات أوان تحذيره من الإتيان على ذكر التعذيب في المستشفى، المقدم ماضٍ في ثورته، القضية بالنسبة إليه تستحق الذود عنها، ومغرية بأن تثار على أعلى المستويات.

أدرك المحقق عبث إقناعه، ما الجدوى؟ هذا إن لم ترتدّ عليه.

بينما كان السؤال الذي يلحّ على المقدم في منتهى الصواب، تتوقف عليه حياة بشر، وإيداع المجرمين المسؤولين وراء القضبان، وهو يسأله:

«مَن الذي يدير الظلام في الغرفة السوداء؟».

وأردف سؤاله بالقول إنه واثق من أن ليس هناك مَن هو أقدر من الرئاسة على الجواب، وواثق أيضًا من ألّا جواب لديهم، لماذا؟

لأنهم لا يعرفون.

لم يستطع المحقق الاستماع إلى المزيد من هذر المقدم، كأنهم هناك يهتمون بإنقاذهم، لن يصغي إليه أحد، سيرتدّ السؤال ضده، لكن كيف يقولها له؟

«ماذا لو كان هناك في جهاز الرئاسة مَن يدير الظلام؟ إن لم يكن بأوامره، فحسب تعليماته. من يجرؤ غيرهم؟ فكر معي يا سيادة المقدم».

«هل تقصد...؟».

«ربما...».

ولم يكن عسيرًا عليه شرح أنّ ما يجري في المستشفى لا يوحي، بل يؤكد على نظام متكامل، يدار على هذه الشاكلة منذ بداية المظاهرات، أنتج طبابة إجرامية مبرمجة، لا يمكن إصلاحها ولا تعديلها، إنها مصممة هكذا، من بوسعه رسم هذه الخطط؟ لا بد من وجود مستشارية لشؤون التعذيب، لِمَ لا؟

تابع المحقق بذل جهده لثنيه عمّا اعتزمه، عسى يحوله عن قراره، ويغلق في وجهه الطريق إلى الرئاسة.

«حتى لو استمعوا إليك، وكان لديهم علم أو لم يكن، فالمستشارية ستحيل سؤالك على المخابرات، ومنها على الإدارة، هناك تلفلف، فالمستشفى لم يقتل المعتقلين السبعة، والثلاثة على الطريق، إلا بالتنسيق مع هذه الجهات».

إضافة إلى ما قاله، تقصّد تذكيره بالظروف القاهرة للحرب، وتجاوزاتها القاسية، ربما المقدم نسيها أو غائب عنها، لا يعرف أنه بمجرد القبض على أحد، يُعتبر بحكم الميت، من دون المرور بالمستشفى.

«في هذه الأوضاع، ليست المستشفيات إلا إحدى ساحات القتال، تختلف عن غيرها بتوفيرها مكانًا هادئًا لتصفية المعتقلين».

نظر المقدم إليه يائسًا، فخفف عنه، هناك أمل:

«هذه المظالم ستنتهي بانتهاء الحرب، فلا تتوقع حاليًّا أن يتغير هذا النوع من الموت المبرمج».

وخلص إلى القول: الأفضل، معالجة المرضى هنا سرًا.

بدا المقدم في صمته موافقًا، لكنه لم يكن يسمع، كان يتكلم مع نفسه، وقد تمحورت شكوكه حول تسلسل أحداث، كانت مريبة؛ الإدارة لم تقصد بتجويع المعتقلين سوى أن يتماوتوا بالجملة، وعندما استبطأوا موتهم، لم يكن الحثّ على إرسالهم إلى المستشفى، إلا للإجهاز عليهم.

لم يفُه بكلمة، فأيقن المحقق أنه اقتنع بما قاله له، فلم يخطر له ما هاج وماج في دخيلته، وإن نفسه سوّلت له ألّا يدع المعتقلين الثلاثة طعمًا للموت، وأنه صمم على الذهاب إلى المستشفى، وإدراكهم قبل أن يلتحقوا بالسبعة. كان يريد إنقاذهم بأي ثمن.

غادر المحقق الفرع مطمئنًا إلى أنّ المقدم لن يغامر بأي عمل، ما دام أي عمل لا جدوى منه. في صباح اليوم التالي، جاء مبكرًا، ليثابر على منع المقدم عن التحرك في أي اتجاه، وإجباره على ملازمة الفرع، قبل أن يغير رأيه.

عندما دخل إلى مكتبه، لم يجده، انتظره فلم يأتِ. وعندما جاء المفوض وسأل عنه، قال له إنه غادر البارحة بعد الظهر، ولم يعد. حاول الاتصال به اليوم أكثر من مرة، لكن أحدًا لم يرد. منذ قليل اتصلت به فتاة تدعى رفيف، قالت إنها خطيبته، استعلمت عنه.

أما عن توقعاته، فأوجزها للمفوض؛ إذا كان المقدم خرج ولم يعد، وافتقدته خطيبته، فقد ذهب إلى القصر الجمهوري، لم يجد أحدًا يستمع إليه، فتابع طريقه إلى الإدارة، سمع خالد منه، وأمره بالتزام الصمت ثم طرده. وفي الحالين، سيعود خائبًا، وبما أنه لم يصل إلى الفرع بعد، فهو يجوب الشوارع على غير هدى، وحان وقت عودته.

ولم يُخفِ أيضًا عن المفوض أسوأ توقعاته، وربما ذهب إلى المستشفى، والأغلب استقبله ضابط الأمن، ورافقه في جولة على أقسام المستشفى، ويظن، أنّ الجولة إذا كانت قد انتهت، فبأسوأ نهاية، على الأغلب، تهور المقدم حسب المعتاد، وأقدم على عمل أو تفوه بكلام، وتشاجر معهم، وأصيب بجرح أو أكثر، ربما كانوا الآن يضمدونه أو يحبصنونه.

بعد ساعتين، تفاقمت مخاوف المفوض بالاستعانة بمخاوف المحقق التي تسارعت: ربما كان المقدم محتجزًا في المستشفى، يتعرض لتحقيق أمني. ستكون نتيجته، تقييد يديه وقدميه، وتطميش عينيه، وتكميم فمه، ولا يستبعد أنّ يكون التحقيق قد انتهى خلال الليل، وهو الآن مربوط إلى السرير مع معتقل آخر، جائع وعطشان، وإذا كان محصورًا، فقد بال في بنطاله.

لم يأخذ المفوض بوساوس المحقق كثيرًا، إذا كان المقدم رأى المعتقلين يتغوطون ويبولون في أسرتهم، فغالبًا ردعه منظرهم، ولن يقدم على ما يمنحهم مبررًا لاعتقاله، لكن بعد مضيّ ساعة أخرى، لم يستبعد أنهم إذا كانوا قد استقووا عليه واحتجزوه فعلًا، لأنهم لم يصدقوا أنه رئيس فرع، ما دام الفرع لا نشاط له، وغير معروف إلا في الأوساط المخابراتية، فاعتقدوا أنه ضابط مزيف، والفرع وهمي.

لن يبالغ، حتى لو بات المقدم ليلته في المستشفى، فلن يصيبه أذى. بعد قليل سيتصل ضابط الأمن مع الأجهزة، هذا إن لم يكن قد اتصل فعلًا، وعرف أنّ الفرع ليس وهميًّا، وبمجرد علم خالد به، سيطلب إطلاق سراحه، إلا إذا تعمد تركه ملطوعًا بضع ساعات لمجرد تأديبه، لن يطول الوقت عندما سيعود إلى الفرع، وقد تلقى درسًا يردعه عن القيام بأية حماقة إنسانية بعد اليوم.

... لكن ماذا إذا تأخر ضابط الأمن في استفسار الإدارة عنه، ولا سبب سوى أنّ الروتين هو الذي يحرك عجلة الدولة، ومعها المستشفيات والدواء... لم يكمل، الإعدامات أيضًا دخلت في الروتين، وللحظات خشي أن يذهب الروتين بالمقدم. لكنه أبعد ما راوده، واتصل بالمستشفى؛ الخطوط الهاتفية مشغولة كلها.

ما هدّأ من مخاوفه هو أنّ المقدم خط أحمر.

بعد مضيّ أربع وعشرين ساعة على غياب المقدم، لم يدع التفاؤل الكاذب يغدر به، خامره ظن قوي، إذا كان لم يرجع بعد، فلا بد أنه في خطر، فاتصل بخالد وأعلمه باختفاء المقدم في المستشفى، ولا أخبار عنه.

عقّب خالد بلامبالاة، إذا كان المقدم في المستشفى، فربما تعرّض لوعكة صحية، اضطرت الأطباء إلى إخضاعه لبعض الفحوصات والتحاليل، تعلم أنها تأخذ وقتًا للحصول على النتائج. على كل حال، سيستفسر المستشفى عنه.

بعد قليل، اتصل خالد وقال إنّ الممرضات كالمعتاد يشغلن خطوط الهاتف، سيرسل دورية لتفقد المقدم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

الفصل الرابع والعشرون
تداعيات عالمية ومحلية

١. تغيير سلوك النظام

بصرف النظر عن قصة المستشفى والمقدم، كان خالد مشغولًا عنهما، بما صدر من تصريحات قبل فترة، وكانت عن استعداد الدول الغربية لإعادة النظام إلى المجتمع الدولي، إن غيّر سلوكه. انهالت على أثرها تعليمات الرئاسة على وزارة الثقافة واتحاد الكتّاب، وكانت عن المسارعة إلى إبراز المظاهر الراقية من ثقافة وفن، وإلى الوزارات الأخرى والمؤسسات والإدارات بالاعتناء بما يُشعر بعودة الحياة الطبيعية. وطُلب من أثرياء الحرب ورجال الأعمال دعوة أقربائهم وأعوانهم وموظفيهم إلى المطاعم والسهر في المقاصف، يرقصون ويغنون ويتعانقون، مع التنبيه على ألّا تقلّ الزغاريد في الحفلات عن: الله سورية بشار وبس. هكذا يعبّر السوريون عن أفراحهم الاجتماعية.

منذ تلقى خالد تعليمات الرئاسة، سارع إلى تكليف قسم الأبحاث في الإدارة إلى إعداد الخطط المستقبلية للبلد، فالحرب بالنسبة إلى العالم شارفت على الانتهاء، مع أنها لن تنتهِي على الأرض، خطر الغرب زال تمامًا. أما الخطر الحقيقي، فقد تلمحه لدى الأجهزة الأمنية وضباط الجيش ومليشيات الشبيحة، باندلاع مخاوفهم من احتمال انقلاب النظام عليهم، وتغيير سلوكه على حسابهم. هذه المعضلة ذلّلها خالد، بأن هذه الإجراءات للتصدير الخارجي، ولن يكون لها أي تأثير في الداخل، لئلا تضعف عزيمة الأمة. يريد الغرب التخلص علنًا من الأزمة السورية، بعدما أوكلت منذ سنوات إلى روسيا وإيران. أما تلك الإجراءات الروتينية التي ستوحي بالتغيير، فلإرضاء المجتمع الدولي. سيقتنعون، ولو أنهم لن يقتنعوا فعلًا.

طمأن خالد قادة الأجهزة والفروع الأمنية:

«الله نفسه لا يستطيع تغيير سلوك النظام».

وكانت فرصة لإغلاق الفرع ٦٥٠، بتكليفه مهمة أخرى لا علاقة لها بأمن الأدباء، خاصة أنهم آمنون. حدده بإلغاء صفة الفرع الأمنية، بحيث يصبح مركزًا ذا صفة بحثية، يُسند إليه القيام بأبحاث عن الديمقراطية، أي توريطه بقصة ليس لها أول ولا آخر، تستنفد جهود المقدم لعشرات السنين، ولإضفاء الصفة الأكاديمية على المركز،، سيُجرد من رتبته العسكرية، ويلبس بدلة وكرافة.

استحوذت الفكرة على خالد، فأدرجها في اقتراحاته كي توافق الرئاسة عليها، ما يسهم في عملية التغيير الشكلي، بخطوة قوية ولافتة تتجلى بتحويل فرع

أمني إلى مركز لدراسة التجارب الديمقراطية في العالم، لاختيار أفضل نظام ديمقراطي، أو تصنيع نظام يجمع أفضل ما في النظم الديمقراطية من ميزات. طبعًا المركز لن يدرس ولن يختار ولن يصنع، أو حتى يقترح. المقدم لم يكن يعمل، وسيبقى لا يعمل.

بهذا تضاف الديمقراطية إلى ما سبقها من لغو عن الاشتراكية والحرية والعدالة، المقاومة والممانعة، الصمود والتصدي.

في انتظار الموافقة، لم تعد الفكرة في ذهنه سوى التدرج بإجراء تحولات عميقة في الفرع، ما دام المقدم عائقًا لا يمكن إزاحته، يمهد لها بحشره في المركز القادم، ما يكفل تحجيمه في جحر ينمعس فيه بين حفنة من المثقفين الموالين العتاة، إن لم يتمكن من مسايرتهم، لن يطول الوقت عندها على طرده، وإرساله إلى الجيش الذي جاء منه، أو إيداعه في مصحة.

الموافقة لم تأتِ، أودع الاقتراح الأدراج، ففي سكرتارية الرئاسة، افترضوا أن العائلة لن تقبل، خشية إثارة قصة المقدم من جديد. منصبه الأمني، حسب الشائع في القصر، ذرّ للرماد في العيون، لا يقصد منه القيام بعمل مهما كان تافهًا، فماذا لو كان يحتاج إلى مهارات قيادة معارضة لا تعارض؟

الذي لم يعرفوه، أنّ خالد أوصل اقتراحه بوسائطه الخاصة إلى الرئاسة مباشرة، وعاد بالموافقة، على أن يؤجل تنفيذه إلى ما بعد الانتخابات الرئاسية، وريثما تحل، هناك خطة شاملة كانت الإدارة إحدى الجهات الموكلة بالعمل عليها.

٢. تنظيف سمعة النظام

ماذا تكون هذه الخطة الشاملة التي أصبحت الإدارة جزءًا فاعلًا فيها؟

كانت في الإسهام بتنظيف سمعة النظام، ما يملي عليها إنجاز ما يخصها منها بدقة؛ هناك معتقلون ومختطفون ومغيبون قسرًا، لم يُعترف بهم، ما يستدعي إنهاء أوضاعهم المعلقة، أمرهم محسوم، إظهارهم يهدد النظام، ويثير إشكالات ترتد بإدانات دولية، ما يعيد النظر بسلوك يستحيل تغييره. هؤلاء سينكر النظام اعتقالهم، لديه متهم جاهز، الإرهابيون اختطفوهم وقتلوهم. أما إذا كان اعتقالهم موثقًا، فأمراضهم أودت بهم. بينما سيعترف بالذين اعتقل أغلبهم عشوائيًّا، بلا ذنب ارتكب، عودتهم إلى الحياة العامة، لا ضير منها، بعد تعريضهم لمحاضرة وطنية، يظهرون الندم، ويشكرون سيد الوطن.

كانت العملية برمتها، في سياق إفراغ الفروع والسجون، الخشية منها، أنها ستفضح الأعمال المروعة الممارسة فيها، أعداد المعتقلين لا يستهان به، ما يزيد على مئة ألف. ستحرج النظام، مع أنه لم يحرجه شيء، عندما تكالبت

الضغوط عليه من دول العالم، لكنها اليوم فرصة للمنظمات الإنسانية للإصرار على أنه نظام غير قابل للإصلاح، وربما إحراج أصدقاء النظام واضطرارهم إلى التراجع عن الادعاء بعدم وجود معتقلين أبرياء ومقرات للتعذيب، مهما يكن ليسوا أقل إجرامًا منه، ألم يساعدوه على إخفاء جرائمه؟ لكن الصحافة العالمية ستستغل الحدث في التشهير بزبانية الجحيم.

المشكلة، قد يُظن أنّ النظام ضعفت قبضته، وبدأ يتراجع عن مواقفه الحازمة، فيتجرأ عليه أعداؤه، ويوصم الضباط بالقتلة، مع أنهم كانوا يقومون بواجبهم. لذلك، سيطلق سراح المعتقلين على دفعات وفترات متباعدة، تظهر تسامح النظام، لكن بالتقسيط المريح، وتتردد في وسائل الإعلام على أنها مكرمة، فمكرمة، فمكرمة... طبعاً لن يتوقف الكرم الرئاسي، دائما هناك معتقلون جدد.

الشق الذي أوكل إلى خالد من العملية، إطلاق سراح الأبرياء، وكانت أعدادهم بالآلاف متوزعين على مختلف الفروع في المدن والبلدات. كانوا فائضًا لا جدوى من محاكمته، لعدم إثبات ارتكاب جرم يحاسبون عليه. أغلبهم لم يفعلوا شيئًا يتهمون به، الإفراج عنهم يجب ألّا يتأخر طويلًا، وفي الوقت نفسه يستحسن التمهل، أحوالهم الصحية المتردية لا تُخفي ما تعرضوا له من تعذيب وحشي، أدى إلى تشوية الكثيرين منهم، وليس لدى الدولة القدرة على إجراء عمليات تجميل لهم، تتدارك ما أصابهم، خاصة أنه خلّف لدى بعضهم عاهات ظاهرة وإعاقات دائمة.

حاليًّا، هناك دفعة جاهزة، سينظرُ بأمرها.

لم يشأ خالد التسرع، ينبغي مراعاة ألّا يشكلوا أية إساءة، هذا شرط الرئاسة، كان خيارًا تعجيزيًّا، وفي الواقع لا خيار، فاشتراط عدم الإساءة يتضمن ألّا يفتح معتقل فمه بما تعرض له. صحيح أنّ المفرج عنهم مع بعض الوعيد لا يتكلمون، لكن ما الضمانة؟

ستكون تجربة رائدة، نجاحه في معالجة الدفعة الأولى، تشكل أنموذجًا لباقي الدفعات، مع أن لكل دفعة خصوصيتها، يجب أن تؤخذ بالاعتبار.

حسنًا، ماذا عن هذه الدفعة؟

٣. الضابط قصير القامة

بدت الإجراءات التي أحاطت بهذه الدفعة، غريبة بعض الشيء، توجز بأن سوء حظ المعتقلين، أوقعهم على الرغم من براءتهم بين براثن ضابط مخابرات أرعن، يرأس فرعًا في بلدة نائية هادئة، لم تزد الاحتجاجات فيها على تبادل الهمس في أزقة البلدة، ما أحرج الضابط رئيس الفرع، لا يجوز أن

تكون بلدته الوحيدة التي تبدو وكأنها خارج حدود الجمهورية، فأرسل المخبرين لتسخين الاحتجاجات وتشجيع الشبان على التظاهر، الحرية على الأبواب، فهتفوا بإسقاط النظام، فاعتقلهم، وانطفأت المظاهرات. بعدها، أطلق حملة مداهمة شاملة، فاقتحم العناصر البيوت، ولملموا ما طاولته أيديهم من مصاغ ونقود. على الأثر، اختفى أغلب الأهالي، نزحوا نحو الشمال.

أبلى الضابط بلاءً حسنًا، بإجبار الشبان المعتقلين على الاعتراف بأنهم إرهابيون. أرسل مَن بقي منهم حيًّا إلى العاصمة، وقعد بلا عمل. القيادة الأمنية لا تسمح بوجود رئيس فرع عاطل من العمل، بينما غيره يعمل فوق طاقته، قد تحدثه نفسه بالخيانة أو الانشقاق، أو يتكاسل، فطالبته بإرسال إرهابيين حسب نسبة عدد السكان، ولو كانوا أمواتًا.

بيد أن الجولة السابقة، كانت الأولى والأخيرة، لماذا؟ لم يبقَ في البلدة سوى العجائز من الرجال والنساء، كذلك الذباب والهوام والدواب والكلاب والقطط، والجرذان والفئران والصراصير وأنواع نادرة من الحشرات.

لم تفهم القيادة كيف أنّ الثورة ضاربة في أرجاء الجمهورية من أدناها إلى أقصاها، ويعتصم فرع أمني بالسكينة، والتفرج على ما يجري، مع أنه لا ينقصه المخبرون والوشاة والجلادون والمحققون؟ وطالما لا مردود، ففي السكينة ما يريب، خاصة أنه لم تُحجب عنه مختلف التسهيلات، أحدها أنه كان مخولًا باعتبار أشباه المتظاهرين، ولو لم يتظاهروا، مشاريع إرهابيين. إن لم يفلح بإرسال النسبة المحددة من المعتقلين، فسيُطاح به لتفريطه بمقدرات الفرع في عزّ الهجمات الإرهابية.

ما أحبطه أنه اكتشف في داخله شغفًا لا محدودًا للقتل، لكن البلدة تكاد تكون خالية من البشر، بينما حسب القيادة العليمة، في هذا الخلاء، تختبئ خلايا الإرهابيين، يعقدون مؤامراتهم تحت الأرض.

كان في العثور على مؤامرة واحدة، ما يعيد الاعتبار إليه وإلى الفرع، لكن الأرض اليباب، لم تمنحه مؤامرة ولا متآمرين، مع أنّ وسائل الإعلام كانت تضجّ بالمؤامرات الدولية والكونية. لم يجد سببًا لهذا التقصير سوى أنه ضابط قصير القامة، وحسب اعتقاده، القصير حظوظه قصيرة.

نقم الضابط القصير على بلدة خاملة، لم تسد توقه إلى القتل، في وقت وفرت له القيادة فرصة بمنتهى الأريحية؛ إغراق البلدة بالدماء، وإرسال الجثث إلى العاصمة، لكن من أين تأتي الوشايات، إذا لم يتوافر الأهالي؟

لم تكفّ القيادة عن تذكيره بأنه ضابط تحت إمرته فرع أمني بلا استخدام، ماذا ينتظر لتشغيله؟ كان مكبلًا بالبطالة والخلاء وطموحات معطلة، تقضّ

مضجعه، تهاجمه هلوساته ليلًا، ووساوسه نهارًا. ما فاقم شعوره بقصر قامته، أضيف إليه إحساس بالغبن، غيره من ضباط الفروع يتباهون باصطياد معتقلين يعدون يوميًّا بالمئات، يقتلون منهم بالعشرات. وما زال أسير حلم دموي، على إيقاع هيستيريا، يؤججها الخيال ويحبطها الواقع.

أرسلت القيادة الأمنية مبعوثاً خاصاً ليعالج مثل هذه الإشكالات، اطلع على واقع الحال في البلدة، ولاحظ بكل جلاء شراهة الضابط القصير القامة، والقصير النظر... للقتل. لا بد من وسيلة يستعيد بها الأهالي الذين نزحوا، للتنكيل بهم. حالة ليست نادرة، صادفته خلال جولته في بلدات نائية، لديها فروع مشابهة هامشية، باتت أشبه بالمخافر، محاصرة بالفراغ. تفتقر إلى مصادر وموارد لتشغيل معمل التعذيب، لكن لا يمكن اختلاق إرهابيين ولا تصنيعهم من لا شيء.

«الحل بسيط، إذا كانوا لن يعودوا، اسعَ إلى غيرهم».

فانطلق إلى خارج حدود بلدته النائية عشرات الكيلومترات إلى فضاء، كان دمارًا وركامًا، وكأنه خرج من المنفى إلى الحياة الحقيقية، كانت ضاجة بالبراميل المتفجرة تنهال من الطائرات، والجثث مشلوحة على طرقات غاصة بالسيارات والباصات والميكروباصات والطنابر، وبشر يحملون ما وسعهم حمله يبحثون عن مكان يؤويهم، ريثما يصلون إلى مخيمات النزوح. كانوا فريسة سهلة.

نشر الحواجز في المسالك الجانبية، والطرق المؤدية من الأرياف إلى المدن، عززها بدوريات راجلة وسيارة، لم يكتفِ بعناصره، تعاقد مع الشبيحة ولجان الدفاع الشعبي في البلدات المجاورة على تزويده بمختطفين أحياء، وتعهد بإخفائهم إلى الأبد، ما يوفر عليهم حفر قبور لهم. وكان الإقبال شديدًا.

لم يمضِ العام الأول إلا وانتشر لقب الضابط السفاح، استهزأ به الرفاق الضباط وبالغوا في تقصيره، حتى أصبح الضابط القزم، وتجنبوا لقبه السفاح نكاية به. اتهموه بمقاسمتهم مخزونهم من الأهالي، بالسطو عليهم وشرائهم من المناطق العائدة إليهم. وكان ليستعيد ثقته بنفسه، لا يوفرهم من التعذيب والموت، وما يتبقى منهم يرسله إلى العاصمة. غضت القيادة النظر عن نشاطه الدموي، التنافس محبَّذ بين الفروع.

تعززت ثقة السفاح بوحشيته. ما كان يزعجه من قبل، لم يعد يؤرقه، قصر قامته لم يعد هاجسًا، ولا عائقًا، أصبح عملاقًا، عناصره يركعون أمامه كي يتلقوا تعليماته، لا معتقل في الفرع يقف على قدميه لئلا يبدو أطول منه. أشيع عنه، في حال صادفه معتقل طوله لافتًا، يقصّ الرأس أو الساقين. كانت إشاعة، بالنظر إلى أن أكثر المعتقلين أطول منه، والمؤكد أن الدفعات

المرسلة إلى العاصمة، لم ينقص منها رأس ولا قدم، ولا كاحل أو أصبع. عمومًا، اعتبرتها القيادة إخباريات كيدية أملتها عداوة المهنة بين رفاق الأمن، حتى لو كانت صحيحة، فالسفاح يقوم بواجباته المخابراتية، وهي تتسع لأكثر التفسيرات خيالية، ما دام الإرهابيون يقطعون الرؤوس والأيدي.

تسليته الجنونية، باتت ابتكار أساليب ممسوسة بخبل سادي، أنتجت اعترافات مهولة، فالهدف كان السبق في اكتشاف مؤامرة كونية، فتكوّم المحتجزون في الأقبية والبيوت والمزارع، وتراكمت لدى القيادة اعترافات عن عشرات الاغتيالات وتفخيخ سيارات وباصات تكفي لتفجير البلد عدة مرات، وهجمات بالسلاح الكيماوي يزيد ضحاياها على تعداد سكان سورية، مرشحة للانتقال إلى البلدان المجاورة، كذلك لا أقل من ثلاث مؤامرات كونية.

استفادت القيادة بعرض نزر يسير منها في وسائل الاعلام، ما أوقع الرعب في القلوب، ليس قبل أن أوقعت الرعب في القيادة نفسها، اعتقدوا أن الجمهورية ليست معرضة للتمزق، بل للإفناء. أما الذين اعترفوا مع الذين لم يعترفوا، فمن فرط التعذيب، لم يدفن منهم سوى الأشلاء، ما اضطرهم إلى استعارة معتقلين من فروع أخرى وتلقينهم الاعترافات للظهور في التلفزيون. لم يكتشفوا مدى ضعفها إلا من كثرة ما اعتورها من ثغرات، استدعت انتقادات حتى من الموالين الأغبياء.

خشيت القيادة من عواقب عدم السيطرة عليه، وقررت إخضاع الضابط الذي كان جنونه وقود نشاطه، فعلمت أنه دفن نحو ألف معتقل في مقابر جماعية، بحجة ازدحام الزنزانات، وعدم توافر طعام ومهاجع، وما زال لديه عدة آلاف أغلبهم شارف على الموت. ما أوقع القيادة في الحيرة، لكن ماذا يكون عمل المخابرات غير هذا؟ ما أسكت الانتقادات عنه.

من جانب آخر، ارتُؤي كفّ يده عن العمل، لتزويده القيادة بمعلومات كاذبة، بُنيت عليها إجراءات احتياطية مكلفة. واعتبرت احالته إلى التقاعد، خطوة على طريق تغيير النظام سلوكه.

استدعى تدخل القيادة، إلغاء تعاقد المجنون مع الشبيحة وأمثالهم، مع إلزامه بتسليم الموقوفين، الذين أصبحوا عبئًا من كثرتهم، وكثرة ما أصابهم من علل وأمراض، فاتجه التفكير إلى أن عدة مقابر جماعية، كفيلة بأن يكونوا، كأنهم لم يكونوا.

طلبوا من المجنون العودة إلى دمشق بحجة منحه وسام بطل المخابرات، وعلى غير المعتاد، لم يصدر الأمر بالعودة فورًا، أعطوه مهلة أسبوع، ما يوحي إليه بما يجب عليه فعله قبل المغادرة، عسى أن يفهم ويسارع إلى تحمّل عبء دفنهم، ولو أحياءً.

في اليوم الذي قرر فيه البدء بتنفيذ المنظر الأخير الذي سيودع به البلدة المقفرة، بأكبر مجزرة للأجساد وتصاعد الأرواح، علامة على أنه كان هنا، ومرّ من هنا، لكنه سيتبخر في المكان نفسه، انفجرت فيه عبوة ناسفة، لم تُبقِ منه ما يكشف عن شخصيته سوى الجمجمة. كانت الدليل الوحيد على جنونه، لخلوّها من المخ والمخيخ.

٤. سورية موحدة

رزح المعتقلون على كاهل القيادة، فأرتأت مرغمة تحويلهم إلى التحقيق للفصل في أمرهم. تبين لها أن توقيفهم كان نتيجة تعديات ظالمة، غالبًا متعمدة، ارتكبها الضابط المجنون، المعتقلون لم يحملوا السلاح، أو يشاركوا حتى بمظاهرات. وكان السؤال المحير: هل يُطلق سراحهم من دون محاكمة؟

أخذ خالد على عاتقه قضية خاسرة، وعزم على تحويلها إلى قضية رابحة. كُلِّف بها الباحثون في الإدارة. بعد جدل طويل خرجوا بدراسة شاملة، نصحت بعدم إجراء محاكمات لئلا تتسرب إلى الخارج، سينجم عنها فضيحة، كان الاقتراح النهائي أن المعتقلين يخدمون النظام أمواتًا، ويسيئون إليه أحياءً.

تعزز هذا الاقتراح، بعدما جرى التأكد أن غالبيتهم ليسوا من أهالي المناطق التي اعتقلوا منها، فقد تنوعت مدنهم وبلداتهم. كانوا خليطًا من أهالي دمشق وأريافها، ودرعا والسويداء وحمص وحماة وحلب واللاذقية ودير الزور، وما يحيط بها، نزحوا صوب الشمال، كانوا تشكيلة تمثل سورية موحدة.

فكرة «سورية موحدة» سوغت لخالد تأييد اقتراح قسم الأبحاث، والأسباب قوية. ففي كونهم أمواتًا أبرياء يقدمون لمدنهم وبلداتهم عبرة طويلة الأمد، بترويج شائعات مضمونها، أنّ هؤلاء الذين لم يقترفوا ذنبًا، وأرادوا النجاة بأرواحهم، ذهبوا ضحية لوقوفهم على الحياد، فسببوا جراء سلبيتهم فوضى أطالت الحرب، ما يهيب بالمواطنين الشرفاء الدفاع عن النظام في جميع الأحوال، من دون النظر إلى الأسباب، وهكذا: لا متفرجين ولا حياد.

استحسنت الدراسة إدراجهم في قوائم المفقودين، ما يضمن أن أهاليهم سينتظرونهم عشرات السنين، من دون معرفة هل هم أحياء أم أموات، مع الوقت تتقطع آمالهم من عودتهم، ما يشكل طوال هذا الزمن عبرة مستمرة، تذكر بأنهم المثال على ضحايا ثورة، يجب القضاء عليها كفكرة إلى الأبد، ما دام النظام باقيًا إلى الأبد.

رفع خالد مجمل الدراسة مع توصيات الإدارة إلى الرئاسة. مضى أسبوع ولم يتلقّ ردًا، فاطمأن إلى موافقتها. يعرف في هكذا قضايا، إذا كان ثمة رد،

فبالرفض. بينما عدم الجواب، فإشارة إلى البدء بالتنفيذ على مسؤولية السائل، الرئاسة لا تريد أن تعلم بالخطة؛ في حال تسربها إلى الخارج، فما جرى، حدث من دون علمها. فباشر العمل.

المشكلة التي واجهته تشبث المعتقلين بالحياة، بعضهم من الأنواع التي طال احتضارها، مع أنهم كانوا يتماوتون على مهل، لكن إلى متى؟ صحيح أنه ما زال في الوقت متسع، لكن احتياطًا لا مفر من البدء بترحيلهم. ولم يكن تنفيذها متعلقًا إلا بالحاجة إلى مكان منعزل يحتويهم جميعًا، ويراعي التخلص منهم الدفعة تلو الدفعة، على أن يغادروا بصمت.

مأثرة ستسجل لحسابه.

٥. القتل الصامت

في تلك الأيام، التي تنقل خلالها ملف المعتقلين بين الإدارة والرئاسة، استعاد خالد في ذهنه الفرع ٦٥٠. بدا نموذجيًّا، يتسع لإنهاء قصة المعتقلين، باستغلال الفرع العاطل من العمل، عززها أن الخطة ستنفذ في الوقت المستقطع، قبل البدء بعودة البلد إلى المجتمع الدولي، واشترط القتل الصامت.

إذا كانت المحاكمات والإعدامات تُعَدّ من القتل الصاخب، فكيف يكون الصامت؟

كانت الخطة، إيداع دفعة من المعتقلين في الفرع، وتجربة مفارقتهم الحياة، حسب ظروف يحسن إخفاؤها، ما يُسهّل قتل ما يليها من دفعات، يُراعى فيها إتقان التعتيم على إجراءاتها، دونما إصدار صوت.

بالعودة إلى قسم البحوث، لم يعد التخلص منهم أحجية، ما دام سيتوافر القتل والصمت معًا. وليس بالصعب بقدر ما هو سلس، يجري بالتناقص التدريجي للمعتقلين، بتماوتهم جوعًا بالتقسيط، لا ضرورة للعجلة، الميزانية المتقشفة التي ستصبح زهيدة، ثم تنعدم، ستقتلهم على هينتها، على أن تنفذ الخطة بتجهيل المقدم بها، من دون التعاون معه، تنجز تحت بصره، من دون أن يدري.

وستكون الدفعة الأولى عبارة عن تجربة التمويت ببطء شديد، من خلال توفير الطعام بكميات ضئيلة، تتناقص على مهل، ترى كم تطول؟ إذا كانت المدة معقولة، وتؤدى في الفرع ضمن الشروط المقترحة، فهذا هو المطلوب، وإذا كانت ستطول، فالتفكير ببرنامج آخر.

لم يتوقع أن المقدم سيحاول عرقلتها، بمناكفته بمشروع زراعي طموح، مع موائد الكباب، لإطالة أعمار المعتقلين. بلغت الذروة بالإصرار على معالجتهم.

فكان لا بد من احتواء طلبه بإجراء فوري، بتكليف أطباء الموت قتلهم على دفعات. بذلك يُحاصَر المعتقلون بالموت أينما كانوا.

كانت التعليمات قاطعة؛ كلما أرسل المقدم شحنة مرضى لا يعوَّض عنها بشحنة أصحاء، شاحنات الفرع ستعود فارغة. وسيتوخى خالد عدم الظهور، متجنبًا الاصطدام بالمقدم، لئلا يُغضب الرئاسة، وتتعرقل العملية.

ما عطل الخطة، وهدد بانتهائها في وقت مبكر، اقتحام المقدم للمستشفى، واتهام الأطباء والممرضات، وعلى رأسهم ضابط الأمن، بقتل معتقليه المرضى، ومطالبته بتقرير طبي موقَّع من الأطباء المشرفين، يبيّن أسباب الموت الغامض لسبعة معتقلين، وتهديدهم جميعًا بسوقهم مقيَّدين إلى الفرع والتحقيق معهم، إن امتنعوا عن تسليمه المعتقلين الثلاثة. يجب وضع حد له، لكن كيف؟

المشكلة، أنّ المقدم خط أحمر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الخامس والعشرون
الظلام

١. المقدم محتجزًا

أمر خالد ضابط أمن المستشفى بتهدئة غضب المقدم، والعمل على احتجازه في غرفة تتوافر فيها جميع أنواع الرفاهية، فأخليت غرفة واسعة جدرانها ناصعة البياض، جهزت براديو وتلفزيون وفيديو، وأفلام عربية، وأفلام أجنبية مترجمة، وعصير برتقال ونسكافيه وبيرة مستوردة وقهوة وشاي، وبرّاد صغير محمول، انتزع من جندي ودّع الحياة قبل أيام، كان من الأغراض المعفشة التي لا يتنازل عنها عادة جنود جراحهم خطرة، يتشبثون بها وهم يغادرون الحياة رغم أنف الموت. فيعفشها المستشفى، يتوازعها العاملون فيها. البراد استقرّ في غرفة الضابط المناوب.

قبل أن يقوم بإجراء آخر، اتصل خالد، واطمأن إلى إقامة المقدم في غرفة توافرت فيها رفاهية فائقة، تفتقر إليها فنادق الشيراتون والفورسيزن، ريثما تهدأ أعصابه. فأثنى خالد على ضابط الأمن، وقدّر إحساسه بالمسؤولية، وطلب منه الحرص على ألّا يشعر المقدم بأنه معتقل، ولا بأس بالمزيد من الرفاهية، ما يمنع المقدم عن التفكير بمغادرة المستشفى.

اعتذر ضابط الأمن. هذا أقصى ما لديه، فحدد خالد ما يعنيه بالرفاهية: ممرضة يُراعى في اختيارها ألّا تكون مسترجلة، بالتحديد مفرطة الأنوثة، وأن تغريه بمعسول الكلام بما يروق مزاجه ويصرفه عن التذمر وافتعال الضجيج، والأفضل أن تنجح بإغوائه وتقوده إلى الفراش، لن تواجه منغصات جنسية، فالمقدم شاب محترم وخجول، لا تنتظر مبادرة منه، عليها التحرش به.

الرفاهية لم تؤدّ الغرض منها، كذلك الممرضة الحسناء، أخفقت مع المقدم الوسيم، غازلته بحشمة، وحاولت إغراءه بعذب الكلام لا أكثر، وقصرت عن التحرش به، ومن فرط ما فتنها تهذيبه، أشفقت عليه، ترددها نحوه أفشل محاولاتها التي لم تبدأ، فكان كأنها لم تحاول، في الحقيقة لم يكن نكولها عن إغوائه، إلا من فرط محافظتها على عفتها، لم تعجب بشاب، وما أكثر الشبان الذين أعجبوا بها، ولم تستجب لهم، رغم الوعود بالزواج والمال والمطاعم الفخمة والسيارات السريعة. كان جمالها مبعث غرورها، فلم تبتذله، وصانته من التعدي، كانت تربيتها هي المانع.

لم يكن ما بذلته مع المقدم يكافئ ما سمعته من مسامرات رفيقات المناوبات الليلية من ألاعيب أنثوية. لم يزد جهدها على ابتسامات خفرة، بينما

المفترض أن تكون على استعداد للتضحية بعذريتها على أمل اختراق عذريته؛ الأوامر كانت هكذا.

كان المقدم أسير حبيبته رفيف. فلم يفهم محاولاتها الحذرة في التقرب إليه، وكانت من باب رفع العتب، كما كان حياؤه أقوى من أي إغراء جدي، ثم إنه لم يتعرض للإغواء فعلًا. لاحظها مرتبكة، فشجعها على عدم التهيب منه، فهو ليس بحاجة إلى عناية، وطلب منها أن تنام في غرفتها. فصارحته بسبب وجودها معه في غرفة واحدة، وما تقصيرها إزاءه إلا لأنها تخشى الشيطان أن يلعب بعواطفهما. فأيد موقفها، وامتدح تمسكها بعفتها، وطمأنها في حال حضور الشيطان، لن يجد ما يفعله.

اتصال المفوض لم يزعج خالد، بعدما أسكته بالدورية التي لم يرسلها، ولئلا يتصل به ثانية، اتصل به، وقال له إن البحث عن المقدم قد تأخر في المستشفى، لوصول دفعتين من جرحى الجيش، إثر هجوم لداعش على وحدات للنظام في الجنوب.

الأمر الذي لم يحسب له خالد حسابًا، أنّ المقدم سينجح بالاتصال بخطيبته رفيف، مع أنهم في المستشفى أخذوا منه حاجاته الشخصية لإجراءات التعقيم، وأقفلوا عليه الباب. فأمضى شطرًا من الليل يتجاذب أطراف الحديث مع الممرضة الحسناء، قضاه بالحديث عن حبه العظيم، وحدثته عن مأثرتها في أنها لن تتزوج رجلًا إلا عن حب حقيقي، وأنها امتهنت التمريض كعمل إنساني، لكنها افتقدت الإنسانية في المستشفى. قبل أن ينام كانت أواصر الصداقة قد انعقدت بينهما.

صباحًا، تذكرت السؤال الذي كان يجب أن تسأله إياه:

«ما الذي جاء بك إلى المستشفى؟».

«يا صديقتي، جئت أنقذ مرضاي».

لم تحبذ ما جاء من أجله، وقالت محذرة:

«يا صديقي، ربما قادتك قدماك إلى حتفك».

ما تعرفه الممرضة الحسناء وواثقة منه، أنه لم يخرج رجل على قدميه احتجز في المستشفى رغمًا عنه، ولو كانت ظروف احتجازه لا تخلو من تمريض أو علاج، إذا لم يفرجوا عنه اليوم، فلن يطلقوا سراحه أبدًا. والنهاية معروفة ليس هناك غيرها، لن تقولها له فهو ما زال في عزّ شبابه. أما متى، وأين، وكيف؟ فحسب الأوامر.

خاطرت الممرضة الحسناء، وتبرعت له باستعمال هاتفها المحمول عن طيب خاطر، وقدرت له صنيعه معها، فهو لم يخدش عذريتها؛ لو حاول، فالأوامر كانت صارمة، ألّا تمنعه، من أجل الوطن، ما يضطرها إلى مقاومته، ولو كان من أجل الوطن، وربما موته أو موتها أو موتهما من أجل الوطن.

فهمت رفيف من اتصال خطيبها المقدم، أنه في مكتب الضابط المناوب منذ البارحة بانتظار تزويده بتقرير طبي عن وفاة سبعة مرضى، وسيغادر المستشفى مصطحبًا معه ثلاثة معتقلين. فاتصلت بالمفوض صديق خطيبها، وأعلمته بأسباب تأخره. وبما أنّ المفوض كان خبيرًا بما يدور في المستشفى، لم يصدق قصة قضائه الليل بانتظار التقرير الطبي، فاتصل بخالد، وأعلمه بأنّ لديه معلومات من مصدر موثوق، تؤكد أنّ المقدم موقوف في المستشفى. لم يدعه خالد يكمل، قال غاضبًا إنّ البحث جارٍ عنه، ولم يتوقف بعد. إذا كان هناك سيجدونه لا محالة، والتأخير الحاصل ليس إلا لأننا علمنا به متأخرين.

لم يعد لدى المفوض شك في أنّ خالد يعرف باعتقال المقدم. فلم يشأ أن يفوت الفرصة قبل إبلاغه بشكوكه؛ إن احتجازه ليس بسبب فحوصات وتحاليل... ربما عرف شيئًا ويريدون إسكاته. كان خالد قد أغلق الهاتف.

المفوض توقع الأسوأ. وإن أكد للمحقق:

خالد لن يتجرأ على إيذائه، المقدم خط أحمر.

قالها كأنه يؤكدها لنفسه.

٢. الأم الثكلى

لم يوفر خالد ضابط أمن المستشفى من شتائمه؛ الممرضة أخفقت بإغواء المقدم؛ لماذا؟ مهما كانت أخلاق المقدم، فالجنس لا يعبأ بالأخلاق، هناك تقصير فادح!!

ماذا يعني أن تستخدم ممرضة جميلة جدًا، إذا كانت باردة جدًا، أمضت معه وحدها في الغرفة ليلة كاملة، وخرجت منها سليمة، كما دخلت. المقدم بحاجة إلى تسخين، وإذا كانت هي أيضًا مثله، فالطبيعي فشلها، المقدم بحاجة إلى حوافز، إلا إذا كان لا ينفع مع النساء، لو تُركت الأمور له، فلا يستبعد أنه أغواها بالطهارة، وأقنعها بالتحجب.

التعليمات الجديدة: عزل المقدم عزلة كاملة، لا اتصالات، لا ممرضات عذراوات، ولا ممرضات مجربات، لا ممرضات من أي نوع كان. سيمضي الليل بطوله محتجزًا، ليس بالإكراه، دسوا له منومًا في القهوة أو العصير، ريثما نبتّ بوضعه غدًا.

لم يكن الوقت ضيقًا، إلا لأن خالد بات على سباق مع حلول اليوم التالي، لا بد من إيجاد سبب لإيقاف المقدم عن عمله بالفرع، واحتجازه في المستشفى يومين، من دون الرجوع إلى الرئاسة. كان في العثور على فضيحة تخرسه، ما يساعد على إيجاد حل سريع لهذه القصة، لكن ما الذي يشين مثل هذا الرجل؟!

الأجهزة والمخبرون والوشاة والعملاء، جميعهم ليس لديهم ما يضير سمعة المقدم النظيف اليد من العمولات، ومحصن الجسد من النساء. كان الولد المثالي مذ كان تحت رقابة الأركان، ثم تحت رعاية المهندس.

لم يثر المتاعب سوى أخلاقه المتصلبة المتجهة نحو المزيد من التشدد.

ثمة أمل واحد، إعادة النظر في ملفه، ربما ثغرة تساعد على العثور في شخصيته على نقطة ضعف تسمح باسترضائه أو تهديده أو تلويثه بشيء ما، مع ما فيها من استحالة... إلا إذا كان ملاكًا.

على خلاف توقعاته، لاحظ أنّ مركز الثقل كان خارج الملف، في التوصيات المرافقة، وذلك بمراعاة المرأة الثكلى والأم الحنونة التي فقدت أولادها وزوجها، ما شكل كابوسًا وفضيحة متنقلة للعائلة الرئاسية في الضيعة، من جرائها منحوا ابنها فرعًا بكامله، ثمنًا لإسكاتها، وكفّ غلاظاتها الأمومية عنهم.

أين هي الآن؟ إن لم ترد فقدان ابنها، فعليها أن تقنعه بالعودة معها إلى الضيعة، سيوفر لابنها فرعًا ريفيًا، يعوضها عن الفرع المديني، الرئاسة لن تعلم إلا بعدما يستقر هناك بأحسن حال.

المفاجأة المروعة، ماتت الأم قبل نحو ثمانية أشهر، بعد معاناة لم تكن طويلة من آلام غامضة مترافقة مع ثرثرة الخرف، وتراجع في الذاكرة، ارتدّ بها إلى الطفولة، إلى ما قبل نشوب ثورة الثامن من آذار، فانمحت من رأسها سلسلة الانقلابات التي أعقبتها، ومعها الحركة التصحيحية التي صححت مسيرتها.

توقف بها العمر هناك، ولم تكبر، فتعرفت إلى نفسها، صبية بجدائل طويلة وشرائط حمراء تسرح في البساتين مع لِداتها، ولم يعد الوطن أكثر من الأرض والسماء والفصول الأربعة وأغاني فيروز. لم تصبح زوجة، أو تُرزَق أولادًا. توقفت السنوات المبكرة من حياتها عند هذا المنعطف، فلا زواج ولا أمومة ولا مآسي، لم تترمل وتثكل بأولادها. طال المحو الرئيس الخالد والعائلة الرئاسية الغراء، ومن يحفّ بهم.

المغزى، انحسر ظلها عن الرئاسة، مثلما انحسر ظل الرئاسة عنها، فلم يُحتف بجنازتها، ويُغرَق نعشها بأكاليل الورد، لم يحضر دفنها سوى ابنها

المقدم، بينما كان أهالي الضيعة غارقين في أحزانهم، ودفن أولادهم الجنود العائدين في أكياس سوداء وصناديق مختومة.

المفاجأة المروعة كانت مفاجأة رائعة.

لماذا بعدما تخلصت العائلة الرئاسية من عبئها، لم تطرد ابنها المقدم؟ ببساطة، لم يعلموا بوفاة الأم، فلم يخطر لهم التخلص منه، خاصة أن العبء كان هي، وليس هو. كما لم يطمع أحد بفرع بلا صلاحيات، فلم ينازعه عليه أحد. ثم لماذا يتذكرونه، أو يهتمون به؟ الرئاسة وبطانتها ومن يلوذ بها مشغولون باستدراك نقص الجنود الحاصل في الجيش، بمداهمة المدن والقرى والبيوت والشوارع والمقاهي والحدائق والمطاعم، ولملمة الشبان، تجنيدهم وزجهم في الخطوط الأمامية، واستدراج الدعم المليشياوي المذهبي، والتخطيط للمزيد من طلعات الطيران، وانتهاز الفرص لضربة كيماوية، واسترضاء الإيرانيين والروس ووعدهم بالحصص الأكبر من إعادة الاعمار.

... لم تخطر الأم الرؤوم لأحد، حتى ابنها الذي يترأس فرعًا في العاصمة، ما زال منذ تأسيسه يرتع في إجازة مفتوحة. لم يحتل حيزًا، ولو ضئيلًا، في حسابات الرئاسة. كانوا قد نسوه منذ زمن، نسوه هو الآخر.

المقدم لم يعد مشكلة الرئاسة والعائلة، التكاسل عن تجديد المعلومات عنه كان تقصيراً فادحًا، ما زالوا يظنون أن مكانته محفوظة، بينما لم تعد محفوظة، لو أن قصصه الأخلاقية أثيرت الآن، لمات تحت التعذيب ألف مرة. ما فات العائلة الرئاسية فعله، سيقوم به، وعلى أحسن وجه.

صباحًا، الخطوة الأولى، اتصل بالمفوض وصحح معلومات البارحة، لم يُعثر على المقدم في المستشفى؛ مصدرك الموثوق يكذب عليك، مجموعة إرهابية اختطفته، بينما كان متوجهًا إلى الفرع. تبلّغنا الخبر قبل قليل، لم نتأكد منه تمامًا، عثروا على جثة مشوهة، مواصفاتها تطابق مواصفات المقدم من ناحية حجم الرأس والجسم، والطول والعرض والوزن، على الأغلب جثته، سنتأكد، ونعلمكم بعد التحقق منها.

الخطوة الثانية، أبلغ ضابط أمن المستشفى بالتعليمات ما قبل الأخيرة، إلغاء الإفراج عن المقدم بشكل نهائي، الاحتجاز لن يطول، إنهاء حياته مسألة أسلوب لا غير.

المقدم حالة ميتة.

استعرض ضابط الأمن الأساليب، وكانت متعددة، لا تختلف في ما بينها إلا في حجم التعذيب قبل الموت، هل يكون بوضعه في زنزانات المعتقلين؟ لن

يطول ترحيله عن هذا العالم على أبعد تقدير سوى بضعة أيام مهما طالت لا تتعدى الشهر، أو إيداعه في «الغرفة السوداء»، ليلحق برفاقه المعتقلين السبعة، ويموت في الظلام مع المعتقلين الثلاثة.

هذه هي الوسائل المتوافرة، كانت كافية ومضمونة، ووافية بالموت.

خالد حبّذ الظلام.

«هل نعتبره حالة خاصة، ونسمح له ببعض الامتيازات. أم أن يشمله البرنامج ذاته؟».

«ماذا تكون هذه الامتيازات؟».

«بعض الطعام والشراب...».

«اقطعوا عنه كل شيء، حتى الهواء».

تردد لحظة، لو قطعوا عنه الهواء فسوف يُقطع عن الجميع، بينما المطلوب واحد.

«أليس هناك وسائل أسرع؟».

اعتذر ضابط الأمن؛ لا يتعدى اختصاصه أكثر من تأمين الظلام، بينما السرعة من اختصاص الطبيب المسؤول عن حقن الكالسيوم.

اتصل خالد بالطبيب، وأمره باعتبار المقدم حالة مستعجلة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

الفصل السادس والعشرون
النظام

١. اختفاء المرشح الرئاسي

بعدما أزاح المقدم عن كاهله، أحسّ بالانزعاج. أضاع الكثير من الوقت على قصة سخيفة، انشغل بها طوال يومين، ما أخر العمل خلالهما على حلحلة استعصاءات جدية عرقلت المصالحات بين الجيش وفصائل المقاتلين المحاصرة في الأرياف القريبة.

بيد أنه أحسّ بالأسف نحوه، لم يضطر إلى التخلص منه، إلا بعدما عرقل خطة تصفية المعتقلين، والعبث بإجراءات الأمان في المستشفى. لا ينبغي الاستهانة بأي شيء مهما كان تافهًا، شرط إنهائه في وقت مبكر، قبل أن يستفحل ويتحول إلى مشكلة داهمة.

قطعت حنان أفكاره، أحسّ بمجرد دخولها أنه سيرمي عن كاهله التفكير في مشاكل انتهت، ما زالت عالقة في رأسه، واختارت الوقت المناسب لانتزاعه منها، قبل أن ينتقل إلى غيرها، هناك الكثير بانتظاره.

تبدل مزاجه، ستجرّه إلى عش الغرام، وينسى المقدم والمستشفى والمصالحات. أصبحت حنان سلواه الوحيدة في حياته السرية، لكنه لم يشعر أنه امتلكها فعلًا، ومثلما كانت تندسّ فيه، كانت تنسلّ منه. ما زال هناك جانب مستغلق عليه. لم يستعجل، كان يتعلم على يديها ما يجهله من الغرام؛ الغزل المثير والمداعبات الشهوانية، التهامس بالبذاءات الجنسية والتلذذ بتردادها، والإفصاح عن الرغبات الجهنمية. خلال لحظات، تأخذه إلى الذروة بشفتيها، وراحة كفها السحرية، عندئذ يتعطل وعيه، وينصاع لها كلية. شجعته على تعلم الكثير، فأحسّ بالخجل من النساء اللواتي عرفهن، وبالذنب تجاه زوجته. كان كالجحش في نيل اللذة، ترى ما الذي يقلنه عنه؟

لم تأخذه توقعات النشوة المقبلة إلى صالون المتعة، أحبطته حنان بملامحها الحانقة؛ كانت متوترة، عيناها يبرق فيهما الغضب. هل بدأت مشاجراتهما؟ لا، من المبكر ذلك. ما زالا في شهر يفوق العسل حلاوة.

حيّرته عصبيتها، ولم تتكلم بعد، يبدو أن شخصًا ما ضايقها.

قال لها أكثر من مرة، ما دمتُ أنا حيًّا، ليس لأي شيء في العالم أن يؤذيك. أي شخص يحاول إزعاجك، مجرد المحاولة، سأخفيه من الوجود. ما سيفعله من أجلها يتجاوز تقديراتها كلها، العقاب ليس إخفاءَه، أو البطش به، سيجعله يتمنى لو أن الله لم يخلقه.

لم يتوقع أن غضبها لا يداويه العقاب، ولا الإخفاء حلّ له. طالبته بما لا طاقة له عليه؛ بإظهار الحقيقة، ما الذي حلّ بأبيها؟ صرخت في وجهه. كانت تعرف الجواب؛ أبوها اللواء المتقاعد، جرت تصفيته أسوة بمن سبقه من المرشحين الرئاسيين، وما حكاية المنتجعات ومراكز الاستجمام الرئاسية، إلا خدعة، لا مواقع سرية لهؤلاء سوى القبور.

علمت بما حصل له، جراء مشادة نسائية عند الكوافير، أبلغتها بمصيره صاحبة أطول لسان في الجمهورية، المرأة التي احترفت مصاحبة كبار الضباط والمسؤولين. تتبجح بأنها أنقذت ضابطًا كبيرًا من الإعدام، وشبابًا من حبل المشنقة، ليس بلا مقابل، وكسبت الكثير، عشاقها لم يخذلوها.

ناكدتها، غامزة من تخليها عن أبيها اللواء. حنان لم تسكت، ردت عليها، لقد صانته، ووفرت له اعتقالًا مرفهًا في المنتجعات الرئاسية.

ما كان من العشيقة المحترفة، إلا أن ضحكت:

«اعلمي يا صغيرتي، من فرط الرفاهية، لم يبق من أبيك حتى العظام».

لم تكن تلقي الكلام جزافًا لتغيظها، كانت مطلعة على ما لا يجوز الاطلاع عليه مما يدور في كواليس القصر والمخابرات. حنان ساورها الشك، فاستفزتها لتعرف ما تجهله منها:

«أنت لا تعلمين شيئًا».

«بل أنت التي لا تعلمين، لا استثناءات، في كل ما يخصّ الرئاسة، صاحبك ضحك عليك، عاقبيه، لا تدعيه ينام معك».

أطلقت ضحكة عالية، وتابعت بوقاحة:

«نصيحة، لا تشرمطي بالمجان».

إذا كان صحيحًا، فقد خدعها خالد، كانت تظنه أحد المسؤولين المتنفذين المعدودين في الجمهورية. سألته بوجه شاحب:

«هل قتلوه؟».

استغرب مخاوفها على أبيها، حنان لم تهتم به كثيرًا. الآن لا تقبل بأقل من حياته، وتُصرّ على زيارته، لتتأكد إن كان على قيد الحياة، لا مهرب من الحقيقة، وإن كان لا يعرفها بالكامل، لكن من الممكن تكهنها.

لم ينفِ ما حلّ بأبيها، ولم يثبته. في الواقع، يجهل أين هو، قد يخمّن شيئًا ما عنه، مجرد تخمين لا أكثر.

«إن عرفنا مكان إقامته، لا يستطيع كائن من كان زيارته، أو رؤيته».

لم يقل لها إن الجن والعفاريت لا تستطيع اختراق جدران المكان المحتجز فيه. لن يبالغ بقدراته. مهما كانت صلاحياته، لا تسمح له بمعرفة شيء عن سجناء معتقلي الرئاسة، من الخطر الاستفسار عنهم. أمرهم يخص العائلة الرئاسية.

«ألستَ من العائلة؟».

«هذه الأمور عائدة لأشخاص قلائل جدًا، اثنان أحدهما الرئيس».

افهمي، لا تسامح مع اللغو في أمر الرئيس المحتمل، الرئاسة مثل الوراثة، من الأمور المسلّم به، عدم تداولها، ولا التفكير فيها، إنها مثل القضاء والقدر، لا اعتراض عليها، ولا يغتفر لمن يمسّها من قريب أو بعيد. وسواء عُرضت الرئاسة على اللواء، أو لم تعرض، إن كان يعرف أو لا يعرف، عن عمد أو مصادفة، أو إذا كان هناك من يعنيه أن يكون اللواء رئيسًا، وحتى لو كان أمرها لا يهم اللواء... فالخطأ، ليس فاحشًا، بل مميت.

أراد أن يكون صريحًا، ليتجنب استفسارات لا إجابات عنها:

«سأقول لك، ولست واثقًا، المكان المخصص للمرشحين الرئاسيين، مجهول تمامًا، لن أتحزر. لا تسأليني المزيد».

أدرك من ذهولها، وكان قد بدأ يعرفها، إنها لم تكن تفكر بمصير أبيها، كانت تفكر في شيء آخر، ليته لا يخطر لها.

كانت تفكر في هفوة اختيارها له عشيقًا، لقد غرر بها، استسلمت له لتكون إلى جانبه مع صلاحيات غير محدودة، صلاحياته هي صلاحياتها، تنتقل بالأجساد لا بالأرواح. لم تأخذ هذا الجاهل بالمتعة والشهوة واللذة على عاتقها، إلا لأنه على معرفة أكيدة بما عداهم، ولو اقتصر على هذه الدولة، كانت تظنه أحد ورثتها.

ما الذي يجول في رأسها، هل تفكر في أن تهجره؟ حذرها:

«لا ترتكبي خطيئة عمرك، ما زلت صبية».

لم تتركه امرأة من قبل، هو الذي يتركهم. لن يسمح لها هي بالذات بالتخلي عنه، ولا يتصورها بين ذراعي آخر. سيقتله، وإذا عاندته، لن يتورع عن قتلها.

«لن تتركيني، أقول لك، هذا لن يحدث، أمنعك، بالأحرى، انسي ما خطر لك، إياك وأن تفكري فيه ثانية».

لم يكن يهددها، قدر ما يتوسلها. كان يخشى تنفيذ وعيده.

لم تتردد، كان التخلي عنه أبعد شيء عن ذهنها، حتى لو نامت معه بالمجان. حرضها تهديده على التشبث به، هذا الأحمق يحبها بجنون. لن تفقده. أبوها اللواء عاش حياته واختار الجندية والوطن والأمانة والنزاهة... فاختار مصيرًا، لن تشاركه به، أو تدفع ثمنه. وحدها اختارت حياتها، ووحدها ستختار مصيرها.

«سأكون معك حتى لو اضطررت إلى أن أكون شرموطتك. هل تعرف لماذا؟ لأنك تحبني، لن أجعل منك مجنونًا، ولن أدعك ترتكب حماقة تندم عليها».

أحسّ بالارتياح، حبيبته في الاتجاه الصحيح. هذا هو الوقت الملائم ليطلعها على سره، وإذا أراد البوح لها بما لم يبح به لأحد، فلأنه بحاجة إلى شريك، يشاركه طموحه، يريدها إلى جانبه، تخوض معه في غابة الألغام والفخاخ.

«هل تريدين أن تعرفي؟».

ولقد أرادت.

٢. رجل القدر

السر، كما بدا على ملامحه، خطير جدًا، مهما كان ستمشي ولو بين الأفاعي، لن يضيرها، ما دامت معه. لم تكن ترغب فحسب، بل تدرك عن وعي أنها ستجد مكانًا داخل التركيبة الرئاسية، ولأنها حصرية، يجب أن تكون داخلها، لا خارجها.

«لن أكون أقل من زوجة لك».

لا لشيء، فقط لتصبح من العائلة الرئاسية.

«إنها مسألة وقت».

كان يقصد ما قصدته تمامًا؛ لن تكون مجرد عشيقة.

ليس سرًا أن الكثيرين يتطوعون لتقديم الخدمات إلى العائلة؛ ضباط ومسؤولون وتجار ورجال أعمال، مهربو مخدرات، بائعو أسلحة، صيارفة ومتعهدون وأصحاب مشاريع على الورق، محتالون دوليون، صحافيون مشهورون، شركات علاقات عامة ومحللون استراتيجيون ومنظرون في كل شيء... يتذللون لنا بتقديم عروض مغرية لكل شيء وأي شيء، وبأسعار منافسة. لا نطمئن إليهم، مهما توثقت علاقتنا معهم، نلبث دائمًا على حذر منهم، نحن على حذر من الجميع... يستغلوننا ونحن نستخدمهم.

«لن أخفي عنكِ شيئًا».

أقول لكِ، لن تكون العائلة الرئاسية مفهومة لكِ، إلا إذا نظرت إلينا كأسرة متضامنة، مصالحنا واحدة. الكثيرون يعرفون ذلك، ولديهم تشبيه هو الأقرب،

يطلقونه علينا خفية؛ العصابة الرئاسية. ولقد أصابوا، فلم يستعصِ عليهم التعامل معنا. لا تضحكي، العائلة الرئاسية، ليست عصابة، إلا لأنها محاطة بعصابات، كما أننا نستدرجهم، نستميلهم إلينا، لنستعملهم ساعة نشاء، ونقضي عليهم متى نشاء، وبلا رحمة. السلطة بطبيعتها، جاذبة للأشرار وطاردة للأخيار، عمومًا لا أخيار.

قد تتصورين أنني أحمق. لا، أنا ذكي جدًا، أكثر من العادي، وأدرك ما أقوله تمامًا. إذا أرادت العصابة أن تربح الحرب، فلا بد من شراء عملاء موالين لها؛ شبيحة، مليشيات مسلحة، قتلة محترفون، وكل ما هبّ ودبّ من لصوص. الحرب ساحة يسيطر عليها المجرمون، إذا لم يكونوا معنا، فسيكونون ضدنا، إن لم يكونوا سفلة، فسنجعلهم سفلة. لا نسائلهم، ندعهم يعملون لحسابهم، لا يكلفون الدولة إلا النزر اليسير، مداخيلهم تعتمد على استثمار وظائفهم، ومهما كانت، فنحن نعرف أن الغنائم كبيرة وكثيرة، ولا يشبعون، يريدون المزيد، وهناك المزيد، ويأتي الوقت إما أن نستخلصه منهم، أو نقاسمهم عليه.

هذه الحرب، الجميع غارقون فيها، لا يجهلون عواقبها ولا مآسيها، والأهم مكاسبها. وإذا كنا ندفعهم إليها، فلأنهم يريدونها. انظري إليهم بهذا المنظار، لا أحد مخدوع. في الحقيقة، مهما كانت، فالأرباح سهلة وهائلة، لكن الخسارة، خسارة حياتهم. حسنًا، ما دام المال مقامرة غير مضمونة، فليعيشوا أو يموتوا.

النظام لن يهزم، الدول تحمينا، ليس تبرعًا، نحن ندفع مقابلها؛ امتيازات وقواعد، الإيرانيون يريدون حصة تعادل ما بذلوه، هكذا يقولون، لكنها تفوق ما تكلفوه، والروس يطالبون بموانئ ومطارات وقواعد، كلاهما يستنزفاننا، سينهبان ما فوق الأرض وما تحتها. إنهم لصوص، ولو كانوا دولًا، النهب العالمي معترف به.

تصوري أي فوضى، لو تركنا البلد لمليشيات الداخل، ودول الخارج، لن يتركوا لنا سوى الفتات. مسؤولياتنا كبيرة، سنحافظ رغمًا عنهم على بلادنا، لن أقول إنها أمانة في أعناقنا، وإنما نحن من دونها لاشيء. لن نفقد الكثير، الحصة الأكبر ستكون من نصيبنا، وما بقي سنساوم عليه، نَفَسُنا طويل، الظروف تساعدنا، نحن فوق أرضنا، سيخرجون من بلادنا بالحسنى، أو نُضيّق عليهم، ونسلط عليهم كلابنا وقوانيننا، فيغادرونها رغم أنوفهم. هذه البلد ملكنا نحن، ملك العائلة.

حاليًّا، لا نحلم بقسمة عادلة، القوة تتحكم بالحصص. كلما اقتربت التسوية، نحاول تصفية شركائنا الصغار، لا الاعتراف بهم. الشراكة تعني اقتسام

السلطة، بالنسبة إلى الكبار، سيحل وقتهم ووقتنا. عندئذ لا شراكة ولا قسمة.

شركاء الداخل سيدفعون لنا، مقابل إبقائهم على قيد العمل، وربما الحياة.

النظام ضرورة أكثر مما تعتقدين، البقاء له، لولاه ينهار البلد، سأهمس في أذنك، بالجواب عن سؤالك: لماذا النظام؟

«النظام لتنظيم النهب، من دونه، لا دولة، ولا شعب».

لم يكن حديثه جديًّا فقط، بل ذكيًّا جدًا. أدركت من الصمت الذي تلا، وكأنه دخل في غيبوبة، هناك ما يريد مصارحتها به، شيء يطفح عن العشق، ربما أقرب إلى الوله، لا يخلو من سمات عبقرية غامضة.

رجل الإدارة مغرم بشيء آخر، هذا ما حدثتها به نفسها.

ظنونها، لم تكذب. بعد صمتٍ استمر بضع دقائق، فتح فمه، ثم صمتَ مرة أخرى. ما الذي يدور في رأسه، ويتردد في قوله. لم تخطئ، كان يسأل نفسه، هل يبوح بما يجول في رأسه ويؤرقه، أم لا؟ أخيرًا حزم أمره:

«في يوم قادم، بعد انتهاء الحرب، ستطيح حركة تصحيحية كبار العائلة الرئاسية، وتعيد هيكلتها من جديد».

للوهلة الأولى لم تفهم، سوى أن قنبلة من العيار الثقيل ألقيت، ورأسها انفجر. أيقنت بعد لحظات أن ذهنها لا يعمل، وأنها ترغب في نسيان ما سمعته، لا تريد أن تتذكره، ولا أن تستعيده. أيقنت أنها لم تسمعه.

لم يفلتها، تابع الكلام:

«هذا قرار المعارضة في العائلة الرئاسية».

يا إلهي، هل اخترقت المعارضة العائلة الرئاسية؟

ابتسم قائلًا:

«في الرئاسة، نحن النظام ونحن المعارضة».

هزّ رأسه، صفن ثم قال:

«هكذا، تستقيم الأمور، من أجل بقاء العائلة، لا بديل من تنظيفها، ثمة من يجب أن يرحل، وترحل معه المجازر والجرائم والضحايا والمفقودون».

«من تقصد؟». تساءلت بصوت مبحوح.

«إن لم يرحل، سيُرحَّل بالقوة رغمًا عنه. الخطوة مؤجلة، الروس مصرون عليه، يريدونه لإكمال المشوار».

شهقت مرعوبة، لم تعد متأكدة مما تسمعه، ولا مما يقوله، ولا تريد أن تفهم أنه يقصد الرئيس. لن تكون شريكته. حذرته:

«سينهار النظام».

حلقها جفّ، هدير أنفاسها يقرع رأسها. نظرت إليه، بدا كأنها لا تعرفه، ملامحه متصلبة، وقد كزّ على أسنانه. رفعت يديها تريد انتزاع الفكرة المجنونة من رأسه.

«من الحماقة التفريط بالنظام».

«النظام باقٍ».

سيشرح لها تلك المعجزة التي لا تنازل عنها، معجزة صنعتها انقلابات تتالت، كلفت مؤامرات واغتيالات وإعدامات وحروبًا وتحالفات ومجازر ومساومات وتضحيات وخيانات وسجونًا لا يخرج منها سوى الأموات أو الذين في النزع الأخير... هكذا وُلد النظام المعجزة. لن يزول، ولن يُضحى به. هذه الحرب لم تكن إلا ليترسخ، الرئيس الخالد أعده كي يستمر إلى الأبد.

«لكن ماذا عن...؟».

«لن يستمر إلا برحيله».

نحن نبني نظامًا جديدًا في العالم، نقدم مثالًا لا نظير له، ليس جمهوريًّا ولا ملكيًّا، لا رأسماليًّا ولا اشتراكيًّا. إذا كان سيشرّش في كوكبنا فلأنه يرنو إلى عالم نهائي، رؤساء الدول يرغبون في نسج صنو لنظامنا، ويتمنون اعتماد الوراثة حلًا لمهزلة الديمقراطية والانتخابات وتداول السلطة. هذا نزوع دفين لديهم، آن ظهوره، سيسترشدون بنا. نحن التجربة الفريدة للأنظمة التي ستتحكم بالعالم، تواطأوا على أن يدعوا بلدنا في أتون الاختبار، إن نجحنا، سيقتدون بنا. عندما تنفرط الديمقراطية في دولة كبرى، ستتساقط باقي الدول كما أحجار الدومينو.

أمعنتِ النظر إليه، أحسّت بالخوف من عينيه المحدقتين إليها، لم يكن يراها، كان يرى ما يتراءى له، ماذا كان؟ لم تصدق عينيها، على وجهه، تلمحت المرشح لقيادة الحركة التصحيحية، طمأنها:

«النظام باقٍ، النظام أبدي» تمتم مؤكدًا.

كانت أمام رجل القدر السوري.

لم تتخيل على الإطلاق، وجود انقلابي خفي في قلب العائلة الرئاسية، ينتظر الفرصة للانقضاض عليها، حسب خطة تُجدد تصحيح ما صُحح سابقًا.

متى؟ همست.

«بعد انتهاء الحرب».

«لماذا ليس الآن؟».

«إنه تحت حماية الروس والإيرانيين».

توقف قليلًا، ثم تابع:

«اطمئني، الشرعية للنظام، العائلة أمينة عليه».

هالها منظره، لم يعد العاشق الأعمى، كان المتآمر المحترف، لن يثنيه شيء عن هدفه العظيم، كانت فرصتها أيضًا، ستشاركه في ما بات يجمع بينهما، وكان أقوى من تفاهات الحب وسخافات الجنس، وتلك المكاسب الصغيرة اللعينة... بل النظام بحاله.

نعم، كل شيء أو لا شيء، لا خيار آخر، أرادت أن تضحك؛ لم تجد أفضل من الضحك على ما تفكر فيه؛ الشعارات الوطنية، هذا وقتها، تشدّ بها عزمه، وتذكره بأنها كانت وما زالت قيد الاستعمال على الدوام. قالت له:

«الشعب معك».

لم يكن الانقلابي الفذ غشيمًا، أسقطه من حسبانه فورًا.

«الوثوق بالشعب انتحار».

لا دور له، في حركة التصحيح. الحرب أخضعته وسحقته، لقد خسر ثورته، لن تقوم له قائمة لعشرات السنين.

«اللقب القادم: الرئيس المنقذ، الرئيس المُخلّص».

تخيل مفزوعًا أنه سلّمها عنقه، لو حاولت أن تغدر به، فلن يكون ضحيتها، سيخنقها بيديه هاتين، اقترب منها وعانقها بيديه هاتين.

عندما ضمهما الفراش، همس في أذنها: «لا تخونيني».

«إياك، وأن تعتقد للحظة واحدة أنني قد أتخلى عنك».

في تلك اللحظات المترعة بالروعة والجلال، والمنتزعة من خيال، كان أصلب من الواقع، انعكست صورتها، صورة السيدة الأولى، عارية تتلوى على صفحة المرآة العملاقة، وبين فخذيها اختفى وجه الرئيس المنقذ، الرئيس المخَلّص.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

الفصل السابع والعشرون
الوقائع الملهمة

١. رماد تذروه الرياح

لم يصدق المفوض قصة اختطاف المقدم، ولا المجموعة الإرهابية، ولا موته، أو جثته. لن تنال منه حادثة مقاساتها مطابقة لأنماط القتل الشائعة. المقدم معتقل، أما إلى متى؟ فسيطول غيابه، ريثما يعاد تأهيله بعملية لا تقلّ عن غسيل دماغه. خالد لن يتجرأ على قتله، يستحيل أن يغامر ويصطدم مع الرئاسة، لن يفعلها، لكن ماذا لو فعلها؟ لن يستطيع. لكن في قرارة نفسه، أدرك أن الحظ تخلى عن المقدم، لم يدرِ كيف ولماذا؟ كل ما يدريه أنه لن يراه ثانية، ربما أُرسل إلى مكان ما بحيث لا تقع عليه الأنظار.

لم ينبس المحقق سامر بكلمة. خمّن متنبئًا ويائسًا؛ المقدم لم يعد خطًا أحمر.

سها عمّا حوله، وشردت تخيلاته إلى المستشفى؛ تراءت له جثة المقدم في المشرحة، الطبيب منحنٍ فوقها، لا يفحصه، يسجل بالقلم جلطة دماغية. لن يذهبوا به إلى المستودعٍ، لئلا يختلط بغيره، بغية إخفاء أي أثر له، لن يظفر بكتابة رقم على جبينه، ورقم على صدره، ستبقى جثته في البراد، ريثما تتجمع حمولة الجثث ذات الأوضاع الخاصة، تُكدَّس في صندوق الشاحنة، ثم إلى العدم.

عذبته تخيلاته، بات أسير تداعياتها، تحفر في رأسه خطواتها، خطوة خطوة، تمسك به من رقبته، تضغط على عنقه وتخنقه، لا، لم يمت، ما زال حيًّا. حاول النهوض، لم يستطع، كبا على الطاولة، فسقط في الظلام، يلفّه السواد، زائغ العينين في «الغرفة السوداء»؛ المخاوف السوداء تنهال عليه:

المقدم في العتمة، قطعة من العتمة، بلا طعام ولا شراب. على ضوء مصباح البطارية، يدخل رجل ترافقه امرأة كلاهما من لابسي الأرواب البيضاء، يتحاوطان السرير، ينكبّان فوق المقدم، كان ينزف ويتوجع. الرجل طبيب الحالات المستعجلة، المرأة ممرضة الحالات المميتة.

ظنهما المقدم ملاكين هبطا من السماء، ففتح لهما ذراعيه يستنجد بهما. حذره المحقق منهما، المقدم لا يسمع. لمع في السواد بريق، الرجل استلّ إبرة، تميزها المحقق؛ إبرة الكالسيوم القاتلة.. تحشرج صوت المحقق في حلقه. بينما كانت الممرضة تمسك يد المقدم وتثبتها من دون حركة، طبيب الحالات المستعجلة يحقنه بالإبرة.

المقدم جثة هامدة، المقدم في كيس أسود، المقدم إلى المحرقة.

لن يتخلف عنه سوى الرماد، رماد تذروه الرياح.

فتح المحقق عينيه، فإذا عاصفة غبار.

٢. فتاة محصَّنة من اليأس

مضى يوم آخر، ولم يظفر المفوض بخبر عن المقدم، أدرك أنهم لن ينتظروا طويلاً، لقد قتلوه. توقع بين ساعة وأخرى أن تتصل به رفيف، وتسأله عن خطيبها، كان قد أخذ على عاتقه إبلاغها بوفاته بطريقة ما، لا بد أن قلبها أسرّ لها بأن غيابه سيطول. عندما ستسأله، لن يحدد المدة، ولن يتجرأ على أن يقول لها ما يحزنها، لا أكثر من القول: لا أخبار عنه. لن يجعلها تأمل، ولا تيأس. ستخالجها الظنون، خطيبها ليس بخير، لن تتيقن، ستلبث حائرة، تخمن ولا تفلح، مع الوقت ستميل بها الظنون رويدًا رويدًا نحو ما تخشاه. الوقت لن يطول، ستدرك أن حبيبها الشاب الذي كان يستشيرها بكل صغيرة وكبيرة، سيخلف مواعيده معها، ولن تراه أبدًا.

تعسّر الفاصل الحزين، لم تتصل به، ولم يتمكن من الاتصال بها، كلما رفع السماعة لا يسمع رنينًا، الخطوط السلكية واللاسلكية مقطوعة، ولا تغطية للهاتف المحمول. الفرع أخرج من الخدمة، وحُجب عن العالم، بات معزولاً عن الدنيا؛ خالد بدأ العمل على مرحلة ما بعد المقدم. المفوض لم يعد مفوضًا. لم يستغرب، المقدم الذي فُوّض من أجله، لم يعد حيًّا.

تساءل، ما الإجراء الذي سيُتَّخذ ضدي؟

كانت واقفة عند مكتب الدخول. عرفها فورًا، كانت كما تخيلها تمامًا من أحاديث المقدم عنها، خفيفة كالهواء، وكان يعبث بلفحتها الصوفية، الحجاب انزاح قليلًا عن جبينها، وبانت ذؤابات غرّتها. بدت وهي تتمايل مع الهواء كأنها نسمة منه، وعلى وشك اختطافها. كانت متوجسة، بعد قليل، سيدرك خطأه.

«هل أنت المفوض؟».

«نعم، كنت المفوض».

أحزنه أنها بدت حزينة. مشت إلى جواره، لم تنبس بكلمة. طمأنه الصمت بينهما إلى أنّ ما يتبادلانه دونما كلام، كان معبّرًا عمّا لا يجوز الاعتراف ولا التصريح به، كأنها أدركت مأساتها. قلبها حدثها؛ حبيبها المقدم ليس بخير، أصابه سوء، القلب لا يخطئ. ليت ما حدّثها به، ليس الحقيقة.

كاد أن يبكي، ليس حزنًا عليها، بل أسفًا على نفسه. كانت متماسكة أكثر منه، يكاد أن ينهار، مع أنه بالمقارنة بها، لم يفقد شيئًا، وإن كانت خسائره كثيرة.

في يوم ما كان ثمة معنى لما يطمح إليه، أراد أن يفعل شيئًا جيدًا، لكنه فعل الأسوأ. حياته ارتبطت بالبلد، والتصقت بالنظام، الفرص الهائلة التي تهيأت مرارًا لإحداث متغيرات عظيمة، لم تكن سوى القمع والإعدامات وهذه الحرب. روّج لها صديقه المهندس في عهد الرئيس الأب، إلى أن قتله الرئيس الابن، نهاية منطقية، تأخر عن إدراكها.

متغيرات، كان على هامشها، شارك فيها، ولو بصمته.

تمنى أن يقول لها؛ دعيني أبكي، أخشى البكاء وحدي. لكنه لم يتجرأ على الاستعانة بها، ربما كانت ترجو الاستعانة به، لن يخذلها، لا بد أن يتحامل على نفسه ويتجاوز آلامه. ما تسبّب به، كانت بريئة منه.

رافقها طوال الطريق إلى موقف الباص، لم تنزل دموعه، كان في داخله ينزف. نظر إليها، افتقد ملامح الحزن على وجهها. حسدها، كانت تتألم في دخيلتها، مع أن هناك ما تبكي من أجله، ويستحق دموعها.

التفتت نحوه، بدت على وشك أن تتكلم، وكأنها تحمل إليه شيئًا، قد يتوقع أي شيء، عدا أنها كما قالت تحمل رسالة له من المقدم!!

هل تقصد المقدم بالذات؟ لم يكن في تلك اللحظة سواه؛ الشاب الطيب الذي فارق الحياة، لم يعد سوى جثة مسجّاة مشوهة على محفة في طريقها إلى الطبيب الشرعي، أو إلى البراد، وربما دفنت، أو تطاير رمادها، وتلاشى في الفضاء.

قالت إن الرسالة وصلت إليها من طريق فتاة ممرضة، كلفها المقدم تسليمها لها، تطمئنها إلى أنه ما زال حيًّا، هناك ما يمنعه من رؤيتها حاليًّا، لا يستطيع تحديد مدة غيابه، لكنه سيراها قريبًا.

لم يصدق الرسالة، ولا اللقاء القريب، إنهم يعبثون بها، يظنون أنّ المقدم باح لها بشيء، ويحاولون استدراجها، إذا كان هناك ما تعرفه، فسيُلحقونها به.

تماسكي، إياك واليأس. قال لها.

لقد حصّنني من اليأس. قالت بالثبات نفسه.

نصحها بالاختفاء عن الأنظار، وألّا تستقبل أحدًا. الظروف غير آمنة. للأسف وضع المقدم غامض جدًا، ربما ليس بخير.

نظرت إليه، عاتبة عليه. أدركت أنه لم يصدقها، يبدو مشفقًا عليها. لم تلتفت إلى نصيحته، بل وطمأنته، الرسالة نفسها كانت له أيضًا، ولشخص آخر هو المحقق.

حبيبها المقدم معتقل في المستشفى؛ تقول الرسالة التي حملتها الفتاة الممرضة.

لم يدرك سوى أنهم يتلاعبون بها، يبثون فيها الأمل، وكانت راغبة في تصديق ما يقولونه لها، المسكينة يستغلونها، لن يفلتوها. لا تدري أنها مراقبة، بينما كانت مطمئنة إلى ما أبلغته إياه... ورغم ظنونه القوية، كانت قد شوشته. لكن ثقتها بما تقوله، أدخلت الشك المُطمْئِن في قلبه، ليت ما سمعه منها صحيح، مع أنه مستحيل.

لم يرغب في أن يُفقدها هذا الأمل، ولو كان لاشيء. نصحها:

مع هذا، احترسي منهم.

عند الرصيف، انفصلت عنه، تابعها بعينيه، وهي تصعد إلى الباص، تمنى أن يتفاءل. إذا ساعده القدر والمصادفة، سيلتقي بها يومًا ما، ويحكي لها عن مشاعره تجاه المقدم، كان أخاه الأصغر. تمنى لهذه القصة أن تعيش طويلًا في روحها، وتتذكرها كثيرًا، ولا تتجدد جراحها، قصة طويلة، لن تكون وحدها فيها، برفقتها المقدم حيًّا، لا جثة هامدة.

لم يدرِ لماذا أوحت له، وبشكل غامض، بأنها تمثل دمشق، ربما لأن دمشقيتها تعلّمها الانتظار، ولا تفقدها الرجاء، هناك غائب سيعود، وهذا الغائب رجل طيب القلب ضحى من أجل معتقلين. ليت الخيال يسعفه بشيء أكثر من رمز استقاه من الحياة أكثر من الأدب، وإن كان الواقع يجهضه. هذا الأمل يستحق السخرية، لا أكثر من وهم، ينعش القلب ولا يسكن الآلام، ما دام القتل حقيقة.

يعرف أنه سيمضي في طريق مسدود، ومايا معه في مأزق حياة بلا أفق، عسى أن يجدا معنى مضادًا للموت والخراب. إن لم تنجده قريحته، هل ينقذه الحب؟ الحب لا يكفي، مجرد ملجأ من الوحدة، الحياة تحتاج لما يجعل الحب يستمر. لا يريد سوى الاستقرار معها في أي مكان بعيدًا عن هذه الكارثة، وأن يحبها فقط، ويعرف أنّ الحب وحده مؤلم، إن كان هربًا من هذا الذي لم يعد وطنًا.

جرجر خطاه عائدًا إلى الفرع. أعلم المحقق بالرسالة المزعومة التي نقلتها الممرضة لرفيف، المقدم حيّ، وفي قرارة نفسه، إذا كان سجينًا في المستشفى، فقد غادرها ميتًا. لم يصدق المحقق القصة، وإن تذكر أنّ الممرضة تبرعت له باستعمال هاتفها المحمول، لكن شتان بين إعارة هاتف، وأن تحمل لها رسالة تُعرّضها للخطر. إذا كانت هي نفسها المتصلة برفيف، فربما كانت تريد الإيقاع بها. مع هذا، ليته يصدقها، بيد أن مخاوفه تغلبت عليه.

٣. إغلاق الفرع ٦٥٠

توقعا، إنها أيام الفرع ٦٥٠ الأخيرة، لكنها كانت ساعاته الأخيرة.

جلسا، ليس لديهما ما يفعلانه، بانتظار هبوط التعليمات الجديدة، يتبادلان النظرات، أمرهما ليس بأيديهما. الضابط الذي سيأتي بديلًا من المقدم، ليس بحاجة لمن يكبح جموحه الأخلاقي، لن يتكيفا معه، المقدم أفسدهما. سينتج من اصطدامهما مع القادم الجديد اتهامات بالعمالة والخيانة، هل يقدمان استقالتيهما، أم يستنكفان عن العمل، فيُطرَدا؟

وفّر خالد عليهما هذه الخيارات، قبل أن يقررا أمرًا مهما كان، لن توافق عليه الإدارة، العاملون في الأجهزة الأمنية لا يتصرفون حسب رغباتهم، ولا يختارون ما يشاؤون، هذا القرار غير عائد إليهما.

قبل الظهر، وصلت مدرعتان مع شاحنتين من الجنود المسلحين، في المقدمة سيارة سوداء اللون، تحمل ضابطين الأول برتبة عميد، والثاني برتبة عقيد. احتلوا الفرع، وقبضوا على العناصر، وضعوهم في الشاحنتين وأرسلوهم إلى جبهات الشرف. بينما استُدعي المفوض والمحقق لمقابلة مدير الإدارة.

في حضرة السكرتيرة، تابعا الانتظار والصمت دونما تأفف، ليسا على عجلة، مذ شاهدا الجنود بالأسلحة الخفيفة والثقيلة، يحاصرون الفرع ويأخذون وضعية الاقتحام، كأنهم سيواجهون مقاومة ضارية. ثم يسيطرون على مداخل البناء ومخارجه دونما مقاومة. تخيلا لحظتها ردة فعل المقدم، لو كان موجودًا، فهل سيقاوم؟ من حسن حظه، أصبح رمادًا. المقدم لا يفارق تخيلاتهما، لم يفكرا في مصيريهما، لن يكونا أسوأ من مصيره.

لم تستغرب السكرتيرة صمتهما، من يُستدعى لمقابلة المدير خالد، لا يفتح فمه، يجلس مفكرًا في المفاجأة غير المنتظرة في الداخل. بينما هذان، كانا لاهيين عن المفاجأة في همومهما، بدت مستفحلة في جمود نظراتهما.

لم تفتر عن النظر إليهما، خصّت المحقق الشاب باهتمامها، لم تخفِ نظراتها شفقتها عليه، المسكين لا يدري أن قصة غرامه انتهت هنا، وبدأت قصة أخرى في المكان نفسه، عملية أكثر منها نظرية، في الغرفة التي سيدخل إليها بعد قليل. لو كان بمتناول يدها، لمسحت على شعره، وهمست في أذنه بنصيحة، انسَ حبيبتك، لا تذرف دمعة عليها، اعذرها، مهما كان وصف ما فعلته بك؛ خيانة، خبث، نقض للعهد، كل هذه الأوصاف وغيرها في محلها، وفي غير محلها. سامحها، ليس بوسع فتاتك إلا أن تكون على ما هي عليه، بصحيح العبارة؛ انتهازية. ما الذي سيتوافر لها من فرص؟ طلبة جامعيون فقراء، أولاد مدللون لمسؤولين رخيصين، أو شبيحة زعران... هنا كانت فرصتها الكبرى.

أنت أيضًا، ماذا تكون؟ عاشق أحمق، طيب السريرة. افهم، الفرص الثمينة نادرة، ليست على قارعة الطريق. أيها المسكين، كلفك فراقها غاليًا لمجرد أنك أحببتها، لماذا يحب الرجال نساء حقيرات؟ لا سبب، إلا أنهم أغبياء. مع أنه لا يؤسف عليها، حياتك معها لن تطاق، كنت محظوظًا، وإن كان الثمن مؤلمًا.

لقد عرفتْ من تصطاد، ووفقت في اختيارها، بعد ذلك حسب شطارتها. خالد يميل إليها، وربما يحبها، استحوذت عليه، باب مكتبه مفتوح لها في أي وقت، طبعًا الباب الجانبي. المغفل يظن أنّ النساء يتهافتن عليه لجاذبيته، لولا منصبه لكان سمجًا، ما الذي لفت نظره إليها؟ حقارتها، ومع المزيد من الحقارة سيتوله بها. لم تخطئ، لقد وضعت حياتها على السكة الصحيحة

لو كان لها مواساة العاشق المنبوذ، فلن تخفي عنه تجربتها، إنها أيضًا حاولت مع خالد، هذا من طبيعة عمل السكرتيرة، أن تكون على علاقة مع مديرها، خالد تردد، الشائع أن تكون عشيقته، فاكتفى بالسمعة، بينما الفراش من نصيب غيرها. توظفت سكرتيرة في الإدارة لأنها كانت ابنة شهيد، عندما كان للشهداء امتيازات قبل الثورة، لم يواكبها الحظ مع خالد الوغد، لم تكن حقيرة بالقدر الكافي.

أحرجته السكرتيرة، كانت ترمقه بنظرات حانية. أحسّ بمشاعرها الرقيقة نحوه، ليته يعرف ما يدور في رأسها، ربما كانت تعرف قصة حبه البائسة، إذا صدقت تصورات ف.خ، فالسكرتيرة مطلعة على ما دار بين حنان وخالد، فأشفقت عليه، لكنها تبالغ في تعاطفها معه. خيال ف.خ واسع، ما قاله له قد يكون الحقيقة، حنان لا تتورع عن شيء. إذا التقاه ثانية، فسيبلغه إعجابه بخياله النشط، ويحسده عليه، هذا إذا كان رجلًا حقيقيًّا.

لم تأخذ مقابلة خالد مع المفوض والمحقق أكثر من دقائق. أبلغهما بإغلاق الفرع ٦٥٠ نهائيًّا، بالتالي لم يعد له وجود، سيتحول البناء مؤقتًا إلى مركز لاحتجاز المعتقلين، ريثما يجري توزيعهم على السجون والمحاكم.

بالنسبة إلى المفوض، وفى بوعده له، ووافق على طلبه الانسحاب من العمل الوظيفي، والتفرغ للأدب والصحافة. أما المحقق فللأسف، انتهى انتدابه للفرع ٦٥٠. لن يعود إلى الفرع ٣٣٣. مكانه لم يعد شاغرًا، عليه البحث عن عمل آخر.

شكرهما على ما بذلاه من جهود في تسيير أمور الفرع، ومساعدته في إرشاد المقدم الشهيد في عمله، واعتذر عن عدم مكافأتهما بوسام، الميزانية تذهب للمجهود الحربي. الأوسمة المخصصة للحرب تحتاج إلى معمل لسدّ احتياجات الشهداء، فألغيت بسبب الكلفة، وعدم توافر المعادن الخردة، استهلكتها البراميل المتفجرة. استعيض عن الأوسمة بشهادات تنويه ورتب شرف،

ومكافآت عينية؛ ساعة حائط صنع تايوان، مسحوق غسيل، صابون، علب فول مدمس، سحارة بطاطا أو برتقال... حسب الموسم.

«هل أرفع أسماءكم؟ أظن المكافأة ربطة معكرونة وكيلو برغل، طبعًا سنمنحكم شهادة تقدير على خدماتكم».

شكراه، غيرهما أولى بها.

خرجا، وإذا كان قد خطر لهما شيء، فهو أنهما لم يستوضحاه عن المقدم، ربما أثارا شكوكه حولهما، تواطآ معه على أنّ المقدم قتله الإرهابيون، وربما اختفى، أو رحل إلى مكان ما، ولم يقتل في المستشفى.

شيّعتهما السكرتيرة بنظراتها، كما توقعت، لا مفاجأة، بدا عليهما الارتياح، كأنهما رميا بعبء ثقيل عن كاهليهما. لا بأس، لا أخطار بعد اليوم، وإن كانت الحياة لا تخلو من مفاجآت، ما دامت الحرب في تصاعد، فقذيفة هاون تصيبهما ستجعل أشلاءهما تتطاير في الفضاء، هذا أفضل من طلقة طائشة قضت على أبيها في عاصفة الرصاص احتفاءً بانتصار فريق كرة القدم.

تمشّيا معًا، لم يرغبا في الحديث عمّا أبلغا به، رغم أنه كان أفضل ما سمعوه منذ سنوات. ما زال المقدم مستحوذًا عليهما. بوسعهما الكلام عنه باستفاضة؛ كان صديقًا عزيزًا، تعلما منه أشياء رائعة، ولو كان اعترافهما متأخرًا، لم يقولاه له عندما كان حيًّا، لئلا يصيبه الغرور.

صديقنا غادر هذا العالم.

وأحسّا بالرماد يرفرف في العالي مثل الفراشات. من أين جاءتهما هذه الصورة الشاعرية؟ كأنما روحه الحاضرة بينهما، أوحت لهما بصورة واحدة، تشاركا بها.

قال عارف، تقديرًا للمقدم، يستحسن نزع الرتبة العسكرية عنه، كلما استعادا ذكراه، اسمه جميل، وأفكاره جميلة، على الرغم من تعنتها، كانت نظيفة، وقابلة للجدل. المؤسف أنه لم يخلق لهذا العالم. لا مكان له فيه، ولو في فرع أخلاقي لا يتعرض فيه للمساءلة. كان أطهر من أن يتلوث بهذا الفساد. لقد قضى ضحية براءته.

أسهم سامر في هذا التأبين الراقي بشكل معاكس؛ خلق صديقنا الطيب خصيصًا لهذا البلد، تصوره من دونه، مستحيل، هذا الجنون في القتل لا يكافئه، إلا جنون مكافئ في الأخلاق. الحاجة إليه ماسة، لهذا وُجد هو وغيره، ويقتل هو وغيره، إنهم بمثاليتهم الهوجاء، يذكروننا بأنّ الخير لا يعرف حدودًا، تضحياتهم تمنحنا الدافع لنكون بشرًا.

قال عارف، مئات الآلاف من الشهداء، لم يؤثروا في إيقاف الحرب. انا متشائم.

قال سامر، وأنا أيضًا.

كانا قد وصلا إلى مركز انطلاق الباصات، تعانقا على أمل لقاء ما قريب أو بعيد. استقلّ عارف سيارة إلى البيت ليأخذ حقيبته ويسافر إلى بيروت، ويبدأ مع مايا وأمها وابنتها حياة أخرى، لن تكون إلا لقضاء الوقت في انتظار العودة إلى دمشق. بينما ركب سامر الباص، عزم قبل الذهاب إلى البيت، المرور على بسطات الكتب.

بعد أقل من دقيقة، التفت كلاهما نحو الخلف، عارف من التاكسي، وسامر من الباص، سمعا صوت انفجار، لمحا لهبًا يتصاعد، ودخانًا أسود، ورجالًا ونساءً يحملون أطفالهم يتراكضون هلعين. الصراخ يتعالى، والذعر على الوجوه. بعد قليل سيسمعان من الإذاعة عن تفجير سيارة مفخخة في كراج الباصات، خلّف العشرات بين قتيل وجريح.

كانت المسافة بينهما وبين الموت، أقل من دقيقة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

الفصل الثامن والعشرون
الحقيقة

١. لعبة روائية من كلمات

نزل سامر من الباص في موقف «سانا»، واتخذ طريقه نحو الجامعة إلى بسطات باعة الكتب تحت الجسر، ليروّح عن نفسه، ويشتري بعض الروايات، ستمنحه القراءة بعض العزاء. كان إحساسه بالتحرر من الفرع وتأنيب الضمير منقوصًا، ما دام لم يتحرر من أوجاع القلب، ترى كم ستطول؟ الضائقة العاطفية الخانقة التي عاشها، وما خالطها من قلق مصيري؛ بحاجة إلى رافع معنوي لينتزع نفسه منهما. سيدع نفسه لحياة بلا هدف، مع أنّ لديه قضية لا جدوى من التضحية لأجلها، وإذا كانت لا تزال حية، فالمزيد من الموت يلاحقها في عالم لا يأبه للحرية، ولا يهتم للعدالة.

عند الدرج النازل تحت الجسر، لمح ف.خ يغيب في داخله، فقفز كالمجنون عن الرصيف، وعجل في الجري نحو الرصيف المقابل، كأنه كان يبحث عنه، ووجده. وقع في يقينه أنه يمتلك جوابًا عن سؤال راوده لحظتها، كان عن رغبته العارمة في فصم علاقته بالحياة والضحايا، ما دام لا حرية ولا عدالة، هل كان على حق؟

هبط الدرج وراءه. تحت الجسر، تلفّت حواليه، لم يرَ سوى بسطات الكتب، وقلة من الزبائن يحمل كل منهم كتابًا يقلب صفحاته. شمل بنظراته مواقف باصات المزة والقصاع وقدسيا والهامة... لم يره، كأنه تبدد في الهواء.

كانت، «كأن» المرافقة لظهور ف.خ واختفائه دائمًا، برهانًا على أنه يتخيله، يظهر كلما أحسّ بضائقة، هذه المرة لم يكمل خياله المشوار.

بين الكتب المكدسة والمبعثرة على الأرض، تبين مصدر ما يتراءى له؛ كان من تداعيات آفة القراءة. اختلقه تحت تأثيرها، واصطنعه بهذا الشكل الروائي المثير، يظهر ويغيب، يعرف كثيرًا، ويتكلم كثيرًا، على نمط شخص خارق، بينما كل ما يفعله ويقوله؛ تخيلات لظهورات واختفاءات وأحاديث جالت في رأسه، لا في رأس ف.خ. ها هو سجّل باختفائه عودته من حيث أتى إلى الروايات المستعملة بأغلفتها المهترئة.

لا، لم يكن ف.خ خيالًا شريرًا، كان فاعل خير لا وجود له، وإن كان يظهر في الوقت المناسب، بموعد ومن دون موعد. هكذا رسم تجلياته، لم يكن مدينًا له، بل للروايات التي استدرجه منها، أعطاه لقبًا، ملامح وصفات، واسمًا سريًّا تخفى عليه بحرفين.

يا لفبركات الخيال!!

مهما يكن، فقد شدّ من عزيمته، وآزره في مواقف حرجة، أضاء مواقف وأشخاصًا، كشف له المتواري خلف الأبواب المغلقة. لن يراه ثانية، بعدما فكك لغز المادة المصنوع منها، مبذولة على الأرصفة، أبرزت حقيقته. وإذا كان قد أصبح شيئًا ما، فلأنه اختلقه على نحو يضارع الحقيقة، كانت نتاج خيال نفذ به إلى الواقع.

يا لتحايلات الخيال!!

الأمر الحسن، تخيلاته ليست هائمة على وجهها، ولا طائشة.

لم يكمل مدائحه للخيال، إذ لمحه - يا للمفاجأة، للمرة الثانية خلال دقائق!!- منحنيًا بجذعه على بسطة، ممسكًا بيده مجموعة من الكتب يساوم عليها البائع الجالس على سحارة، البائع تعامل معه كإنسان حقيقي، وقبل بالثمن الذي عرضه عليه.

نهض ف.خ، وضع الكتب في محفظته السوداء، تأبطها ومشى. فسار وراءه حانقًا ومرغمًا. سيأخذني إلى مواقف متوهمة، هذا ما خطر له. لماذا يستعذب الظهور والاختفاء؟

حافظ على مسافة بينهما، ليضبط المنظر القادم. كانت فرصة ليتعرف إلى آلية ما يتخيله، ولم يكن أكثر من أن ف.خ انبعث من مكمنه الحقيقي بين الكتب، وظهر في وضح النهار، بينما الشارع يعجّ بالناس، ريثما يبتلعه الفضاء المفتوح على الضجيج والغبار، إن لم يتوارَ في النور، فسيسيخ تحت الشمس.

تابع ف.خ طريقه، مرّ بمحاذاة بسطات الكتب على السور الحجري المواجه لأزقة الحلبوني، تفقدها كلها، ثم نحو بناء الخط الحديدي الحجازي. انخرط سامر وراءه مخترقًا جموع البشر الغارقة في حر اللهيب الحارق، نسوة قرويات، ربما كنّ نازحات كشفن عن وجوههن واقتعدن الأرض وحولهن أولادهن، عمال ريفيون تجمعوا عند بائع الفطائر الساخنة. زحام على امتداد شارع النصر، شبيحة يستعرضون أسلحتهم وعضلاتهم، أبواق سيارات، رجال الشرطة يزيحون قبعاتهم ويمسحون العرق عن جباههم ينظمون حركة المرور المعطلة من شدة فوضى حركة السير، لافتات تنزيلات الأسعار على واجهات محلات تدلت منها بناطيل وقمصان، رائحة عطور وتنباك معسل وبخور. أصوات غناء تصدح من المسجلات:

يا بشار ما منلين نحن جنودك ملايين

يا بشار يا أسد يا حب يب الملايين

الله وسوريا وبشار.

أمام القصر العدلي، العرضحالجية تحت المظلات ربطوا مناديلهم المبللة بالماء فوق رؤوسهم، رجال ونساء وكبار في السن، أم وبناتها ينتظرن محاميًا أو زوجًا أو ابنًا، امرأة ورجل يتشاجران بأصوات عالية، باعةٌ أولاد...

كل هذا كان حقيقيًّا، حتى ف.خ الذي صعد الجسر الواصل للرصيف المقابل، ونزل عند زقاق رامي. أسرع خلفه دون أن يحوّل بصره عنه. التفت ف.خ نحوه، رمقه بنظرة سريعة، كأنه يطمئن إلى أنه في إثره. أدرك أنه يستدرجه، لكن إلى أين؟ تردد، يريد الرجوع، فالتفت ف.خ ثانية، واستحثه بنظراته على اللحاق به. غذّ الخطى وراءه، وبسرعة البرق أدركه وأمسك بكم جاكتته، وشده نحوه. للوهلة الأولى، ظن أنه لن يمسك شيئًا، لكن كان حقيقيًّا بشكل مبالغ به، مثل هؤلاء الذين يمشون حوله في الشارع، لا ينقص عنهم بشيء، بل يزيد. قد يكون حقيقيًّا فعلًا. قال له:

«تمهل قليلًا، أريد أن أسألك».

استنكر ف.خ استيقافه له، بينما تدافعت الكلمات من فم سامر:

«لن ألحق بك، قبل أن أتعرف إليك. أنت تعرفني جيدًا، وأنا أجهلك تمامًا. قل لي، هل أنت حقيقي؟».

فوجئ ف.خ باضطرابه، فحاول تهدئته سأله:

«ألا تراني؟».

«أنت مختلف عنا، مختلف كثيرًا، مع أنك مثلنا جميعًا».

«إذًا لا تبالغ، أنت لا تجهلني».

« أرجوك، تعلم أنني أصادفك، أو أنك تصادفني، اعترف بأنك ساعدتني كثيرًا، ما الذي يعنيك من أمري؟».

«إنها قصة طويلة، ليس هذا أوان سماعها».

وتابع سيره، من دون الإفصاح عن شيء. سارع خلفه وأمسك بمعصمه، خشي أن يتلاشى كما يحدث في قصص الأشباح. ابتسم ف.خ ونزع يده عنه بلباقة.

«اطمئن، لن أختفي».

وابتعد متمهلًا في مشيته، متيحًا له المجال ليسير على مقربة منه. لن يدعه، قرر هذه المرة، الفصل فيما إذا كان حقيقيًّا أو متخيلًا.

تابع ف.خ طريقه على رصيف محلات باعة الأدوات الكهربائية. ثم انعطف نحو نزلة السنجقدار. كان يقصد مقهى القلعة في البناء القديم، حيث طاب له في المرة الماضية استعادة ذكرياته. صعد الدرج، فصعد معه، جلس على الطاولة نفسها، فجلس بمواجهته. ألقى النظر إلى الطاولة المقابلة، فألقى مثله نظره إليها. استعد للكلام، فاستعد له.

إذا كان ف.خ يفكر في ما سيقوله، فما عليه سوى دفعه إلى الاسترسال، عندئذ يتفحصه بإمعان ويحكم عليه. لكنه على خلاف ظنه، بدا غير راغب في الكلام، ربما كان متعبًا، قاصدًا أن يستريح قليلًا مع فنجان قهوة. لو ظل صامتًا، فلن يتعجب، بعد قليل يفترقان، وكأنهما لم يلتقيا. لكنه تكلم:

«سأطلعك بعد قليل على شيء يهمك».

أدرك أنه سيؤلف قصة يدعي أنها من ذكرياته، أو ذكريات غيره، وكل هذا كي لا يقول شيئًا ذا بال. عقّب بحنق:

«فسر لي على الأقل، من أنت؟».

لم يلتفت إليه، كان يتهرب من الجواب. فأردف حانقًا:

«بصراحة، أخشى أنني أتخيلك».

«لا بأس، اعتبرني شخصًا متخيلًا، المهم أنك موجود».

«ماذا لو كان الأمر بالعكس، وكنت أنت الذي يتخيلني؟ هل تدرك ما يعنيه هذا؟ أي أنني لا شيء، مع أنني حقيقي أكثر منك، لا أختفي بين فترة وأخرى. أنا موجود دائمًا، بينما وجودك عابر ومؤقت».

«اعتنِ بنفسك، ما زال لديك الكثير مما تفعله».

«قل لي، ما تفسير وجودك في حياتي؟».

كان يتكلم بحدة، والرجل يصغي إليه بانتباه، ويبدو أنه أثار شفقته:

«الأمر لا يخصك وحدك، بل يخصنا جميعًا، لنقل إنها مجموعة من القصص، يجب تصحيحها، لماذا؟ لأن هناك قصة كبرى تتحكم فيها، أنت لا تجهلها، إنها هذا النظام».

«ما الذي بوسعنا فعله؟».

«لن أجيبك عن سؤال أنت تعرف جوابه، بل عن السؤال الذي كان يجول في رأسك، حول رغبتك العارمة في فصم علاقتك بالحياة والضحايا، طالما لا حرية ولا عدالة. الجواب، لستَ على حق».

برهن ف.خ من جديد على أنه يعرف ما دار في ذهنه قبل قليل، ما شكك في وجوده، إنه في داخله. قال باستخفاف:

«هل تريد تصحيح هذه القصص؟ إنها بالملايين».

«سنحاول. بمقدورنا القيام بالكثير، وإن كان القليل لا يستهان به».

بدت الفكرة طموحة إلى حد البلاهة، ومستحيلة. فسايره مبتسمًا:

«يا إلهي! ما الذي يصلحها؟».

«هذا صحيح. من يستطيع تخفيف مآسي هذه الحرب؟ لو كان بيدنا، لأوقفناها».

للحظات، خامره الظن، أنه رجل حقيقي فعلًا، لم يرغب في إفلات هذا الخاطر، لا يمكن الفصل فيه إلا إذا اعترف بمصدر معلوماته، من أين له هذه المعرفة؟

«يبدو أن هناك جهات تزودك بالمعلومات».

«أعمل وحدي، وكثيرون غيري يعملون وحدهم، إنها الشبكة التي حدثتك عنها. هل نسيت؟ أنت واحد منهم».

«ألم يحن أوان تعرُّفي إليهم؟».

«الوقت قادم لتتعارفوا».

أدرك أنه لن يتوصل إلى جواب يفسر له هذه المعضلة، ما دام ف.خ يحاذر ألّا يجيب.

«إنها مخاطرة».

«دائمًا ما أجد أشخاصًا يساعدونني، ما يتيح لي مساعدة غيري».

«ألا تكلفك شيئًا؟».

«لا أكثر من عمل دؤوب يحتاج إلى تأمل وإمعان ودراية، ودافع قوي، وإعداد مخطط جيد، مع حبكة محكمة. أراعي أن يكون تدخلي مبررًا، من الضروري أن يبدو مقنعًا. إذا اعترضتني عقدة، لا أدعها،، أجهد بالعثور على حل».

فكر، تُرى علامَ يتكلم؟ بينما تابع ف.خ:

«قد أستعين بمصادفة ليست على البال. تعترضني بعض الصعوبات، وأحاول بحنكة إدارة الأحداث من خلال عدة خطوط. هل يبدو هذا مفهومًا لك؟».

ابتسم سامر غير مصدق، حتى إذا كان مفهومًا، لم يكن معقولًا، تبدو كأنها عدة صناعة الرواية. هتف ضاحكًا:

«كأنك بصدد رواية!».

« تشبيه موفق».

أحسّ بالضيق، الروايات محلها الكتب، لا الحياة.

«ألا ترغب في أن يكون حديثنا أكثر جدية؟».

استاء ف.خ، شروحه لم تلقَ تجاوبًا. فانفعل:

«إذا كنتُ قد وافقتُك على وصفك، فلأنك نجحت في التعبير عنه بفكرة أقرب ما تكون إلى الصواب».

«إن كان هذا مقاربًا لما وقع، فمساعدتي لم تكن عسيرة، أشبه بلعبة روائية من كلمات».

«لا تبالغ، إن كان صحيحًا ما تقوله، فنحن في سياق رواية معقدة».

إذا كان سيزجه في رواية، فسيقنعه بمخاطرة ما، ثم يرميه خلف ظهره، فيجد نفسه معتقلًا، بينما يظن أنه في رواية، في حين أنه في الواقع، ورأسه تائه في الخيال.

أخيرًا، تغافله الحقيقة بعد فوات الأوان؛ أمام المشنقة.

إلى أي كارثة يأخذني؟ ردد في سره.

استعجل شرب القهوة، لن يلحق به بعد اليوم، أو يسأله، أصلًا لم يعد لديه ما يرجوه من العالم. نهض، لا مزيد من الهراء:

«حسنًا، لقد انتهى ما بيننا....».

واندفع نحو الباب غاضبًا. بذلك، كان قد وضع نقطة النهاية، لا رواية بعد الآن، ولا خيال أو أوهام.

٢. موقف يزداد غموضًا

لم يتحرك أكثر من خطوات، عندما انفتح الباب ودخلت فتاة أقرب إلى الطول، شقراء الشعر، جميلة جدًا، ملامح في منتهى النعومة، عينان شهلاوان، وخدان ورديان. كانت تلهث، يبدو أنها صعدت الدرج وثبًا إلى المقهى.

تسمّر في مكانه، كانت كلما تقدمت خطوة، يتألق وجهها بصفاء عجيب، حتى إنّ فمها الصغير، بدا أشبه بزهرة ربيعية. هكذا ارتسم أمام عينيه.

سمع صوت ف.خ يطلب منه العودة، لم يكتف بمناداته، بل نهض وضغط على ساعده، وشدّه إلى الوراء، فوقف ولم يتابع نحو الباب، بينما الفتاة الجميلة تبحث بعينيها عن شخص يبدو أنه ينتظرها، سرعان ما تقدم ف.خ نحوها، ودعاها إلى الجلوس معهما. فاستجابت الفتاة له دونما كلمة اعتراض. أدرك أن ف.خ كان على موعد مع الفتاة الجميلة، ورغب في بقائه لإطلاعه على مشهد أراد ألّا يفوته.

تأملها، بدا جمالها مثيرًا إلى حد يبعث على الشعور بالخطر، كأنه قنبلة على وشك الانفجار بالفتنة. استغرب سيطرة ف.خ عليها كلية. بدت رغم ثقتها بنفسها، منصاعة له، وإن أدرك بجلاء أن معرفة ف.خ بها محدودة جدًا، حتى إنه سألها عن اسمها، وشكرها لأنها لم تتخلف عن الموعد الذي حدده لها.

كانت الفتاة على عجلة، تريد توضيح بعض الأمور، لكن ليس قبل التأكد أنه لا ضير في أن تتكلم بحرية. طمأنها ف.خ إلى أنّ بوسعها الكلام أمام سامر بلا محاذير. وإذا بدت متطيرة، فليس منهما، كانت تتلفت حولها متحفزة وأعصابها مشدودة، تتفحص وجوه الجالسين حولهم.

كان كل ما يحيط بهذا الموقف يزداد غموضًا؛ الحذر الذي اعتصمت به الفتاة، علاقة ف.خ الغريبة بها، توخيه عدم الانفراد بها، إصراره على تعريفه بها... ومخاوفها التي لم تخفها في ارتجاف شفتيها ورعشة يديها.

إذا كانت خائفة من ف.خ، فلا بد أنه ضبطها في وضع مشبوه، سقطة عاطفية، وربما خيانة زوجية، وهددها بالبوح بها. لم يملك سامر أعصابه، استحوذ عليه الغضب، إذا كان سيبتزها، فبقصد الاستمتاع بجمالها، لهذا احتاطت وجاءت إلى الموعد بلا ماكياج على وجهها، لئلا يظن أنها تريد إغراءه. بينما كان جمالها آخذًا بالتفاقم على نحو شاحب، ما منح ملامحها لمسة خاصة من الرقة والضعف معًا، فأشفق عليها، لو أمكنه احتضانها وحمايتها، لما تأخر، طبعًا من دون غرض.

عزم سامر في حال إفصاح ف.خ عن مأربه القذر، التصدي له بشراسة، وإعلان أنه ليس شريكه في هذه العملية الدنيئة، ولو استدعى التماسك بالأيدي. ولم يفته ملاحظة أن الفتاة شدت قبضتيها، كأنها تريد الدفاع عن نفسها.

لم ينجلِ الغموض، ويهدأ الموقف المتوتر، إلا عندما قال لها ف.خ إنه لا يقصد إيذاءها على الإطلاق، بل تقدير ما فعلته. كان عملًا رائعًا وبطوليًّا، وهو عاجز

عن شكرها؛ على كل حال، لقد فعلت ما فعلته بوحي من ضميرها.

ما كان خافيًا ظهر بالتدريج، وهو أن ف.خ ضبط الفتاة الجميلة في حادثة سرقة رهيبة، عقوبتها الإعدام بلا محاكمة. هذا ما فهمه سامر في معرض امتنان الفتاة لصمت ف.خ عن جريمتها، مع أن ف.خ رفض وصفها بالجريمة، بل بالعمل المشرّف والنبيل.

استغلق عليه، لقد تخفى ف.خ على جريمة، مهما كانت، فهي الشر بعينه، واستعاد ظنونه، لا ريب يريد استغلالها لأمر ما. وهكذا بعدما انكشف الغموض، تفاقم من جديد، والتبس بالشر.

تريث، ما زال الموقف بحاجة إلى تفسير، قبل أن تأخذه الظنون إلى أبعد. كان من الفطنة، عدم المغالاة والتروي، لكن على العكس، لم تتضاءل ظنونه، تبين مع المضي في الحديث، أن الفتاة ارتكبت أكثر من جريمة، وكل منها لا تقلّ عن الأخرى. مع هذا، كل هذه الجرائم لا تُعدّ جرائم، ولو كانت عقوبتها تزيد على الإعدام!!

لماذا؟ وكانت المفاجأة التي ذهبت بكل ما راوده من ظنون شريرة نحوها، أنّ ما ارتكبته ليس قابلًا للغفران فقط، بل وينعم بالاستحسان أيضًا: كانت الجرائم المرتكبة على علاقة بالمقدم المحتجز في الغرفة السوداء، لولاها لأصبح جثة هامدة.

عندئذ شنّف أذنيه وفتح عينيه على وسعهما.

يا للروعة! سيعرف عندما ستروي الفتاة القصة من جانبها، أن المقدم ما زال حيًّا، ما أعاد إلى ذاكرته الممرضة الحسناء التي حاولت إغواءه، الجمال الصارخ يجمعها مع الفتاة الماثلة أمامه. لم يكن عسيرًا الربط بينها وبين الفتاة التي أعلمت رفيف بوضع المقدم، وكانت مرساله إليها. لهذا، كانت رفيف على ثقة مما أبلغت به المفوض.

المقدم على قيد الحياة... ما الذى حصل؟

كل ما في الأمر، أن ف.خ الذي يظهر في المكان المناسب والزمان الملائم، ضبط الممرضة الحسناء وهي تسرق إبر الكالسيوم الثلاث، وكان شاهدًا على قيامها بإتلافها. كانت كل ما وجدته في مخزون صيدلية المستشفى، وعندما كاد ينكشف أمرها، تطوع ف.خ بإنقاذها، بالاشتراك مع الطبيب، وكان عضوًا في الشبكة إياها، وشهد بعدم توافر الإبر منذ أيام، وأصرّ قائلًا لضابط الأمن إنه سيتقيد بالتعليمات، لن يقتل المقدم بوسيلة أخرى، مع المحافظة على وضعه كحالة مستعجلة، حين تتوافر شروطها، وسيلبث المقدم في الغرفة المظلمة، ريثما تتوافر دفعة أخرى من إبر الكالسيوم. وهكذا أدرج المقدم

مؤقتًا في برنامج الحالات غير المستعجلة. أما الخطر الوارد، ربما لاقى حتفه خلال الفترة الفاصلة من منع الطعام والماء عنه.

كُلِّفت الممرضة مراقبته، لكنها بالاتفاق مع الطبيب، وقبل تعويض الحقن القاتلة، ستزود المقدم بما يبقيه على قيد الحياة، ريثما يُعمل على إنقاذه، وهي المهمة التي سيشارك بها ف.خ، فكان من الضروري طمأنة الممرضة الحسناء إلى أنه لا يهددها بشيء، بل يريد التعاون معها. إنّ تعبها لن يضيع هباءً، بعد يوم أو يومين، ستصدر تعليمات بإنهاء مراقبتها للمقدم، وتعود إلى عملها المعتاد. في اليوم التالي ستنقل جثة معتقل ميت على أنه المقدم إلى المستودع وتشحن مع غيرها إلى المقبرة الجماعية، بينما سينقل المقدم خفية من الغرفة المظلمة إلى خارج المستشفى، ويبدأ رحلة طويلة نحو الشمال. لن يطول الوقت عندما سيجتاز الحدود التركية، ومنه إلى أبعد بلد أجنبي، لا تطاوله أيدي المخابرات، وترافقه خطيبته رفيف.

بعدما انحسرت مخاوف الممرضة الحسناء، واطمئنانها إلى أن ف.خ لديه الوسائل لإنقاذ المقدم، لم تستغرب ظهوره في المستشفى، فهو لا يعدم المتعاونين معه. قال لها إنه لم يحدد لها هذا الموعد ليشكرها فقط، بل ليعلمها أيضًا بأنها أصبحت تعمل ضمن شبكة واسعة في إنقاذ الضحايا المدنيين والثوار الأبرياء، لئلا تظن نفسها أنها وحيدة. وليعرّفها إلى أحد هؤلاء الذين أصابهم الوهن ويعملون في المجال نفسه، ليشد عزمه من جديد.

وهنا أشار بيده إلى سامر، ليتعرف إلى فتاة تعمل على خطوط التماس، معرضة للمراقبة من فرط ما يسترعي جمالها الأنظار. مع هذا، مصممة على ما يفرضه عليها واجبها الطبي الإنساني تجاه شاب، امتنعت عن المشاركة في قتله، وإن لم يتجاوب معها عاطفيًّا. لقد أعطاها درسًا عظيمًا في الأخلاق؛ علّمها أنّ الإنسانية وازع لا يسمو على الحب، إنها الحب نفسه. وردّت عليه بدرس عظيم في الجرأة الأخلاقية.

أما الدرس المستفاد من الحادثة، فمعرفة كل منكما، أنه ليس وحيدًا، لئلا يتخاذل. هناك الكثيرين مثله. وقد يتاح له مصادفة أو عن عمد، فعل شيء رائع، قد يكون إنقاذ حياة إنسان.

كان سرور سامر عظيماً، المقدم لم يُقتل، سيغادر المستشفى حيًّا، ويلجأ إلى بلد أجنبي بعيد، حيث سيتزوج حبيبته، كل هذا بواسطة عملية معقدة، في منتهى السرية يشرف عليها، ويقود خيوطها ف.خ شخصيًّا. العملية تبدو خيالية بالكامل، لكنها حقيقية، ولا سيما أنّ الفتاة التي شاركت في إنقاذ المقدم واقفة أمامه، لا تبعد عنه سوى خطوات.

مضت الأمور بيسر، حتى إن الفتاة وسامر تبادلا العناوين، كتبه كل منهما على ورقة، واتفقا على حفظه غيبًا خلال دقائق، ثم تمزيقه. ربما احتاجا إلى القيام بعملية مشتركة.

ونظرت إليه بإعجاب، وقالت: لن أنساك.

لم يقل شيئًا، كان متأكدًا من أنه يستحيل أن ينساها.

أمر ف.خ الممرضة بالانصراف بسرعة، حتى إنه لم يضيّفها بفنجان قهوة. فغادرت المقهى مشيّعة بآيات الإعجاب بجمالها وجرأتها وإخلاصها. كادت الأمور أن تتابع مجراها بيسر، لولا أن الممرضة، قالت لـ ف.خ قبل أن تخرج، وهي تصافحه مودعة:

«صديقي ف.ح، أنا عاجزة عن شكرك».

فتعجب سامر. لماذا لم يصحح لها اسمه، فقد أخطأت بنصفه، قالت ح بدلًا من خ. ما أثار فضوله. ربما هو الذي أخطأ، تذكر أنه عندما سمع اسمه أول مرة، كان ف.ح، وصححه إلى ف.خ، معتقدًا أنه اختصار لفاعل الخير، ماذا لو كان الحرفان لا يحيلان على فعل الخير.

استأثر به حدس غير واضح؛ فالحرفان إذا كانا ف.ح فعلًا، فقد أخطأ، والأصح أنهما يشيران إلى أمر آخر، يجهله، وإن بدا لوهلة عابرة أنه يعرفه، لكن ما هو؟! حاليًّا، غائب عن ذهنه، إن لم يأته تلقائيًّا، يتعسر العثور عليه. فسأله ليتأكد:

«ما اسمك؟!».

«ألم تسمعه؟».

«اعذرني، ألست ف.خ؟».

«ولماذا ف.خ؟!».

«إنه اختصار لفاعل خير».

«بل ف.ح، اختصار لاسمي».

انقدح في ذهنه التساؤل الذي لم يفلته؛ ف.ح حرفان يعنيان أمرًا، يبدو كأنه ماركة مسجلة لشيء ما، يحيل على رجل، ربما سمع به، لكن متى؟ وأين؟ بلحظة خاطفة انبعثت شرارة أضاءتهما، فهتف دون أن يملك نفسه:

«هل أنت...؟».

تردد ولم يكمل.

٣. هل ف.ح هو....؟

ثم بعد تردد أطول، قالها:

«هل أنت فواز حداد؟».

التفت ف.ح مدهوشًا، وقال بخفة:

«ما الذي خطر لك؟».

«إنهما الحرفان الأولان من اسمه».

عقّب ف.ح بصوت ممطوط:

«ذكاؤك من النوع المثير».

فامتعض سامر من تعليقه الساخر، ما جعله يدلي ببرهانه الثاني:

«إنه روائي على علاقة بتلك الأفكار عن الحدث والخطوط والحبكة والشخصيات والدافع».

«هل أنت متأكد؟».

«بصراحة، أنا غير متأكد، لهذا أسألك».

«دعنا نزيح الأسماء جانبًا. إذا تخفيت على اسمي، فبداعي الحرص على حياتي فلا تسعى لمعرفة من أكون».

«يهمني معرفة من أنت، لِأكونَ على بيّنة، إذا كان ما يجري لا يزيد على رواية، فقد تصبح بديلًا من الواقع».

«نحن في الواقع، إياك وأن تنفيه بدعوى الرواية، وإلا جرى بمعزل عنك».

«أخشى ألّا معنى لما يدور بيننا سوى ما تجود به رواية أنت تختلقها، وتحشرني فيها. لا أودّ أن أكون مادة لها، مجرد التفكير في أي قالب سأوضع فيه، مأساويًّا أو كوميديًّا أو ميلودراميًّا، سيحيل حياتي إلى فجيعة أو مهزلة، ما يجعلني أحسّ بمدى الجَور الذي أُقحمت فيه. ليس ثمة ما يعادل حقيقتي، لا أريد لفواز حداد ولا غيره مصادرة حياتي لحساب ما يكتبه».

لم يستطع ف.ح إخفاء حنقه، بعدما استفزه الاسم بشدة، وما تلاه من تفسير.

«اسمع، لا أحد يرسم مصير أحد. وسواء كنتُه أو لم أكنه. يستحسن ألا نتطرق إليه».

استغرب سامر انزعاجه الشديد، وكأن في الصلة بالروائي ما يسيء إليه، ويشكك بمصداقيته. لم يشعر بالارتياح. قال يحثّه على تفهم مخاوفه:

«لا أريد أن تكون علاقتي بك فصلًا في رواية».

كان في استعماله روائيًّا، إعدام لشخصياته، فالرقيب والمحقق الذي كانهما، تلتحق بهما طفولته وشبابه وعلاقته مع حنان، ولو كانت تعيسة، مهددة كلها بالزوال، حياة بكاملها تتحول إلى هباء.

والأسوأ، ربما كان فعلًا في الرواية، وهو في هذه اللحظة بالذات، لا يتخيل هذا الموقف الشاذ، بل عالق فيه، وكي يستقيم إلى مشهد حقيقي، فعلى أحدهما أن يختفي. لقد حافظ على وجوده، لكن وجود ف.ح مدعاة للشك، مجرد أنه يتشاطر عليه، ليؤكد أنه مثله، ماذا لو كانا كلاهما من افتراض فواز حداد الغائب عن المكان، وهو الحاضر الوحيد؟

أحس ف.ح بما راوده من فرضيات، فابتسم:

«إذا كان هناك من شبه بيننا، وأنت تعرف مَن أقصد، فربما كنتُ الوجه الآخر له، فهو يكتب رواياته على الورق، بينما أنا لا أكتبها، بل أشارك في صنعها، كما ترى، أنا أخوض في الحقائق المرعبة، وهو يخوض في الخيال، أنا في الداخل، وهو في الخارج، ينعم بالأمان».

غاظه، رغم كل شيء، أنّ فواز حداد، حتى لو كان في الخارج، لا يمنعه من إخفاء ريبته من ف.ح الذي بدأ صوته يرقّ وينخفض، حتى اضطر إلى الاقتراب منه ليسمعه بوضوح، ويرى ملامحه من قرب، كانت قد لانت واستكانت. بدا لطيفًا ودمثًا، بعدما هدأت أعصابه.

لم يأخذ بكلامه، لأنه لم ينفِ صفة الروائي عن نفسه، لكن سواء كان هو، أو لم يكن، فلم يعد مهمًّا. كان إحساسه بالقلق قويًّا، واستطاع بكثير من الروية ضبط أعصابه، لا أفكاره. كانت خشيته أنّ هذا اللف والدوران لإقناعه بشيء ما، يدرجه فيه وينسحب. أراد مواجهته بشكوكه، لا إخفاءَها، ولو كان أحدهما مهددًا بالتلاشي، حتى لو كان هو، لقد فقد عمله وحبيبته الخائنة، وهذه الحرب قد تقضي عليه، بينما المستقبل، لا مستقبل، إذاً، لن يخسر شيئًا.

«لا يهمني اختفائي بمجرد ما تنتهي الرواية».

«هذا ظلم بالغ لك. احترس من أفكارك، لئلا تضللك، لا تنكر حياتك، وتظن أن هذا الواقع المصنوع من القمع والعذاب والنهب والقهر والقتل والبؤس والجنون، مجرد رواية، تُقرأ أو لا تقرأ، أمعن في التفكير، إنّ أحداثها تجري أمامنا، ولا ينبغي التخلف عنها».

«لكنها رواية».

«هل تظن أنّ الروايات على تضاد مع الواقع؟ لو كانت هكذا، لما كانت الحياة».

لم تُخفَ عليه محاولة ف.ح بثّ الأمل في ظلام دامس، وهو يقول:

«يجب أن تسأل نفسك: هل أنت لاشيء؟ أقول لك: لو أردت، بوسعك أن تكون كل شيء».

«لكنك لم تجبني عن سؤالي».

«إذا كان بخصوص الرواية، فلا تسألني، أنا مثلك».

نهض ف.ح وتقدم بقامة منتصبة من الباب، ونزل الدرج بخطوات رشيقة. أسفل البناء مدّ يده وصافحه، شدّ على يده حتى أحسّ سامر بالألم الشديد يعتصره، ويكاد يزهق روحه، وهو يسمع صوت ف.ح يقول له:

«إن ظننت ما يجرى يمتّ إلى الخيال، فماذا عن الحرب، والرئاسة والإدارة، ولا تنسَ الفرع ٦٥٠، وصاحبك المقدم، والمخابرات والمخبرون ومستشفيات الانتقام وزبانية التعذيب والإعدامات وقطع الرؤوس وملايين الضحايا والشهداء والنازحين والمُهجرين وآلاف المعتقلين والمفقودين؟

إذا اعتقدت أنك تتوهمها، فهل كان كل هذا الموت والدمار متخيَّلًا؟».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تمت بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

الفهرس..

عن الرواية..
الفصل الأول الفرع ٣٣٣
الفصل الثاني شجارات في المقهى ومناظرة في الفرع
الفصل الثالث القصر الجمهوري
الفصل الرابع أزمة رئاسية
الفصل الخامس جدل حول المفاهيم
الفصل السادس اللواء والرقيب
الفصل السابع الفرع ٦٥٠
الفصل الثامن المفوض
الفصل التاسع الثورة
الفصل العاشر زيارة إلى الفرع ٦٥٠
الفصل الحادي عشر الثقافة، الأخلاق... وأمور أخرى
الفصل الثاني عشر اللواء الحزين
الفصل الثالث عشر لقاء مع فاعل الخير
الفصل الرابع عشر النهاية الغامضة
الفصل الخامس عشر الحب والقتل
الفصل السادس عشر مأثرة حنان
الفصل السابع عشر تحولات قضية التشبيح الأنثوي
الفصل الثامن عشر في عرين الإدارة
الفصل التاسع عشر القدر
الفصل العشرون عالم الثقافة والسياسة
الفصل الواحد والعشرون مايا والتاريخ
الفصل الثاني والعشرون تطورات في الفرع ٦٥٠
الفصل الثالث والعشرون الجحيم الأرضي
الفصل الرابع والعشرون تداعيات عالمية ومحلية

الفصل الخامس والعشرون الظلام
الفصل السادس والعشرون النظام
الفصل السابع والعشرون الوقائع الملهمة
الفصل الثامن والعشرون الحقيقة
الفهرس..